الإرشاد إلى أسباب النجاة

والوسائل الناجعة لحياة طيبة نافعة

الجزء الأول

الدكتور
عَبْد القَادِر مُحَمَّد المُعْتَصِم دَهْمَان

دار اللؤلؤة
للنشر والتوزيع
المنصورة - مصر

الإرشاد إلى أسباب النجاة

والوسائل الناجعة لحياة طيبة نافعة

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء كانت إليكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك النسخ أو التصوير وغير ذلك دون حصول علي إذن خطي من المؤلف والناشر .

الطبعة الأولى : ١٤٤٥ هـ، ٢٠٢٣م

رقم الإيداع : ٢٣١٦٦٦١

الرقم الدولي : ٥ - ٦٥٢ - ٩٩٧ - ٩٧٧ - ٩٧٨

دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع

@DarElollaa
Dar_Elollaa@hotmail.com
الأزهر : شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر .
01050144505 - 0225117747
المنصورة : عزبة عقل - بجوار جامعة الأزهر .
01007868983 -0502357979

الإرشاد إلى أسباب النجاة

والوسائل الناجعة لحياة طيبة نافعة

الجزء الأول

الدكتور

عبد القادر محمد المعتصم دهمان

دار اللؤلؤة

للنشر والتوزيع

المنصورة - مصر

۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ

الإرشاد إلى أسباب النجاة

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة:

الحمدُ لله مُسْبغ العطايا والنِّعم، وصاحب الفضل والمنن، ومُسْدل الستر على العصاة المنيبين، وموفِّق الأبرار من عباده المهتدين، وواهب ما لا يحصى من الخير العميم، وكاشف الغمّ، وفارج الهمّ عن عباده الصَّالحين، وهو العليم الفتاح، وفالق الحَبِّ والإصباح، ومُجْرِي الفُلْك بأمره، ومبدع الكون بقدرته وإرادته، ومقدِّر الأقدار، ومصرِّف الرِّياح، وهادي العباد إلى سبل السَّعادة والفلاح، وفاطر السماوات والأرض، وخالق الأجساد والأرواح، ومخرج الحيَّ من الْمَيِّتِ، ومُخْرِجُ الْمَيِّتِ من الْحَي، ومحيي الأرض بعد موتها، وإليه يرجع الأمر كله، وهو العالم بما هو كائن، وبما مضى وراح، قد أحاط بكل شيء علمًا، وأرشد العباد إلى سبل الفلاح، فشرع لهم ما فيه الخير والصَّلاح، وهو الرَّحيم بعباده، وذو العفو والصَّفح والسَّماح، بَصَّرَ عبادَه الأبرار، بحقيقة هذه الدار، وبأنها صائرة إلى بوار، وبأن الآخرة هي دار القرار، وبأنها خيرٌ وأبقى، لمن عمل صالحًا، وسلك نهج الأبرار، فأعرض عن الدَّنايا والأقذار، واقتفى هدي سيِّد الأبرار، وأئمةٍ في الزِّهد كبار، واجتهد في طاعة القهار، مجتنبًا أعمال أهل النار، وشاكرًا لواهب

غفار، ومسبِّحًا بالعشيِّ والإبكار، ومغتنمًا لحظات يتسارع انقضائها، مؤذنة بقرب الرَّحيل عن هذه الدَّار.

وقد خلق الله عَزَّوَجَلَّ العباد ضعفاء، وكتب عليهم الموت والفناء، فمنهم من اهتدى إلى الحق قبل الفوت، فاغتنم المهلة قبل الرَّحيل والموت، فكان في أخراه من السُّعداء، ومنهم من سَلَك طريق الغواية، فسقط في أودية الضَّلال، وتشعُّبَات الظُّنون والأوهام، وغفل عن حقيقة ضعفه وحاجته، وعن عاقبته ومآله، فانحرف عن الصراط، فكان من أهل الشقاء.

والله عَزَّوَجَلَّ هو الموفِّق والهادي إلى دار السَّلام، وذو الفضل والإحسان والإنعام، أحمده حمد الشاكرين، على كل حال، وفي كلِّ وقت وحين، وأصلِّي وأسلِّم على رسوله الأمين، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهديه، واستن بسنته، إلى يوم الدين.

أما بعد:

فلا بدَّ لطالب النَّجاة والسَّعادة من سلوكِ سبيلِ الأبرار، من الصَّالحين الأطهار، في اجتنابِ أعمال أهل النَّار، والاحترازِ عن نهج المفسدين الفجار، واتخاذِ أسباب الوقاية من المزالق والمضلَّات، ومن الخوض في فتنٍ عاتيات.

ولزوم نهج المصلحين من أرباب البصائر والصلاح، في الاستقامة والثبات على صراط الله عَزَّوَجَلَّ المستقيم، وشرعه الحكيم، من الفعل والتَّرك، والتحلي والتخلي، والفقه

والعمل، حتى يحيا في الدُّنيا حياةً طيبةً نافعة، ويجازى في الآخرة بأحسن ما كان يعمل، فيكون من الفائزين بخيري الدنيا والآخرة.

وقد حذَّرنا الشَّارع من أعمال أهل النَّار، وأرشد العباد إلى أعمال تصلح أحوالهم، وتنجيهم من الأهوال والآفات، وسوء العاقبة، وتقيهم في الآخرة من عذاب النار.

فينبغي على كل مكلَّف عاقل يطلبُ الهدايةَ والنَّجاةَ والتوفيق أن يفقهَ ما قد يكون سببًا لشقائه فيتجنبه، وما يكون طريقًا لسعادته فيسلكه، وأن يتخذَ من الأسباب ما ينجيه من النَّار في الآخرة، ويبعده عنها، فمن أراد الله عَزَّوَجَلَّ به خيرًا وفقه لذلك، فرزقَهُ بصيرةً وفرقانًا، فأبصرَ الحقَّ، وأنصفَ الخلق، وتجاوزَ العقباتِ التي تحولُ دونَ الهداية؛ للارتقاءِ إلى يفاعِ الاستبصار، ولاستنقاذِ النَّفسِ من دَرَكَاتِ النَّار.

وقد كنت قد أفردت بالبحث: ما تُوعد عليه بالنار، مع بيان أسباب الوقاية والنجاة، كما أفردت ذكر العقبات التي تَصُدُّ عن الهداية، مع بيان سبل الوقاية والعلاج منها، وجاء هذا الكتاب متمِّمًا لأسباب النجاة العامة، ومذكِّرًا بالأعمال الجليلة التي خصت بمزيد من الفضل، والتي هي من أسباب النجاة، وحسن العاقبة، ورفعة الدرجات في الآخرة.

وقد كنتُ قد كتبتُ شيئًا من بعض موضوعاته قديمًا، فرأيت أن أتمه؛ لما رأيت من كونه مكملًا لتلك الأعمال السابقة، والله عَزَّوَجَلَّ أسأل أن يكون نافعًا، ومثمرًا، وأن يكون أثرًا باقيًا.

وبناء على ما ذكرت فإن هذا المصنف يكون متقدِّمًا ومتأخِّرًا على اعتبار اللاحق مما أضيف، والسابق مما تقدم.

وقد شرعت في إتمامه والعوائق كثيرة، راجيًا من الله عَزَّوَجَلَّ إتمامه في مدة يسيرة.

والإنسان منقلب في حياته من قوة إلى ضعف، ومنتقل لا محالة من الحياة الدنيا الفانية، إلى الدار الآخرة الباقية.

وعسى أن يكون المنقلب بعد انقباض فسحة الأمل، وظهور الفساد في البر والبحر إلى انفراج وسعة، وفرج ونصر قريب.

وهذا زمان الصَّبر، والنفس في وَجَلٍ، من مكرٍ وإيذاء وطغيان، وحرب من سلاحٍ وإعلام، وشكٍّ من مضلٍّ وحيران، وغربة عن أهلٍ وأوطان، وفي غمرة إفساد وطغيان، وجهل وتشويش وادِّهان، وصولجان ظالم فتان، يميد الحق في جوقة الظلام، فيعتلي منبر الضَّلال، كلُّ أفاك جبان، وقد تلاطمت فتن، وترحَّلت آمال، وفشا فقر وحرمان، فلا يطلب الحق في هذا الزمان، ويبصره من غير شائبة إلا موفَّق من الرحمن، على علم وبصيرة واتباع، لما أنزل من هديٍ وفرقان، واجتناب لمسالك كلِّ شيطان، من إنسٍ وجانٍّ.

وفي تزاحم المشاغل والشواغل تعِنُّ لطالب الهداية خلسات من أظلاع نور الحق، كأنها بروق، تنير ظلمة الزمان، وتبعث في النفس آمالًا، من سكون نفس، ونور بصيرة، وزيادة اطمئنان، في خضم غربة، وفي وسط الزحام.

والمؤمن في حياته -على قصرها، وسرعة انقضائها- متقلب ما بين سرورٍ وهمٍّ وأحزان، وسعة وفقر وحرمان، وخيانة من قريب وخذلان، ووصل وصَدٍّ ونكران،

وجحود وإيذاء وهِجْرَان، ولكنه يركن في كلِّ ما يعتريه من النوازل إلى ركن ركين، فيجد السكينة والأمان، ولا يخذل على مرِّ الزَّمان، فهو في تقلب أحواله مطمئن بذكر ربه عَزَّوَجَلَّ، واثق بوعده، من فرج ونصر وإكرام.

وإذا ما حان الأجل، وأزف الرَّحيل عن دنيا المظالم والأحزان، استبشر بلقاء ربه وعدله، ورحمته وفضله، فاليوم عنده هو يوم الانعتاق وإطلاق السراح، وطي ما مضى وراح، والتحرر من قفص الحياة، إلى فضاء رحب، لا يبقى فيه أسير الجسد، حيث ينقلب إلى خير جوار، وإلى ساحة عدل إحسان، حيث لا ظلم، ولا بغي، ولا طغيان.

أسأل الله جلَّ في علاه حسن الخاتمة، وأن يكرمني ومن انتفع بهذا المصنف بأعالي الجنان.

ولا أُبَرِّىءُ نفسي من التَّقصير والخطأ والنقص في كلِّ ما طغى به القلم، مما زلَّت فيه القَدَم، معتذرًا بنحو ما قال الإمام الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وظُنَّ به خيرًا وسامح نسيجه ... بالاغضاء والحسنى وإن كان هلهلا
وسَلِّمْ لإحدى الحسنيين إصابة ... والأُخرى اجتهاد رام صوبًا فأمحلا
وإن كان خرق فادركه بفضلة ... من الحلم وليصلحه من جاد مقولا [١]

وبما قال آخر: "والمأمول من الأحباء المتحلين بحلي الإنصاف، المتخلين عن رذيلتي: البغي والاعتساف، إذا عثروا على شيء فيه زلت القدم، أو طغى به القلم،

(١) متن الشاطبية (ص:٧).

أن يصلحوه بما يقتضيه المحل؛ فإن الإنسان منشأ النسيان والزلل، متمنيًا من الناظرين أن ينظروا بعين الإنصاف؛ فإن الإنصاف خير الأوصاف"(١).

وقد أوليت عناية لما ورد من أحاديث وأقوال من حيث التخريج، والتوثيق، والتحرير.

أما تخريج الأحاديث فيأتي على النَّحو التَّالي: إذا كان الحديث في الصَّحيحين، فإني أقتصر عليهما في التَّخريج، وإن كان في أحدهما دون الآخر، فإني أخرجه منه وأكتفي. وأمَّا إذا لم يكن الحديث موجودًا في الصَّحيحين أو أحدهما فإنِّي أسعى جاهدًا إلى تخريجه من المسانيد والسنن، وقد اعتمدت الترتيب على حسب تاريخ الوفاة، وذكر رقم الحديث فقط بالنسبة لكتب الحديث المرقمة بين مقفيين [**]، وذكر الجزء والصفحة بالنسبة للأحاديث غير المرقمة بين قوسين (**)، وإذا كثرت الطرق أكتفي بذكر أصحها.

وإذا ذكر في غير موضع فإني أكتفي بالتوثيق باعتبار أول ورود له فيما عدا الصحيحين.

وفي حالة الزيادة على أول ورود فلنكتة لا تخفى على أولي البصائر.

أمَّا الحكم على الحديث فإنني أذكرُ درجةَ الحديث إن لم يكن في الصَّحيحين.

وإذا تكرَّر ذكر الحديث الشَّريف في مواطنَ لاحقة، فإنَّني أكتفي بالإشارة لتقدُّمه، وكذلك إذا تكرَّر ذكرُ الأثر أو القول فإنَّني أكتفي بالإشارة إلى تقدُّمه.

(١) مغني الطلاب، لمحمود حسن المغنيسي شرح متن إيساغوجي، لأثير الدين الأبهري (ص:٤٨-٤٩).

وقد التزمت توثيقَ الأشعار، والأمثال، والأقوال من مصادرها الأصلية، مع تحرير نسبة القول إلى صاحبه، وأن يختم الاقتباس بذكر المرجع الَّذي قد اقتبس منه في الحاشية. وذكر مادة كل لفظ عند الرجوع إلى المعاجم مع ذكر الجزء ورقم الصفحة.

والقوسان المقفيان [**] للإدراج والأرقام.

والقوسان الهلاليان (***) للجزء والصفحة، وللكلمات التي قد تحتاج إلى بيان.

الإرشاد إلى أسباب النجاة

الدكتور

عبد القادر محمد المعتصم دهمان

الإرشاد إلى أسباب النجاة

المبحث الأول:

الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ

الإرشاد إلى أسباب النجاة

أولًا: الإيمان ينيرُ بصيرةَ المؤمن، ويحقق الطمأنينة:

إنَّ الإيمانَ بالله عَزَّوَجَلَّ، والتمسكَ بالعقيدة، والتفقه في الدين ينيرُ بصيرة المؤمن، ويقطع الشكوك التي تشتت فكره، ويفتح أمامه أبواب الأمل المتجدِّد، ويحقِّقُ الطمأنينة، والرَّاحة النفسية، ويباعد بينه وبين القلق والحيرة، والهم والحزن، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد:٢٨]، فالمشرك تتخطفه الشياطين والأهواء، ويهوي في مزالق الضلال، كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج:٣١].

والمشرك شرُّ الخلق عند الله جَلَّوَعَلَا، وأسوأ الخلق حالًا؛ لأنَّه منكر للحق بعد معرفته وقيام الدليل عليه، فهو مهلك لنفسه، وجالب الهلاك والشرور إلى غيره، وقد توعده الله عَزَّوَجَلَّ بالخلود في نار جهنم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [البينة: ٦].

فمن أشركَ بالله عَزَّوَجَلَّ فقد ضلَّ عن الحق والهداية، وبعد عن سبيل الرشاد؛ لانغماسه في الضلال الذي أعمى بصيرته، وسلوكه سبيل الغواية، وهو ضلال بعيد، يفسد العقل، ويكدِّر صفاء الروح، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء:١١٦].

والشرك محبط للعمل، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام:٨٨]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ

إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ [الزمر: ٦٥].

وفي الحديث: «**كل ذنب عسى الله أن يغفره إلَّا من مات مشركًا، أو مؤمنًا قتل مؤمنًا متعمدًا**»(١).

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: ٥٣]، أي: يسترها بعفوه -ولو بلا توبة إذا شاء- إلا الشرك"(٢).

والشرك أكبر الكبائر، كما جاء في الحديث: عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه قال: قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**» ثلاثًا، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين** -وجلس وكان متكئًا فقال- **ألا وقول الزور**»، قال: فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت(٣).

---

(١) الحديث مروي عن معاوية، وعن أبي الدرداء، وعن عبادة بن الصامت. حديث معاوية: أخرجه أحمد [١٦٩٠٧]، والنسائي [٤٢٧٠]، والطبراني [٨٥٨]، والحاكم [٨٠٣١]، وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي، كما أخرجه الديلمي [٤٧٦٠]. حديث أبي الدرداء: أخرجه أبو داود [٤٢٧٠]، والبيهقي [١٥٦٣٩]. حديث عبادة بن الصامت: أخرجه البزار [٢٧٣٠]، قال الهيثمي: "رواه البزار، ورجاله ثقات".

(٢) فيض القدير (٦/٢).

(٣) صحيح البخاري [٢٦٥٤، ٥٩٧٦، ٦٢٧٣]، مسلم [٨٧].

ثانيًا: تعريف الإيمان وبيان أركانه وشعبه:

والإيمان هو في اللغة: التصديق والاطمئنان.

وفي الاصطلاح هو (**الإيمان بالله** عَزَّوَجَلَّ، **وملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر كله، واليوم الآخر**)، أي: القيامة؛ لأنه آخر الأيام، ويشمل: البعث، والحساب، والجنة والنار، والحوض، والصراط، والميزان.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة:٢٨٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾ [النساء:١٣٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٥٢﴾ [النساء:١٥٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ [البقرة:١٧٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات:١٥].

وفي الحديث: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره**» رواه الشيخان.

وفي لفظ عندهما: «**الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ولقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث الآخر**».

وروى الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره حديث: «**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه**»(١).

وعن رِبْعِيّ بن حِرَاشٍ عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، وبالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر**»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي عن جابر [٢١٤٤]، وقال: "هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث: عبد الله بن ميمون، وعبد الله بن ميمون منكر الحديث. كما أخرجه ابن جرير: عن جابر". ولكن الحديث قد ورد مفرقًا في أحاديث.

(٢) أخرجه الطيالسي [١٠٨]، وأحمد [٧٥٨]، وعبد بن حميد [٧٥]، وابن ماجه [٨١]، والترمذي [٢١٤٥]، وقال: "حدثنا محمود بن غيلان قال: حدثنا النضر بن شميل، عن شعبة، نحوه، إلا أنه قال: ربعي، عن رجل، عن علي. حديث أبي داود، عن شعبة عندي أصح من حديث النضر، وهكذا روى غير واحد، عن منصور، عن ربعي، عن علي، حدثنا الجارود، قال: سمعت وكيعا، يقول: بلغنا أن ربعيا لم يكذب في الإسلام كذبة" اهـ. وأخرجه أيضًا: ابن أبي عاصم في (السنة) [١٣٠]، والبزار=

قال الإمام جلال الدين السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمؤمن حقًّا من كملت فيه شعب الإيمان، وهي بضع وستون أو وسبعون:

الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ وصفاته، وحدوث ما دونه، والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، والقدر، والإيمان باليوم الآخر، ومحبة الله عَزَّوَجَلَّ، والحب في الله عَزَّوَجَلَّ، والبغض فيه، ومحبة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واعتقاد تعظيمه، وفيه: الصلاة عليه، واتباع سنته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والإخلاص، وفيه: ترك الرياء والنفاق، والتوبة، والخوف والرجاء، والشكر، والوفاء، والصبر، والرضا بالقضاء، والحياء، والتوكل، والرحمة، والتواضع، وفيه: توقير الكبير، ورحمة الصغير، وترك الكبر والعجب، وترك الحسد، وترك الحقد والغضب.

والنطق بالتوحيد، وتلاوة القرآن، وتعلم العلم وتعليمه، والدعاء والذكر، وفيه: الاستغفار، واجتناب اللغو، والتطهر حسًّا وحكمًا، وفيه: اجتناب النجاسات، وستر العورة، والصلاة فرضًا ونفلًا، والزكاة كذلك، وفك الرقاب، والجود، وفيه: الإطعام والضيافة، والصيام فرضًا ونفلًا، والاعتكاف، والتماس ليلة القدر، والحج والعمرة، والطواف، والفرار بالدين، وفيه: الهجرة، والوفاء بالنذر، والتحري في الأيمان، وأداء الكفارات، والتعفف بالنكاح، والقيام بحقوق العيال، وبر الوالدين، وتربية الأولاد، وصلة الرحم، وطاعة السادة، والرفق بالعبيد، والقيام بالإمرة مع العدل، ومتابعة الجماعة، وطاعة أولي الأمر، والإصلاح بين الناس، وفيه: قتال الخوارج، والبغاة،

=[٩٠٤]، وأبو يعلى [٥٨٣]، وابن حبان [١٧٨]، والحاكم [٩٠] وصححه، ووافقه الذهبي. كما أخرجه: تمام [١٤٤٢]، والبيهقي في (القضاء والقدر) [١٨٩]، والضياء [٤٤٠].

والمعاونة على البرِّ، وفيه: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود، والجهاد، وفيه: المرابطة، وأداء الأمانة، ومنها: الخمس، والقرض مع وفائه، وإكرام الجار، وحسن المعاملة، وفيه: جمع المال من حله، وإنفاق المال في حقِّه، وفيه: ترك التبذير والسرف، ورد السلام، وتشميت العاطس، وكف الضرر عن الناس، واجتناب اللهو، وإماطة الأذى عن الطريق"(١).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تكلف جماعة حصر هذه الشعب بطريق الاجتهاد، وفي الحكم بكون ذلك هو المراد صعوبة، ولا يقدح عدم معرفة حصر ذلك على التفصيل في الإيمان"(٢).

وقد أجاد الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تلخيص ما أوردوه من ذكر (شعب الإيمان)، وما تتفرع عنه، حيث قال: "ولم يتفق من عد الشعب على نمط واحد، وأقربها إلى الصواب: طريقة ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكن لم نقف على بيانها من كلامه، وقد لخصت مما أوردوه ما أذكره، وهو أن هذه الشعب تتفرع عن أعمال القلب وأعمال اللسان، وأعمال البدن:

فـ: **(أعمال القلب)** فيه المعتقدات والنيات، وتشتمل على أربع وعشرين خصلة: الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، ويدخل فيه: الإيمان بذاته، وصفاته، وتوحيده بأنه ليس كمثله شيء، واعتقاد حدوث ما دونه، والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره وشره،

---

(١) من تحقيقنا لمتن (نُقاية العلوم)، للإمام السيوطي (٩٤/١-٩٥)، وتفصيل ذلك في شرحه: (إتمام الدراية شرح نُقاية العلوم) (٤١٨/٢)، ط: دار الضياء، الكويت.

(٢) فتح الباري (٥٢/١)، انظر: إكمال المعْلم بفوائد مسلم (٢٧١/١-٢٧٣).

والإيمان باليوم الآخر، ويدخل فيه: المسألة في القبر، والبعث، والنشور، والحساب، والميزان، والصراط، والجنة والنار، ومحبة الله عَزَّوَجَلَّ، والحب والبغض فيه، ومحبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واعتقاد تعظيمه، ويدخل فيه: الصلاة عليه، واتباع سنته، والإخلاص، ويدخل فيه: ترك الرياء، والنفاق، والتوبة، والخوف والرجاء، والشكر، والوفاء، والصبر، والرضا بالقضاء، والتوكل، والرحمة، والتواضع، ويدخل فيه: توقير الكبير، ورحمة الصغير، وترك الكبر والعجب، وترك الحسد، وترك الحقد، وترك الغضب.

و(**أعمال اللسان**) وتشتمل على سبع خصال: التلفظ بالتوحيد، وتلاوة القرآن، وتعلم العلم، وتعليمه، والدعاء، والذكر، ويدخل فيه: الاستغفار، واجتناب اللغو.

و(**أعمال البدن**) وتشتمل على ثمان وثلاثين خصلة، منها:

*__ما يختص بالأعيان__: وهي خمس عشرة خصلة: التطهير حسًّا وحكمًا، ويدخل فيه: اجتناب النجاسات، وستر العورة، والصلاة فرضًا ونفلًا، والزكاة كذلك، وفك الرقاب، والجود، ويدخل فيه: إطعام الطعام، وإكرام الضيف، والصيام فرضًا ونفلًا، والحج والعمرة كذلك، والطواف، والاعتكاف، والتماس ليلة القدر، والفرار بالدين، ويدخل فيه: الهجرة من دار الشرك، والوفاء بالنذر، والتحري في الأيمان، وأداء الكفارات.

*ومنها: **ما يتعلق بالاتباع**: وهي ست خصال: التعفف بالنكاح، والقيام بحقوق العيال، وبر الوالدين، وفيه: اجتناب العقوق، وتربية الأولاد، وصلة الرحم، وطاعة السادة، أو الرفق بالعبيد.

ومنها: **ما يتعلق بالعامة**: وهي سبع عشرة خصلة: القيام بالإمرة مع العدل، ومتابعة الجماعة، وطاعة أولي الأمر، والإصلاح بين الناس، ويدخل فيه: قتال الخوارج والبغاة، والمعاونة على البر، ويدخل فيه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود، والجهاد، ومنه: المرابطة، وأداء الأمانة، ومنه: أداء الخمس، والقرض مع وفائه، وإكرام الجار، وحسن المعاملة، وفيه: جمع المال من حله، وإنفاق المال في حقه، ومنه: ترك التبذير والإسراف، ورد السلام، وتشميت العاطس، وكف الأذى عن الناس، واجتناب اللهو، وإماطة الأذى عن الطريق، فهذه تسع وستون خصلة، ويمكن عدها تسعًا وسبعين خصلة باعتبار إفراد ما ضم بعضه إلى بعض مما ذكر -والله أعلم-"(١).

فهذا الأمور المذكورة التي أمر بها الشرع لا صلاح للنفس، ولا حياة لها إلا بها، وعليها مدار صلاح الأسرة والمجتمع في حاضره ومستقبله، ومهما أراد المسلمون العزة بغير ما أعزَّهم الله عَزَّوَجَلَّ به أذلهم الله.

ثالثًا: الإيمان ينجِّي العبد من الأهوال والآفات والعذاب في الآخرة:

وقد جاء ذلك مبينًا في آيات كثيرة:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة:٢٥]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(١) فتح الباري، لابن حجر (١/٥٢-٥٣).

يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة:٢٥٧]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة:٢٧٧]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ﴾ [آل عمران:٥٧]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء:٥٧]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء:١٢٢]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء:١٢٤]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۖ﴾ [النساء:١٧٣]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [المائدة:٩]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس:١٠٢-١٠٣]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء:١٩]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً

ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الكهف:٨٨]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه:١١٢]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنبياء:٩٤]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل:٥٣]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ [العنكبوت:٩]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ﴾ [العنكبوت:٥٨]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الروم:١٥]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [لقمان:٨]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص:٢٨]. قال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر:٤٠]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ﴾ [غافر:٥٨]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾ [فصلت:٨]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت:١٨]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾ [الشورى:٢٢]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ﴾ [الشورى:٢٣]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ﴾ [الشورى:٢٦]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الزخرف:٦٨-٧٠]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْۚ﴾ [الجاثية:٢١]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾ [الجاثية:٣٠]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾ [محمد:٢]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [محمد:١١]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ [البروج:١١]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة:٧-٨].

والآيات في ذلك كثيرة، وكذلك الأحاديث.

رابعًا: توحيد لله عَزَّوَجَلَّ:

إن من أصول العقيدة، وأعظم أسباب النجاة: تحقيق التوحيد الخاص لله عَزَّوَجَلَّ، واعتقاد أنَّ كُلَّ ما يصيب الإنسان من فتنة وبلاء إنما هو بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقدرِه، قال

الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ [التغابن:١١]. قال علقمة: عن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال: في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾: «**هو الذي إذا أصابته مصيبة رَضِيَ وعَرَفَ أنها من الله** عَزَّوَجَلَّ»(١).

فينبغي التعامل مع الحوادث والنوازل من منطلق إيماني؛ فإن ذلك من آثار التحقق بالإيمان، وبلوغه من العبد مبلغًا مؤثرًا، كما جاء في الحديث: عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه**»(٢).

وعن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيرًا له**»(٣).

فلا بُدَّ من تجريد التوحيد لله عَزَّوَجَلَّ، والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم، والعلم بأن كل شيء لا يضر ولا ينفع إلا بإذن الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ﴾ [يونس:١٠٧]،

---

(١) صحيح البخاري (٦/١٥٥).

(٢) أخرجه البزار [٤١٠٧]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٢١١]. قال الهيثمي (١/٥٨): "رواه البزار، وقال: إسناده حسن". وفي لفظ: «لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه». قال الهيثمي (٧/١٩٧): "رواه أحمد، والطبراني، ورجاله ثقات، ورواه الطبراني في (الأوسط)".

(٣) صحيح مسلم [٢٩٩٩].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك**»[(١)]، فإذا جرَّدَ العبدُ التوحيدَ فقد خرج من قلبه خوفُ ما سواه، وكان عدوُّه أهونَ عليه من أن يخافه مع الله عَزَّوَجَلَّ، بل يفرد الله عَزَّوَجَلَّ بالمخافة، ويرى أن إعماله فكره في أمر عدوه، وخوفه منه، واشتغاله به من نقص توحيده، وإلا فلو جرَّدَ توحيدَه لكان له فيه شغل شاغل، والله عَزَّوَجَلَّ يتولَّى حفظه، والدفع عنه؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ يدافع عن الذين آمنوا.

فالتوحيد حصن الله عَزَّوَجَلَّ الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين، قال بعض السلف: (من خاف الله عَزَّوَجَلَّ خافه كل شيء، ومن لم يخف الله عَزَّوَجَلَّ أخافه الله عَزَّوَجَلَّ من كل شيء).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ هو أعظم الفساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، ومخالفة أمره. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم:٤١]، قال عطية [(٢)] في الآية: ولا تعصوا في الأرض فيمسك الله عَزَّوَجَلَّ المطر،

---

(١) أخرجه أحمد [٢٦٦٩]، والترمذي [٢٥١٦]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: أبو يعلى [٢٥٥٦]، والحاكم [٦٣٠٣]، وقال: "هذا حديث كبير عال من حديث عبد الملك بن عمير، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا"، وأخرجه أيضًا: الضياء [١٣].

(٢) انظر: الكشف والبيان، للثعلبي (٤/٢٤٠)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، للواحدي (٢/٣٧٧)، تفسير البغوي (٢/١٩٩)، الخازن (٢/٢١١).

ويهلك الحرث بمعاصيكم. وقال غير واحد من السَّلف: إذا قحط المطر فالدواب تلعن عصاة بني آدم فتقول: اللهم العنهم فبسببهم أجدبت الأرض، وقحط المطر. وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله عَزَّوَجَلَّ وإقامة معبود غيره، أو مطاع متبع غير الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولأهلها إلا أن يكون الله عَزَّوَجَلَّ وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن أمر بمعصيته فلا سمع ولا طاعة، فإن الله عَزَّوَجَلَّ أصلح الأرض برسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودينه، وبالأمر بالتوحيد، ونهى عن فسادها بالشرك به، ومخالفة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن تدبَّر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه: توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وعبادته، وطاعة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وكل شرٍّ في العالم وفتنة وبلاء وقَحْط وتسليط عدو وغير ذلك؛ فسببه: مخالفة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والدعوة إلى غير الله عَزَّوَجَلَّ. ومن تدبر هذا حق التدبر وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه وفي غيره عمومًا وخصوصًا -ولا حول ولا قوة إلا بالله-"(١).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موضع آخر: "والشرك أعظم الفساد، كما أن التوحيد أعظم الصلاح، فأصل الصلاح: التوحيد والإيمان، وأصل الفساد: الشرك والكفر"(٢).

والإيمان: قول وعمل ونية، فلا بدَّ من الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، ولا بدَّ من العمل بما أمر، ومن البعد عما نهى، ومن النية والاحتساب والاستقامة والثبات.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/٢٤-٢٥)، وانظر: بدائع الفوائد، لابن القيم (٣/١٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٨/١٦٢).

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمشهور عن السلف وأهل الحديث أن الإيمان: قول وعمل ونية، وأن الأعمال كلها داخلة في مسمى: (الإيمان)"(١).

وأعظم أسباب النَّجاة والأمن والسعادة: تحقيق التوحيد الخاص لله عَزَّوَجَلَّ، الذي هو حَقُّ الله عَزَّوَجَلَّ على العبيد، والبعد عن البدع والضَّلالات، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام:٨٢].

والمراد بالظلم ها هنا: الشرك؛ لما روي في (الصحيح): أن الآية لما نزلت شقَّ ذلك على الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وقالوا: أَيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ليس ما تَظُنُّونَ إنما هو ما قال لقمان لابنه:** ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان:١٣]»(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: قيل يا رسول الله: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك؛ لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة: من قال: لا إله إلا الله، خالصًا من قلبه، أو نفسه**»(٣).

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/١٠٤)، وانظر: الكواكب الدراري، لشمس الدين الكرماني (١/٧٦)، الكشف والبيان، للثعلبي (٣/٢١٣)، تفسير سفيان الثوري (ص:١٥)، الأحكام الشرعية الكبرى، لابن الخراط (١/٩٥)، الحاوي الكبير، لأبي الحسن الماوردي (١٥/٣١٤).

(٢) صحيح البخاري [٣٢، ٤٦٢٩، ٦٩٣٧].

(٣) أخرجه البخاري [٩٩، ٦٥٧٠].

وهذه الشفاعة إنما هي لمن وحَّدَ الله عَزَّوَجَلَّ، مخلصًا له الدين، ولا تكون لمن أشرك بالله عَزَّوَجَلَّ. وسيأتي تفصيل ذلك في بيان (أسباب السعادة، وتفاوت مراتبها).

خامسًا: صيانة الإيمان:

إنَّ نور الإيمان يدفعُ عن المسلم ما ينتابه من صنوف الوحشة، وما يناله من النوازل، وما يصيبه من أنواع البلاء، وهو قائم على ركائز من الثقة بالله جَلَّوَعَلَا، والتوكل عليه، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [الطلاق:٢-٣].

ومن أراد سلوك طريق السعادة فلا بدَّ له من صيانة النفس، بالتزام تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، والعناية والارتقاء بها وفق منهج الله عَزَّوَجَلَّ الذي فيه صلاحها وسعادتها. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾ [النحل:٩٧].

إنَّ الحياة الطَّيِّبة الهنيَّة، والسَّعادة الدَّائمة الرَّضيّة: مطلبٌ ينشده كلُّ البشر، فما من إنسان إلا ويحبُّ أن يكون من السُّعداء، ويكره أن يكون في زمرة الأشقياء، ولكنَّ قليلًا من السَّاعين من يسلك سبل السَّعادة، ويراعي أسبابها الحقيقيَّة، فلقد تنوَّعت مشارب النَّاس في البحث عن السَّعادة، فمنهم من توهَّمها في كثرة المال، وتعدُّد الذُّرِّية، ومنهم من يتخيَّلها في المنصب والجاه، وتحقيق الرَّغبات الشَّخصيَّة...إلى غير ذلك. ولقد ضلَّ كثيرون طريقها، وظلَّت نفوسهم حائرةً، ثم باءوا في النِّهاية بالصَّفقة الكاسدة الخاسرة، ففرعون أغواه ملكه، وقارون أشقاه ماله، وهامان أرداه سلطانه، وكم من

مشهورٍ عاش منكسرًا عليلًا! وكم من مخذول قد ظنَّه النَّاس سعيدًا، وهو في غاية البؤس الشقاء!

فمن الناس من شغلهم النعيم الدنيوي العاجل، فأفنوا في سبيله أنفسهم، وضيَّعوا حقوقًا وواجبات. وقد توعَّد الله عَزَّوَجَلَّ من يؤثر الدنيا على الآخرة فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩﴾ [النازعات:٣٧-٣٩]، وقال في المقابل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات:٤٠-٤١].

فمن أراد أن يسلك طريق السعادة فعليه أن يخالف النفس والهوى والشيطان، وأن يتبع منهج الله عَزَّوَجَلَّ القويم، وشِرعته المباركة، التي أنزلها ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، فذلك السبيل الذي ينجو به الناس من الغواية، وسلطان الهوى، فلا سبيل إلا بالاتباع، ولا نجاة إلَّا بالانقياد.

والإنسان يعترضه في سيره وطريقه في هذه الدنيا أعداء من الإنس والجن؛ كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام:١١٢]، وإذا كان هذا الإنسان مؤمنًا بالله عَزَّوَجَلَّ كثر أعداؤه، وتعددت سبل إغوائهم، ليتحقق اختباره، ومن هؤلاء الأعداء: إبليس، والدنيا، والنفس الأمارة بالسوء، والهوى الباطل.

وأنشد بعضهم:

إني بليتُ بأربع يرمينني ... بالنبل قد نصبوا علي شراكا
إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... من أين أرجو بينهن فكاكا

يا رب ساعدني بعفو إنني ... أصبحت لا أرجو لهن سواكا

وقال آخر:

إني بليت بأربع ما سلطوا ... إلا لعظم بليتي وشقائي

إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... كيف الخلاص وكلهم أعدائي؟

قال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فمن أطاع مولاه، وجاهد نفسه وهواه، وخالف شيطانه ودنياه، كانت الجنة نزله ومأواه، وممن تمادى في غيِّه وطغيانه، وأرخى في الدنيا زمام عصيانه، ووافق نفسه وهواه، في مناه ولذاته، وأطاع شيطانه في جمع شهواته، كانت النار أولى به، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ٤١﴾ [النازعات:٣٧-٤١]"(١).

قال أبو القاسم القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن أصل المجاهدة وملاكها: فطم النفس عن المألوفات، وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات، وللنفس صفتان مانعتان لها من الخير: انهماك في الشهوات، وامتناع عن الطاعات، فإذا جمحت عند ركوب الهوى وجب كبحها بلجام التقوى، وإذا حرنت عند القيام بالموافقات يجب سوقها على خلاف الهوى.."(٢).

قال بعض الأئمة: "جهاد النفس داخل في جهاد العدو؛ فإن الأعداء ثلاثة: رأسهم الشيطان، ثم النفس؛ لأنها تدعو إلى اللذات المفضية بصاحبها إلى الوقوع في

(١) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص:٨٨٠).

(٢) الرسالة القشيرية (١/٢١٨).

الحرام الذي يسخط الرب جَلَّ وَعَلَا، والشيطان هو المعين لها على ذلك، ويزينه لها، فمن خالف هوى نفسه قمع شيطانه، فمجاهدته نفسه: حملها على اتباع أوامر الله عَزَّ وَجَلَّ، واجتناب نواهيه، وإذا قوي العبد على ذلك سهل عليه جهاد أعداء الدين، فالأول: الجهاد الباطن، والثاني: الجهاد الظاهر.

وجهاد النفس أربع مراتب:

١ - حملها على تعلم أمور الدين.

٢ - ثم حملها على العمل بذلك.

٣ - ثم حملها على تعليم من لا يعلم.

٤ - ثم الدعاء إلى توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ، والجهاد في سبيله.

وأقوى المعين على جهاد النفس: جهاد الشيطان بدفع ما يلقي إليه من الشبهة والشك، ثم تحسين ما نهي عنه من المحرمات، ثم ما يفضي الإكثار منه إلى الوقوع في الشبهات. وتمام ذلك: من المجاهدة أن يكون متيقظًا لنفسه في جميع أحواله؛ فإنه متى غفل عن ذلك استهواه شيطانه ونفسه إلى الوقوع في المنهيات"[١].

فمن أراد سلوك طريق السعادة فلا بد له من تغذية روحه بالإيمان، وتطهيرها مِنَ الأَوْضَار وَالأَدْرَان، والعناية بالنفس وصيانتها، والارتقاء بها وفق منهج الله عَزَّ وَجَلَّ الذي فيه صلاحها وسعادتها.

---

(١) انظر: فتح الباري، لابن حجر (١١/٣٣٨).

وغياب الإيمان هو سبب الشَّقاء والنَّكد، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٣-١٢٤]، وكما جاء في الحديث: «**من كانت الآخرة هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ في قلبه وجَمَعَ له شَمْلَهُ، وأَتَتْهُ الدُّنيا وهي رَاغِمَة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وَفَرَّقَ عليه شَمْلَهُ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له**»(١).

سادسًا: طاعة الله عَزَّوَجَلَّ سببٌ للفوز والنَّجاة والحياة الطيبة:

إن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وطاعة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سببٌ للفوز بالجنة والنَّجاة من النَّار في الآخرة، ولحياة نافعة ومثمرة وطيبة في الدنيا، كما أن معصية الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سببٌ للعذاب ودخول النَّار في الآخرة، وسبب لحياة الشقاء والضنك والضيق والتنغيص في الدنيا، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء:١٣-١٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور:٥٢]،

(١) الحديث مروي عن أنس، وعن زيد بن ثابت. حديث أنس: أخرجه هناد (٣٥٥/٢)، والترمذي [٢٤٦٥]، وأبو نعيم في (الحلية) (٣٠٧/٦). حديث زيد بن ثابت: أخرجه الطيالسي [٦١٧]، وأحمد [٢١٥٩٠]، وابن ماجه [٤١٠٥]. وابن حبان [٦٨٠]، والطبراني في (الكبير) [٤٨٩١]، وتمام [١٤٦١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٨٥٥]. قال العراقي في (المغني عن حمل الأسفار) (ص:١٧٣٢): "أخرجه ابن ماجه من حديث: زيد بن ثابت بإسناد جيد".

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٧﴾ [الفتح:١٧].

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى**»، قالوا: يا رسول الله، ومَنْ يَأْبَى؟ قال: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**»(١).

وكما أن للتقوى مراتب، فكذلك فإن التوحيد مراتب، تتفاوت بحسب القرب من الله عَزَّ وَجَلَّ، وقوة الإيمان به جَلَّ وَعَلَا، وبحسب بعد العبد عن الضلال والزيغ والشك، وعن الشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ، وعن سائر مظاهره وأنواعه.

وإن السعادة والحياة الطيبة لا تكون إلا بطاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإن في الاستجابة لأمرهما: صيانة النفس عما يضرها في الدنيا والأخرة، وفيه: صلاح النفس وسعادتها في الدنيا والآخرة، حيث يحيا العبد حياة طيبة نافعة. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النساء:٦٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

(١) صحيح البخاري [٧٢٨٠].

[الأنفال:٢٤]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الحياة النافعة إنما تحصل باستجابة لله عَزَّوَجَلَّ، ولرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية، مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات. فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله عَزَّوَجَلَّ ولرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظاهرًا وباطنًا. فهؤلاء هم الأحياء -وإن ماتوا-، وغيرهم أموات -وإن كانوا أحياء الأبدان-؛ ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"(١).

"وإطلاق الحياة على حال الأمة المعنوية الشريفة في الأشخاص والأمم، والموت على مقابلها، معهود في القرآن، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ﴾ [الأنفال:٢٤]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ [الأنعام:١٢٢]"(٢).

والمسلم يدعو ربه جَلَّ وَعَلَا في كلِّ صلاة فيقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة:٦].

قال أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فالذي أمر محمدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمّتُه أن يسألوا ربَّهم جَلَّ وَعَلَا من الهداية للطريق المستقيم، هي الهداية للطريق الذي وصف الله جلَّ ثناؤه صفته.

---

(١) الفوائد، لابن القيم (ص:٨٨).

(٢) تفسير المنار (٢/٣٦٣).

وذلك الطريق هو طريق الذي وَصفهم الله عَزَّوَجَلَّ بما وصفهم به في تنزيله، ووعد من سَلكه فاستقام فيه طائعًا لله عَزَّوَجَلَّ، ولرسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أن يورده مواردهم، والله لا يخلف الميعاد"(١).

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء:٦٦-٦٨].

فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ يعني: ما يذكَّرون به من طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، والانتهاء إلى أمره، ومن متابعة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وطاعته، والانقياد لما يراه ويحكم به، ظاهرًا وباطنًا؛ لأنه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى. وسميت أوامر الله عَزَّوَجَلَّ ونواهيه: (مواعظ)؛ لاقترانهما بالوعد والوعيد.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في عاجل دنياهم، وآجل معادهم.

﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ أي: تحقيقًا لإيمانهم، وأبعد من الاضطراب فيه، وأمنع لهم من الضلال، وأبعد من الشبهات، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد:١٧]، وأثبت لهم في أمورهم، و﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ لعزائمهم وآرائهم، وأقوى لهم على أعمالهم؛ لهدايتنا إياهم صراطًا مستقيمًا، يعني: طريقًا لا اعوجاج فيه، وهو دين الله عَزَّوَجَلَّ القويم الذي اختاره لعباده وشرعه لهم، وهو الإسلام.

وقيل: معناه أكثر انتفاعًا؛ لأن الانتفاع بالحق يدوم ولا يبطل؛ لاتصاله بثواب الآخرة، والانتفاع بالباطل يبطل ويضمحل، ويتصل بعقاب الآخرة.

---

(١) تفسير الطبري (١/١٧٨).

ومن يعمل الصالحات مخلصًا لله عَزَّوَجَلَّ فإنه سيحيا حياة طيبة في الدنيا، ويجزى في الآخرة بأحسن ما كان يعمل، كما قال الحق جَلَّوَعَلَا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧].

وإنَّ الاستجابة لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، وللرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أساس الحياة الطيبة، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٢٤].

كما جاء التعبير عن السعادة بنفي الشقاء، والضلال، وبإثبات ما يقابل الحياة الطيبة من الضنك والضيق والتنغيص في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٣-١٢٤]. فالحياة الطيبة والسعادة مقرونة باتباع هدى الله عَزَّوَجَلَّ، والشقاء الذي مقرون بالإعراض عن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، أي: خالف أمري، وما أنزلته على رسولي، فتولى عنه ولم يقبله ولم يستجب له، ولم يتعظ به، فينزجر عما هو عليه مقيم من خلافه أمر ربه جَلَّوَعَلَا.

﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج؛ لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن

حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد. فهذا من ضنك المعيشة (١).

ومن يرد الله عَزَّوَجَلَّ أن يهديه للإيمان به، وبرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما جاء به من عند ربه جَلَّ وَعَلَا: شرح الله صدره، فانشرح أي وسعه لقبول الإيمان والخير، ووفقه لذلك، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام:١٢٥]، وهو كناية عن جعل النفس قابلة للحق، مهيأة لحلوله فيها، مصفاة عما يمنعه وينافيه.

وبذكر الله عَزَّوَجَلَّ تطمئن القلوب، وتسكن فلا تضطرب بولوج الشك إليها، ويستقر فيها اليقين، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد:٢٨] فطمأنينة القلب، وانشراح الصدر من السعادة، ولا يتحقق ذلك إلا بذكر الله عَزَّوَجَلَّ، والاهتداء للإسلام، والعمل بما شرعه الله عَزَّوَجَلَّ لعباده مما فيه صلاح حالهم، وفلاحهم في الحال والمآل.

والذين صدَّقوا الله عَزَّوَجَلَّ، وأقرّوا بوحدانيته، وما بعث به محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتمسكوا بالنور المبين الذي أنزله إلى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسيرحمهم الله عَزَّوَجَلَّ، فيدخلهم الجنة، ويزيدهم ثوابًا، ومضاعفة في الأجر، ورفعة في الدرجات، ويهديهم طريقًا واضحًا لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على

---

(١) انظر: تفسير بن كثير (٥/٣٢٢-٣٢٣).

منهاج الاستقامة، وطريق السلامة في الاعتقاد والعمل، وعلى صراط الله عَزَّوَجَلَّ المستقيم، المفضي إلى روضات الجنات، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء:١٧٤-١٧٥]. يقول الله عَزَّوَجَلَّ مخاطبًا جميع الناس، ومخبرًا بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم، وهو الدليل القاطع للعذر، والحجة المزيلة للشبهة، من دلائل العقل، وشواهد النقل، ولم يبق لكم عذر ولا علة.

ومن هداه الله عَزَّوَجَلَّ للحق فهو على نور وبينة، ولا يستوي من ضل وانحرف عن الحق، فهو يتخبط في ظلمات الجهل والزيغ، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام:١٢٢]، فهذا مثل الذي هداه الله عَزَّوَجَلَّ بعد الضلالة، وبصَّره بنور الحجج والآيات، ومنحه التوفيق لليقين، الذي يميز به بين الحق والباطل، والمهتدى والضال، بمن كان ميتًا، فأحياه الله عَزَّوَجَلَّ، وجعل له نورًا يمشى به في الناس، مستضيئًا به، فهو نور من ربه جَلَّوَعَلَا، وبينة.

ومن بقي على الضلالة بالخابط في الظلمات، لا ينفك منها، ولا يتخلص، فهو متحيّر على الدوام.

وإنَّ الإيمانَ بالله عَزَّوَجَلَّ إيمانًا لا يخالطه شِركٌ ولا شَكٌّ هو ركيزة النجاة، وعنوان الهداية والفلاح، فإذا لم يكن المرء مسلمًا موحدًا فعمله مردود، وقد خاب سعيه، وضل عن سبيل الرشاد، فلا قبول للأعمال من غير إيمان، وتوحيد لله عَزَّوَجَلَّ، وعمل ونية. قال

الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران:٨٥].

وفي الحديث: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قلت: يا رسول الله، ابْنُ جُدْعَانَ كان في الجاهليَّة يصِلُ الرَّحِم، ويُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فهل ذاك نَافِعُه؟ قال: «**لا يَنْفَعُهُ، إنَّهُ لم يقل يومًا: ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدِّين**»(١)، أي: لم يكن مصدِّقًا بالبعث، ومن لم يصدِّق به كافر، ولا ينفعه عمل. قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد انعقد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم، ولا يثابون عليها بنعيم، ولا تخفيف عذاب، لكن بعضهم أشدُّ عذابًا من بعض بحسب جرائمهم"(٢).

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ [آل عمران:٩١]، أي: من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبدًا، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبًا فيما يراه قربة. وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [المائدة:٣٦]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾ [الرعد:١٨] إلى غير ذلك من الآيات(٣).

---

(١) صحيح مسلم [٢١٤].

(٢) إكمال المعلم شرح صحيح مسلم (٣٨٧/١)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٨٧/٣).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٧٢/٢).

وجاء في الحديث: عن أبي سعيد الخدري رَضِوَاللَّهُعَنهُ عن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ قال: «**يَدْخُلُ أهل الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وأَهْلُ النَّارِ النَّارَ**»، ثم يقول الله عَزَّوَجَلَّ: «**أَخْرِجُوا من النّار من كان في قلبه مثْقَالُ حَبَّة من خَرْدَلٍ من إيمَان..**» الحديث[1].

وفي رواية: عن أنس رَضِوَاللَّهُعَنهُ عن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ قال: «**يَخْرُجُ من النَّارِ من قال: لا إله إلَّا الله، وفي قلبه وَزْنُ شَعِيرَة من خَيْر، ويَخْرُجُ من النَّار من قال: لا إله إلَّا الله، وفي قلبه وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْر، ويَخْرُجُ من النَّار من قال: لا إله إلَّا الله، وفي قلبه وَزْنُ ذَرَّةٍ من خَيْر**» قال أبو عبد الله: قال أبان، حدثنا قتادة، حدثنا أنس، عن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ: «**من إيمان**» مكان: «**من خير**»[2].

فمن أسباب الوقاية من النَّار: توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وقول المسلم مخلصًا وموقنًا: (لا إله إلا الله)، كما جاء في الحديث: عن أنس بن مالك رَضِوَاللَّهُعَنهُ أَنَّ النبي صَلَّاللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ قال لمعاذ رَضِوَاللَّهُعَنهُ: «**ما من أَحَدٍ يشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رسول الله، صِدْقًا من قلبِه، إلَّا حرَّمَهُ اللهُ على النَّار**»[3].

وعن عُبَادَةَ بن الصَّامت رَضِوَاللَّهُعَنهُ قال: سمعتُ رسولَ الله صَلَّاللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ يقول: «**من شَهِدَ أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمَّدًا رسول الله، حَرَّمَ اللهُ عليه النَّار**»[4].

---

(١) صحيح البخاري [٢٢، ٦٥٦٠]، مسلم [١٨٤].

(٢) صحيح البخاري [٤٤]. و«برة» قمحة. و«ذرة» النملة الصغيرة. وقيل: أقل شيء يوزن. وقيل غير ذلك.

(٣) صحيح البخاري [١٢٨]، مسلم [٣٢].

(٤) صحيح مسلم [٢٩].

وجاء في الحديث: عن موسى بن طلحة، قال: حدثني أبو أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ أعرابيًا عرض لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في سَفَرٍ، فأَخَذ بِخِطَامِ ناقته -أو بزمامِهَا- ثم قال: يا رسول الله -أو يا محمد- أخبرني بما يُقَرِّبُنِي من الجنَّة، وما يُبَاعِدُنِي من النَّار، قال: فَكَفَّ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم نظر في أصحابه، ثم قال: «**لقد وُفِّقَ، أو لقد هُدِيَ**»، قال: كيفَ قلتَ؟ قال: فأعاد، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتُقيم الصَّلاة، وتُؤتِي الزكَّاة، وتَصِلُ الرَّحِم**»(١).

وفي رواية: عن أبي أيُّوبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجلٌ إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: دُلَّنِي على عملٍ أَعْمَلُهُ يُدْنِينِي من الجَنَّة، ويُبَاعِدُنِي من النَّار، قال: «**تعبدُ اللهَ لا تُشْرِكُ به شيئًا، وتقيمُ الصَّلاة، وتُؤْتِي الزكَّاةَ، وتصِلُ ذا رَحِمِك**» فلمَّا أدبرَ، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن تمَسَّكَ بما أُمِرَ به دخلَ الجنَّة**». وفي رواية ابن أبي شيبة: إن تَمَسَّكَ به(٢).

سابعًا: محبة الإيمان، وكراهية الكفر، والفسوق، والعصيان:

إنَّ الإيمان يستنقذ الإنسان من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والهداية، وهو أعظم ما يجلب له النفع والسعادة، ويدفع عنه الضر والشقاء، فالعاقل يحب الإيمان، ويحب الطاعة التي تقربه من الله عَزَّوَجَلَّ، وتصلح حاله، وترتقي به في الدنيا،

(١) صحيح مسلم (١٢) [١٣].

(٢) صحيح مسلم (١٤) [١٣].

والتي ينال بها الأجر والمثوبة ورفعة الدرجات في الآخرة، فلا يغفل عن أعمال ترتقي به إلى المعالي، ويتنافس في ذلك مع أهل الرَّشاد، وأرباب الهمم العالية. ويكره ما يقابل ذلك من: الجهل، والكفر، والضلال، والفسوق، والعصيان.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ [الحجرات:٧].

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ﴾، أي: قربه وأدخله في قلوبكم، ثم زينه فيها بحيث لا تفارقونه، ولا يخرج من قلوبكم؛ وهذا لأن من يحب أشياء فقد يمل شيئًا منها إذا حصل عنده وطال لبثه، والإيمان كل يوم يزداد حسنًا، ولكن من كانت عبادته أكثر وتحمله لمشاق التكليف أتم، تكون العبادة والتكاليف عنده ألذ وأكمل؛ ولهذا قال في الأول: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ﴾، وقال ثانيًا: ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، كأنه قرَّبه إليهم، ثم أقامه في قلوبهم [(١)].

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإذا رسخ الإيمان في القلب، وتحقق به، ووجد حلاوته وطعمه أحبه وأحب ثباته ودوامه، والزيادة منه، وكره مفارقته، وكان كراهته لمفارقته أعظم عنده من كراهة الإلقاء في النار"[(٢)].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ﴾ [الحجرات:٧]، وهو أعظم ما يجلب الضر والشقاء، ويدفع النفع والسعادة، فالعاقل يكره ذلك، ويحب ما يقابله.

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب (١٠٢/٢٨).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب (٥٦/١).

إنَّ الإيمان الكامل إقرار باللسان، وتصديق بالجنان وعمل بالأركان، فكراهة الكفر في مقابلة محبة الإيمان، وتزيينه في القلوب هو التصديق بالجنان، والفسوق وهو الكذب في مقابلة الإقرار باللسان، والعصيان في مقابلة العمل بالأركان.

ويرى الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المراد من الإيمان في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾: أحكام الإسلام، وليس الاعتقاد. -وسيأتي بيان ذلك-.

ثم قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ أي: هؤلاء الذين هذه صفاتهم هم السالكون طريق السعادة، ولم يميلوا عن الاستقامة.

ومن دعاء النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين**»(١).

إنَّ العبد قد يكابد التكليف في أوَّل الأمر، فإذا اعتاده، وواظب على الطاعات بصدق وإخلاص فإنه سيجد لذة وحلاوة عظيمة.

ومن يتذوق حلاوة الإيمان فإنه سيحيا حياة طيبة، وهب حياة السعداء، التي ينال من خير الدنيا، وخير الآخرة، فأي توفيق وفوز أعظم من هذا؟

---

(١) أخرجه أحمد [١٥٤٩٢]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٦٩٩]، والبزار [٣٧٢٤]، والنسائي في (الكبرى) [١٠٣٧٠]، والطبراني [٤٥٤٩]، والحاكم [٤٣٠٨] وقال: "صحيح على شرط الشيخين" ووافقه الذهبي. كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (١٠/١٢٧). قال الهيثمي (٦/١٧٦): "ورجال أحمد رجال الصحيح".

والإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ له حلاوةٌ لا يتذوق طعمها إلَّا المؤمنون الصادقون الذين يتصفون بصفات تؤهلهم لذلك، وليس كل من ادعى الإيمان يجد هذه الحلاوة.

وأعظم سبيل لتذوق حلاوة الإيمان، من انشرح الصدر، والتلذذ بالطاعة: محبة الله عَزَّوَجَلَّ، ومحبة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن تكون علاقة الإنسان مع غيره قائمة على الإيثار والمحبة.

وقد جاء في الحديث: عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»** (١).

وفي رواية: **«ثلاث من كن فيه وجد طعم الإيمان: من كان يحب المرء لا يحبه إلا لله»** الحديث (٢).

وفي رواية: **«من أحبَّ -أو من سرَّه- أن يجد طعم الإيمان فليحب المرء لا يحبه إلَّا لله عَزَّوَجَلَّ»** (٣).

---

(١) صحيح البخاري [١٦، ٢١، ٦٠٤١، ٦٩٤١]، مسلم [٦٧].

(٢) صحيح مسلم [٤٣].

(٣) أخرجه الطيالسي [٢٦١٧]، وابن الجعد [١٧٠٨]، وإسحاق بن راهويه [٣٦٦]، وأحمد [٧٩٦٧]، والبزار [٩٦٠٩]. قال الهيثمي (١/٩٠): "رواه أحمد والبزار، ورجاله ثقات". كما أخرجه الحاكم [٧٣١٢]، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: الشهاب [٤٤٠]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٨٥٧٦].

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: أخبرني أبو سفيان بن حرب: «**أن هرقل، قال له: سألتك هل يزيدون أم ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألتك هل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فزعمت أن لا، وكذلك الإيمان، حين تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد**»(١).

ثامنًا: وسائل تقوية الإيمان:

وهناك وسائل تقوي الإيمان في نفس العبد، وتعين على الثبات والاستقامة، ومن هذه الوسائل:

١ – استشعار عظمة الله عَزَّوَجَلَّ وقدرته، واطلاعه على أعمال العباد، وما تُكنه صدورهم، وما تنطوي عليه ضمائرهم، وأنه يعلم السِّرَّ وأخفى، وما كان وما هو كائن، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٧﴾ [البقرة:٧٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٩﴾ [آل عمران:٢٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ٣﴾ [الأنعام:٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ

(١) صحيح البخاري [٧، ٥١، ٢٩٤١].

﴿٥٩﴾ [الأنعام:٥٩]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾ [هود:٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد:٨-٩]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النحل:١٩]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنبياء:١١٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج:٧٤]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان:٣٤]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر:٦٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر:١٩]..إلى غير ذلك من الآيات الكريمة. فمن أسباب الثبات والوقاية من الزيغ: مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ في السِّر والعلن.

٢ - المسارعة إلى الأعمال الصالحة، ولا سيما في زمان انتشار الفتن والظلم والفساد، وغلبة الهوى على النفوس والطباع؛ فإن الثبات على الحق في مثل ذلك الوقت أفضل وأعظم.

٣ - التعويل على الله جَلَّ وَعَلَا في كلِّ أمر، والتفويض إليه في كل حال، والالتجاء إليه جَلَّ وَعَلَا، ولزوم طريق الهداية، وكثرة الدعاء، وأن يسأل العبد ربه عَزَّوَجَلَّ دائمًا الاستقامة والثبات على دينه في سائر الأحوال، في حال السراء والضراء، وفي حال

الشدة والرَّخاء، فيكون عابدًا شاكرًا لله عَزَّوَجَلَّ في حال السراء، وصابرًا مُحْتَسِبًا في حال الضراء.

وإن كثرة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ من أعظم أسباب الحفظ من المعصية؛ لأن الذِّكر يُذَكِّرُ العبدَ بالله جَلَّوَعَلَا وصفاته، وعظمته، فيكون حاضرًا مع الله عَزَّوَجَلَّ، ومستحضرًا لما يعتقده عن الله عَزَّوَجَلَّ، فيحجزه ذلك عن المعصية.

وقد كان النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يسأل ربه جَلَّوَعَلَا الثبات، كما جاء في الحديث: عن أنس رَضِيَاللَّهُعَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يكثر أن يقول: «**يا مُقَلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك**»، فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يُقَلِّبُهَا كيف يشاء**»[1].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٠٤٠٥]، وأحمد [١٢١٠٧]، والبخاري في (الأدب) [٦٨٣]، والترمذي [٢١٤٠]، وقال: "وفي الباب عن النواس بن سمعان، وأم سلمة، وعبد الله بن عمرو، وعائشة، وأبي ذر، وهذا حديث حسن، وهكذا روى غير واحد، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن أنس، وروى بعضهم عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وحديث أبي سفيان عن أنس أصح". وأخرجه أيضًا: ابن أبي عاصم [٢٢٥]، والبزار [٧٥٠٨]، وأبو يعلى [٣٦٨٧]، والآجري في (الشريعة) [٧٣١]، والحاكم [١٩٢٧]، وأبو نعيم في (الحلية) (١٢٢/٨)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٧٤٢]، والضياء [٢٢٢٢]، وقال: "إسناده صحيح". وقال الهيثمي (١٧٦/١٠) عن حديث جابر رَضِيَاللَّهُعَنْهُ الذي رفعه: "رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح".

وفي الحديث: عن عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن الإيمان لَيَخْلَقُ في جَوْفِ أحدكم كما يَخْلَقُ الثوب، فسلوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم**»[(١)].

وقد أرشد الله عَزَّوَجَلَّ العباد إلى أن من خير الدعاء: أن يقول العبد: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران:٨].

٤ – طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والاستجابة لأمرهما؛ فإن في ذلك: صيانة للنفس عما يضرها في الدنيا والأخرة، وفيه: صلاحها وسعادتها.

٥ – الثبات على عمل صالح يدوم ولا ينقطع، ويعين على ذلك: الاعتدال في الفهم والسلوك، والبعد عن الغلو والتطرف.

وفي السنة ما يفيد: أن القليل من العمل الذي يدوم ولا ينقطع خير من الكثير الذي ينقطع؛ فبدوام القليل تدوم الطاعة، ويثمر ذلك العمل، بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافًا كثيرة. وقد سئل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله؟ قال: «**أدومه وإن قل**»[(٢)].

٦ – النَّظر والتأمل في خلق الله جَلَّوَعَلَا، وآياته في الخلق، والاعتبار بحال السابقين.

٧ – شكر الله جَلَّوَعَلَا على نعمه، والإخلاص في عبادته، والإكثار من الذكر والدعاء.

---

(١) أخرجه الطبراني في (الكبير) [٨٤]، والحاكم [٥]، وقال: "رواته ثقات" ووافقه الذهبي. قال الهيثمي (١/٥٢): "رواه الطبراني في (الكبير)، وإسناده حسن".

(٢) صحيح مسلم [٧٨٢، ٢٨١٨].

٨ – قراءة القرآن الكريم وتدبُّره، والنَّظرُ في آياته نظر تفكر واعتبار:

إن من الوسائل التي تقوي الإيمان في نفس العبد، وتعين على الثبات والاستقامة: المحافظة على قراءة القرآن، وتدبُّر آياته.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ٣٢﴾ [الفرقان:٣٢].

فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ لنقوي به قلبك؛ لتزداد بصيرة في فؤادك، كأنه كلما نزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالوحي ازداد هو بصيرة وقوة، وقد أنزل الله عَزَّوَجَلَّ القرآن في ثلاث وعشرين سنة، فحين أكمل الله عَزَّوَجَلَّ ما أراد إنزاله عليه من الوحي أدركت النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوفاة (١).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ٤٤﴾ [آل عمران:٤٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ١١١﴾ [يوسف:١١١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ٤٩﴾ [هود:٤٩].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن من أخبار الغيب ما لم تشاهده، ولم تعاينه، ولكنا نوحيه إليك ونعرِّفكه؛ لنثبِّت به فؤادك، ونشجع به قلبك، وتصبر على ما نالك

(١) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٤/١٨)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٣/٣٤٠).

من الأذى من قومك في ذات الله عَزَّوَجَلَّ، وتعلم أن من قبلك من رسل الله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، إذ صبروا على ما نالهم فيه، وأخذوا بالعفو، وأمروا بالعُرف، وأعرضوا عن الجاهلين، فازوا بالظفر، وأُيِّدوا بالنَّصر، ومُكِّنوا في البلاد، وغلبوا من قَصَدوا من أعدائهم، وأعداء دين الله عَزَّوَجَلَّ. يقول الله جَلَّوَعَلَا لنبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فبهم، يا محمد، فتأسَّ، وآثارهم فقُصَّ"(١).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود:١٢٠].

ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف:١١١].

ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف:١٧٦].

وكلُّ قصَّةٍ ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه فيها الموعظةُ والاعتبار، فالسَّعيد من اعتبر بغيره، والشَّقيُّ من اعتبر به غيره. وفيها: وعد الله عَزَّوَجَلَّ من اعتبر بما قصه الله عَزَّوَجَلَّ على عباده، وتبشيره بحسن المثوبة، ووعيد من لم يعتبر، وإنذاره بسوء العقوبة، والوعد يشمل ما للأمَّة وما للأفراد، فيعمُّ نِعَمَ الدُّنيا والآخرة وسعادتهما، والوعيد -كذلك- يشمل نقمهما وشقاءهما..

(١) تفسير الطبري (١٦/٢٨٣).

كما يستفادُ من قصص من وقف عند حدود الله عَزَّوَجَلَّ، وأخذ بأحكام دينه، ومن أخبار الَّذين تعدَّوا حدوده، ونبذوا أحكام دينه ظهريًّا: الاعتبار بالعاقبة والمآل، فيكون ذلك دافعًا لاختيار طريق المحسنين، ويكون المؤمن على بيِّنة وحذر.

قال أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي حَثِّ الله عَزَّوَجَلَّ عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبيِّنات بقوله عَزَّوَجَلَّ لنبيِّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص:٢٩]، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٧ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٢٨﴾ [الزمر:٢٧-٢٨]، وما أشبه ذلك من آي القرآن، الَّتي أمر الله عَزَّوَجَلَّ عبادَه، وحثَّهم فيها على الاعتبار بأمثال آي القرآن، والاتِّعاظ بمواعظه ما يدلُّ على أنَّ عليهم معرفةَ تأويل ما لم يُحجب عنهم تأويله من آيه؛ لأنَّه محالٌ أن يُقال لمن لا يفهمُ ما يُقال له ولا يعقِل تأويلَه: (اعتبرْ بما لا فَهْم لك به ولا معرفةَ من القِيل والبيان والكلام) إلا على معنى الأمر بأن يفهمَه ويفقَهه، ثمَّ يتدبَّره ويعتبرَ به.

فأمَّا قبلَ ذلك، فمستحيلٌ أمرُه بتدبُّره وهو بمعناه جاهل. كما محالٌ أن يقال لبعض أصناف الأمم الَّذين لا يعقلون كلامَ العرب ولا يفهمونه لو أنشد قصيدة شعرٍ من أشعار بعض العرب ذاتَ أمثالٍ ومواعظ وحِكم: (اعتبر بما فيها من الأمثال، وادَّكر بما فيها من المواعظ) إلا بمعنى الأمر لها بفهم كلامِ العرب ومعرفتِه، ثمَّ الاعتبار بما نبهها عليه ما فيها من الحِكم.

فأمَّا وهي جاهلةٌ بمعاني ما فيها من الكلام والمنطق فمحالٌ أمرُها بما دلَّت عليه معاني ما حوته من الأمثال والعِبَر. بل سواء أمرُها بذلك وأمرُ بعض البهائم به إلا بعدَ

العلم بمعاني المنطق والبيان الَّذي فيها. فكذلك ما في آي كتاب الله عَزَّوَجَلَّ من العِبَر والحِكم والأمثال والمواعظ، لا يجوز أن يقال: (اعتبرْ بها) إلا لمن كان بمعاني بيانه عالما، وبكلام العرب عارفًا، وإلا بمعنى الأمر -لمن كان بذلك منهُ جاهلًا- أنْ يعلم معاني كلام العرب، ثمَّ يتدبَّره بعدُ، ويتَّعظ بحِكمَه وصُنوف عِبرَه. فإذْ كان ذلك كذلك -وكان الله عَزَّوَجَلَّ قد أمر عباده بتدبُّره وحثَّهم على الاعتبار بأمثاله- كان معلومًا أنَّه لم يأمر بذلك من كان بما يدُلُّ عليه آيُه جاهلًا. وإذْ لم يجز أن يأمرهم بذلك إلا وهُمْ بما يدلهم عليه عالمون، صحَّ أنَّهم - بتأويل ما لم يُحجَبْ عنهم علمه من آيه الَّذي استأثر الله عَزَّوَجَلَّ بعلمه منه دون خلقه - الَّذي قد قدَّمنا صفته آنفًا- عارفون. وإذْ صَحَّ ذلك فسَدَ قول من أنكر تفسيرَ المفسِّرين -من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وتنزيلِه- ما لم يحجب عن خَلقه تأويله"[(١)].

ونخلصُ إلى أنَّ الاعتبار هو المؤدِّي إلى استخلاص العِبَر والحِكم..، وقد يكون ذلك بمجرد قراءة بعض النُّصوص، وقد يحتاج في نصوصٍ أخرى إلى النَّظر في كتب التَّفسير، وإلى التَّأمُّل والتَّفكر، وإلى استخدام آليات التَّأويل، كاللُّغة، والعلوم المساعدة الأخرى...فيفهم العامِّي منه: المعنى القريب، ويفهم العالِم: عمق المعنى.

وإنَّ موعظة القرآن نافعةٌ لكلِّ من تجرَّد عن العناد والمكابرة، فمن لم يتَّعظ بها فلأنَّه لم يشأ أن يتَّعظ.

---

(١) تفسير الطَّبري (١/٣٦-٣٧).

٨ – الاستعاذة بالله عَزَّوَجَلَّ من شرِّ الشيطان الرجيم الذي يوسوس في صدور الناس، ويزين لهم ما فيه هلاكهم وشقائهم.

٩ – الاستعاذة بالله عَزَّوَجَلَّ من الفتن ما ظهر منها وما بطن، من الفتن ما ظهر منها وما بطن:

وقد كان النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يستعيذ بالله عَزَّوَجَلَّ من الفتن، وأمر أمته باتخاذ أسباب الوقاية من الفتن، واللجوء إلى الله عَزَّوَجَلَّ والدعاء والاستعاذة به جَلَّوَعَلَا خير أسباب الوقاية من الفتن:

ففي (الصحيح): «**تَعَوَّذُوا بالله من الفتن، ما ظهر منها وما بطن**» (١).

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**تَعَوَّذُوا بالله من جَهْدِ البلاء، ودَرَكِ الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء**» (٢).

وعن مصعب بن سعد، عن أبيه، قال: تعوذوا بكلمات كان النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يتعوذ بهن: «**اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وعذاب القبر**» (٣).

---

(١) صحيح مسلم [٢٨٦٧].

(٢) صحيح البخاري [٦٦١٦].

(٣) صحيح البخاري [٦٣٧٤].

وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول في دعائه: «**اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون**» (١).

١٠ - الصبر على الابتلاء.

١١ - تزكية النفس واتهامها ومحاسبتها والتنقيب عن عيوبها ونقائصها؛ فإن محاسبة النفس هو طريق استقامتها وكمالها وفلاحها وسعادتها.

قال الله عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن عاقبة من سلك طريق التزكية: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ۝٧٦﴾ [طه: ٧٥-٧٦]، أي: فهذه الدرجات العُلى التي هي جنات عدن على ما وصف الله عَزَّوَجَلَّ هي ثواب من تزكى، يعني: من تطهر من الذنوب، فأطاع الله عَزَّوَجَلَّ فيما أمره، ولم يدنس نفسه بمعصيته فيما نهاه عنه.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس:٧-١٠].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ

---

(١) الحديث رواه غير واحد، وهو مروي عن ابن عباس، ومعاذ بن جبل وغيرهما. حديث ابن عباس: أخرجه أحمد [٣٤٨٤]، وعبد بن حميد [٦٨٢]، والترمذي [٣٢٣٣]، وقال: "حسن غريب". حديث معاذ بن جبل: أخرجه الترمذي [٣٢٣٥]، وقال: "حسن صحيح".

ﵟٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧ﵞ [الأعلى: ١٠-١٧]، أي: "قد نجح وأدرك طلبته من تطهَّر من الكفر ومعاصي الله عَزَّوَجَلَّ، وعمل بما أمره الله عَزَّوَجَلَّ به، فأدَّى فرائضه"[(١)].

وقيل: قوله جَلَّوَعَلَا: ﵟقَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ﵞ يحتمل أن يكون بمعنى: الطهارة من الشرك والمعاصي.

أو بمعنى: الطهارة للصلاة.

أو بمعنى: أداء الزكاة، وعلى هذا قال جماعة: إنها يوم الفطر.

والمعنى: أدَّى زكاة الفطر، ﵟوَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦﵞ في طريق المصلى إلى أن يخرج الإمام، وصلى صلاة العيد[(٢)].

وقوله جَلَّوَعَلَا مخبرًا عن مصير من سلك طريق الشقاء: ﵟٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ١٣ﵞ أي: حياة تنفعه؛ لأنه ما تزكى، فلا صدق، ولا صلى.

ولما ثبت لهذا المذكور الشقاء الأعظم؛ لأنه لم يزك نفسه، ولم يخش الله عَزَّوَجَلَّ.

فجمع الاجتناب، والاجتلاب بالتزكية بالتبتل بالأبواب، والملازمة للأعتاب، بامتثال الأمر، واجتناب النهي بالمجاهدات، المقربات إليه جَلَّوَعَلَا، المنجيات، بعد ما حذر من المهلكات؛ للمسارعة في محابه ومراضيه؛ اجتماعًا على العبادة الموصلة للخالق جَلَّوَعَلَا بعد حصول الكمال والتكميل؛ فإنه لا بد في الحياة الطيبة بعد الانتماء

---

(١) تفسير الطبري (٣٧٣/٢٤).

(٢) انظر: تفسير ابن جزي (٤٧٥/٢)، الكشاف (٧٤٠/٤).

إلى ذي الجاه العريض، والاقتداء بمن لا يزيغ، من الارتباط بطريقة مثلى، يحصل بها الاغتباط؛ ليصل بها إلى المقصود، ويعمِّر أوقاته بوظائفها؛ لئلا يحصل له خلل، ولا ضياع لنفائس الأوقات، ولا غفلة(١).

١٢ - الإكثار من ذكر الموت، وسماع المواعظ التي ترغب في الآخرة.

١٣ - اختيار الأخلاء الصالحين الذين يذكِّرونَ الإنسانَ كلما غَفَل، ويعينونه على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، والتفقه في دينه، وعلى تحري الحلال، واجتناب الحرام.

وإن من أعظم ما يعين على الثبات: الرفقة الصالحة، وملازمة العلماء الربانيين، الذين يذكرون العبد كلما غفل، ويعينونه وينصحونه.

ولقد حذَّر الله جَلَّوَعَلَا من صحبة أهل الشر والفساد، وأمر بصحبة أهل الفضل والرشاد والصلاح، فقال عزَّ من قائل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التوبة:١١٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ [الكهف:٢٨].

وأخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن ندم أهل النار؛ بسبب صحبتهم لأهل الفساد، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَـٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَـٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَـٰنُ لِلۡإِنسَـٰنِ خَذُولٗا ٢٩﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٥٠ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ٥٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَـٰمًا

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢١/٤٠٢-٤٠٣)، بتصرف.

أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٥٠ -٦١]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام:٦٨]، فهذا تنفير من صحبة أهل السوء والباطل.

وفي الحديث: «**لا تصاحبْ إلَّا مؤمنًا، ولا يأكلْ طعامك إلَّا تقي**» (١).

وفي (الصحيح): عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا**

(١) أخرجه ابن المبارك [٣٦٤]، والطيالسي [٢٣٢٧]، وأحمد [١١٣٣٧]، والدارمي [٢١٠١]، وأبو داود [٤٨٣٢]، والترمذي [٢٣٩٥]، وقال: "حسن". كما أخرجه: أبو يعلى [١٣١٥]، وابن حبان [٥٥٤]، والطبراني في (الأوسط) [٣١٣٦]، والحاكم [٧١٦٩]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٨٩٣٧].

مقبلًا بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرا قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة» [1].

١٤ - البيئة الصالحة في البيت والحي والمدرسة والمسجد.

١٥ - مجاهدة النفس والهوى والشيطان، أن يتخير العلاج المناسب لكل ما يعتلج في نفسه من محفزات الشهوة، والبواعث على المعصية من نحو: التأمل والنظر في العاقبة والآثار المترتبة على المعاصي في الدنيا والآخرة.

١٦ - الخوف من سوء الخاتمة:

من أراد أن يسلك طريق السلامة والنجاة فينبغي أن يحذر سوء الخاتمة؛ فإن الإنسان لا يعلم ما يختم له، ولا سيما إذا كان مترددًا بين الحق والباطل، ولم يسلك طريق النجاة الذي بينه الله عَزَّوَجَلَّ لعباده، بل كان تائهًا بين طرق ملتوية.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣].

---

(١) صحيح البخاري [٣٤٧٠]، مسلم، واللفظ له [٢٧٦٦].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخل النار**»(١).

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ السلامة والعافية وحسن الخاتمة.

١٧ – الثقة بوعد الله عَزَّوَجَلَّ لعباده الصالحين بحسن العاقبة:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف:١٢٨]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه:١٣٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥-١٠٦]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص:٥-٦]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص:٨٣]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر:٧٤]. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [الطلاق:٢-

---

(١) صحيح البخاري [٣٢٠٨، ٣٣٣٢، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤]، مسلم [٢٦٤٣].

٣]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤﴾ [الطلاق:٤]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ۝٥﴾ [الطلاق:٥].

١٨ – الاستعانة على الثبات بالصبر، والصلاة، والإكثار من النوافل:

إن من أعظم أسباب الثبات على دين الله عَزَّوَجَلَّ: الصبر، والصلاة، وسائر الطاعات التي تقرب العبد من الله عَزَّوَجَلَّ.

١٩ – حسن الظنِّ بالله عَزَّوَجَلَّ، والثقة بما أعدَّه لعباده الصابرين المتقين، من الأجر الجزيل، والثواب العظيم في الآخرة.

٢٠ – شكر الله عَزَّوَجَلَّ على نعمه؛ فإن الشكر من أسباب نعم الله عَزَّوَجَلَّ على العبد، ولا يخفى أن الثبات والاستقامة من أعظم النعم التي يمنها الله عَزَّوَجَلَّ على العبد، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ۝٧﴾ [إبراهيم:٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ۝٧٣﴾ [النمل:٧٣].

٢١ – أن ينظرَ الإنسانُ في أمور الدُّنيا إلى من هو دونه، وأن يتطلّع إلى من هو فوقه في البرّ والطَّاعات؛ فإن ذلك أدعى لأن يَتَقَالَّ علمه وعبادته، ويسلك سبيل المهتدين، من التَّبصر في أمور الدين، ومن التنافس في صالح الأعمال، ومن الصَّبر على البلاء، والنَّظر إلى ما أعدَّه الله عَزَّوَجَلَّ لعباده الصَّالحين. ففي أمور الدنيا وزخارفها ينظر إلى من هو أسفل منه؛ فإن ذلك حقيقٌ بأن يشكرَ نعمة الله جَلَّوَعَلَا عليه، ولا يزدريها. وينظر إلى من هو أعلى منه في الدِّين، والعلمِ، والدَّعوة، والجهاد، والأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، وخصال الخير، والأخلاق الفاضلة، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا نَظَرَ أحدُكُم إلى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ في المالِ والخَلْق، فَلْيَنْظُرْ إلى مَنْ هو أَسْفَلَ منه**»[(١)].

وفي رواية: «**انْظُرُوا إلى مَنْ أَسْفَلَ منكم، ولا تَنْظُرُوا إلى مَنْ هو فَوْقَكُمْ، فهو أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ**»[(٢)].

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا الحديث جامع لمعاني الخير؛ لأن المرء لا يكون بحال تتعلق بالدين من عبادة ربه مجتهدًا فيها إلا وجد من هو فوقه، فمتى طلبت نفسه اللحاق به استقصر حاله، فيكون أبدًا في زيادةٍ تُقَرِّبُه من ربِّه، ولا يكون على حَالٍ خَسِيسَةٍ من الدنيا إلا وجد من أهلها من هو أَخَسُّ حَالًا منه، فإذا تَفَكَّرَ في ذلك علم أن نعمة الله عَزَّوَجَلَّ وصلت إليه دون كثير ممن فُضِّلَ عليه بذلك من غير أَمْرٍ أَوْجَبَهُ، فَيُلْزِمُ نفسه الشُّكْرَ، فَيَعْظُمُ اغتباطه بذلك في معاده"[(٣)].

وقال غيره: "في هذا الحديث دواء الداء؛ لأن الشخص إذا نظر إلى من هو فوقه لم يَأْمَنْ أن يُؤَثِّرَ ذلك فيه حَسَدًا. وَدَوَاؤُه: أن ينظر إلى من هو أسفل منه؛ ليكون ذلك داعيًا إلى الشُّكر"[(٤)].

---

(١) صحيح البخاري [٦٤٩٠]، مسلم [٢٩٦٣].

(٢) صحيح مسلم [٢٩٦٣].

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/١٩٩)، فتح الباري، لابن حجر (١١/٣٢٣).

(٤) فتح الباري، لابن حجر (١١/٣٢٣).

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**أمرني خليلي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بِحُبِّ المساكين، وَالدُّنُوِّ منهم، وأمرني أن أَنْظُرَ إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقي**» الحديث[1].

٢٢ - رسوخ الإيمان بقضاءِ الله عَزَّ وَجَلَّ وقَدَرِهِ في النَّفس، وأن يدرك كلُّ مكلَّفٍ أن الجزع لا يرفع البلاء، وأنه لا رادَّ لقضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

٢٣ - أن يدرك أن الجزع لا يرفع البلاء.

٢٤ - أن لا يغترَّ العبد بما يحصلُ له من زيادة المال، وأن لا يغتر بالإمهال، بل يسارع في كل حال إلى شكر الله عَزَّ وَجَلَّ، ويجتنب: العجب، والكبر، وسائر الأخلاق السيئة، ويكون حاله بين الخوف والرَّجاء، مسلمًا لأمر الله جَلَّ وَعَلَا في كلِّ حالٍ من الشدَّة أو الرَّخاء، وراضيًا بحكمه.

(١) أخرجه أحمد [٢١٤١٥]، وابن حبان [٤٤٩]، والطبراني في (الصغير) [٧٥٨]، والبيهقي في (السنن) [٢٠١٨٦]. قال الهيثمي (٢٦٥/٧): "رجاله رجال الصحيح، غير سلام أبي المنذر، وهو ثقة".

المبحث الثاني:

حقيقة دار الفناء
والاستعداد لدار البقاء

الإرشاد إلى أسباب النجاة

إنَّ الإسلام قد ربط الإنسانَ بغاياتٍ ومقاصدَ سامية، وهو يحقق توازنًا بين الروحية والمادية، وهو وسط بينهما، بين الدين والدنيا، بين القيم والحاجات، بين الغريزة والعقل، الإنسان كما أراده الله عَزَّوَجَلَّ ليس الذي ينقطع عن العالم، وينسحب من الحياة، ويتفرغ للعبادة، ويتعطل فلا يعمل، ويتقشف فلا يتمتع، ويتبتل فلا يتزوج، ويتعبد فلا يفتر، ليله قائم، ونهاره صائم، وهو منقطع عن الدنيا، ومتعطل عن الإنتاج، وبعيد عن النبوغ، ومتخلّف عن مواكبة التَّطور، والترقي في العلوم المتنوعة.

كما أنه ليس كصاحب الجنتين، يفخر على صاحبه منتفخًا بثروته، مختالًا بجنته قائلًا: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ۝٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ۝٣٥﴾ [الكهف:٣٤-٣٥]. فأرسل الله عَزَّوَجَلَّ على جنته حسبانًا من السماء، فأصبحت صعيدًا زلقًا، وأصبح ماؤها غورًا.

وليس كقارون الذي آتاه الله عَزَّوَجَلَّ من الكنوز ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾، فبغى على قومه، واغترَّ بماله، وعزا الفضل إلى نفسه فقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص:٧٨]، فخسف الله عَزَّوَجَلَّ به وبداره الأرض، الإنسان الحق ليس هذا ولا ذاك.

ومن مظاهر التوازن في الشريعة الإسلامية: موقفها من الروحية والمادية، أو بعبارة أخرى: موقفها من الدين والدنيا.

لقد وجدت في التاريخ جماعات وأفراد كل همهم: إشباع الجانب المادي في الإنسان، وعمارة الجانب المادي في الحياة، دون التفات إلى الجوانب الأخرى.

وهذه النزعة المغالية في المادية وفي قيمة الدنيا، جديرةٌ بأن تولِّدَ الترفَ والطغيانَ، والتكالبَ على متاع الحياة، والغرورَ والاستكبارَ عند النعمة، واليأس والقنوط عند الشدة.

نرى ذلك واضحًا فيما قصَّه الله عَزَّوَجَلَّ علينا من مصارع الأفراد والأقوام الذين عاشوا للدنيا وحدها، ولم يلقوا للدين بالًا، ولا للآخرة حسابًا، ولا للروح مكانًا.

وفي الطرف المقابل لهذه النزعة وأصحابها، وجد آخرون من الأفراد والجماعات من نظروا إلى الدنيا نظرة احتقار وعداوة، فحرَّموا على أنفسهم طيبات الحياة وزينتها، وعطَّلوا قواهم عن عمارتها، والإسهام في تنميتها وترقيتها، واكتشاف ما أودع الله عَزَّوَجَلَّ فيها.

عرف ذلك في برهميَّة الهند، ومانويَّة فارس، وبدا ذلك بوضوح وجلاء في نظام الرهبانية الذي ابتدعه النصارى، فعزلوا جماهير غفيرة عن الحياة، والتمتع بها، والانتاج فيها.

وبين هاتين النزعتين قام الإسلام، يدعو إلى التوازن والاعتدال، فصحح مفهوم الناس عن حقيقة الإنسان، وعن حقيقة الحياة.

والرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يأكل من طيبات هذه الحياة، ولا يحرمها على نفسه، ولكنه لم يجعلها شغل نفسه، ولا محور تفكيره.

وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حريصًا على توجيه أصحابه إلى التوازن المقسط بين دينهم ودنياهم، بين حظ أنفسهم وحق ربهم، بين متعة البدن ونعيم الروح، فإذا رأى في بعضهم غلوًّا في جانب، قوَّمه بالحكمة، وردَّه إلى سواء الصراط.

ولما رأى في بعض أصحابه إفراطًا في التعبد والصيام والقيام، على حساب جسمه وأهله، قال له: «**إن لجسدك عليك حقًّا، وإن لعينك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّا، وإن لزورك عليك حقًّا**» (١).

وقال للجماعة الذين التزم أحدهم أن يصوم فلا يفطر، والتزم ثانيهم أن يقوم فلا ينام، والتزم الثالث أن يعتزل النساء فلا يتزوج أبدًا: «**أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**» (٢).

وحين أقبل أبو عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمال من البحرين، فسمعت الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بقدوم أبي عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فوافت صلاة الصبح مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما صلى بهم الفجر انصرف، فتعرضوا له، فتبسم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين رآهم، وقال: «**أبشروا وأملوا ما يسركم، فو الله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم**» (٣).

وهكذا تعلم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن يوازنوا بين مطالب دنياهم وآخرتهم، وأن يعملوا للدنيا كأحسن ما يعمل أهل الدنيا، ويعملوا للآخرة كأحسن ما يعمل أهل الآخرة، ولم يشعروا بتعارض قط بين عملهم لدينهم، وعملهم لدنياهم، بل شعروا

---

(١) صحيح البخاري [١٩٧٥، ٦١٣٤].

(٢) صحيح البخاري [٥٠٦٣].

(٣) صحيح البخاري [٣١٥٨، ٤٠١٥، ٦٤٢٥].

بالوحدة والانسجام والامتزاج كانت شعائرهم وواجباتهم الدينية تعطيهم زادًا وشخصية قوية، يواصلون بها الكفاح لدنياهم، وكانت أعمالهم الدنيوية عونًا لهم على أداء فرائضهم الدينية، كانوا يعتقدون أنهم في عبادتهم ومساجدهم ليسوا مقطوعين عن الدنيا، كما أنهم في مزارعهم ومتاجرهم وحرفهم غير بعيدين عن الدين، فأعمالهم هذه عبادة إذا صحت فيها النية، والتزمت حدود الله عَزَّوَجَلَّ(١).

والحاصل أن هناك توازنًا بين القيم الروحية، والقيم المادية، وأن أيَّ طغيان لأحدهما على الآخر يؤدي إلى خلل كبير في الحياتين -الروحية والمادية- معًا.

ومتى خرجت الدنيا عن كونها وسيلة تحولت إلى لهو ولعب، وفقدت القيم الأخلاقية والإنسانية، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت:٦٤]، يعني: باعتبار من آثرها، وتكالب على حطامها.

وفي المقابل فإنَّ هناك آيات تتحدث عن مهمة أساسية للإنسان في هذه الحياة، وهي مهمة إعمار الأرض، واستثمار الخيرات التي أودعها الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الكون.

فالمراد من حُبِّ الدنيا بالمعنى الصحيح: عِمَارتها (٢) ونشر الخير والسلام والمحبة فيها.

---

(١) بتصرف عن مقالة في (مجلة الأزهر)، السنة الثامنة والأربعون، جزء: [٨]، شوال [١٣٩٦هـ].

(٢) عمارة الارض: إحياؤها بالبناء أو الغرس أو الزرع والعمل الصالح. قال ابن فارس: "يقال: عَمَّر الناس الأرض عِمَارة، وهم يعمرونها، وهي عامرة معمورة. وقولهم: عامرة، محمول على عَمَرَت الأرض، والمعمورة من عُمِرَتْ. والاسم والمصدر: العمران: واستعمر الله عَزَّوَجَلَّ الناس في الأرض ليُعَمِّروها. مقاييس اللغة، مادة: (عمر) (١٤١/٤).

فالإسلام لا يعرف المؤمن إلَّا كادحًا عاملًا مؤديًا دوره في الحياة، آخذًا منها، معطيًا لها، مستجيبًا لما أراده الله عَزَّوَجَلَّ من بني آدم حين جعلهم خلفاء في الأرض، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١]. فلم يقل: إنه عَمَّرَ الأرض لكم، ولكنه عَزَّوَجَلَّ خلق هذا الكون، وأودع فيه الثروات والخيرات والإمكانات، وحثَّهم على عمارتِهَا، واكتشافِ ما فيها من الخيرات، بإصلاحها وإحيائها، وإشاعة الحياة والنَّماء فيها، وذلك لا يكون إلَّا بالتقدم العلمي، والعمل الدؤوب، والتعاون بأن يقوم كل فرد بما يمكنه من جهد [١]. فلا يجوز أن يعمل البعض، ويظل آخرون كَلًّا عليهم، فيأخذون ولا يعطون، ويستهلكون ولا ينتجون. فهذا ليس من العدل.

فالمتعطِّل عن الكسب والكدح [٢] في الحياة عالة على غيره، ولو اقتدى به المسلمون لفسدت الأرض، وأمسوا عبيدًا لغيرهم من الأقوياء العاملين.

كذلك ينبغي أن تكون الريادة لهذه الأمة في مجالات العمل والتقدم العلمي؛ فإن تقليد الآخرين هو عين التقهقر والانحطاط.

"ولقد علمتنا التَّجارِب أن المقلدين من كلِّ أمة المنتحلين أطوار غيرها يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها، وطلائع لجيوش الغالبين، وأرباب الغزوات، يمهدون لهم السبل، ويفتحون لهم الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم.

---

(١) (الجهد) -بفتح الجيم وضمها-: الطاقة.

(٢) (الكَدْح): العمل والسعي والكد والكسب.

وتستطيعون أن تروا مصداق هذه الكلمات إذا نظرتم إلى واقعنا المعاصر، إلى المبشرين بالنظريات الغربية الذين يريدون أن يجعلوا من أمتنا مسخًا مشوهًا للفكر الغربي"[١].

ومن الأحاديث التي فيها: الحثُّ على عمارة الأرض وتنميتها -حتى ولو كانت في آخر أيامها- قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة**[٢] **فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها**»[٣].

وهو مبالغة في الحثِّ على غرس الأشجار، وحفر الأنهار؛ لتبقى هذه الدار عامرة إلى آخر أمدها المحدود المعدود المعلوم عند خالقها جَلَّ وَعَلَا، فكما غرس لك غيرُك فانتفعت به، فاغرس لمن يجيء بعدَك؛ لينتفعَ -وإن لم يبق من الدنيا صُبَابَة-[٤].

---

(١) الأعمال الكاملة، لجمال الدين الأفغاني، أ.د محمد عمارة (ص:٥٣٣).

(٢) "(الفَسِيلُ): صغار النخل، وهي: الوَدِيُّ، والجمع: فُسْلَان، مثل: رغيف ورغفان، الواحدة: فَسِيلَة، وهي التي تقطع من الأُمِّ، أو تقلع من الأرض فتغرس. و(رجل فَسْل): رديء. المصباح المنير، مادة: (فسل) (٤٧٣/٢).

(٣) أخرجه أحمد [١٢٩٨١]، وعبد بن حميد [١٢١٦]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٤٧٩]، والبزار [٧٤٠٨]. قال الهيثمي (٦٣/٤): "رواه البزار، ورجاله أثبات ثقات، لعله أراد بقيام الساعة: أمارتها". وأخرجه أيضًا: ابن الأعرابي في (معجمه) [١٧٩]، والضياء [٢٧١٤]، وقال: "إسناده صحيح".

(٤) فيض القدير (٣٠/٣). و(الصَّبَابة) -بالفتح-: رقة الشوق وحرارته. و(الصُّبَابة) -بالضم-: بقية الماء واللبن وغيرهما تبقى في الإناء والسقاء. والمعنى: وإن لم يبق من الدنيا إلا الوقت اليسير.

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة**» (١).

وفي رواية: عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، وما أكل السَّبُعُ منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يَرْزَؤُهُ أحد إلا كان له صدقة**» (٢).

ففيه: حثٌّ على عمارة الأرض، ولو كان المنتفع من الزرع البهائم لنال الزارعَ الأجرُ. ولكن عمارة الأرض لا تعني: الركون إلى الدنيا، والغفلة عن الآخرة، ولكن المسلم يقف موقف الموازنة بين المتطلبات الدنيوية -وما تقتضيه من الوفاء بالحقوق تجاه الآخرين-، وبين العمل للآخرة، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص:٧٧].

والأحاديث الدالة على التقلل من الدنيا والزهد بها (٣) كثيرة، فمنها: قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف**

---

(١) صحيح البخاري [٢٣٢٠]، مسلم [١٥٥٣].

(٢) صحيح مسلم [١٥٥٢]. قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ولا يرزؤه» أي: لا ينقصه ويأخذ منه.

(٣) يعني: من حيث اعتبار ما يصيب المكلف منها بسبب جعله إياها غاية، واتباعه هواه وشهواته.

تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء» [1]، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا يزال قلب الكبير شابًّا في اثنتين: في حب الدنيا وطول الأمل»** [2].

وفي رواية: **«قلب الشيخ شاب على حب اثنتين: حب العيش، والمال»** [3].

وفي رواية: **«يهرم ابن آدم وتَشِبُّ منه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر»** [4].

كما أن (حبَّ الدنيا) من أسباب انحطاط الهمم عن طلب الهداية.

وقد بيَّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن حبَّ الدنيا والتنافس عليها من أسباب الضعف، والاختلاف، والتَّفرق، وضياع العمر. وحذَّرنا من هذا المرض الخطير الذي يصيب الأفراد والجماعات حيث قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»**، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: **«بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم،**

---

(١) صحيح مسلم [٢٧٤٢].

(٢) صحيح البخاري [٦٤٢٠]. قوله: «قلب الكبير»، أي: الشيخ. «في اثنتين»، أي: في خصلتين. «شابًّا» سماه شابًّا؛ لقوة استحكامه في محبة المال. (وطول الأمل) المراد بالأمل هنا: طول العمر.

(٣) صحيح مسلم [١٠٤٦]. قال الإمام النووي: "هذا مجاز واستعارة، ومعناه: أن قلب الشيخ كامل الحب للمال، محتكم في ذلك، كاحتكام قوة الشاب في شبابه. قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وتشب منه اثنتان» -بفتح التاء وكسر الشين-، وهو بمعنى: قلب الشيخ شاب على حب اثنتين" شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٣٨/٧).

(٤) صحيح مسلم [١٠٤٧].

وليقذفن الله في قلوبكم الوهن»، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «**حب الدنيا، وكراهية الموت**»[(١)].

وفي رواية: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول لثوبان: «**كيف بك يا ثوبان إذا تداعت عليكم الأمم كتداعيكم على قصعة الطعام تصيبون منه؟**»، قال ثوبان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أمن قلة بنا؟ قال: «**لا، أنتم يومئذ كثير، ولكن يلقى في قلوبكم الوهن**»، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «**حبكم الدنيا وكراهيتكم القتال**»[(٢)].

وعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج يومًا، فصلى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر، فقال: «**إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض -أو مفاتيح الأرض- وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها**»[(٣)].

كما أنَّ حبَّ الدنيا والطمعَ فيها، والحرصَ على ما فيها من متاعٍ زائل يورثُ الهموم والأحزان.

---

(١) أخرجه الطيالسي [١٠٨٥]، وابن أبي شيبة [٣٧٢٤٧]، وأحمد [٢٢٣٩٧]، وأبو داود [٤٢٩٧]، وابن الأعرابي [٢١٧٠]، وأبو نعيم في (الحلية) (١/١٨٢)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٨٨٧].

(٢) أخرجه أحمد [٨٧١٣]، قال الهيثمي (٧/٢٨٧): "رواه أحمد والطبراني في (الأوسط) بنحوه، وإسناد أحمد جيد".

(٣) صحيح البخاري [١٣٤٤، ٣٥٩٦، ٤٠٨٥، ٦٤٢٦، ٦٥٩٠]، مسلم [٢٢٩٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وانما تحصل الهموم والغموم والأحزان من جهتين:

إحداهما: الرغبة في الدنيا والحرص عليها.

والثاني: التقصير في أعمال البرِّ والطاعة"(١).

إن الْمُنْهَمِكَ في الدنيا، الْمُكِبَّ على غرورها، الْمُحِبَّ لشهواتها، يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت، فلا يذكره، وإذا ذُكِّرَ به كرهه ونفر منه، أولئك هم الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ فيهم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [الجمعة: ٨].

ثم إن الناس -كما قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ- إما منهمك، وإما تائب مبتدئ، وإما عارف منته.

أما المنهمك فلا يذكر الموت، وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه، ويشتغل بمذمته، وهذا يزيده ذكر الموت من الله عَزَّوَجَلَّ بعدًا.

وأما التائب فإنه يكثر من ذكر الموت؛ لينبعث به من قلبه الخوف والخشية، فيفي بتمام التوبة. وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة، وقبل إصلاح الزاد، وهو معذور في كراهة الموت، ولا يدخل هذا تحت قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من كره لقاء الله كره الله لقاءه**»؛ فإن هذا ليس يكره الموت ولقاء الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما يخاف فوت لقاء الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقصوره وتقصيره، وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلًا بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه، فلا يعد كارهًا للقائه.

---

(١) عدة الصابرين (ص:٢٥٦).

وعلامة هذا: أن يكون دائم الاستعداد له لا شغل له سواه وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا.

وأما العارف فإنه يذكر الموت دائمًا؛ لأنه موعد لقائه لحبيبه، والْمُحِبُّ لا ينسى قَطُّ موعد لقاء الحبيب. وهذا في غالب الأمر يستبطئ مجيء الموت، ويحب مجيئه؛ ليتخلص من دار العاصين، وينتقل إلى جوار رب العالمين.

كما روي عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه لما حضرته الوفاة قال: حبيب جاء على فاقة(١)، لا أفلح من ندم؛ اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إليَّ من الغنى، والسقم أحب إليَّ من الصحة، والموت أحب إليَّ من العيش، فسهل عليَّ الموت حتى ألقاك.

فإذن: التائب معذور في كراهة الموت.

وهذا معذور في حب الموت وتمنيه.

وأعلى منهما رتبة: من فوَّض أمره إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فصار لا يختار لنفسه موتًا ولا حياة، بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه جَلَّوَعَلَا، فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا، وهو الغاية والمنتهى(٢).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٧٢٠٣]، والحاكم [٨٥٣٣] وصححه، ووافقه الذهبي. كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٢٨٢/١)، وابن عساكر (٢٩٧/١٢). ونحوه عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقد أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٢٣٩/١)، وانظر: جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (٢٢٦/١)، وسيأتي ذكر ذلك في (حياة البرزخ).

(٢) إحياء علوم الدين (٤٤٩/٤-٤٥٠).

ثم إن أنجع طريق في ذكر الموت: أن يُكْثِرَ ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله، فيتذكَّر موتهم ومصارعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم، ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم، وكيف تبدَّدت أجزاؤهم في قبورهم، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم، وانقطعت آثارهم، وأنه مثلهم وستكون عاقبته كعاقبتهم. فملازمة هذه الأفكار مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يجدد ذكر الموت في القلب، فيستعد له، ويتجافى عن دار الغرور، ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد من مفارقته.

وقال عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غاديًا أو رائحًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، تضعونه في صدع من الأرض، قد توسد التراب، وخلف الأحباب، وقطع الأسباب[1].

وليس الموت نهاية لرحلة الإنسان -كما يظن الملاحدة- حيث قالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام:٢٩]، ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية:٢٤]، فالموت ليس الخاتمة الأبدية لرحلة الإنسان، وإنما ينتقل الإنسان من حياة إلى أخرى، هذه هي الحقيقة عرفها المسلمون من كتاب ربهم جَلَّ وَعَلَا، ومن سنة نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وغابت عن كثيرين، حتى عاينوا الحقيقة عند حضور الموت، وتمنوا الرجوع إلى الدنيا، كما أخبر الحق جَلَّ وَعَلَا عن عاقبتهم بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾

(١) إحياء علوم الدين (٤/٤٥٢)، موعظة المؤمنين (ص:٣٢١).

لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٤]. وأخبر عن تحسرهم بقوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ٥٦ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٥٧ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٩﴾ [الزمر:٥٦-٥٩].

وينتقل الإنسان بعد الموت إلى دار البرزخ، وهي الدار الفاصلة بين الدنيا والآخرة، ينتقل من دار الزرع إلى دار الحصاد، من دار الفناء إلى دار البقاء، من دار التكليف إلى دار الثواب والعقاب، وسيأتي بيان ذلك مفصلًا في (حياة البرزخ).

والذين يركنون إلى الدنيا، ويطمئنونَ إليها، ويُكثرونَ من التمتع بنعيمها، يُضَيَّقُ عليهم يوم القيامة، كما جاء في الحديث: عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: تَجَشَّأَ رَجُلٌ عند النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**كُفَّ عنَّا جُشَاءَكَ؛ فإنَّ أَكْثَرَهُمْ شِبَعًا في الدُّنْيا أطْوَلُهُمْ جُوعًا يوم القيامة**»(١)، كان ذلك الرَّجلُ يُخْرِجُ الجُشَاءَ من صَدْره، وهو صوتٌ مع ريحٍ يَخْرُجُ منه عند الشِّبَعِ.

---

(١) الحديث مروي عن: ابن عمر، وأبي جحيفة، وغيرهما. حديث ابن عمر: أخرجه ابن ماجه [٣٣٥٠]، والترمذي [٢٤٧٨]، وقال: "حسن غريب" وأخرجه أيضًا: الطبراني في (الأوسط) [٤١٠٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٥٢٥٩]. حديث أبي جحيفة: أخرجه الطبراني في (الأوسط) [٣٧٤٦،=

وقيل: عند امتلاء الْمعِدَة.

والنهي عن الْجُشَاءِ هو النهي عن الشبع؛ لأنه السبب الجالب له. كما أخبر أنَّ أصحابَ المال الكثير، والمتاع الدنيويّ الواسعِ يكونونَ أقلَّ الناس أجرًا يوم القيامة، ما لم يكونوا قد بذلوا أموالَهم في سُبُلِ الخيرات، كما جاء في (الصحيحين): عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرجت ليلة من الليالي، فإذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمشي وحده، وليس معه إنسان، قال: فظننت أنه يكره أن يمشي معه أحد، قال: فجعلت أمشي في ظِلِّ الْقَمَر، فالتفت فرآني، فقال: «**من هذا؟**»، فقلت: أبو ذَرٍّ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قال: «**يا أَبَا ذَرٍّ، تَعَالَهْ**»، قال: فَمَشَيْتُ معه سَاعَةً، فقال: «**إِنَّ الْمُكْثِرِينَ هُمُ الْمُقِلُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا من أَعْطَاهُ اللهُ خَيْرًا، فَنَفَحَ فِيهِ يَمِينَهُ وَشِمَالَهُ، وبَيْنَ يَدَيْهِ وَوَرَاءَهُ، وعَمِلَ فيه خَيْرًا**»(١).

والمراد بالخير الأوَّل: المال، كقوله جَلَّ وَعَلَا عن الإنسان: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾، أي: المال.

و(نفح): أي: ضرب يديه فيه بالعطاء.

والمراد بالخير الثّاني: طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، والمراد بيمينه وشماله: جميع وجوه المكارم والخير.

=٨٩٢٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٥٢٥٤]. قال الهيثمي (١٠/٣٢٣): حديث: أبي جحيفة "رواه البزار بإسنادين، ورجال أحدهما ثقات".

(١) صحيح البخاري [٦٤٤٣]، مسلم [٩٤].

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات:٨]. الخير في الأصل عامٌّ، كما جاء في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة:٧]، ولكنَّه هنا خاصٌّ بالمال، فهو من العامِّ الّذي أريد به الخاصُّ، أو من قصر العامِّ على بعض أفراده؛ لأنَّ المال فردٌ من أفراد الخير، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ﴾ [البقرة:١٨٠]، أي: مالًا؛ لأنَّ عمل الخير يصحبه معه ولا يتركه.

وفي معنى هذا وجهان:

الأوَّل: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات:٨]، أي: بسبب حبِّه الخير لشديدٌ بخيلٌ، أي: شديد البخل. كما قال طرفة:

أرى الموت يَعْتامُ الكرامَ ويَصْطَفي ... عَقيلةَ مالِ الفاحشِ المتشدِّدِ(١)

والوجه الثَّاني: وإنَّه لشديد حبِّ المال.

قالهما ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ. وقال: كلاهما صحيحٌ، والواقع أنّ الثّاني يتضمَّن الأوَّل؛ لأنَّ من أحبَّ المال حبًّا جمًّا سيحمله حبُّه على البخل. ويشهد للوجه الثَّاني، قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ [الفجر:١٩-٢٠].

وفي هذا النَّصِّ مذمَّة حبِّ المال، وهو جبلَّةٌ في الإنسان، إلَّا من هذَّبه الإسلام، وإنما ينصبُّ الذَّمُّ على شدَّة الحبِّ التي تحمل صاحبها على ضياع الحقوق، أو تعدِّي

---

(١) ديوان طرفة بن العبد (ص:٢٦). و(يعتام): يختار، و(عقيلة مال): يأخذ صفوته وخياره، و(الفاحش المتشدد): شديد البخل.

الحدود[1]، أي: هو لحب المال، وإيثار الدنيا وطلبها شديد وقوي، وهو لحب عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، وشكر نعمه، وأداء حقه وحق العباد ضعيف متقاعس. وحب المال هو الذي حمله على تضييع الحقوق، وتعدي الحدود، حيث قدَّم شهوة نفسه على رضا ربّه. وكل هذا لأنه قد قَصُر نظره على هذه الدَّار، وغَفَلَ عن الدار الآخرة؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ حاثًّا له على الخوف من يوم الوعيد: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾ [العاديات:٩-١١]. فالمكثرون في الدنيا هم المقلُّونَ يوم القيامة. وقلَّةُ الحسناتِ تؤخرهُم، وتجعلُ الآخرينَ يتقدمونَهم، بعدما أن كانوا في الدنيا مُقَدَّمين، كما جاء في الحديث: عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْأَكْثَرُونَ هُمُ الْأَسْفَلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا مَنْ قَالَ بِالْمَالِ، هَكَذَا، وَهَكَذَا، وَكَسَبَهُ مِنْ طَيِّبٍ**»[2].

وأصله في (الصحيحين) باللفظ الذي تقدم.

وهو عند أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ بلفظ: «**الأكثرون هم الأسفلون يوم القيامة، إلا من قال بالمال هكذا وهكذا، وهكذا وهكذا، وقليل ما هم**»[3].

وأخبرنا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الذين أثقلوا أنفسهم بالنَّعيمِ الدنيوي، والغنى والثَّراء لا يستطيعونَ أن يتجاوزوا في يوم القيامة العقباتِ والأهوال، كما جاء في

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٤٦٧)، أضواء البيان (٩/ ٦٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه [٤١٣٠]، قال البوصيري في (الزوائد) (٤/ ٢٢٠): "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات" وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٣٣٣١].

(٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢١٣٩٩].

الحديث: عن أُمِّ الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قُلْتُ لأبي الدَّرْدَاءِ: مَالَكَ لا تَطْلُبُ [أي: مالًا أو منصبًا] كما يَطْلُبُ غَيْرُكَ؟ فقال: لأنِي سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَؤُودًا، لَا يَجُوزُهَا الْمُثْقَلُونَ**»، فأنا أُحِبُّ أن أَتَخَفَّفَ لتلك العقبة.

فقوله: «**الْمُثْقَلُونَ**»: أي: الحَامِلُونَ ثِقَلَ المال والذنوب، ومُؤْنَةَ الجاه، وسَعَةَ الحال، ولذا قيل: فاز الْمُخِفُّونَ وهلك الْمُثْقَلُونَ. وتلك العقبة هي الموت، ثم البعث، ثم الوقوف بين يدي الله عَزَّ وَجَلَّ، ثم الحساب، ثم الجنة أو النار. وكما أن أَمَامَ الإنسان عقبات أخروية فأمامه قبلها عقبات دنيوية.

وقد جاء في الحديث: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**» (١).

وعند الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره**» (٢).

قال ذو النون المصري رَحِمَهُ اللَّهُ: حق لابن آدم أن تبكي عليه السموات والأرض؛ لخفاء السابقة، وإبهام العاقبة، ومطالبة الشريعة، وثقل التكليف، وسقوط العذر، وكثرة ما أمامه من العقبات (٣).

---

(١) صحيح مسلم [٢٨٢٢].

(٢) صحيح البخاري [٦٤٨٧].

(٣) انظر: فيض القدير (٢/ ٤٣٠).

وكلما غدا المطلوب رفيعًا كلما صعب مسلكه، وكثرت عقباته، فلا يتحقق الاختبار في الدنيا إلا مع عقبات يبصرها الباحث عن الحقِّ والنَّجاة، والمخلص في سيره إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: «**عقبة**» أي: مرقى صعبًا من الجبال. و«**كؤودًا**» أي: شاقة فاصلة بينكم وبين دخول الجنة. قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمراد بها الموت والقبر والحشر وأهوالها وشدائدها، شبهها بصعود العقبة، ومكابدة ما يلحق الرجل من قطعها.

«**لا يجوزها**» أي: لا يتجاوز تلك العقبة على طريق السهولة.

وقول أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**فَأُحِبُّ أن أَتَخَفَّفَ**»، أي: بتركِ الطَّلَب، والصَّبْر على قِلَّةِ الْمُؤْنَة. ((**لِتِلْكَ الْعَقَبَة**))؛ لئلَّا يَحْصُلَ لي التَّعَبُ فيها"[(١)].

إن الناس كلما انفتحت عليهم الدنيا، وصاروا ينظرون إليها، فإنهم يخسرون من الآخرة بِقَدْرِ ما ربحوا من الدنيا؛ ولذلك قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ**»، يعني: ما أخاف عليكم الفقر، فالدنيا ستفتح. «**وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**»[(٢)]. وصدق الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالذي أهلكَ الناس اليوم: التنافسُ في الدنيا، وكونهم كأنهم إنما خلقوا لها لا أنها خلقت لهم، فاشتغلوا بما خلق لهم عما خلقوا له.

---

(١) انظر: الكاشف عن حقائق السنن (١٠/٣٢٩٩)، مرقاة المفاتيح (٨/٣٢٥٩).

(٢) صحيح البخاري [٤٠١٥، ٦٤٢٥]، مسلم [٢٩٦١].

ومن الناس من يذل نفسه لأجل المال، ويطلب من الناس وعنده ما يغنيه. وقد جاء في ذلك وعيد شديد، فقد جاء في الحديث: عن عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ سَأَلَ النَّاسَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَمَسْأَلَتُهُ**(١) **فِي وَجْهِهِ خُمُوشٌ، أَوْ خُدُوشٌ، أَوْ كُدُوحٌ»**، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا يُغْنِيهِ؟ قَالَ: **«خَمْسُونَ دِرْهَمًا، أَوْ قِيمَتُهَا مِنَ الذَّهَبِ»** (٢).

وعند ابن خزيمة: عن حبشي بن جنادة السلولي قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من سأل وله ما يغنيه فإنما يأكل الجمر»**. وقال زيد بن أخزم: من سأل من غير فقر، فإنما يأكل الجمر (٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«تَعِسَ**(٤) **عَبْدُ الدِّينَارِ، والدِّرْهَم، والقَطِيفَة، والخَمِيصَة، إن أُعْطِيَ رَضِيَ، وإن لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ»**(٥).

وأخبر الله جَلَّ وَعَلَا عن حال من شغله المتاع العاجل، وغفل عن الدار الآخرة حتى باغته الموت بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا

---

(١) أي: أثرها.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٩١]، وأحمد [٤٢٠٧]، وابن ماجه [١٨٤٠]، وأبو داود [١٦٢٦]، والترمذي [٦٥٠]، وقال: "حسن". وأخرجه أيضًا: البزار [١٩١٣]، والنسائي [٢٥٩٢]، والحاكم [١٤٧٩]، والشاشي [٤٧٨]، والطبراني في (الأوسط) [١٦٨٦]، والبيهقي [١٣٢٠٧].

(٣) صحيح ابن خزيمة [٢٤٤٦].

(٤) أي: شقي.

(٥) صحيح البخاري [٢٨٨٦، ٢٨٨٧، ٦٤٣٥].

عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر:١-٨]. ولم يذكر المتكاثر به؛ ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المفتخرون، من متاع الحياة الدنيا، وقد خلا عن الإخلاص والشكر والطاعة.

فاستمرت غفلتكم ولهوتكم وتشاغلكم عن طاعة ربكم، وعما ينجيكم من سخطه عليكم. ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ يعني: حتى صرتم إلى المقابر، فدفنتم فيها، وسيأتي بيان ذلك في (حياة البرزخ).

قال أبو حازم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "عجبًا لقوم يعملون لدار يرحلون عنها كل يوم مرحَلة، ويَدعون أن يعلموا لدارٍ يرحلون إليها كلَّ يوم مرحلة"(١).

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ الدار الآخرة للذين لا يتعالون على الخلق، ولا يركبون الضلال، ولا يأنفون من اتباع الحق، ولا يفسدون في الأرض فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٨٣﴾ [القصص:٨٣]. قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "جمع بين إرادة الفساد والعلو وبين أَنَّ الدَّارَ الآخرة للخالي عن الإرادتين جميعًا فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ [هود:١٥-١٦]. وهذا أيضًا متناول بعمومه لحب الجاه؛ فإنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا، وأكثر زينة من زينتها"(٢).

---

(١) صفة الصفوة (٣٩٠/١).

(٢) إحياء علوم الدين (٢٧٨/٣).

"وإذا نفى الله عَزَّوَجَلَّ عنهم إرادة العلو والفساد، فهو من باب أولى ألا يكون منهم علو ولا فساد، فهم لا يعلون في الأرض، ولا يفسدون، ولا يكون منهم علو ولا فساد، فهم لا يعلون في الأرض، ولا يفسدون، ولا يريدون ذلك؛ لأن الناس ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

١ - قسم علا وفسد وأفسد، فهذا اجتمع في حقِّه الإرادة والفعل.

٢ - وقسم لم يرد الفساد ولا العلو فقد انتفى عنه الأمران.

٣ - وقسم ثالث يريد العلو والفساد ولكن لا يقدر عليه. فهدا الثالث بين الأول والثاني، لكن عليه الوزر؛ لأنه أراد السوء، فالدار الآخرة إنما تكون ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: تعاليًا على الحق، أو على الخلق، ﴿وَلَا فَسَادًاۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾"(١).

إنَّ الإنسان يجازى في الآخرة على أعماله التي قدمها في الدنيا. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ﴾ [آل عمران:٣٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران:١٨٥].

فمن أُبعد عن النَّار فقد ظفر بالخير، وحصل له الفوز المطلق.

---

(١) شرح رياض الصالحين، لمحمد بن صالح العثيمين (٣/٥٣٩).

وعبَّر عن النَّجاة من النَّار بالزَّحزحة؛ لأنَّ الذي يعمل الصَّالحات يُبعد عن السُّقوط فيها، ويهوي بها آخرون؛ لأنَّ أعمالهم في الدُّنيا تسوق إليها، فهي تخالفُ أمرَ الله جَلَّ وَعَلَا بالاستقامة على طاعته، واجتنابِ ما حذَّرنا منه في الدنيا من الذُّنوب والمعاصي.

المبحث الثالث:

لباس التقوى

الإرشاد إلى أسباب النجاة

أولًا: تعريف التقوى:

والتقوى في اللغة هي: الوقاية والصيانة، بمعنى: أن يجعل الإنسان بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية.

والتقوى في الاصطلاح: صيانة المرء نفسه عما يضره في الآخرة، وذلك بالتزام ما أمر به الشارع، والانتهاء عما نهى، والعمل الصالح.

وعرَّفها الحارث المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: التقوى التي أعدَّ الله عَزَّوَجَلَّ الجنة لأهلها هي: "اتقاءُ الشركِ فما دونه، من كل ذنب نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه، أو تضييع واجب مما افترضه الله عَزَّوَجَلَّ"(١).

وعرَّفها الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: "حدُّ التقوى الجامع: تنزيه القلب عن شرٍّ لم يسبق عنك مثله، بقوة العزم على تركه، حتى يصير ذلك وقاية بينك وبين كل شرٍّ"(٢).

وكلمة: (التقوى) تقتضي عند إفرادها: "فعل ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به، وترك ما نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه، وتقتضي عند اقترانها بفعل المأمور: الانتهاء عن المحظور"(٣).

فتقوى العبد لربه جَلَّوَعَلَا بمعنى: أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من غضب الله عَزَّوَجَلَّ وسخطه وقاية؛ تَقيه من ذلك، بفعل طاعته، واجتناب معاصيه. وتقوى الله عَزَّوَجَلَّ بمعنى: أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا ينسى، وأن يُشكر فلا يُكفر. وهي: الخوف من الجليل، مع الرَّجاء والمحبة، والعمل بالتنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل.

---

(١) الرعاية لحقوق الله، لأبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي (ص:٣٤).

(٢) منهاج العابدين (ص:١٣٠).

(٣) مدارج السالكين (١/٣١٣).

ثانيًا: بيان مراتب التقوى:

ومراتب التقوى متعددة:

فأولاها (وهي أدناها): التوقي عن الشرك.

والثانية: التزام ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ، واجتناب ما نهى عنه من الكبائر، ومن ذلك: عدم الإصرار على الصغائر.

والثالثة: اتقاء الشبهات:

وقد أرشد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى البعد الشبهات؛ حتى لا يصادف المسلمُ الحرامَ المحض، فيعثر ويضل، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فمن اتقى الشُّبُهَاتِ استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشُّبُهَاتِ وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حِمَى، ألا وإن حِمَى الله محارمه**»[(١)].

فينبغي لمن أراد السلامة والعافية أن يتقي الشبهات؛ براءة لدينه وعرضه، وأن يأخذ بالأحوط ما أمكن، حتى يكون أبعد عن الحرام وما يوصل إليه، ويسعد بالحلال، فيحيا حياة طيبة، وينجو في الآخرة من النيران.

والرابعة: أن تكون محبَّة الله عَزَّوَجَلَّ مقدَّمة على جميع محابِّ العبد، وأن العبد مراقبًا لمولاه جَلَّ وَعَلَا في جميع الأحوال، وأن يكون أمر الله عَزَّوَجَلَّ ونهيه، مقدَّمًا على كلِّ أمرٍ ونهي.

---

(١) صحيح البخاري [٥٢]، صحيح مسلم [١٥٩٩].

وقد قيل: إنَّ أعلى مراتب التقوى: الإعراض عما سوى الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد جعل البعضُ التقوى على ثلاث مراتب:

الأولى: وقاية النفس عن الكفر، وهذه المرتبة للعموم.

الثانية: وقاية النفس عن المعاصي، وهي للخواص.

الثالثة: وقاية النفس عما سوى الله عَزَّوَجَلَّ، وهي لخواص الخواص(١).

وقد فصل القول في ذلك: الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (منهاج العابدين)(٢).

والألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تفسيره)(٣).

وسيأتيك مزيد من البيان في مبحث الإخلاص وبيان رتبه.

"وإذا أضيفت التقوى إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فإن المعنى: اتقوا سخطه وغضبه، وهو أعظم ما يتقى، وعن ذلك ينشأ عقابه الدنيوي والأخروي، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران:٢٨]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾ [المدثر:٥٦]، فهو جَلَّوَعَلَا أهل أن يخشى ويهاب، ويجل ويعظم في صدور عباده، حتى يعبدوه ويطيعوه؛ لما يستحقه من الإجلال والإكرام، وصفات الكبرياء والعظمة، وقوة البطش، وشدة البأس.

وتارة تضاف التقوى إلى عقاب الله عَزَّوَجَلَّ، وإلى مكانه، كالنار، أو إلى زمانه، كيوم القيامة، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ۝١٣١﴾ [آل عمران:١٣١]،

---

(١) انظر: الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (١/١١٣)، المجالس الوعظية (١/٤٦٢).

(٢) انظر: منهاج العابدين (ص:١٢٩-١٣٠).

(٣) انظر: روح المعاني (١/١١١).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة:٢٨١]، ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة:٤٨]"(١).

ثالثًا: بيان مكانة التقوى:

أرشد الله جَلَّوَعَلَا العباد إلى أن خير ما يستصحب ليوم المعاد: التقوى، فقال: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾ [البقرة:١٩٧].

والإنسان لا بدَّ له من زاد في سفره الطويل في الدنيا، ويحتاج فيه إلى الطعام والشراب وإلى ما يلزمه من المركب، والسفر من الدنيا إلى الآخرة، لا بدَّ فيه كذلك من الزاد، وهو تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، والعمل بطاعته، واتقاء المحظورات. وهذا الزاد الذي يحمله إلى الدار الآخرة، من تقوى الله عَزَّوَجَلَّ والعمل الصالح، أفضل من الزاد الأول؛ لأنَّ زاد الدنيا قد يوصل إلى مراد النفس وشهواتها، أو يكون معينًا على بلوغ نفع آني ومرحلي، وزاد الآخرة يوصل إلى النعيم المقيم في الآخرة. وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ [الأعراف:١٦٩]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۖ﴾ [البقرة:١٠٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩﴾ [الحشر: ١٨-١٩].

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/٣٩٨-٣٩٩).

والعباد صائرون إلى الله عَزَّوَجَلَّ بعد الممات، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف:١٢-١٤]، أي: لصائرون إليه بعد مماتنا، وإليه سيرنا الأكبر. وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبَّه بالزاد الدنيوي على الزاد الأخروي في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧]، وباللباس الدنيوي على الأخروي في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦]. لما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ اللباس الحسي نبَّه العباد مرشدًا إلى اللباس المعنوي، وهو تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، وذكر أن ذلك خير لهم وأنفع من اللباس الحسي، فكما يحرص العبد على اللباس الحسي؛ ليواري به سوءَته، ويستر به عيوبه الظاهرة، فالأولى به كذلك أن يحرص على ما هو أنفع له، وهو لباس التقوى الذي يقيه من عذاب النار في الآخرة، ويستر عيوبه الباطنة، و﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾؛ لأن الظاهر محلُّ نَظَر الخلق، والباطن محلُّ نَظَر الحقِّ جَلَّوَعَلَا، والعيوب الباطنة أفحش من العورات الظاهرة.

قال أبو العتاهية:

إذا الْمَرْءُ لم يَلْبَسْ ثِيابًا من التُّقى ... تَقَلَّبَ عُرْيَانًا وإِنْ كان كَاسِيا[1]

---

(١) ديوان أبي العتاهية (ص:٤٨٢)، ط:١، دار بيروت للطباعة والنشر [١٤٠٦هـ].

قال أبو علي الفارسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "معنى الآية: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ خير لصاحبه إذا أخذ به، وأقرب له إلى الله عَزَّوَجَلَّ مما خلق من اللباس والرياش الذي يتجمل به، وأضيف اللباس إلى التقوى كما أضيف إلى الجوع في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ [النحل:١١٢]"(١)، أي: فهو استعارة مكنية وتخييلية، بأن يتوهم للتقوى حالة شبيهة باللباس تشتمل على جميع بدنه، بحسب الورع والخشية من الله عَزَّوَجَلَّ، اشتمال اللباس على اللابس، أو من قبيل: (لجين الماء)(٢).

وإن من عيوب النفس: اشتغالها بإصلاح الظَّاهِر الذي هو موضع نظر الخلق، وغفلتها عن إصلاح الباطن الذي هو موضع نظر الله عَزَّوَجَلَّ، والذي هو أولى بالإصلاح من الظَّاهِر. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء:١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات:١١].

---

(١) الحجة للقراء السبعة، لأبي علي الفارسي (١٣/٤).

(٢) أي: فيكون تشبيهًا مؤكدًا، وليس استعارة. وقد أخذ من قول الشاعر: (والرِّيحُ تَعْبَثُ بِالْغُصُونِ وقد جَرَى***ذَهَبُ الأَصِيلِ على لُجَيْنِ الْمَاءِ). قال في (معاهد التنصيص) (٢/٩٥-٩٩): "البيت من (الكامل)، ولا أعرف قائله. و(عبث الريح بالغصون) عبارة عن إمالتها إياها، و(الأصيل): هو الوقت من بعد العصر إلى الغروب، ويوصف بالصفرة. والشاهد في البيت: حذف أداة التشبيه، ويسمى: التشبيه المؤكد، وهو هنا تشبيه صفرة الأصيل بالذهب، وبياض الماء وصفائه باللجين، وهو الفضة" وانظر: المطول (ص:٣٤٤).

وقد أخرج (مسلم) من حديث: أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم**»، وأشار بأصابعه إلى صدره[1].

وفي رواية عند (مسلم) أيضًا: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[2]. وسيأتيك بيان ما يستفاد من الحديث مفصلًا في (أعمال القلوب).

ومحل التقوى هي: القلوب الطاهرة، ومنها تصدر: الطاعات الظاهرة.

فالقلب هو موضع نظر الرب جَلَّ وَعَلَا.

وإنَّ لباس التقوى يقي الإنسان من النَّار، ويقرب العبد من الرحمن جَلَّ وَعَلَا.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: "التقوى كنزٌ عزيز، فلئن ظفرتَ به، فكم تجدُ فيه من جوهرٍ شريف، وعِلْقٍ نفيس، وخيرٍ كثير، ورزقٍ كريم، وفوزٍ كبير، وغُنْمٍ جسيم، وملك عظيم، وكأنَّ خيرات الدنيا والآخرة جمعت فجعلت تحت هذه الخصلة الواحدة التي هي: التقوى، فتأمل ما في القرآن من ذكرها، كم علَّقَ بها من خيرٍ، وكم وعد عليها من ثواب وأجرٍ، وكم أضاف إليها من سعادة.

وأنا أعُدُّ لك من جملتها اثنتي عشر خصلة:

---

(١) صحيح مسلم (٣٣) [٢٥٦٤].

(٢) صحيح مسلم (٣٤) [٢٥٦٤].

أولها: المدحة والثناء: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾ [آل عمران:١٨٦].

الثاني: الحفظ والحراسة من الأعداء: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾ [آل عمران:١٢٠].

الثالث: التأييدُ والنُّصرة: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل:١٢٨]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾ [البقرة:١٩٤].

والرابع: النجاة من الشدائد: والرزق من الحلال: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق:٢-٣].

والخامس: إصلاح العمل: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

والسادس: غفران الذنوب: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ [الأحزاب:٧١].

والسابع: محبة الله جَلَّوَعَلَا: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٤﴾ [التوبة:٤].

والثامن: القبول: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧﴾ [المائدة:٢٧].

والتاسع: الإكرام والإعزاز: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات:١٣].

والعاشر: **البشارة عند الموت**: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [يونس:٦٣-٦٤].

والحادي عشر: **النجاة من النار**: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [مريم:٧٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧﴾ [الليل:١٧].

والثاني عشر: **الخلود في الجنة**: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران:١٣٣].

فهذا بيان كلِّ خيرٍ[(١)] وسعادةٍ في الدارين تحت خصلة واحدة، وهي التقوى، فلا تنس نصيبك منها أيها الرجل منها.

ثم الذي يختص بهذا الشأن من أمر العبادة ثلاثة أصول:

أحدها: **التوفيق والتأييد أوَّلًا**: وهو للمتقين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [النحل:١٢٨].

والثاني: **إصلاح العمل، وإتمام التَّقصير**: وهو للمتقين، كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [الأحزاب:٧١].

والثالث: **قبول العمل**: وهو للمتقين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧﴾ [المائدة:٢٧].

ومدار العبادة على هذه الأصول الثلاثة: التوفيق أوَّلًا حتى يعمل، ثم الإصلاح للتقصير حتى يتمَّ، ثم القبول إذا تمَّ.

---

(١) في نسخة: "كله خير".

وهذه الثلاثة التي يتضرع فيها العابدون إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويسألون فيقولون: ربنا وفقنا لطاعتك، وأتمم تقصيرنا، وتقبل منا، وقد وعد الله عَزَّوَجَلَّ ذلك كله على التقوى، وأكرم بها المتقي، سأل أو لم يسأل، فعليك بهذه التقوى إن أردتَ عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، بل أردت سعادة الدنيا والعقبى"(١).

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنهُ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢]: هو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر(٢).

قيل: إن هذه الآية لما نزلت قالوا: «**يا رسول الله من يقوى لهذا**» فنزلت قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن:١٦]، فنسخ هذه بناء على أن الأمر في الآيتين

---

(١) منهاج العابدين (ص:١٢٢-١٢٥).

(٢) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [٢٢]، وابن وهب في (التفسير) (١٢١/١)، وعبد الرزاق الصنعاني في (التفسير) (٤٠٧/١)، وابن أبي شيبة [٣٤٥٥٣]، وأبو داود في (الزهد) [١٤٥]، والنسائي في (الكبرى) [١١٨٤٧]، وابن أبي حاتم في (التفسير) (٧٢٢/٣)، والحاكم، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. قال الهيثمي حديث: عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: "رواه الطبراني بإسنادين، رجال أحدهما رجال الصحيح، والآخر ضعيف". كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٧/ ٢٣٨)، وقد رُوِيَ مرفوعًا. قال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ (٨٧/٢): "والأظهر أنه موقوف". وانظر: تفسير القرآن، لابن المنذر (٣١٧/١)، الدر المنثور (٢٨٣/٢).

للوجوب(١)، وعلى اختلاف المراد من التقويين. والحق أن هذا بيان لا نسخ، كما حققه المحققون، ولكن شاع عند المتقدمين إطلاق النسخ على ما يشمل البيان(٢).

وتقوى الله عَزَّوَجَلَّ هي النَّافعة في الدَّارين، وهي الرَّافعة في الدَّارين، وهي الموصلة إلى خير الدَّارين، وهي الدَّافعة لشرِّ الدَّارين.

والتقوى وصية الله عَزَّوَجَلَّ للأولين والآخرين، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء:١٣١]، "يعني: أنها وصية قديمة ما

---

(١) قال ابن أبي حاتم رَحِمَهُٱللَّهُ: حدثنا أبو زرعة، حدثني يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني ابن لهيعة، حدثني عطاء -هو ابن دينار- عن سعيد بن جبير رَحِمَهُٱللَّهُ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران:١٠٢]، قال: لما نزلت الآية اشتد على القوم العمل، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم، وتقرحت جباههم، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ تخفيفًا على المسلمين: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، فنسخت الآية الأولى. تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٧٢٢/٣). وروي عن أبي العالية، وزيد بن أسلم، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حيان نحو ذلك. انظر: تفسير ابن كثير (١٤٠/٨-١٤١)، التلخيص في تفسير القرآن، لموفق الدين أبي العباس الكواشي (ص:١٦٠)، وانظر ذلك مفصلًا في (تفسير الطبري) (٦٧/٧-٦٩). وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في (ناسخه) من طريق: علي عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢]، قال: لم تنسخ ولكن ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾: أن يجاهدوا في الله عَزَّوَجَلَّ حق جهاده، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط، ولو على أنفسهم وآبائهم وأمهاتهم. الدر المنثور (٢٨٣/٢)، تفسير ابن المنذر (٣١٨/١)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٧٢٢/٣)، تفسير الطبري (٦٧/٧).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/٤).

زال يوصي الله عَزَّوَجَلَّ بها عباده، لستم بها مخصوصين؛ لأنهم بالتقوى يسعدون عنده، وبها ينالون النجاة في العاقبة"(١).

قال بعض العارفين: هذه الآية هي رحى آي القرآن؛ لأن جميعه يدور عليها(٢).

قال الإمام أبو حامد الغزالي رَحِمَهُٱللَّهُ: "أليس الله عَزَّوَجَلَّ أعلم بصلاح العبد من كلِّ أحد؟ أوليس هو هو أنصح له، وأرحم وأرأف من كلِّ أحد؟ ولو كانت في العالم خصلةٌ هي أصلح للعبد، وأجمعُ للخير، وأعظمُ للأجر، وأجلُّ في العبودية، وأعظم في القَدْر، وأولى بالحال، وأنجحُ في المآل(٣) من هذه الخصلة التي هي: (التقوى) لكان الله عَزَّوَجَلَّ أمر بها عبادَه، وأوصى خواصَّه بذلك؛ لكمال حكمته، وسعة رحمته، فلما أوصى بهذه الخصلة الواحدة، وجمع الأولين والآخرين من عباده في ذلك، واقتصر عليها، علمت أنها الغاية التي لا متجاوز عنها، ولا مقصد دونها، وأنه جَلَّوَعَلَا قد جمع كل نصحٍ ودلالة، وإرشادٍ وتنبيهٍ وتأديب، وتعليمٍ وتهذيبٍ في هذه الوصية الواحدة، كما يليق بحكمته ورحمته، وعلمتَ لأن هذه الخصلة، التي هي: (التقوى)، هي الجامعةُ لخير الدنيا والآخرة، الكافية لجميعِ المهمات، المبلِّغة إلى أعلى الدرجات في العبودية"(٤).

---

(١) الكشاف (٥٧٤/١)، وانظر: الرعاية لحقوق الله، لأبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي (ص:٣٤).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٤٠٨/٥).

(٣) في نسخة: "وأنجح للآمال".

(٤) منهاج العابدين (ص:١٢٦).

ولما كان أصل التقوى لله عَزَّوَجَلَّ: الخوف منه، وعد الله عَزَّوَجَلَّ المتقين بالأمن عوضًا مما أخافوا أنفسهم به من عقابه، وأزال عنهم الخوف والحزن(١)، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٣٥﴾ [الأعراف:٣٥]، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [يونس:٦٢-٦٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝٤٥ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦﴾ [الحجر:٤٥-٤٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ۝٥١ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٢ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٣ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ۝٥٤ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥﴾ [الدخان:٥١-٥٥].

وفي الحديث: «**يقول الله** عَزَّوَجَلَّ: **وعِزَّتِي لا أجمعُ على عبدي خوفين، ولا أجمع له أمنين، إذا أَمِنَنِي في الدنيا أَخَفْتُهُ يوم القيامة، وإذا خافني في الدنيا أَمَّنْتُهُ يوم القيامة**» (٢).

---

(١) انظر: الرعاية لحقوق الله، لأبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي (ص:٣٥).

(٢) الحديث مروي عن الحسن مرسلًا، وعن أبي هريرة. حديث: الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٥٧]، والبزار [٨٠٢٨]، عن الحسن مرسلا. حديث: أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٥٨]، والبزار [٨٠٢٩]، وابن حبان [٦٤٠]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٧٥٩]، وابن عساكر في (معجمه) [١٤٢٨]. قال الهيثمي (٣٠٨/١٠): "رواهما البزار، عن شيخه: محمد بن يحيى بن ميمون، ولم أعرفه، وبقية رجال المرسل رجال الصحيح، وكذلك رجال المسند غير محمد بن عمرو بن علقمة، وهو حسن الحديث". وقال العراقي (ص:١٥١٠): "أخرجه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في الشعب من حديث: أبي هريرة، ورواه ابن المبارك في (الزهد)، وابن أبي الدنيا في كتاب: (الخائفين) من رواية: الحسن مرسلًا".

ولم تكرر وصية في الكتاب والسنة كما كررت الوصية بالتقوى فيهما، ووعد المتقي فيهما بالفرج والنصر، وجزيل الأجر.

وقد وصَّى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته بالتقوى في مناسبات كثيرة، فمن ذلك: ما جاء في الحديث: عن العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: وعظنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع؟ فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «**أوصيكم بتقوى الله والسمع؛ فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**»(١).

ومن وصايا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**اتَّقِ اللَّهَ حيثما كنتَ، وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحسنةَ تمحُها، وخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»(٢).

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتق الله**» وذلك بالإتيان بجميع الواجبات، والانتهاء عن سائر المنكرات؛ فإن التقوى أساس الدين، وبه يرتقي إلى مراتب اليقين، ثم التحقيق

---

(١) أخرجه أحمد [١٧١٤٤]، والدارمي [٩٦]، وأبو داود [٤٦٠٧]، والترمذي [٢٦٧٦] وقال: "حسن صحيح"، كما أخرجه: وابن حبان [٥]، والطبراني في (الكبير) [٦١٧]، والحاكم [٣٢٩]، وقال: "صحيح ليس له علة"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (السنن) [٢٠٣٣٨].

(٢) أخرجه أحمد [٢١٣٥٤]، والدارمي [٢٨٣٣]، والترمذي [١٩٨٧]، وقال: "حسن صحيح"، وأخرجه أيضًا: البزار [٤٠٢٢]، والحاكم [١٧٨]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. كما أخرجه: أبو نعيم في (الحلية) (٤/٣٧٨)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٧٦٦٣].

أن التقوى أدناها: التبرؤ عن الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وأعلاها: الإعراض عما سواه، وما بينهما مراتب بعضها فوق بعض، من ترك المحظور، ثم المكروه، ثم المباح مما لا يعني، ولله دَرُّ من قال:

مـن عَـرَفَ الله فـلم تُغْنِهِ معـرفةُ الله فـذاك الشَّـقِي
مـا يصنع العبد بِعِزِّ الْغِنَى؟ فـالْعِزُّ كُـلُّ الْـعِزِّ لِلْمُتَّقِي

و«**حيثما كنت**» أي: أي: في السر والعلانية، وفي الشدة والرخاء؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ عالم بسر أمرك، كما أنه مطلع على ظواهرك، فعليك برعاية دقائق الأدب في حفظ أوامره ومراضيه، والاحتراز عن مساخطه ومساويه[1].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتَّقِ اللَّهَ حيثما كنتَ**» هذه كلمة جامعة. وفي قوله: «**حيثما كنتَ**» تحقيق لحاجته إلى التقوى في السر والعلانية.

ثم قال: «**وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحسنةَ تمحُها**»، فإنَّ الطبيب متى تناول المريض شيئًا مضرًا أمره بما يصلحه. والذنب للعبد كأنه أمر حتم. فالكيس هو الذي لا يزال يأتي من الحسنات بما يمحو السيئات. وإنما قدم في لفظ الحديث: «**السَّيِّئَة**» -وإن كانت مفعوله-؛ لأن المقصود هنا: محوها، لا فعل الحسنة، فصار كقوله في بول الأعرابي: «**صبُّوا عليه ذَنُوبًا من ماء**»[2]. وينبغي أن تكون الحسنات من جنس السيئات؛ فإنه أبلغ في المحو والذنوب يزول موجبها بأشياء:

---

(١) مرقاة المفاتيح (٨/٣١٧٧-٣١٧٨).

(٢) والحديث في (صحيح الإمام البخاري) [٢٢٠، ٦١٢٨]: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: إن أعرابيًا بال في المسجد، فثار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دعوه، وَأَهْرِيقُوا على بوله ذَنُوبًا=

أحدها: التوبة.

والثاني: الاستغفار من غير توبة؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ قد يغفر له إجابة لدعائه، وإن لم يتب، فإذا اجتمعت التوبة والاستغفار فهو الكمال.

الثالث: الأعمال الصالحة المكفرة.."(١).

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات، فيرتفع إليه نور من الطاعات، وترك الشهوات، فتنمحي ظلمة المعصية بنور الطاعة، وإليه الإشارة بقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحسنة تمحُها**»، فإذن لا يستغني العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه، بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات.."(٢).

وقال في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ [النساء:١٧]: "معناه: عن قرب عهد بالخطيئة، بأن يتندم عليها، ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها، قبل أن يتراكم الرين على القلب، فلا يقبل المحو؛ ولذلك قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحسنةَ تمحُها**»؛ ولذلك قال لقمان عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لابنه: يا بني

=من ماء، أو سَجْلًا من ماء؛ فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين». وعند مسلم [٢٨٤]: عن أنس بن مالك، يذكر أن أعرابيًا قام إلى ناحية في المسجد فبال فيها، فصاح به الناس، فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «دعوه»، فلما فرغ أمر رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بِذَنُوبٍ فَصُبَّ على بوله». و«أهريقوا»: صبوا. و«سجلًا»: الدلو المتلئة ماء. و«ذنوبًا»: الدلو الكبير الممتلىء ماء.

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٦٥٥).

(٢) إحياء علوم الدين (٤/١٠).

لا تؤخر التوبة؛ فإن الموت يأتي بغتة، ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين:

أحدهما: أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي، حتى يصير رينًا وطبعًا، فلا يقبل المحو.

الثاني: أن يعاجله المرض أو الموت، فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو، فما هلك من هلك إلا بالتسويف، فيكون تسويده القلب نقدًا، وجلاؤه بالطاعة نسيئة، إلى أن يختطفه الموت، فيأتي الله عَزَّوَجَلَّ بقلب غير سليم، ولا ينجو ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء:٨٩]، فالقلب أمانة الله عَزَّوَجَلَّ عند عبده، والعمر أمانة الله عَزَّوَجَلَّ عنده، وكذا سائر أسباب الطاعة، فمن خان في الأمانة ولم يتدارك خيانته فأمره مخطر"(١).

وخير الدعاء وأنفعه للعبد: ما كان الرشيد الذي يستضاء فيه بأنوار الوحي، وهو الذي جاء في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وفيما أرشد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته إليه من جوامع كلمه، ومن ذلك: سؤال التقوى، كما في قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها**» (٢).

ومن دعاء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم إني أسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى**» (٣).

---

(١) المصدر السابق (١٢/٤).
(٢) صحيح مسلم [٢٧٢٢].
(٣) أخرجه مسلم [٢٧٢١].

ومن دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السفر: «**اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى**» الحديث (١).

وبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن التقوى هي السبيل الموصل إلى رضوان الله عَزَّ وَجَلَّ، وهي أعظم ما يدخل الناس الجنة، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سئل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: «**تقوى الله، وحسن الخلق**» الحديث (٢).

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تحت عنوان: (فائدة جليلة): "جمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين تقوى الله عَزَّ وَجَلَّ وحسن الخلق؛ لأن تقوى الله يصلح ما بين العبد وبين ربه جَلَّ وَعَلَا، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه"(٣).

والتقوى هي وصية الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لأقوامهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المؤمنون:٢٣]، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [الشعراء:١٠٦-١٠٨]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّآ

---

(١) أخرجه مسلم [١٣٤٢].

(٢) أخرجه أحمد [٧٩٠٧]، والبخاري في (الأدب) [٢٩٤]، وابن ماجه [٤٢٤٦]، والترمذي [٢٠٠٤] وقال: "صحيح غريب". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٤٧٦]، والحاكم [٧٩١٩] وقال: "صحيح الإسناد". ووافقه الذهبي. كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٥٠٢٥].

(٣) الفوائد، لابن القيم (ص:٥٤).

أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ [نوح:١-٣].

وقال عن هود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ۝١٢٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٢٦﴾ [الشعراء:١٢٤-١٢٦]، وقال عن صالح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٤٢ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ۝١٤٣ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٤٤﴾ [الشعراء:١٤٢-١٤٤]، وقال عن لوط عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٦١ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ۝١٦٢ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٦٣﴾ [الشعراء:١٦١-١٦٣]، وقال عن شعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٧٧ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ۝١٧٨ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٧٩﴾ [الشعراء:١٧٧-١٧٩]، وقال عن إلياس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٢٣ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤﴾ [الصافات:١٢٣-١٢٤].

والتقوى من أعظم علامات محبة الله عَزَّوَجَلَّ للعبد، كما جاء في الحديث: «**إن الله يحب العبد التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ**»(١).

وأكرم الناس عند الله عَزَّوَجَلَّ منزلة، وخيرهم مكانة هم المتقون، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات:١٣].

وفي الحديث: عن أبي نَضْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: حدثني من سمع خطبة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في وسط أيام التشريق فقال: «**يا أيها الناس، إن ربكم واحد وأباكم واحد، ألا لا**

(١) صحيح مسلم [٢٩٦٥].

فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أسود على أحمر، ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى، أَبَلَّغْتُ؟»، قالوا: بَلَّغَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.." الحديث[1].

وفي (الصحيح): عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قيل يا رسول الله: من أكرم الناس؟ قال: «**أتقاهم**»[2].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**قد أذهب الله عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية، وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، والناس بنو آدم وآدم من تراب**»[3].

---

(١) أخرجه أحمد [٢٣٤٨٩]. قال الهيثمي رَحِمَهُ اللهُ (٣/٢٦٦): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح". ونحوه عن أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، بلفظ: «إن ربكم واحد، وأباكم واحد، فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى». قال الهيثمي (٨/٨٤): "رواه الطبراني في (الأوسط)، والبزار بنحوه إلا أنه قال: «إن أباكم واحد، وإن دينكم واحد، أبوكم آدم، وآدم خلق من تراب». ورجال البزار رجال الصحيح".

(٢) صحيح البخاري [٣٣٥٣، ٣٣٧٤، ٣٣٨٣، ٣٤٩٠، ٤٦٨٩]، صحيح مسلم [٢٣٧٨].

(٣) أخرجه ابن وهب في (جامعه) [٣٠]، وأحمد [٨٧٣٦]، وأبو داود [٥١١٦]، والترمذي [٣٩٥٦]، واللفظ له، وقال: "هذا حديث حسن صحيح". وقال: "وسعيد المقبري قد سمع من أبي هريرة، ويروي عن أبيه أشياء كثيرة، عن أبي هريرة. وقد روى سفيان الثوري، وغير واحد هذا الحديث عن هشام بن سعد، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نحو حديث أبي عامر، عن هشام بن سعد". كما أخرجه البزار [٨٥٢٦]، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [٣٤٥٨]، والبيهقي في (الكبرى) [٢١٠٦٢].

و"(العبية) بضم العين المهملة وكسرها، وتشديد الباء الموحدة وكسرها، وبعدها ياء مثناة تحت مشددة أيضًا هي: الكبر والفخر والنخوة"(١).

والمعنى: "أن الناس رجلان: (مؤمن تقي)، وهو الخير الفاضل وإن لم يكن حسيبًا في قومه، و(فاجر شقي) فهو الدني وإن كان في أهله شريفًا رفيعًا"(٢).

فدلَّ الكتاب والسنة على أن أكرم الناس عند الله عَزَّوَجَلَّ: أتقاهم.

فهذا هو مقياس التفاضل بين الناس، وليس بالحسب، ولا بالنسب، ولا بكثرة المال، ولا بالجاه، ولا بالشهرة، فقد كان سلمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فارسيًّا، وبلال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حبشيًّا، وصهيب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ روميًّا، وكان أبو لهب -وهو عم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- عربيًّا قرشيًّا.

وقد رفع الإسلام سلمان، وبلالًا، وصهيب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، ووضع الكفر أبا لهب.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في محكم آياته: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣﴾ [المؤمنون:١٠١-١٠٣].

---

(١) الترغيب والترهيب، للحافظ المنذري (٣٥٩/٣)، وقال التُّورِبِشْتِي: "«عبية الجاهلية» أي: نخوتها، يقال: رجل فيه عبية، و(عبية) بضم العين وكسرها، أي: كبر وتجبر. والمحفوظ عن اهل الحديث بتشديد الباء، وذكر أبو عبيد الهروي عن بعض أهل اللغة أنه من (العبء) يعني: الحمل الثقيل، ثم قال: وقال الأزهري: بل هو مأخوذ من (العبء)، وهو النور والضياء. يقال: هذا عبء الشمس، وأصله: عبوء الشمس. وعلى هذا فالتشديد فيه كما هو في (الذرية) من الزرء بالهمز، والجوهري أورده في باب المضاعف" الميسر في شرح مصابيح السنة (١٠٦٢/٣)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٣٠٧٣/٧).

(٢) معالم السنن (١٤٨/٤).

وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيرًا ما يوصي أصحابه بالتقوى، وقد روى مسلم في (صحيحه): عن سليمان بن بريدة، عن أبيه، قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أَمَّرَ أميرًا على جيش، أو سرية، أوصاه في خاصَّته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: «**اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا..**» الحديث[1].

ولا يتقبل العمل إلا من المتقين، المخلصين في أعمالهم، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة:٢٧].

رابعًا: ثمرات التقوى:

وللتقوى ثمرات عظيمة في حياة الإنسان، فهي تثمر صلاحًا، واستقامة، واستقرارًا، وسلامة من آفات كثيرة؛ فإن تقوى الله عَزَّ وَجَلَّ، ومراقبته في السر والعلن، وتحقيق العبودية له، وإخلاص العبادة له من أهم الأسباب التي تحصِّنُ المسلم من الشرور والآفات، وهي سبب لتفريج الكروب عند النوازل والخطوب.

فمن اتَّقى الله عَزَّ وَجَلَّ تولَّى الله جَلَّ وَعَلَا حفظه، ولم يكله إلى غيره، ووفقه للخير، وجعل له فرجًا ومخرجًا، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ﴾ [الطلاق:٢-٣]. وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ [الطلاق:٤]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟

---

(١) صحيح مسلم [١٧٣١].

وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف:٩٦]. فالتقوى من أعظم أسباب التمكين والعزة في الدين والدنيا، والبركة في الرزق والوقت والعمل، وتنزل الرحمات، وعموم الفضل والبركات، ولا سيما عند الشدائد والملمات، كما قال جَلَّ وَعَلَا في آية أخرى: ﴿۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦﴾ [الأعراف:١٥٦].

ومن اتقى الله عَزَّوَجَلَّ كان الله معه وفي عونه، ولن يخذله، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل:١٢٨]. فمن اتقى الله تولَّى حفظه، ولم يكله إلى غيره، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾ [آل عمران:١٢٠]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهَكَ**»(١). فمن حفظ الله عَزَّوَجَلَّ حفظه الله، ووجده أمامه أينما توجه، ومن كان الله عَزَّوَجَلَّ حافظه وأمامه فممن يخاف، وممن يحذر؟

فالتقوى ترفع عنهم الخوف والحزن يوم القيامة، فلا يمسهم السوء، ولهم البشرى في الدنيا، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن ذلك بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾ [يونس:٦٢-٦٤]. يقول تعالى ذكره: ألا إن

(١) أخرجه أحمد [٢٦٦٩]، والترمذي [٢٥١٦]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: أبو يعلى [٢٥٥٦]، والحاكم [٦٣٠٣]، وقال: "هذا حديث كبير عال من حديث عبد الملك بن عمير، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا"، وأخرجه أيضًا: الضياء [١٣].

أولياء الله عَزَّوَجَلَّ لا خوف عليهم في الآخرة من عقاب الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله رضي عنهم، فآمنهم من عقابه، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف:١٩٦]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس:٦٢-٦٤]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية:١٩]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [مريم:٩٧].

ومن يتقي الله عَزَّوَجَلَّ يجعل له نورًا يفرق به بين الحق والباطل، وينور قلبه، ويشرح صدره، ويوفقه للحق، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال:٢٩]. قال ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي: تفرقة بين الحق والباطل، وذلك دليل على أن التقوى تنوِّر القلب، وتشرح الصدر، وتزيد في العلم والمعرفة" (١). وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة:٢٨٢].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ مرشدًا أهل الكتاب الذين آمنوا بالتَّوراة والإنجيل إلى تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، والإيمان برسوله الخاتم، محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ

(١) تفسير ابن جزي (١/٣٢٥).

رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد:٢٨]، فالمعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ آمنوا بمحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ أي: نصيبين. ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾؛ لإيمانكم بمحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وإيمانكم بمن قبله، فيكون لهم ذلك النور الذي يسعى بين أيديكم يوم القيامة، أو يكون لكم الهدى والرشاد، ويؤيد الأول: أنه مذكور في هذه السورة، ويؤيد الثاني: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢].

والتقوى من أسباب التذكر والتبصر، وطرد وساوس الشيطان، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف:٢٠١].

وقال مبينًا حسن عاقبة التقوى في الدنيا والآخرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال:٢٩].

وقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه:١٣٢]، وقال: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف:١٢٨].

وقال جَلَّوَعَلَا عن حسن عاقبة التقوى في الآخرة: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم:٦٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ

نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص:٨٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ٢٠﴾ [الزمر:٢٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤﴾ [الزمر:٧٣-٧٤]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٥﴾ [الطلاق:٥]. فهي سبب في النجاة والفلاح، وتكفير السيئات، ورفعة الدرجات، والفوز بالنعيم في الجنات. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٥٢﴾ [النور:٥٢].

والجنة بما فيها من النعيم إنما أعدت للمتقين، كما أخبر المولى جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران:١٣٣]، كما أن النار أعدت للكافرين، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤﴾ [البقرة:٢٤]، وقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١﴾ [آل عمران:١٣١].

والتقوى هي خير ضمان لصلاح الأولاد وبرّهم، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ٩﴾ [النساء:٩].

وقد أرشد الشارع إلى خير الدعاء الذي فيه فلاح العبد، وصلاح ذريته، مبينًا حسن العاقبة والمآل لمن اتقى الله عَزَّوَجَلَّ، واستقام على طاعته، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦﴾ [الفرقان:٧٤-٧٦].

وبين الحق جَلَّوَعَلَا أن التقوى من أسباب النجاة من أهوال القيامة، ومن عذاب النار، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ٧٢﴾ [مريم:٧١-٧٢]. وقال جَلَّوَعَلَا في بيان أن التقوى سبب في نجاة العبد من الهلاك والعذاب والسوء: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ٦٠ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦١﴾ [الزمر:٦٠-٦١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ١٨﴾ [فصلت:١٨].

فالتقوى أعظم جُنَّة تقي العبد من تلك الأهوال، وتنجيه من النار.

وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن التقوى من أعظم أسباب الوقاية من النَّار، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧﴾ [الليل:١٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٨﴾ [البقرة: ٤٨]، أي: لا يغني أحد عن أحد، كما قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ [الأنعام:١٦٤]، وقال: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ

يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس:٣٧]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان:٣٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة:٢٨١]، أي: اتقوا يومًا الوقوف فيه طويل، والحساب فيه ثقيل، إلا على من عمل صالحًا؛ فإنه يكون أقرب إلى رحمة الله عَزَّوَجَلَّ وعفوه ومغفرته، كـمـا قال في آيــة أخرى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران:١٣١-١٣٢].

وإن من أسباب العافية والهداية: امتثالُ ما أمَر الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ به، واجتناب ما نَهى الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عنه، واتقاء ما تُوعِّد عليه بالنَّار، في الكتاب وصحيح الأحاديث والآثار، وقد جاءت الآيات مُحَذِّرةً من النَّار، وآمرةً باتقائها. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة:٢٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران: ١٣١]. وقد دلت الآية على أن المؤمن الذي يتقي النَّار بفعل المأمور واجتناب المحظور لا يُعذَّب بها.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ مبينًا حال أهل النَّار، آمرًا العباد باتقائها: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر:١٦].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم:٦].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أنَّ الزَّمان لا يثبت على حال، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠]، فتارة فقر، وتارة غنى، وتارة عز، وتارة ذل، وتارة يفرح الموالي، وتارة يشمت الأعادي. فالسعيد من لازم أصلًا واحدًا على كل حال، وهو تقوى الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنه إن استغنى، زانته، وإن افتقر، فتحت له أبواب الصبر، وإن عوفي، تمت النعمة عليه، وإن ابتلي، جملته. ولا يضره إن نزل به الزمان أو صعد، أو أعراه، أو أشبعه، أو أجاعه؛ لأن جميع تلك الأشياء تزول وتتغير، والتقوى أصل السلامة، حارس لا ينام، يأخذ باليد عند العثرة، ويواقف على الحدود. والمنكر من غرته لذة حصلت مع عدم التقوى، فإنها ستحول، وتخليه خاسرًا.

ولازم التقوى في كل حال، فإنك لا ترى في الضيق إلا السعة، وفي المرض إلا العافية، هذا نقدها العاجل، والآجل معلوم"(١).

وقد أخرج الحاكم: عن علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ [التحريم:٦]، قال: «**علموا أنفسكم وأهليكم الخير**»(٢)، وقد دلَّ على أن العبدَ يبدأ بإصلاح نفسه، ثم الأقرب فالأقرب.

قال القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾: "أي: فقِّهوهم، وأدِّبوهم، وادعوهم إلى طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وامنعوهم عن استحقاق العقوبة

---

(١) صيد الخاطر (ص:١٣٧).

(٢) أخرجه الحاكم في (المستدرك) وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي. قال الحافظ في (الفتح) (٦٥٩/٨): "رواته ثقات". وأخرجه كذلك البيهقي في (شعب الإيمان) [٨٣٣١].

بإرشادهم وتعليمهم. ودلت الآية: على وجوب الأمر بالمعروف في الدين للأقرب فالأقرب.

وقيل: أظهروا من أنفسكم العبادات؛ ليتعلَّموا منكم، ويعتادوا كعادتكم. ويقال: دلُّوهم على السُّنَّة والجماعة. ويقال: علِّموهم الأخلاق الحسان. ويقال: مروهم بقبول النصيحة"(١).

وفي معنى هذه الآية قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع**» (٢).

قال الفقهاء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: وهكذا في الصوم؛ ليكون ذلك تمرينًا لهم على العبادة؛ لكي يبلغوا وهم مستمرون على العبادة والطاعة، ومجانبة المعصية وترك المنكر (٣).

والصيام يعزز شعور المراقبة فهو جُنَّة ووجاء. وقل مثل ذلك في سائر العبادات والتكاليف؛ فإن لها مقاصد سامية ترتقي بالمكلف، وتصلح أحواله.

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: "فواجبٌ على كلِّ مسلم أن يعلِّمَ أهله ما بهم الحاجة إليه من أمر دينهم، وينهاهم عما لا يحلُّ لهم"(٤).

---

(١) لطائف الإشارات (٣/٦٠٧).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٤٨٢]، وأحمد [٦٦٨٩]، وأبو داود [٤٩٥]، والخرائطي في (مكارم الأخلاق [٤٥٧]، والدارقطني [٨٨٧]، والحاكم [٧٠٨]، وأبو نعيم في (الحلية) (١٠/٢٦)، والبيهقي في (السنن الكبرى) [٣٢٣٣]، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. قال الإمام النووي في (رياض الصالحين) (ص:١٢٦): "رواه أبو داود بإسناد حسن".

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٨/١٨٩).

(٤) الاستذكار (٣/٧٢).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ محذرًا مِن النَّار مَنْ خالف أمره فسلكَ طريق الشَّقاء، ومبينًا للعباد أن التقوى هي سبيلُ النَّجاة من النَّار: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ١٤﴾ [الليل:١٤]، أي: تتلظى وتتوهج. ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ١٥﴾ [الليل:١٥]، أي: لا يعذب بها إلا الأشقى، وهو: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٦﴾ [الليل:١٦]، يعنى: كفر. ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨﴾ [الليل:١٧-١٨]، أي: إن الأتقى هو يعطى الزكاة المفروضة، ويتطهر من الذنوب. قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قرأ عمر بن عبد العزيز رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الصلاة، فلما بلغ: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ١٤﴾، خنقته العَبْرة فسكت، ثم قرأ فنابه ذلك، ثم قرأ فنابه ذلك، فتركها وقرأ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ١﴾ [الطارق:١] (١).

خامسًا: صيانة النفس والجسد:

إن مما يدخل في معنى التقوى: صيانة النفس والجسد عما يضر بهما.

وإن من صور الخيانة: خيانة النفس، وذلك بعدم صيانتها عما يضر بها في المآل؛ وخيانة الجسد يكون كذلك بعدم صيانته عما يلحق الضر به، وعدم اتخاذ أسباب الوقاية من ذلك من نحو: الإهمال في معالجة الأمراض، والتعرض لمسبباتها، كإهمال النظافة والطهارة، ومخالطة أصحاب الأوبئة.

ومن ذلك: تناول ما يضر بالجسد من الأكل والشرب، من نحو: أكلِ المال الحرام، وشربِ المسكرات، والتدخين، ونحو: التهاون فيما يجب تناوله من الدواء

---

(١) انظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٢/٣٤٤)، البيان والتحصيل (١٧/٥٧٠).

والطعام في وقت المرض، وفيما يجب البعد عنه، فكثير من مرضى السكر -مثلًا- يكثر من تناول السكر الذي يلحق به الضرَّ ويعرضه لمضاعفات المرض.

ومن ذلك: الانتحار، وهو من كبائر الذنوب؛ لأن الإنسان لا يملك نفسها، وإنما هي ملك لخالقها وبارئها جَلَّ وَعَلَا.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥].

ومن ذلك: مخالطة أصحاب الأوبئة:

وفي الحديث: «**لا يُورِدَنَّ مُمْرِضٌ على مُصِحٍّ**»(١)، أي: لا يورد صَاحِبُ الْإِبِلِ الْمِرَاضِ إِبِلَهُ على إِبِلِ صاحب الإبل الصِّحَاحِ، فالْمُمْرِضُ: صاحب الإبل الْمِرَاضِ، والْمُصِحُّ: صَاحِبُ الإبل الصِّحَاحِ.

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَفِرَّ من المجْذُومِ كما تَفِرُّ من الأَسَد**»(٢).

وعن عمرو بن الشريد، عن أبيه، قال: كان في وفد ثقيف رجل مجذوم، فأرسل إليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنا قد بايعناك فارجع**»(٣).

وعن عامر بن سعد، أخبره أن رجلًا سأل سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن الطاعون، فقال أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أنا أخبرك عنه، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هو عذاب أو رِجْزٌ أرسله الله على طائفة من بني إسرائيل، أو ناس كانوا**

---

(١) صحيح البخاري [٥٧٧١]، مسلم [٢٢٢١].
(٢) صحيح البخاري [٥٧٠٧].
(٣) صحيح مسلم [٢٢٣١].

قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض، فلا تدخلوها عليه، وإذا دخلها عليكم، فلا تخرجوا منها فرارًا» (١).

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قد يسقم الإنسان؛ لمصاحبة السقيم من جهة أن الرائحة كانت سببًا في المرض، والله عَزَّوَجَلَّ قد يعمل الأسباب، وقد يبطلها"(٢). فيمرض من يمرض بسبب المخالطة، ولا يصاب آخرون؛ لأن الأمر بيد الله عَزَّوَجَلَّ، ومن حكمة الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الحياة: ربط الأسباب بمسبباتها.

أما قول إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشعراء:٨٠]، فهو من باب الأدب مع الله عَزَّوَجَلَّ، حيث أسند المرض إلى نفسه، والشفاء إلى الله عَزَّوَجَلَّ تأدبًا. كما قال الخضر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف:٧٩]، يعني: السفينة، فأسند ذلك إلى نفسه، وقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف:٨٢]، فأسند ذلك إلى ربه جَلَّ وَعَلَا.

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإنما قال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿مَرِضْتُ﴾ دون: (أمرضني)؛ لأنَّ كثيرًا من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه. ومن ثم قالت الحكماء: لو قيل لأكثر الموتى: ما سبب آجالكم؟ لقالوا: التخم"(٣)؛ ذلك لأن أكثر أسباب المرض وإن كانت في الحقيقة من الله عَزَّوَجَلَّ، إلا أنها تحدث من التفريط في الأكل والشرب، وعدم الوقاية من الحر والبرد والمخالطة.

---

(١) صحيح البخاري [٣٤٧٣]، وأخرجه مسلم [٢٢١٨]، واللفظ له.

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين (٢/٤٧٢).

(٣) الكشاف (٣/٣١٩)، وانظر: مفاتيح الغيب (١٤/٥١٢)، غرائب القرآن (٥/٢٧٤).

وقال ابن الرومي:

عَدُوُّكَ من صديقك مستفادٌ فلا تَسْتَكْثِرَنَّ من الصِّحَابِ
فإنَّ الدَّاءَ أكثرَ ما تراه يكون من الطَّعام أو الشَّرَابِ [(١)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فيتعاطى العبد أسباب المرض حتى يمرض، فيعاقبه الله عَزَّوَجَلَّ بزيادة المرض؛ لإيثاره أسبابه، وتعاطيه لها"[(٢)].

وإذا كانت العناية بالجسد واجبة فإن العنايةَ بأمراض القلوب أولى، وهي مقدَّمةٌ على العناية بالأمراض التي تصيب الجسد.

وفي الوقت الذي يخشى فيه العالم من تفشي المرض والوباء الذي قد يفتك بأبدانهم، فإن قلوب كثير منهم تمتلئ بأمراض هي أشد فتكًا، وأعظم ضررًا بدينهم ودنياهم وآخرتهم، من نحو: الحسد، والكبر، والغرور، والخيانة، والغش، والبخل، وسوء الخلق.. إلى غير ذلك. «**وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[(٣)]، فكما نحرص على وقاية أبداننا فلنكن أشد وقاية لقلوبنا.

ومن خيانة الجسد: خيانة السمع، والبصر، واليدين والرجلين، وسائر الجوارح، وذلك باستعمالها فيما حرَّم الله جَلَّوَعَلَا على العباد، من نحو: النظر إلى المحرمات،

(١) ديوان ابن الرومي (١/١٤٩).
(٢) شفاء العليل (ص:٩٩).
(٣) صحيح البخاري [٥٢]، مسلم [١٥٩٩].

والتجسس، والبطش والظلم، والإيذاء وإلحاق الضرر بالآخرين، والمشي إلى أماكن الفجور بقصد المعصية، ومن ذلك: عدم ستر العورة على وفق الشرع...إلى غير ذلك.

قـال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾ [الإسراء:٣٦].

ومن خيانة النفس: الجهل بما يجب على المكلف معرفته، وحملها على الكفر أو المعاصي، ولا سيما معاصي الخلوات.

ومن خيانة النفس: عدم الإخلاص في العمل والعبادة، والإعراض عن الهدى، والغفلة عن آيات الله عَزَّوَجَلَّ في الخلق، وعن الغاية من الوجود، وعن المآل والعاقبة، والتفريط في تحري الحق، واتباع الهوى والشهوات، والرضا عن النفس، وعدم الارتقاء بها في مدارج الكمال.

والحاصل أن من أورد نفسه المهالك فقد خانها، ولم يصنها.

ومن نظر إلى المآل والعاقبة صان نفسه، وارتقى بها، واتبع السبل الموصلة إلى سعادتها.

وقد فصَّلتُ القولَ في ذلك في كتاب: (الخيانة صورها وأحكامها وآثارها في ضوء الكتاب والسنة).

الإرشاد إلى أسباب النجاة

المبحث الرابع:

الاستقامة والثبات ومـلازمة الصراط

الإرشاد إلى أسباب النجاة

أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ أن نسأله الهدية إلى الصراط المستقيم، فقال معلِّمًا للعباد أن يقولوا في صلاتهم ودعائهم: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة:٦-٧]، وسؤال الهداية يتضمن: معرفة الحق، والتوفيق للعمل به، فيكون المعنى، كما ذكر ابن جرير الطبري رَحِمَهُٱللَّهُ: "وَفِّقنا للثبات على ما ارتضيتَه ووَفّقتَ له مَنْ أنعمتَ عليه من عبادِك، من قولٍ وعمل، وذلك هو الصِّراط المستقيم؛ لأن من وُفّق لما وفق له من أنعم الله عَزَّوَجَلَّ عليه من النبيّين والصديقين والشهداء، فقد وُفّق للإسلام، وتصديقِ الرسلِ عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ، والتمسكِ بالكتاب، والعملِ بما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به، والانزجار عمَّا زجره عنه، واتّباع منهج النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ومنهاج أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، وكلِّ عبدٍ لله عَزَّوَجَلَّ صالحٍ، وكل ذلك من الصراط المستقيم"(١).

قال ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ في تفسير: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة:٦]: "والصراط المستقيم يتضمن: معرفة الحق، والعمل به"(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: "والهداية: معرفة الحق والعمل به، فمن لم يجعله الله عَزَّوَجَلَّ عالما بالحق عاملًا به لم يكن له سبيل إلى الاهتداء"(٣).

---

(١) تفسير الطبري (١/١٧١).

(٢) منهاج السنة النبوية (١/١٩).

(٣) شفاء العليل (ص:٥٣).

ومن زرع في حياته خيرًا من قول أو عمل، حصد في الآخرة الكرامة، ومن زرع شرًّا من قول أو عمل، حصد غدًا الندامة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾ [الفجر:٢٣-٢٤].

ومن الخير: الدعاء بما أرشد إليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جوامع كلمه مما يعمُّ خير الدنيا والآخرة، ومن ذلك: ما روته أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: دخل عَلَيَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا أُصَلِّي، وله حاجة، فأبطأت عليه، قال: «**يا عائشة: بِجُمَلِ الدُّعَاء وجوامِعِه**»، فلما انصرفت قلت: يا رسول الله، وما جُمَلُ الدُّعاء وجوامعُهُ؟ قال: «**قولي: اللهم إني أسألك من الخير كله، عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل، وأسألك مما سألك به محمد** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وأعوذ بك مما تعوذ منه محمد** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وما قضيت لي من قضاء فاجعل عاقبته رُشْدًا**»(١).

وهذا من جوامع الكلم والدعاء. وقيل: هو أجمع ما ورد في الدعاء(٢)؛ فإن فيه سؤال كل خير، والاستعاذة من كل شر.

---

(١) أخرجه الطيالسي [١٦٧٤]، وابن أبي شيبة [٢٩٣٤٥]، وإسحاق بن راهويه [١١٦٥]، وأحمد [٢٥٠١٩]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٦٣٩] واللفظ له، وابن ماجه [٣٨٤٦]، وأبو يعلى [٤٤٧٣]، وابن حبان [٨٦٩]، والطبراني في (الدعاء) [١٣٤٧]، والحاكم [١٩١٤]، وصححه، والبيهقي في (الدعوات الكبير) [٢٠٢].

(٢) انظر: مرقاة المفاتيح (١٧٣٩/٥).

قال الحليمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا من جوامع الكلم التي استحب الشارع الدعاء بها؛ لأنه إذا دعا بهذا فقد سأل الله عَزَّوَجَلَّ من كل خير، وتعوذ به من كل شر.."(١).

وقال الأمير الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الحديث تضمن الدعاء بخير الدنيا والآخرة، والاستعاذة من شرهما، وسؤال الجنة وأعمالها، وسؤال أن يجعل الله كل قضاء خيرًا، وكأن المراد سؤال اعتقاد العبد أن كل ما أصابه خير، وإلا فإن كل قضاء قضى الله عَزَّوَجَلَّ به خير، وإن رآه العبد شرًّا في الصورة. وفيه: أنه ينبغي للعبد تعليم أهله أحسن الأدعية؛ لأن كل خير ينالونه فهو له، وكل شر يصيبهم فهو مضرة عليه"(٢).

ومن جوامع الكلم من دعائه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما جاء عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»، فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله، يقلبها كيف يشاء**» (٣).

ومن جوامع الكلم من دعائه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما جاء في (الصحيح): «**اللهم رب جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**» (٤). أرشد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته

---

(١) فيض القدير (١٢٨/٢).

(٢) سبل السلام (٧١٧/٢).

(٣) تقدم.

(٤) صحيح مسلم [٧٧٠].

إلى هذا الدعاء؛ لما فيه الخير وحسن العاقبة، فلا خير أعظم من الهداية، وإصابة الحق، والثبات على صراط الله عَزَّوَجَلَّ المستقيم، الذي شرعه لعباده.

وقد أجمع السلف على أنَّ الإيمان: قول وعمل، يزيد وينقص. ثم إنه إذا أطلق دخلت فيه الأعمال؛ لقول النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: عن أبي هريرة رَضِيَاللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الإيمان بضع وسبعون –أو بضع وستون– شعبة، فأفضلها: قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»(١).

قال ابن بطال رَحِمَهُاللَّهُ: "مذهب جماعة أهل السنة: أن الإيمان قول وعمل، قال أبو عبيد رَحِمَهُاللَّهُ: وهو قول مالك، والثوري، والأوزاعي رَحِمَهُمُاللَّهُ، ومن بعدهم من أرباب العلم والسنة، الذين كانوا مصابيح الهدى، وأئمة الدين من أهل الحجاز والعراق والشام وغيرهم. وهذا المعنى أراد الإمام البخاري رَحِمَهُاللَّهُ إثباته في كتاب: (الإيمان)، وعليه بوَّب أبوابه كلها، فقال: باب: أمور الإيمان، وباب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، وباب: إطعام الطعام من الإيمان، وباب: من الإيمان: أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وباب: حب الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من الإيمان، وباب: الصلاة من الإيمان، وباب: الزكاة من الإيمان، وباب: الجهاد من الإيمان، وسائر أبوابه"(٢).

---

(١) صحيح مسلم [٣٥]. وعند الإمام البخاري [٩]، وعند مسلم في رواية: «الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان».

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١/٧٩)، وانظر: وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١/١٤٧).

وقال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها: أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص [(١)]، بدليل قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ﴾ [الفتح:٤]، ونحوها من الآيات.

قال بعض العلماء: نفس التصديق لا يزيد ولا ينقص، والإيمان الشرعي يزيد وينقص بزيادة ثمراته -وهي الأعمال- ونقصانها.

قالوا: وفي هذا توفيق بين ظواهر النصوص التي جاءت بالزيادة، وبين أصل وضعه في اللغة، وهذا الذي قاله هؤلاء وإن كان ظاهرًا فالأظهر -والله أعلم-: أن التصديق يزيد بكثرة النظر، وتظاهر الأدلة؛ ولهذا يكون إيمان الصِّدقين أقوى من إيمان غيرهم، بحيث لا تعتريهم الشُّبَهُ، ولا يتزلزل إيمانهم بعارض، بل لا تزال قلوبهم منشرحة نيّرة -وإن اختلفت عليهم الأحوال-، فأما غيرهم من المؤلَّفة ومن قاربهم فليسوا كذلك، وهذا لا يمكن إنكاره.

ولا يُشَكُّ في أنَّ نفس تصديق أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يساويه آحاد تصديق الناس؛ ولهذا قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في (صحيحه): قال ابن أبي مُلَيْكَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل [(٢)]. وأما إطلاق اسم: (الإيمان) على الأعمال

(١) انظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١/٥٦-٥٧).

(٢) ذكره الإمام البخاري في (صحيحه) (١/١٨) مُعلقًا.

فمتفق عليه عند أهل الحق، ودلائله أكثر من أن تحصر، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ﴾ [البقرة:١٤٣](١).

وقال الشيخ أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والإيمان في الشريعة يشتمل على الاعتقاد بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان.

وقيل: الإيمان مأخوذ من الأمان، فسمى المؤمن: مؤمنًا؛ لأنه يؤمن نفسه من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ، والله عَزَّوَجَلَّ مؤمن؛ لأنه يؤمن العباد من عذابه"(٢).

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١]: "أصناف العبودية ثلاثة أقسام: التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح، فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ إشارة إلى عبودية اللسان. وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ إشارة إلى عبودية الجوارح والأعضاء، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى عبودية القلب والفكر والروح، والإنسان ليس إلا هذا المجموع، فإذا كان اللسان مستغرقًا في الذكر، والأركان في الشُّكر، والجنان في الفكر، كان هذا العبد مستغرقًا بجميع أجزائه في العبودية، فالآية

---

(١) شرح الأربعين حديثًا النووية، للحافظ ابن حجر (ص:٩٠-٩١)، بتحقيق: الدكتور رياض منسي العيسى، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١/١٤٤-١٥٠).

(٢) تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (١/٤٣)، وانظر: معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (١/٨١-٨٢).

الأولى دالة على كمال الربوبية، وهذه الآية دالة على كمال العبودية، فما أحسن هذا الترتيب في جذب الأرواح من الخلق إلى الحق، وفي نقل الأسرار من جانب عالم الغرور إلى جناب الملك الغفور"(١).

وقال في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾ [الحجرات:٧] "الكفر والفسوق والعصيان في مقابلة الإيمان الكامل؛ لأن الإيمان الكامل المزين، هو أن يجمع التصديق بالجنان، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان"(٢).

فإذا حبب إليهم الإيمان، الجامع للخصال الثلاث، لزم كراهتهم لأضدادها، فلذلك قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾ الذي هو مقابلة التصديق بالجنان، والفسوق الذي هو مقابلة الإقرار باللسان، والعصيان الذي هو مقابلة العمل بالأركان.

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تهذيب الآثار): "المعنى الذي به يستحق العبد المدح والولاية من المؤمنين هو إتيانه بهذه المعاني الثلاثة: (التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح)، وذلك أنه لا خلاف بين الجميع أنه لو أقرَّ وعمل على غير علم منه ومعرفة بربه جَلَّ وَعَلَا أنه لا يستحق اسم: (مؤمن)، وأنه لو عرفه وعمل وجحد بلسانه وكذب وأنكر ما عرف من توحيد ربه جَلَّ وَعَلَا أنه غير مستحق اسم: (مؤمن)، وكذلك لو أقر بالله عَزَّ وَجَلَّ وبرسله عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ولم يعمل الفرائض لا يسمى: مؤمنًا بالإطلاق، وإن كان في كلام العرب قد يجوز أن يسمى بالتصديق: مؤمنًا، فهو

(١) مفاتيح الغيب (٩/٤٥٩).

(٢) المصدر السابق (٢٨/١٠٢).

غير مستحق ذلك الاسم في حكم الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقًّاۚ﴾ [الأنفال:٢-٤]، فأخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ أن المؤمن من كانت هذه صفته"[(١)].

وفي (شرح السُّنة): "إن الإيمان قول، وعمل، وعقيدة، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية. واتفقوا على تفاضل أهل الإيمان في الإيمان وتباينهم في درجاته"[(٢)].

وقد قال يحي بن سلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين سئل بالقيروان: ما أدركت النَّاس يقولون في الإيمان؟ فأجاب: أدركت مالكًا، وسفيان الثوري رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ، وغيرهم يقولون: الإيمان قول وعمل[(٣)].

فيجب على كل من أراد النجاة: أن يسلك طريق السلامة، الذي يأمن فيه من الزيغ والضَّلال في الاعتقاد والسُّلوك، وأن يستقيم على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وعبادته حتى يأتيه الموت وهو على ذلك، وقد قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر:٩٩].

---

(١) تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من الأخبار، لابن جرير الطبري (٢/٦٨٤).
وانظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١/٥٨)، شرح النووي على صحيح مسلم (١/١٤٦)، حاشية الطيبي على الكشاف (٧/١٤-١٥).

(٢) شرح السنة، للبغوي (١/٣٩-٤٠).

(٣) التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه، ليحيى بن سلام (ص:٦٠-٦١).

والاستقامة مصدر استقام، قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الاستقامة: الاعتدال. يقال: استقام له الأمر. وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ [فصلت:٦]، أي: في التَّوجه إليه دون الآلهة. وقومت الشيء فهو قويم، أي: مستقيم"(١).

وقال الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الاستقامة: هي كون الخط بحيث تنطبق أجزاؤه المفروضة بعضها على بعض على جميع الأوضاع.

وفي الاصطلاح: هي الوفاء بالعهود كلها، وملازمة الصِّراط المستقيم برعاية حدِّ التَّوسط في كلِّ الأمور، من الطَّعام والشَّراب واللباس، وفي كلِّ أمر ديني ودنيوي، فذلك هو الصِّراط المستقيم. والاستقامة: أن يجمع بين أداء الطاعة واجتناب المعاصي، وقيل: الاستقامة ضد الاعوجاج، وهي مرور العبد في طريق العبودية بإرشاد الشرع والعقل. والاستقامة: المداومة. وقيل: الاستقامة: ألا تختار على الله شيئًا"(٢).

وقال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الاستقامة: هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القيم من غير تعريج عنه يمنة ولا يسرة، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها، الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها كذلك، فصارت هذه الوصية جامعة لخصال الدين كلها"(٣).

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (قوم) (٥/٢٠١٧).

(٢) التعريفات (ص:١٩)، بتصرف يسير، وانظر: التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٤٩).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/٥١٠).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الاستقامةُ كنايةٌ عن التَّمسُّكِ بأمر الله عَزَّوَجَلَّ فعلًا وتركًا"(١).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود:١١٢]. فجعل الاستقامة في مقابل اتباع الهوى والطُّغيان والضَّلال. قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فأمره أن يستقيم هو ومن تاب معه، وأن لا يجاوزوا ما أمروا به، وهو الطُّغيان، وأخبر أنه بصير بأعمالكم، مطلع عليها، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورى:١٥]"(٢). والطغيان أصله: التَّعاظم والجراءة وقلَّة الاكتراث(٣). قال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والظَّاهر أنَّ هذا أمرٌ بالدَّوام على الاستقامة، وهي لزوم المنهج المستقيم، وهو المتوسط بين الإفراط والتفريط، وهي كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل وسائر الأخلاق، فتشمل العقائد والأعمال المشتركة بينه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين سائر المؤمنين، والأمور الخاصَّة به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من تبليغ الأحكام، والقيام بوظائف النبوة، وتحمل أعباء الرسالة وغير ذلك"(٤).

---

(١) فتح الباري (١٣/٢٥٧).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٥٠٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/١٧٧).

(٤) روح المعاني (٦/ ٣٤٥).

وفي الحديث: عن سفيان بن عبد الله الثَّقفيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك، وفي رواية: غيرك قال: «**قل: آمنت بالله ثمَّ استقم**»(١).

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا من جوامع كلمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو مطابق لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت:٣٠]، أي: وحَّدوا الله وآمنوا به، ثمَّ استقاموا فلم يحيدوا عن توحيدهم ولا أشركوا به غيره، والتزموا طاعته إلى أن توفوا على ذلك"(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "الاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين. وهي القيام بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد. والاستقامة تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات. فالاستقامة فيها: وقوعها لله، وبالله، وعلى أمر الله"(٣).

وذكر الإمام الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ خمسة أوجه من معاني الاستقامة في تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١﴾ [فصلت:٣٠-٣١] على النحو التالي:

---

(١) صحيح مسلم [٣٨].

(٢) إكمال المعلم، للقاضي عياض (٢٠١/١)، وانظر: شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (٩/٢).

(٣) مدارج السالكين (١٠٦/٢).

"**أحدها**: ثمَّ استقاموا على أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ربَّهم وحده، وهو قول أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ومجاهد.

الثّاني: استقاموا على طاعته وأداء فرائضه، قاله: ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا والحسن وقتادة رَحِمَهُمَاٱللَّهُ.

الثّالث: على إخلاص الدِّين والعمل إلى الموت، قاله أبو العالية والسدي رَحِمَهُمَاٱللَّهُ.

الرّابع: ثمَّ استقاموا في أفعالهم كما استقاموا في أقوالهم.

الخامس: ثمَّ استقاموا سرًّا كما استقاموا جهرًا.

قال: ويحتمل سادسًا: أنَّ الاستقامة أن يجمع بين فعل الطَّاعات واجتناب المعاصي؛ لأنَّ التَّكليف يشتمل على أمر بطاعة يبعث على الرَّغبة، ونهي عن معصية يدعو إلى الرَّهبة"(١).

وفي (الكشاف): "أي ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته"(٢). قال الألوسي رَحِمَهُٱللَّهُ: "وأراد أن من قال: ربي الله جَلَّوَعَلَا، فقد اعترف أنه عَزَّوَجَلَّ مالكه ومدبر أمره ومربيه، وأنه عبد مربوب بين يدي مولاه، فالثبات على مقتضاه: أن لا تزل قدمه عن طريق العبودية قلبًا وقالبًا، ولا يتخطاه، وفيه يندرج كل العبادات والاعتقادات"(٣).

---

(١) تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٥/١٧٩-١٨٠).

(٢) الكشاف (٤/١٩٨).

(٣) روح المعاني (١٢/٣٧٢).

فإذا تمهد لك ذلك علمتَ أن ما يقابل طريقَ الاستقامة: طرقٌ ملتويةٌ، ومتاهاتٌ مُضِلَّة، وإنما تنشأُ التَّأويلاتُ المضِلَّة لمفهوم الاستقامة عن جهلٍ مركب، أو سوءِ فهمٍ، عن مكابرة في ركوب الضلال؛ لمصالح وغايات دنيوية.

إن الثبات على دين الله عَزَّوَجَلَّ يعني: عدم الزيغ، وعدم الركون إلى الباطل، وملازمة الصراط المستقيم.

والله عَزَّوَجَلَّ يعين العبد الذي يطلب الهداية والثبات، مخلصًا له الدين، ويستمسك بصراط الله عَزَّوَجَلَّ المستقم، الذي إليه تصير الأمور، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم:٢٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فأخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنه ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بإيمانهم. ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ أحوج ما يكونون إليه في الدنيا والآخرة، وأنه يضل الظالمين، وهم المشركون، عن القول الثابت، فأضل هؤلاء بعدله؛ لظلمهم، وثبت المؤمنين بفضله؛ لإيمانهم.

وتحت قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾ [إبراهيم:٢٧] كنز عظيم من وفق لمظنته وأحسن استخراجه واقتناءه وأنفق منه فقد غنم، ومن حرمه فقد حرم، وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله عَزَّوَجَلَّ له طرفة عين، فإن لم يثبته، وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ

شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء:٧٤]، وقال جَلَّ وَعَلَا لأكرم خلقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾ [الأنفال:١٢].

قال: فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت، ومادة التثبيت أصله ومنشؤه من القول الثابت، وفعل ما أمر به العبد، فبهما يثبت الله عَزَّوَجَلَّ عبده، فكل من كان أثبت قولًا، وأحسن فعلًا كان أعظم تثبيتًا، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [النساء:٦٦]، فأثبت الناس قلبًا: أثبتهم قولًا، والقول الثابت هو القول الحق والصدق، وهو ضد القول الباطل الكذب.

فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له، وأثبت القول: كلمة التوحيد ولوازمها، فهي أعظم ما يثبت الله عَزَّوَجَلَّ بها عبده في الدنيا والآخرة؛ ولهذا ترى الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلبًا، والكاذب من أمهن الناس، وأخبثهم، وأكثرهم تلوثًا، وأقلهم ثباتًا، وأهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الإخبار، وشجاعته ومهابته، ويعرفون كذب الكاذب بضد ذلك؛ ولا يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة"(١).

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/١٣٥-١٣٦).

المبحث الخامس:

العبادات

الإرشاد إلى أسباب النجاة

توطئة:

لا بدَّ لكلِّ من أراد النَّجاة من العلم الذي يتعيَّن عليه ولا يصح إيمانه وعمله إلا به، فلا يتحقق الإيمان وما يقتضيه من الإذعان والعمل إلا بمعرفة أصول الإيمان، وأركان الإسلام، وما يلزم المكلف من الفقه في العبادات أو المعاملات، حتى تكون عبادته وجميع معاملاته على وفق منهج الله عَزَّوَجَلَّ الذي شرعه لعباده.

وأما العلم بتفاصيل العلوم الشرعية وفروعها، وجزئيات المسائل، والتعمق في العلوم، والتخصص فيها، فتندرج تحت فروض الكفاية.

أولًا: تعريف العبادة وبيان أقسامها وشروطها:

١ - تعريف العبادة في اللغة:

أصل العبادة في اللغة: الْخُضُوعُ والذُّلُّ، من قولهم: طريق مُعَبَّد: أي: مذلل. يقال: عَبَد الله عَزَّوَجَلَّ عبادَة وعبودية، أي: انْقَادَ له وخضع.

وعَبَدْتُ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ أَعْبُدُهُ عِبَادَةً، وهي: الانقيادُ والخضوعُ، والفاعل: عَابِدٌ، والجمع: عُبَّادٌ، وعَبَدَةٌ، مثلُ: كافر، وكُفَّار، وكَفَرَة، ثم استعمل فيمن اتَّخَذَ إلهًا غير الله عَزَّوَجَلَّ، وتَقَرَّبَ إليه فقيل: عابِدُ الْوَثَنِ والشَّمْس، وغير ذلك..[(١)].

وفي (الصحاح): "(الْعَبْدُ) خلاف الْحُرِّ، والجمع: (عَبِيدٌ) مثل: كَلْبٍ وكَلِيب، وهو جمع عَزِيزٌ، و(أَعْبُدٌ) و(عِبَادٌ) و(عُبْدَانٌ) -بالضم- كَتَمْرٍ وتُمْرَان، و(عِبْدَانٌ)

(١) انظر: المصباح المنير، مادة: (عبد) (٢/٣٨٩)، جمهرة اللغة (١/٢٩٩).

-بالكسر- كَجَحْشٍ وجِحْشَان. و(عِبِدَّانٌ) -بالكسر وتشديد الدَّال- و(عِبِدَّى) -بالكسر وتشديد الدَّال- مقصور وممدود، و(مَعْبُودَاءُ) -بالمدِّ- و(عُبُدٌ) -بضمَّتين- مِثْلُ: سَقْفٍ وَسُقُفٍ.

و(التَّعْبِيدُ) التَّذْلِيلُ. يقال: طريقٌ (مُعَبَّدٌ). و(التَّعْبِيدُ) أيضًا: (الِاسْتِعْبَادُ)، وهو اتِّخَاذُ الشَّخْصِ عَبْدًا، وكذا: (الِاعْتِبَادُ). و(الْعبادة): الطَّاعة. و(التَّعبُّد): التَّنسُّك [1].

وفي (العين): العبد: المملوك. وجماعتهم: العبيد، وهم العباد أيضًا، إلا أن العامة اجتمعوا على تفرقة ما بين عباد الله والمماليك، فقالوا: هذا عبد من عباد الله عَزَّوَجَلَّ، وهؤلاء عبيد مماليك.

ولا يقال: عبد يعبد عبادة إلا لمن يعبد الله عَزَّوَجَلَّ. ومن عبد من دونه إلها فهو من الخاسرين.

وأما عبد خدم مولاه فلا يقال: عبده. وأما عبد خدم مولاه فلا يقال: عبده. ويقال للمشركين هم عبدة الطاغوت، ويقال للمسلمين: عباد الله، يعبدون الله. والعبد: الإنسان حرًّا أو رقيقًا. والعبد: المملوك، وجمعه: عَبِيد، ورجلٌ عابِدٌ من: قوم عَبَدَةٍ، وعُبُدٍ، وعُبَّدٍ، وعُبَّاد [2].

---

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (عبد) (٥٠٢/٢)، مختار الصحاح (ص:١٩٨).

(٢) العين، مادة: (عبد) (٤٨/٢)، تهذيب اللغة (١٣٩/٢)، المحكم والمحيط الأعظم (٢٦/٢)، المخصص (٦٢/٤).

٢ - تعريف العبادة في الاصطلاح:

العبادة في الاصطلاح قيل هي: (**فعل يأتي به المكلف على خلاف هوى نفسه؛ تعظيمًا لربه** جَلَّ وَعَلَا، **وابتغاء لمرضاته**). قاله غير واحد [(١)].

وقيل هي: (**الأفعال الواقعة على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع، المتجاوز لتذلل بعض العباد لبعض؛ ولذلك اختص بها الرب** جَلَّ وَعَلَا، **فهي أخص من العبودية؛ لأنها التذلل**) [(٢)]. وقد فسر البعض العبادة بأنها: فعل ما يرضي الله عَزَّوَجَلَّ، والعبودية بالرضا بما فعل الله عَزَّوَجَلَّ[(٣)].

وقيل: العبودية: الوفاء بالعهود، وحفظ الحدود، والرضا بالموجود، والصبر على المفقود [(٤)]. وقالت الحكماء: العبودية: ترك العصيان، وملازمة الذل والانكسار [(٥)].

---

(١) انظر: الردود والنقود شرح مختصر ابن الحاجب (٢/٧٩)، التعريفات، للجرجاني (ص:١٤٦)، الفروق، للقرافي (٢/٢٩)، شرح التلويح على التوضيح (١/٢٨٥)، كشف الأسرار شرح أصول البزدوي (٢/٢٨٠)، التقرير والتحبير (١/١٣٥).

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٢٣٥).

(٣) انظر: تفسير أبي السعود (١/١٦-١٧)، روح البيان (١٠/٥٠٧)، روح المعاني (١٥/٤٥٨).

(٤) انظر: الكشف والبيان، للثعلبي (٣/٣٠٤)، التعريفات، للجرجاني (ص:١٤٦)، ورواه البيهقي في (الزهد الكبير) [٧٤٦]: عن أبي الحسين الفارسي يقول: سمعت ابن عطاء يقول: (العبودية في أربع خصال: الوفاء بالعهود، والحفظ للحدود، والرضا بالموجود، والصبر عن المفقود)" اهـ. وانظر: الرسالة القشيرية (٢/٣٤٩).

(٥) الكشف والبيان، للثعلبي (٣/٣٠٤).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "وحقيقة العبودية: الحب التام، مع الذل التام، والخضوع للمحبوب. تقول العرب: طريق معبد، أي: قد ذللته الأقدام وسهلته"(١).

وقال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ في (تفصيل النشأتين): "(العبادة): **(فعلٌ اختياريٌ منافٍ للشهوات البدنية، تصدر عن نية يراد بها: التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ طاعةً للشريعة)**.

فقولنا: (فعلُ اختياريٌ): يخرج منه: الفعل التسخيري والقهري، ويدخل فيه: الترك الذي هو على سبيل الاختيار؛ فإن الترك ضربان:

١ - ضرب على سبيل الاختيار، وهو فعل.

٢ - وضرب هو العدم المطلق، لا اختيار معه، بل هو عدم الاختيار، وليس بفعل.

وبقولنا: (منافٍ للشهوات البدنية): يخرج منه: ما ليس بطاعة.

وأما الأفعال المباحة، كالأكل والشرب، ومجامعة المرأة، فليس بعبادة من حيث إنها شهوة، ولكنها قد تكون عبادة إذا تحري بها حكم الشريعة.

وإنما قيل: (تصدر عن نية يراد بها: التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ)؛ لأنها إن خلت عن نية، أو صدرت عن نية لم يقصد بها التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، بل أريد بها: مراءاة، لم تكن أيضًا عبادة.

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٢).

وإنما قيل: (طاعة للشريعة)؛ لأن من أنشأ من نفسه فعلًا ليس بسائغ في الشريعة لم يكن عبادة، وإن قصد به التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فالعبادة إذًا فعل يجمع هذه الأوصاف كلها"(١).

وقال الشيخ أبو المظفر، منصور بن محمد المروزي السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العبادة: **(اسم لنوع فعل ابتلى الآدمي بفعله؛ تعظيمًا لله عَزَّوَجَلَّ، مختارًا لطاعته، على خلاف هوى نفسه، لا على سبيل الإكراه والجبر؛ لأنه يجازى على وفاق فعله، ولا جزاء يستقيم في الحكم مع الجبر؛ فإنه لا فعل للمجبر على الحقيقة فلا يستحق الجزاء)**"(٢).

وقال الإمام السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**(العبادة: فعل خلص لله عَزَّوَجَلَّ بالاختيار؛ تعظيمًا له بإذنه)**"(٣).

وفي (تفسير الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ): "العبادة: **(التعظيم لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، والشفقة على خلق الله جَلَّ وَعَلَا)**، فإن هذين النوعين لم يخل شرع منهما، وأما خصوص العبادات فالشرائع مختلفة فيها بالوضع، والهيئة، والقلة والكثرة، والزمان والمكان، والشرائط والأركان"(٤).

---

(١) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين (ص:٨٥).

(٢) قواطع الأدلة في الأصول (٢/٣٧٨).

(٣) معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم (ص:٧٥).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٨/١٩٣).

قال الشيخ ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذه اصطلاحات لا مشاحة فيها"(١).

والعبادة في الاصطلاح -كما عرَّفها ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: "**(هي اسم جامع لكل ما يحبُّه الله** عَزَّوَجَلَّ **ويرضاه، من: الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة)**.

فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء، والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة.

وكذلك حب الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وخشية الله عَزَّوَجَلَّ، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله عَزَّوَجَلَّ" (٢).

ومن العلماء من قال: (العبادة) هي (الطاعة). قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كل ما كان طاعة، ومأمورًا به، فهو عبادة عند أصحابنا والمالكية والشافعية. وعند الحنفية: العبادة: ما كان من شرطها النية (٣).

وقال أبو الوليد الباجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(العبادة: هي الطاعة، والتذلل لله** عَزَّوَجَلَّ **بإتباع ما شرع)**.

---

(١) التحرير والتنوير (١/١٨٠).

(٢) انظر: العبودية، لابن تيمية (ص:٤٤)، مجموع الفتاوى (١٠/١٤٩).

(٣) انظر: المسودة في أصول الفقه (ص:٥٧٦)، شرح الكوكب المنير (١/٣٨٤-٣٨٥)، التحبير شرح التحرير (٢/٩٩٩).

قال: قولنا: (هي الطاعة) يحتمل معنيين:

أحدها: امتثال الأمر، وهو مقتضاه في اللغة، إلا أنه في اللغة واقع على كل امتثال لأمر الآمر في طاعة أو معصية، لكننا قد احترزنا من المعصية بقولنا: (والتذلل لله عَزَّوَجَلَّ)؛ لأن طاعة الباري جَلَّوَعَلَا لا يصح أن تكون معصية.

والثاني: أن الطاعة إذا أطلقت في الشرع فإنها تقتضي القربة، وطاعة الباري جَلَّوَعَلَا دون طاعة غيره"(١).

ومن العلماء من فرق بين العبادة، والطاعة، والقربة، فقال أبو هلال العسكري: "الفرق بين الطاعة والعبادة: أن العبادة: غاية الخضوع، ولا تستحق إلا بغاية الإنعام؛ ولهذا لا يجوز أن يعبد غير الله عَزَّوَجَلَّ. ولا تكون العبادة إلا مع المعرفة بالمعبود.

والطاعة: الفعل، ذلك الواقع على حسب ما أراده المريد متى كان المريد أعلى رتبة ممن يفعل ذلك، وتكون للخالق والمخلوق.

والعبادة لا تكون إلا للخالق.

والطاعة في مجاز اللغة تكون اتباع المدعو الداعي إلى ما دعاه إليه وإن لم يقصد التبع(٢)، كالإنسان يكون مطيعًا للشيطان وإن لم يقصد أن يطيعه، ولكنه ابتع دعاءه وإرادته"(٣).

---

(١) الحدود في الأصول، لأبي الوليد الباجي (ص:٥٧-٥٨).

(٢) أي: لا يشترط أن يصحب الطاعة قصد الاتباع.

(٣) الفروق اللغوية (ص:٢٢١).

وذكر شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن (**الطاعة**): فعل ما يثاب عليه، توقف على نية أو لا، عرف ما يفعله لأجله أو لا.

و(**القربة**): فعل ما يثاب عليه بعد معرفة من يتقرب إليه به، وإن لم يتوقف على نية.

و(**العبادة**): (**ما يثاب على فعله، وما يتوقف على نية**)، فنحو: الصلوات الخمس، والصوم، والزكاة، والحج، من كل ما يتوقف على النية؛ قربة، وطاعة، وعبادة. وقراءة القرآن، والوقف، والعتق، والصدقة، ونحوها مما لا يتوقف على نية قربة وطاعة لا عبادة. والنظر المؤدي إلى معرفة الله عَزَّوَجَلَّ طاعة، لا قربة، ولا عبادة" اهـ. قال أبو العباس الحموي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (غمز عيون البصائر): وقواعد مذهبنا لا تأباه [(١)].

وقال ابن النجار الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وكل قربة، وهي: ما قصد به التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ على وفق أمره أو نهيه طاعة، ولا عكس، أي: وليس كل طاعة قربة، لاشتراط القصد في القربة دون الطاعة، فتكون القربة أخص من الطاعة -والله أعلم-"[(٢)].

والعبادة تشمل العبادات القلبية، كالمحبة، والخوف، والرجاء، والتوكل.

وتشمل العبادات القولية، كالذكر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقراءة القرآن.

---

(١) انظر: غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر (٧٨/١)، رد المحتار على الدر المختار (١٠٦/١)، الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، لزكريا الأنصاري (ص:٧٧).

(٢) شرح الكوكب المنير (٣٨٥/١).

وتشمل العبادات الفعلية، كالصلاة، والصوم، والحج.

وتشمل العبادات المالية، كالزكاة، وصدقة التطوع.

وتشمل كذلك الشريعة كلها، فإن العبد إذا اجتنب المحرمات، وفعل الواجبات والمندوبات والمباحات؛ مبتغيًا بذلك وجه الله عَزَّوَجَلَّ كان فعله ذلك عبادة يثاب عليها.

ثانيًا: درجات العبادة:

ذكر الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ درجات العبادة في قوله: "ثم قال أهل التحقيق: العبادة لها ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: أن يعبد الله عَزَّوَجَلَّ طمعًا في الثَّواب، أو هربًا من العقاب، وهذا هو المسمى بالعبادة، وهذه الدرجة نازلة ساقطة جدًّا؛ لأن معبوده في الحقيقة هو ذلك الثواب، وقد جعل الحق وسيلة إلى نيل المطلوب، ومن جعل المطلوب بالذات شيئًا من أحوال الخلق، وجعل الحق وسيلة إليه فهو خسيس جدًّا.

والدرجة الثانية: أن يعبد الله عَزَّوَجَلَّ لأجل أن يتشرف بعبادته، أو يتشرف بقبول تكاليفه، أو يتشرف بالانتساب إليه، وهذه الدرجة أعلى من الأولى، إلا أنها أيضًا ليست كاملة، لأن المقصود بالذات غير الله جَلَّ وَعَلَا.

والدرجة الثالثة: أن يعبد الله عَزَّوَجَلَّ لكونه إلهًا وخالقًا، ولكونه عبدًا له"[1].

---

(١) مفاتيح الغيب (١/٢١٤).

ويقال: إن درجات العبادة وإن كانت متفاوتة، من حيث إن المرتبة الثالثة أشرف من الأولى والثانية؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ هو المقصود فيها بالذَّات، إلا أن العبادة لا بد أن تكون قائمة على أركان ثلاثة، هي: (المحبة، والخوف، والرجاء)، وتكون المحبة هي رأس هذه الأركان -كما سيأتيك بيانه-

والتحقيق أن يقال: إن حقيقة العبادة المستجمعة للأركان الشروط، والتي هي نهج الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصالحين: **(أن يكون العبد مخلصًا لله** عَزَّوَجَلَّ **في عبادته، عالما بما تصح به العبادة، متبعًا غير مبتدع، وأن تكون المحبة رأس الأمر، وأساس الاتباع، وأن تكون كذلك طمعًا في ثوابه، وخوفًا من عقابه؛ لكونه إلهًا، وخالقًا، ومنعمًا متفضلًا، ولكون المخلوق عبدًا له، خاضعًا لأمره، ومنقلبًا إليه، وإلى ما أعدَّ للعابد من نعيمٍ، أعلاه: لذة النَّظر إلى وجهه الكريم، حيث يعز العبد الصالح ويكرم)**.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾ [يونس:٢٦].

ويتبين مما تقدم أن أعلى مراتب العبودية:

١ – أن يكون الحق مقصودًا لذاته في العبادة.

٢ – أن يكون أساس الاتباع والعبادة: المحبة.

٣ – ينبغي أن تكون العبادات القلبية قائمة على أركان ثلاثة، هي: (المحبة، والخوف، والرجاء).

فلو قال: بعض مراتب العبادة أشرف من بعض من حيث كون المحبة مقدَّمة على الخوف والرجاء لكان أولى من قوله عن الدرجة الأولى: إنها نازلة وساقطة جدًّا؛ إذ إنها ليست كذلك في حالة اجتماعها مع الأركان الأخرى، بل هي وصف محمود في القرآن والسنة، وهي نهج الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والعلماء والصالحين -كما تقرر بيان ذلك في غير موضع-.

ولذلك تعقبه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: "وما ادعاه الفخر رَحِمَهُ اللَّهُ في سقوط الدرجة الأولى، ونزول مرتبتها قد غلب عليه فيه: اصطلاح غلاة الصوفية، وإلا فإن العبادة للطمع والخوف هي التي دعا إليها الإسلام في سائر إرشاده، وهي التي عليها جمهور المؤمنين، وهي غاية التكليف، كيف وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، فإن بلغ المكلف إلى المرتبتين الأخريين فذلك فضل عظيم، وقليل ما هم، على أنه لا يخلو من ملاحظة الخوف والطمع في أحوال كثيرة، نعم إن أفاضل الأمة متفاوتون في الاحتياج إلى التخويف والإطماع بمقدار تفاوتهم في العلم بأسرار التكليف ومصالحه، وتفاوتهم في التمكن من مغالبة نفوسهم، ومع ذلك لا محيص لهم عن الرجوع إلى الخوف في أحوال كثيرة، والطمع في أحوال أكثر. وأعظم دليل على ما قلنا: أن الله جَلَّ وَعَلَا مدح في كتابه المتقين في مواضع جمة، ودعا إلى التقوى، وهل التقوى إلا كاسمهما بمعنى: الخوف والاتقاء من غضب الله عَزَّوَجَلَّ. قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾ [الإسراء:٥٧].

والمرتبة الثالثة هي التي أشار لها قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمن قال له: كيف تجهد نفسك في العبادة وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فقال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[1]؛ لأن من الظاهر أن الشكر هنا على نعمة قد حصلت، فليس فيه حظ للنفس بالطمع في المزيد؛ لأن الغفران العام قد حصل له، فصار الشكر لأجل المشكور لا غير، وتمحض أنه لا لخوف ولا طمع"[2]. وسيأتي مزيد بيان في (الشكر).

والحاصل أن للعبادة أركانًا لا تصح بدونها، وهاك إجمال هذه الأركان:

١ – أن تكون العبادات قائمة على (المحبة، والخوف، والرجاء)، فهذه أركان العبادات القلبية –كما تقرر في غير موضع–.

٢ – أن تجمع العبادة: غاية الحبِّ وغاية الذُّلِّ والخضوع.

٣ – إخلاص العبادة لله عَزَّ وَجَلَّ.

٤ – اتباع الشرع فيما أمر به ونهى عنه من غير ابتداع.

٥ – لا بدَّ في العبادة من العلم الذي تصح به، فلا تصح العبادة إلا بالعلم والعمل.

أما ما ينقل عن بعض الغلاة من قوله: أنا أعبد الله عَزَّ وَجَلَّ ليس طمعًا في جنته، ولاخوفًا من ناره، وإنما أعبده حبًّا فهو خلاف ما كان عليه الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهم أكمل الناس عبادة؛ فإنهم عبدوا الله عَزَّ وَجَلَّ محبة، وخافوا من عذابه، ورجوا رحمته، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ في حقِ الرُّسل والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصالحين والأخيار: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ

---

(١) صحيح البخاري [١١٣٠، ٤٨٣٦، ٦٤٧١]، مسلم [٢٨١٩].

(٢) التحرير والتنوير (١/١٨١).

فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٠]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة:٢١٨]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [الأنعام:١٤-١٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام:٥١]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد:٢١]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل:٤٩-٥١]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء:٥٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾ [طه:١-٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور:٣٧-٣٨]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا

يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾ [يس:١١]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر:٩]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٢ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣﴾ [الزمر:١١-١٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ [الرحمن:٤٦]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾ [ق:٤٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان:٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝٢٦﴾ [النازعات:٢٦]، جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البينة:٧-٨].

فهذا ما شرعه الله عَزَّوَجَلَّ للعباد، وخير أسوة للناس رسل الله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام:٩٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾ [الأحزاب:٢١]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ﴾ [الممتحنة:٦]. هكذا حال أولياء الله عَزَّوَجَلَّ من الرسل والأخيار والعلماء الربانيين، يعبدون الله عَزَّوَجَلَّ محبةً وخوفًا ورجاء وإخلاصًا.

وقد تقدم أن المحبة والخوف والرجاء من أعمال القلب، ومن شعب الإيمان اللازمة، فمن لا يخاف الله عَزَّوَجَلَّ لا يرجى منه خير.

ومحبة الله هي أعظم منازل العبادة، وليست هي كل العبادة -كما تقرر- . قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ [الأعراف:٥٥]، وقال جَلَّوَعَلَا عن الملائكة: ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ۝٢٨﴾ [الأنبياء:٢٨]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۩ ۝٥٠﴾ [النحل:٥٠]. فمن أراد التوفيق والهداية والنجاة فينبغي أن يجمع بين المحبة والخوف والرجاء.

وفي الحديث: عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا قالت: كان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إذا أمرهم، أمرهم من الأعمال بما يطيقون، قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه، ثم يقول: «**إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا**»(١).

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**قد عَلِمْتُمْ أَنِّي أَتْقَاكُمْ لِلَّهِ وأَصْدَقُكُمْ وأَبَرُّكُمْ**»(٢).

عن عمر بن أبي سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أنه سأل رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: أَيُقَبِّلُ الصَّائِمُ؟ فقال له رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**سل هذه**» لِأُمِّ سلمة فأخبرته، أن رسول الله

(١) صحيح البخاري [٢٠].

(٢) صحيح البخاري [٧٣٦٧]، مسلم [١٢١٦].

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصنع ذلك، فقال: يا رسول الله، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أما والله، إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له**»(١).

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: صنع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا ترخص فيه، وتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني أعلمهم بالله وأشدهم له خشية**»(٢).

وفي لفظ عند مسلم: رخص رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أمر، فتنزه عنه ناس من الناس، فبلغ ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فغضب حتى بان الغضب في وجهه، ثم قال: «**ما بال أقوام يرغبون عما رخص لي فيه، فوالله لأنا أعلمهم بالله وأشدهم له خشية**».

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يسألون عن عبادة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم، فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»(٣).

---

(١) صحيح مسلم [١١٠٨].

(٢) صحيح البخاري [٦١٠١، ٧٣٠١]، مسلم [٢٣٥٦].

(٣) صحيح البخاري [٥٠٦٣]، مسلم [١٤٠١].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن رجلًا جاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستفتيه، وهي تسمع من وراء الباب، فقال: يا رسول الله، تدركني الصلاة وأنا جنب، أفأصوم؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وأنا تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم**»، فقال: لست مثلنا، يا رسول الله، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «**والله، إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلمكم بما أتقي**»(١).

وعلى قدر معرفة العبد لعيوب نفسه، ومعرفته بجلال ربه جَلَّ وَعَلَا، تكون قوة خوفه؛ ولذا كان العلماء من أكثر الناس خوفًا من الله عَزَّ وَجَلَّ، كما الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ۗ﴾ [فاطر:٢٨].

ومن الروايات الدَّالة على خشية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند سماعه لآيات القرآن الكريم: ما جاء في الحديث: عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقرأ عَلَيَّ**»، قلت: يا رسول الله، آقْرَأُ عليك، وعليك أنزل، قال: «**نعم**» فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء:٤١]، قال: «**حَسْبُكَ الآن**»، فالتفت إليه، فإذا عيناه تَذْرِفَان (٢).

---

(١) صحيح مسلم [١١١٠].

(٢) صحيح البخاري [٤٥٨٣، ٥٠٥٠].

وعن عبد الله بن الشِّخِّير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**أتيت رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وهو يُصلِّي، ولجوْفِه أَزيزٌ كأَزيزِ المرْجَلِ من البُكَاء**» (١).

و(الأزيز) -بفتح الألف بعدها زاي مكسورة ثم تحتانية ساكنة ثم زاي أيضًا-: وهو صوت القدر. قال في (النهاية): هو أن يجيش جوفه، ويغلي من البكاء.

و (المرجل) -بكسر الميم وسكون الراء وفتح الجيم-، قدر من نحاس، وقد يطلق على كل قدر يطبخ فيها. ولعله المراد في الحديث (٢).

وفي رواية أبي داود: «**كأزيز الرحا**» يعني: الطاحون (٢).

ومن الروايات الدَّالة على خشية الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ما جاء في الحديث: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خطب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطبة ما سمعت مثلها قط، قال: «**لو تعلمون ما أعلم لَضَحِكْتُم قليلًا، ولَبَكَيْتُم كثيرًا**»، قال: فَغَطَّى أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجُوهَهُم لهم خَنِينٌ (٣).

وقوله: «**خَنِين**» قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "هو بالخاء المعجمة، هكذا هو في معظم النسخ، ولمعظم الرواة، ولبعضهم بالحاء المهملة، وممن ذكر الوجهين القاضي،

---

(١) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٠٩]، وأحمد [١٦٣١٧]، وأبو داود [٩٠٤]، والنسائي [١٢١٤]، وأبو يعلى [١٥٩٩]، وابن خزيمة [٩٠٠]، وابن حبان [٦٦٥]، والحاكم [٩٧١]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: تمام [١٦١٩]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢/٢١١)، والبيهقي [٣٣٥٦].

(٢) نيل الأوطار (٢/٣٧٥)، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة (أزز) (١/٤٥).

(٣) صحيح البخاري [٤٦٢١]، مسلم [٢٣٥٩].

وصاحب التحرير، وآخرون. قالوا: ومعناه بالمعجمة: صوت البكاء، وهو نوع من البكاء دون الانتحاب. قالوا: وأصل الخنين: خروج الصوت من الأنف كالحنين بالمهملة من الفم. وقال الخليل هو صوت فيه غنة"(١).

وعن عائشة -أم المؤمنين- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنها قالت: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في مرضه: «**مُرُوا أبا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاس**» قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قلت إن أبا بكر إذا قام في مَقَامِكَ لم يُسْمِعِ النَّاسَ من البكاء، فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاس، فقالت عائشة: فقلت لحفصةَ: قولي له: إن أبا بكر إذا قام في مَقَامِكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ من البكاء، فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاس، فَفَعَلَتْ حَفْصَة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَهْ إِنَّكُنَّ لَأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ**» (٢).

وفي رواية: قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إنَّ أبا بكرٍ رَجُلٌ رَقِيقٌ، إذا قَرَأَ غَلَبَهُ البكاء (٣).

وفي رواية: قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إنَّ أبا بكرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ إن يَقُم مَقَامَكَ يبكي، فلا يَقْدِرُ على القراءة (٤). و(أسيف) يعني: سريع الحزن والبكاء.

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأُبَيٍّ: «**إنَّ اللهَ أَمَرَنِي أن أَقْرَأَ عَلَيْكَ:** ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البينة:١]» **وسَمَّانِي؟** قال: «**نَعَمْ**» فَبَكَى.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/١١٢-١١٣).

(٢) صحيح البخاري [٦٧٩، ٧١٣، ٧٣٠٣]، مسلم [٤١٨].

(٣) صحيح البخاري [٦٧٨، ٦٨٢، ٣٣٨٥]، مسلم [٤١٨، ٤٢٠].

(٤) صحيح البخاري [٦٦٤، ٧١٢، ٧١٣، ٣٣٨٤]، مسلم [٤١٨].

وفي رواية: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأُبَيّ: «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن**»، قال أُبيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: آللهُ سمَّاني لك؟ قال: «**اللهُ سمَّاك لي**» فجعل أُبيٌّ يبكي، قال قتادة: فَأُنْبِئْتُ أنَّه قرأ عليه: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [البينة: ١](١).

وعن إبراهيم بن عبد الرَّحمن بن عوف أن عبد الرَّحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُتِيَ بِطَعَامٍ وكان صائمًا، فَقَالَ: «**قُتِلَ مصعبُ بن عُمَيْرٍ وهو خَيْرٌ مِنِّي، كُفِّنَ في بُرْدَةٍ، إن غُطِّيَ رَأْسُه، بَدَتْ رِجْلاَه، وإن غُطِّيَ رِجْلاَهُ بَدَا رَأْسُه.**

-وأُرَاهُ قال: **وقُتِلَ حمزةُ وهو خَيْرٌ مِنِّي-. ثم بُسِطَ لنا من الدُّنيا ما بُسِطَ.**

-أو قال: **أُعْطِينَا من الدُّنيا ما أُعْطِينَا-، وقد خَشِينَا أن تكون حَسَنَاتُنَا عُجِّلَتْ لنا**»، ثم جَعَلَ يَبْكِي حتى ترك الطَّعَام(٢).

وعن العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «**وعظنا رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **موعظة بليغة، ذرفت منها العيون**..» الحديث(٣).

---

(١) صحيح البخاري [٣٨٠٩، ٤٩٥٩، ٤٩٦٠]، مسلم [٧٩٩].

(٢) صحيح البخاري [١٢٧٥، ٤٠٤٥].

(٣) تقدم.

ومن الروايات الدَّالة على نهج الأبرار في اتخاذ أسباب الوقاية من النَّار: ما جاء عن كعب الأحبار رَحِمَهُ ٱللَّهُ من قوله: "لَأَنْ أَبْكِي مِنْ خَشْيَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حتى تَسِيلَ دُمُوعِي على وَجْنَتِي أَحَبُّ إليَّ من أن أَتَصَدَّقَ بوزني ذهبًا"(١)، أو "بجبلٍ من ذَهَبٍ"(٢).

وعن أبي معشر قال: رأيت عون بن عبد الله في مجلس أبي حازم يبكي، ويمسح وجهه بدموعه. فقيل له: لم تمسح وجهك بدموعك؟ قال: بلغني أنه لا تصيب دموع الإنسان مكانًا من جسده إلا حرَّم الله عَزَّوَجَلَّ ذلك المكان على النَّار (٣).

والآثار عن السلف الدالة على مدى خوفهم من الله عَزَّوَجَلَّ، واتخاذهم أسباب الوقاية من النار، وذلك بإخلاص العمل لله عَزَّوَجَلَّ، والخشية منه جَلَّوَعَلَا كثيرة (٤).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في وصف العلماء الربانيين: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:٣٩]. وفي ذلك ما فيه من التمييز بين العلماء وبين الأدعياء -كما سيأتي بيان ذلك-.

---

(١) ذكره ابن أبي شيبة في (مصنفه) [٣٥٥٤٤]، وأبو داود في (الزهد) [٤٥٧]، وأبو نعيم في (الحلية) (٣٦٦/٥). وانظر: جامع العلوم والحكم (٢/ ٩٢).

(٢) ذكره أبو نعيم في (الحلية) (٣٦٦/٥).

(٣) صفة الصفوة (٢/ ٥٩)، الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢٨/١).

(٤) انظر: مختصر قيام الليل (ص:١٤٢-١٤٦)، إحياء علوم الدين (١٥٧/٤-١٨٩)، الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢٦/١-٤١).

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا يلجُ النَّارَ رجلٌ بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضَّرْع، ولا يجتمع غُبارٌ في سبيل الله ودخانُ جهنم»** (١).

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«عَيْنَان لا تَمَسُّهُمَا النَّار: عَيْنٌ بَكَتْ من خَشْيَة الله، وعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ في سبيل الله** عَزَّوَجَلَّ**»** (٢).

وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«ليس شيء أحَبَّ إلى الله من قَطْرَتَيْن وأَثَرَيْن، قَطْرَةٌ من دموعٍ في خشية الله، وقَطْرَةُ دمٍ تُهَرَاق في سبيل الله، وأمَّا الأَثَرَان: فَأَثَرٌ في سبيل الله، وَأَثَرٌ في فَرِيضَة من فرائض الله** عَزَّوَجَلَّ**»** (٣).

فمن أعظم أسباب الوقاية من النار: خشية الله عَزَّوَجَلَّ، والجهاد في سبيله، كما بيناه في كتاب: (نهج الأبرار)، وكذا: الرباط في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ -كما سيأتي-.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [١٩٣٦٤]، وأحمد [١٠٥٦٠]، وهناد [٤٦٥]، والترمذي [١٦٣٣]، وقال: "حسن صحيح". كما أخرجه النسائي [٣١٠٨]، والحاكم [٧٦٦٧] وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٧٧٩].

(٢) الحديث مروي عن ابن عباس، وعن أنس. حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أخرجه الترمذي [١٦٣٩] وقال: "حسن". حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أخرجه أبو يعلى [٤٣٤٦]. قال الهيثمي (٥/٢٨٨): "رواه أبو يعلى والطبراني في (الأوسط) بنحوه إلا أنه قال: (لا يريان النار). ورجال أبي يعلى ثقات". والحديث له طرق أخرى.

(٣) أخرجه الترمذي [١٦٦٩]، وقال: "حديث حسن غريب"، وأخرجه أيضًا: الطبراني في (الكبير) [٧٩١٨].

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من خشية الله** عَزَّ وَجَلَّ» «**من**» فيه تعليلية، أي: لخشية الله عَزَّ وَجَلَّ الداعية إلى امتثال الأوامر، واجتناب النواهي (1)؛ فإن الغالب من الخشية: امتثال الطاعة، واجتناب المعصية (2).

وينبغي أن يكون ذلك حال العلماء، كما جاء: عن عبد الأعلى التيمي قال: إن من أوتي من العلم ما لا يبكيه لخليق أن قد أوتي من العلم ما لا ينفعه؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ نعت أهل العلم فقال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء:١٠٩] (3)؛ لما يزيدهم علمًا ويقينًا بأمر الله عَزَّ وَجَلَّ على ما حصل عندهم من الأدلة (4).

والخوفَ من الله عَزَّ وَجَلَّ مطلوب في السرِّ والعلانية من غير يأسٍ ولا قنوط، وهو الذي يُنَمِّي في العبد شعورَ المراقبة، ويحمله على الطَّاعة، فيلزم طريق الاستقامة، ويبادر إلى التوبة، ولا ينتهك محارمَ الله عَزَّ وَجَلَّ، ولا يقصِّر في أداء حقوق الله جَلَّ وَعَلَا، وحقوق

---

(1) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٤/٣٦٤).

(2) انظر: مرقاة المفاتيح (٦/٢٤٧٨).

(3) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٢٥]، والقاسم بن سلام في (فضائل القرآن) (ص:١٤٠)، وابن أبي شيبة [٣٥٣٦٠]، والدارمي [٢٩٩]، وابن جرير في (التفسير) (١٧/٥٧٩)، وأبو نعيم في (الحلية) (٥/٨٨)، وانظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/٢٨٢)، المرشد الوجيز، لأبي شامة (ص:١٩٥). قال السيوطي: "أخرجه ابن المبارك، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم" الدر المنثور (٥/٣٤٧).

(4) انظر: روح المعاني (٨/١٨٠).

العباد، ويتحرَّر من آفات النَّفس، ويُخَالِق الناس بخلق حسن، فهذا هو الخوف المحمود الذي دعا إليه الشارع.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الخوف سوط الله عَزَّوَجَلَّ يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل؛ لينالوا بهما رتبة القرب من الله جَلَّوَعَلَا"(١).

وقال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وكل ما دل من الآيات والأحاديث على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف؛ لأن الخوف ثمرة العلم"(٢).

وفي الحديث: «**يقول الله** عَزَّوَجَلَّ: **وعِزَّتِي لا أجمعُ على عبدي خوفين، ولا أجمع له أمنين، إذا أَمِنَنِي في الدنيا أَخَفْتُهُ يوم القيامة، وإذا خافني في الدنيا أَمَّنْتُهُ يوم القيامة**» (٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**سبعةٌ يُظِلُّهُم الله في ظِلّه، يوم لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه**»، وذكر منهم: «**ورجُلٌ ذَكَرَ الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **خاليًا ففاضت عيناه**» (٤).

---

(١) إحياء علوم الدين (١٥٧/٤).

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢٩/١).

(٣) تقدم.

(٤) صحيح البخاري [٦٦٠، ١٤٢٣، ٦٤٧٩، ٦٨٠٦]، مسلم [١٠٣١].

ومن الأحاديث الدَّالة على أن البكاء من خشية الله عَزَّوَجَلَّ سبب للنجاة والفوز: ما جاء في الحديث: وعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله ما النَّجَاةُ؟ قال: «**امْلِكْ عليكَ لسانَكَ، ولْيَسَعْكَ بيتُكَ، وابْكِ على خطيئتك**» (١).

وعن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -مولى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**طُوبَى لمن مَلَكَ لِسَانَه، ووَسِعَهُ بَيْتُه، وبكى على خطيئته**» (٢).

ثالثًا: مقام العبودية:

إنَّ الدنيا ليست دار قرار، ولكنها دار ابتلاء واختبار، والعبودية لله عَزَّوَجَلَّ تقتضي التكليف، وهو من الاختبار الذي يحقِّق في العبد أهدافًا سامية؛ لأن التكليف إذعان لشرعة الله عَزَّوَجَلَّ، العالِمِ بأحوال عباده، وبما هو أصلح وأنفع لهم، ذلك الإذعان الذي يخرج المكلَّف إلى حدِّ الإنسانية، وإلى مقام العبودية.

قال فخر الدين الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: "الإلهية توجب الهيبة والعزة، والعبودية توجب الخضوع والذلة، وهذا أعلى المقامات، وأشرف الدرجات، وهذا هو المسمى: بالعبودية،

---

(١) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٣٤]، وابن وهب في (جامعه) [٣٧٤]، وأحمد [٢٢٢٣٥]، والترمذي [٢٤٠٦]، وقال: "حديث حسن". وأخرجه أيضًا: الطبراني [٧٤١]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢/٩)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٧٨٤]. وللحديث أطراف أخرى.

(٢) أخرجه الطبراني في (الأوسط) [٢٣٤٠]، و (الصغير) [٢١٢]. وفي (الشاميين) [٥٤٨]. قال الهيثمي (١٠/ ٢٩٩): "رواه الطبراني في (الأوسط) و (الصغير)، وحسن إسناده". وأخرجه أيضًا: الديلمي [٣٩٣٠].

وإليه الإشارة بقول المصلي في أول الصلاة: أصلي لله عَزَّوَجَلَّ، فإنه لو قال: أصلي لثواب الله، أو للهرب من عقابه فسدت صلاته.

واعلم أن العبادة والعبودية مقام عال شريف، ويدل عليه آيات:

الأولى: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر:٩٧-٩٩].

والاستدلال بها من وجهين:

أحدهما: أنه قال: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر:٩٩]، فأمر محمدًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالمواظبة على العبادة إلى أن يأتيه الموت، ومعناه: أنه لا يجوز الإخلال بالعبادة في شيء من الأوقات، وذلك يدل على غاية جلالة أمر العبادة.

وثانيهما: أنه قال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧﴾ [الحجر:٩٧]. ثم إنه جَلَّوَعَلَا أمره بأربعة أشياء: التسبيح: وهو قوله: ﴿فَسَبِّحْ﴾.

والتحميد: وهو قوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، والسجود: وهو قوله: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨﴾. والعبادة، وهي قوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾، وهذا يدل على أن العبادة تزيل ضيق القلب، وتفيد انشراح الصدر، وما ذاك إلا لأن العبادة توجب الرجوع من الخلق إلى الحق، وذلك يوجب زوال ضيق القلب.

الآية الثانية: في شرف العبودية: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]. ولولا أن العبودية أشرف المقامات لما وصفه الله عَزَّوَجَلَّ بهذه الصفة في أعلى مقامات المعراج.

ومنهم من قال: العبودية أشرف من الرسالة؛ فبالعبودية ينصرف من الخلق إلى الحق، وبالرسالة ينصرف من الحق إلى الخلق، وأيضًا بسبب العبودية ينعزل عن التصرفات، وبالرسالة يقبل على التصرفات، واللائق بالعبد الانعزال عن التصرفات، وأيضًا العبد يتكفل المولى جَلَّ وَعَلَا بإصلاح مهماته، والرسول هو المتكفل بإصلاح مهمات الأمة، وشتان ما بينهما.

الآية الثالثة: في شرف العبودية: أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أول ما نطق قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم:٣٠]، وصار ذكره لهذه الكلمة سببًا لطهارة أمه عَلَيْهَا السَّلَامُ، ولبراءة وجوده عن الطعن، وصار مفتاحًا لكلِّ الخيرات، ودافعًا لكلِّ الآفات.

الآية الرابعة: قوله جَلَّ وَعَلَا لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾ [طه:١٤]، أمره بعد التوحيد بالعبودية؛ لأن التوحيد أصل، والعبودية فرع، والتوحيد شجرة، والعبودية ثمرة، ولا قوام لأحدهما إلا بالآخر، فهذه الآيات دالة على شرف العبودية.

وكل شرف، وكمال، وبهجة، وفضيلة، ومسرة، ومنقبة، إنما حصلت للعبد بسبب العبودية، فثبت أن العبودية مفتاح الخيرات، وعنوان السعادات، ومطلع الدرجات، وينبوع الكرامات، فلهذا السبب قال العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥] ..."[1]، إلى آخر ما ذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(١) بتصرف واختصار من (مفاتيح الغيب) (١/٢١٤-٢١٥)، وانظر: غرائب القرآن (١/١٠٦).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن العبادة لله عَزَّوَجَلَّ هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له، التي خلق الخلق لها، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦].

وبها أرسل جميع الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، كما قال نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وكذلك قال هود وصالح وشعيب عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وغيرهم لقومهم.

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ﴾ [النحل:٣٦]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ۝٩٢﴾ [الأنبياء:٩٢]، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾ [المؤمنون:٥١-٥٢].

وجعل ذلك لازمًا لرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الموت، كما قال: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر:٩٩].

وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢٠٦﴾ [الأعراف:٢٠٦].

وذمَّ المستكبرين عنها بقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر:٦٠] (١).

ونعت صفوة خلقه بالعبودية له، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ [الإنسان:٦]، وقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ۝٦٣﴾ [الفرقان:٦٣] الآيات.

وقال في وصف الملائكة بذلك: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۝٢٨﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨] ... إلى غير ذلك.

وقد نعت الله عَزَّوَجَلَّ النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالعبودية في أكمل أحواله فقال في الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]، وقال في الإيحاء: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم:١٠]، وقال في الدعوة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩﴾ [الجن:١٩]، وقال في التحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣].. إلى غير ذلك (٢).

---

(١) وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ۝١٧٢ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٧٣﴾ [النساء:١٧٢-١٧٣].

(٢) انظر: العبودية، لابن تيمية (ص:٤٤- ٤٧)، مجموع الفتاوى (١٠/١٤٩-١٥٢).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العبادة تتضمن: كمال الحب المتضمن معنى: الحمد، وتتضمن: كمال الذل المتضمن معنى: التعظيم، ففي العبادة: حبه وحمده على المحاسن، وفيها: الذل له الناشئ عن عظمته وكبريائه. ففيها: إجلاله وإكرامه. وهو جَلَّ وَعَلَا المستحق للجلال والإكرام، فهو مستحق غاية الإجلال، وغاية الإكرام"(١).

رابعًا: أنواع العبادة:

١ - عبادة التسخير وعبادة بالاختيار:

عبادة بالتسخير هي: التي لا يمكن لمخلوق الاستنكاف عنها.

أما عبادة بالاختيار فهي التي أمر به المكلف في الشرائع.

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(عبادة بالتسخير) للإنسان، والحيوانات، والنبات، والجماد، كما في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤].

و(عبادة بالاختيار)، وهي لذوي النطق(٢)، وهي المأمور بها في نحو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٣٦].

والعبد يقال على أربعة أضرب:

الأول: عبد بحكم الشرع، وهو الإنسان الذي يصح بيعه وابتياعه.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٢٥١).

(٢) المراد بالنطق هنا: التفكير، يعني بذلك: المكلفين.

الثاني: عبد بالإيجاد، وذلك ليس إلا لله عَزَّوَجَلَّ، وإياه قصد بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم:٩٣].

والثالث: عبد بالعبادة والخدمة، والناس في هذا ضربان:

الأول: عبد مخلص لله عَزَّوَجَلَّ، وهو المقصود بنحو قوله:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء:٣].

والثاني: عبد للدنيا وأعراضها، وهو المعتكف على خدمتها ومراعاتها، وإياه قصد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بقوله: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينار، والدِّرهم**»"(١).

٢ – الدعاء بمعنى: العبادة:

جاء في الحديث: عن النعمان بن بشير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، قال: «**الدعاء هو العبادة**»، وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، -إلى قوله جَلَّوَعَلَا-: ﴿دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠] (٢).

---

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: (عبد) (ص:٥٤٢-٥٤٣)، وقد تقدم تخريج الحديث.

(٢) الحديث مروي عن عن النعمان بن بشير، وعن البراء بن عازب. حديث: النعمان بن بشير: أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٢٩٨]، والطيالسي [٨٣٨]، وابن أبي شيبة [٢٩١٦٧]، وأحمد [١٨٣٥٢]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٧١٤]، وابن ماجه [٣٨٢٨]، وأبو داود [١٤٧٩]، والترمذي [٢٩٦٩]، وقال: "حسن صحيح" واللفظ له، وأخرجه أيضًا: البزار [٣٢٤٢، ٣٢٤٣]، والنسائي في (الكبرى) [١١٤٠٠]، وابن حبان [٨٩٠]، والطبراني في (الكبير) [١٩١]، و(الصغير)=

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾، يقول: إن الذين يتعظمون عن إفرادي بالعبادة، وإفراد الألوهة لي.

وقد قيل: إن معنى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿عَنۡ عِبَادَتِي﴾، أي: عن دعائي [1]. قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن الكريم. ويدل عليه: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾"[2]. قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ "فوضع الدعاء موضع العبادة؛ ليؤذن بأن الدعاء مخ العبادة.."[3].

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والدعاء عبادة، بل قالوا: إنه أفضل العبادة؛ لما فيه من الإخلاص، واليقين، والرجاء"[4].

=[١٠٤١]، والحاكم [١٨٠٢]، وقال: "صحيح الإسناد"، كما أخرجه: أبو نعيم في (الحلية (٨/١٢٠)، والقضاعي [٢٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٠٧٠]، والبغوي في (شرح السنة) [١٣٨٤]. حديث: البراء بن عازب: أخرجه أبو يعلى [٣٢٨]، والخطيب (١٢/٢٧٩). قال الحافظ في (الفتح) (١/٤٩): "«الدعاء هو العبادة» أخرجه أصحاب السنن بسند جيد" اهـ. وإن مما لا شك فيه أن الاستكبار عن عبادة عَزَّوَجَلَّ ودعائه يستلزم غضب الله عَزَّوَجَلَّ على من لا يدعوه. ودعاء العبد لربه جَلَّ وَعَلَا ليس من باب إعلامه بحاجته إليه؛ ﴿فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧﴾ [طه:٧]، وإنما من باب: إظهار عبوديته وحاجته إليه وفقره.

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/٤٠٨).

(٢) الكشاف (٤/١٧٥).

(٣) حاشية الطيبي على الكشاف (١٣/٥٣٤)، وقد روي عن أنس أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الدعاء مخ العبادة»، وقد أخرجه الترمذي [٣٣٧١] وقال: غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث: ابن لهيعة. كما أخرجه الطبراني في (الأوسط) [٣١٩٦].

(٤) الاستذكار (٤/٢٢٤).

وفي (الفتح): "قال الشيخ تقي الدين السبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الأولى حمل الدعاء في الآية على ظاهره، وأما قوله بعد ذلك: عن ﴿عَنۡ عِبَادَتِي﴾ فوجه الربط: أن الدعاء أخص من العبادة، فمن استكبر عن العبادة استكبر عن الدعاء، وعلى هذا فالوعيد إنما هو في حقِ من ترك الدعاء استكبارًا، ومن فعل ذلك كفر.

وأما من تركه لمقصد من المقاصد فلا يتوجه إليه الوعيد المذكور، وإن كنا نرى أن ملازمة الدعاء والاستكثار منه أرجح من الترك؛ لكثرة الأدلة الواردة في الحث عليه. قلت: وقد دلت الآية الآتية قريبًا في السورة المذكورة أن الإجابة مشترطة بالإخلاص، وهو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾ [غافر:٦٥]. وقال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: معنى حديث النعمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: أن تحمل العبادة على المعنى اللغوي؛ إذ الدعاء هو إظهار غاية التذلل والافتقار إلى الله عَزَّ وَجَلَّ والاستكانة له، وما شرعت العبادات إلا للخضوع للباري، وإظهار الافتقار إليه؛ ولهذا ختم الآية بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾ [غافر:٦٠] حيث عبر عن عدم التذلل والخضوع بالاستكبار، ووضع ﴿عِبَادَتِي﴾ موضع: دعائي، وجعل جزاء ذلك الاستكبار: الصغار والهوان"[1].

(١) فتح الباري، لابن حجر (١١/ ٩٥)، حاشية الطيبي على الكشاف (١٣/٥٣٤).

وقالوا: قوله ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**» معناه: أنه معظم العبادة، وأفضل العبادة، كقوله ﷺ: «**الحج عرفة**» (١)، وفي لفظ: «**الحج عرفات**»، أي: ركنه الأكبر.

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله: «**الدعاء هو العبادة**» أتى بضمير الفصل، والخبر المعرف باللام؛ ليدل على الحصر، وأن العبادة ليست غير الدعاء؛ مبالغة، ومعناه: أن الدعاء معظم العبادة، كما قال ﷺ: «**الحج عرفة**»، أي: معظم أركان الحج: الوقوف بعرفة؛ لما حكم بأن الدعاء هو العبادة الحقيقية التي تستأهل أن تسمى: عبادة من حيث إنه يدل على أن فاعله مقبل بوجهه إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، معرض عما سواه، لا يرجو ولا يخاف إلا منه. وقد استدل عليه بالآية؛ فإنها تدل على أنه

---

(١) أخرجه الطيالسي [١٤٠٥]، وابن أبي شيبة [١٣٦٨٣]، وأحمد [١٨٧٧٣]، وابن حميد [٣١٠]، والدارمي [١٩٢٩]، وابن ماجه [٣٠١٥]، وأبو داود [١٩٤٩]، والترمذي [٨٨٩، ٢٩٧٥]، وقال: "حسن صحيح"، كما أخرجه: ابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [٩٥٧]، والنسائي في (السنن) [٣٠١٦]، وفي (الكبرى) [٣٩٩٨]، وابن الجارود [٤٦٨]، وابن خزيمة [٢٨٢٢]، وابن حبان [٣٨٩٢]، والدارقطني [٢٥١٦]، والحاكم [٣١٠٠]، والديلمي [٢٧٥٩]، والبيهقي في (الكبرى) [٩٤٦٧]، وغيره، والبغوي في (شرح السنة) [٢٠٠١]. قال العلامة شمس الدين السخاوي: "أخرجه: "أحمد، وأصحاب السنن، وابن حبان، والحاكم، والدارقطني، والبيهقي، كلهم من حديث: عبد الرحمن بن يعمر الديلمي، قال: شهدت رسول الله ﷺ وهو واقف بعرفات، وأتاه ناس من أهل نجد، فقالوا: يا رسول الله كيف الحج؟ فقال: «الحج عرفة، من جاء قبل صلاة الفجر من ليلة جمع، فقد تم به حجه». ولفظ أحمد، وفي رواية لأبي داود: «من أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر، فقد أدرك الحج»، وألفاظ الباقين نحوه، ورواه الدارقطني والبيهقي: الحج عرفة، الحج عرفة" المقاصد الحسنة (ص:٣٠١-٣٠٢).

أمر مأمور به، إذا أتى به المكلف قبل منه لا محالة، وترتب عليه المقصود ترتب الجزاء على الشرط، والمسبب على السبب، وما كان كذلك كان أتم العبادات وأكملها، وتقرب منه الرواية الأخرى؛ فإن مخ الشيء: خالصه (١).

وقد قيل: العبادة ليست غير الدعاء مقلوب، وصوابه: أن الدعاء ليس غير العبادة اهـ. قال القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهو خطأ، والصواب الأول؛ لأنه الدال على المبالغة بطريق الحصر المطلوبة المستفادة من ضمير الفصل، وإتيان الخبر المعرف باللام، كما هو مقرر في علم: (المعاني والبيان)"(٢).

ومما جاء الدعاء فيه بمعنى العبادة: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾ [الطور:٢٨]، أي: إنا كنا في الدنيا من قبل يومنا هذا ندعوه: نعبده مخلصين له الدين، لا نشرك به شيئًا (٣).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿نَدْعُوهُ﴾ أي: نعبده، ونسأله الوقاية (٤).

فجمع بين المعنيين: المجازي والحقيقي.

فقوله: (نعبده) أي: الدعاء بمعنى: العبادة مجازًا، وقد تقدم بيان القرينة والنكتة من كلام الطيبي وغيره.

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٧٠٨/٥)، وانظر: قوت المغتذي على جامع الترمذي (٨٢٨/٢)، فيض القدير (٥٤٠/٣).

(٢) مرقاة المفاتيح (١٥٢٧/٤).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٢/ ٤٧٧)، تفسير القرطبي (٧٠/١٧).

(٤) الكشاف (٤١٢/٤).

وقوله: (أو نسأله الوقاية) أي: أنه باق على حقيقته وأصله. قال الشيخ القونوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قدم الأول؛ لأنه هو المقصود، وأنه الأصل في النجاة، مع أنه مجاز مشهور ملحق بالحقيقة"(١).

ويتبين مما سبق أن الدعاء يطلق على العبادة وعلى السؤال، ولكن إطلاقه على العبادة على سبيل المجاز باعتبار أنه معظم العبادة أو أفضلها، والنكتة على ما تقدم: المبالغة في بيان فضله ومكانته، فكأنه هو العبادة كلها.

وقول الشيخ القونوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه مجاز مشهور ملحق بالحقيقة، يعني: أنه جار على القاعدة: بأن المجاز إذا كثر أو اشتهر لحق الحقيقة، أي: صارت الحقيقة ملغيَّة، وينصرف الذِّهن إلى المعاني المجازيَّة، نحو: (أكلتُ من الشَّجرة)، فالمجاز المعروف: أكلتُ ثمر الشَّجرة، والذِّهن منصرف عن المعنى الحقيقي إلى المجازي، ولكن لا يمنع من إرادة المعنى الحقيقي، لأنَّه لا يمنع أن يأكل أوراق الشَّجرة. ومن ذلك لفظ: (الغائط) لما يخرج من الإنسان؛ فإنَّ لفظة: (الغائط) إنما وضعت في اللُّغة أوَّلا لمكانٍ منخفض من الأرض يقصد عند الحاجة؛ ليستتر به، فنقل اسم المكان، وجعل كنايةً عن الخارج، واشتهر بحيث لا يتبادر عند الإطلاق في الإفهام إلاَّ هو دون المكان، فكأنَّه لحق الحقيقة، فيترجح المجاز إذا كثر استعماله حتى يكون أغلب استعمالًا من الحقيقة، ويسمى: مجازًا راجحًا، والحقيقة مرجوحة على اختلاف بين أهل العلم. قد فصلت القول فيه في كتاب: (مجاري الكناية).

---

(١) حاشية القونوي على البيضاوي (١٨/٢٥٠).

ولكن ثمة فرقًا بين ما ذكره الشيخ القونوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من إجراء القاعدة -الآنفة الذكر- في إطلاق الدعاء على العبادة، وبين ما يصح أن يكون من مصاديق هذه القاعدة، فلا يستقيم قوله؛ لأن المعنى الحقيقي للعبادة ليس مهجورًا -كما هو بين- بل هو الأصل، وما الدعاء إلا فرد من أفرادها، فإذا أطلق عليه هذا المسمى فإنما هو للمبالغة في التعظيم وبيان المكانة، فلا يعدو أن يكون من قبيل المجاز المرسل.

وعلى هذا فإن العلاقة بين الدعاء والعبادة هي العموم والخصوص المطلق.

وبناء على ما تقدم فيصح أن يقال: إن قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ [الطور:٢٨] يراد منه: العبادة والسؤال معًا على النحو الذي ذكره جار الله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والذي نقله عنه غير واحد من المفسرين.

فالعبادة تشمل العبادات: (القلبية، والبدنية، والمالية).

والمسألة: بأن يسأل العبدُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ ما ينفعه من خير الدنيا والآخرة، أو يسأله أن يدفع عنه ما يضره في الدنيا والآخرة.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝١٨٦﴾ [البقرة:١٨٦]، أي: أنا أجيب دعاءكم مع أني غني عنكم على الإطلاق، فكونوا أنتم مجيبين دعوتي مع افتقاركم إليَّ من جميع الوجوه. فالمراد هنا: دعاء المسألة، وقيل: الدعاء في الآية هو العبادة.

فتنبه إلى هذا التحرير، وإلى ما سيأتيك من فروق أخرى ذات صلة، من نحو: الفرق بين الدعاء والاستغفار، وبين الاستغفار والتوبة.. إلى غير ذلك.

وقول البعض إن قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ [الطور:٢٨] يشمل: دعاء العبادة، ودعاء المسألة، فهو يشمل دعاء العبادة على اعتبار ما تتضمنه العبادة من السؤال، فدعاء العبادة يشمل: الصلاة، والصدقة، والصيام، والحج، وبر الوالدين، وغير ذلك، لأن كل عابد إنما يسأل الله عَزَّوَجَلَّ القبول والأجر بلسانه أو بقلبه، فعمله متضمن للسؤال؛ ولذلك توسع في الإطلاق، فقيل: إن قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ يشمل: دعاء العبادة، ودعاء المسألة؛ لأنهم لا يسألون إلا الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يلجئون إلا إليه.

وقد فصلت القول في تعريف الدعاء في اللغة والاصطلاح، مع بيان الفرق بينه وبين الأمر والالتماس في كتاب: (دراسة لأساليب النداء في القرآن الكريم).

٣ – العبادة والتوحيد:

إن الأمر بالعبادة يأتي في القرآن الكريم مقترنًا بالتوحيد، وقيل: إن العبادة تأتي بمعنى: التوحيد، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦]، أي: وحِّدوه، ولا تشركوا به شيئًا.

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واعلم أن العبادة عبارة عن كل فعل وترك يؤتى به؛ لمجرد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بذلك، وهذا يدخل فيه: جميع أعمال القلوب، وجميع أعمال الجوارح، فلا معنى لتخصيص ذلك بالتوحيد.

قال: ولما أمر بالعبادة بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أمر بالإخلاص في العبادة بقوله: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾، لأن من عبد مع الله غيره كان مشركًا، ولا يكون مخلصًا؛ ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]"(١).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ [التوبة:٣١].

قال أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء:٣٦]: "يعني بذلك جلَّ ثناؤه: وذِلُّوا لله بالطاعة، واخضعوا له بها، وأفردوه بالربوبية، وأخلصوا له الخضوع والذلة، بالانتهاء إلى أمره، والانزجار عن نهيه، ولا تجعلوا له في الربوبية والعبادة شريكًا تعظمونه تعظيمكم إياه"(٢).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يأمر تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بعبادته وحده لا شريك له؛ فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الآنات والحالات، فهو المستحق منهم أن يوحدوه، ولا يشركوا به شيئًا من مخلوقاته، كما قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لمعاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: **«يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟»**، قال: الله ورسوله أعلم، قال: **«أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، أتدري ما حقهم عليه؟»**، قال: الله ورسوله أعلم، قال: **«أن لا يعذبهم»** (٣).

---

(١) مفاتيح الغيب (٧٥/١٠)، وانظر: معالم التنزيل (٦١٤/١)، زاد المسير (٤٠٤/١)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٠٨/٢٢).

(٢) تفسير الطبري (٣٣٣/٨-٣٣٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٢٩٧/٢)، والحديث أخرجه البخاري [٧٣٧٣]، ومسلم [٣٠].

*ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج:٧٧]، أي: وحدوه وأطيعوه. ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ أي: أكثروا من الطاعات والخيرات ما استطعتم، وبادروا إليها (١).

٤ – العبادة بمعنى: الطاعة، والخضوع لله عَزَّوَجَلَّ، والتزام أمره:

*ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا حكاية عن قيل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأبيه: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ [مريم:٤٤].

*ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس:٦٠].

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ:٤٠-٤١].

*وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ عباده أن يقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة:٥]، وجاء في التفسير: أن قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ بمعنى: نحن نعبدك، والعبادة: هي الطاعة مع التذلل والخضوع، وسمي العبد عبدًا؛ لذلته وانقياده.

يقال: طريق معبد: أي: مذلل، ومعناه: نعبدك خاضعين (٢).

---

(١) انظر: بحر العلوم (٢/٤٧١)، معالم التنزيل (٣/٣٥٢). زاد المسير (٣/٢٥١).

(٢) انظر: تفسير أبي المظفر السمعاني (١/٣٧)، ومعالم التنزيل، للبغوي (١/٧٥).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره للآية: إن "العبادة في الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة، والخضوع، والخوف"(١).

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنَّ أصلَ العبادة: التذلُّلُ والخضوع. وسُمِّيت وظائفُ الشَّرعِ على المكلَّفين: عباداتٍ؛ لأنَّهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذلِّلين لله عَزَّوَجَلَّ"(٢).

وفي الحديث ما يدل على أن أصل العبودية: التذلُّلُ والخضوع والتزام أمر الله عَزَّوَجَلَّ، فمن ذلك: ما جاء عن عبد الله –يعني: ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ– قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما أصاب مسلمًا قَطُّ همٌّ ولا حُزْنٌ فقال: اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله** عَزَّوَجَلَّ **همه، وأبدله مكان حُزْنِهِ فرحًا**» (٣).

---

(١) تفسير ابن كثير (١/١٣٤).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/١٨١).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٢٩]، وأحمد [٣٧١٢]، والبزار [١٩٩٤]، وأبو يعلى [٥٢٩٧]، والشاشي [٢٨٢]، وابن حبان [٩٧٢]، والطبراني في (الكبير) [١٠٣٥٢]، والحاكم [١٨٧٧]، والبيهقي في (الدعوات) [١٨٤]. قال الهيثمي (١٠/١٣٦): "رجاله رجال الصحيح، غير أبي سلمة الجهني، وقد وثقه ابن حبان" وأبو سلمة الجهني: هو موسى بن عبد الله، وهو ثقة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التحقيق بمعنى قوله: «**إني عبدك**»: التزام عبوديته من الذل والخضوع والإنابة، وامتثال أمر سيده، واجتناب نهيه ودوام الافتقار إليه، واللجوء إليه والاستعانة به، والتوكل عليه، وعياذ العبد به، ولياذه به، وأن لا يتعلق قلبه بغيره؛ محبة وخوفًا ورجاء. وفيه أيضًا: أني عبد من جميع الوجوه: صغيرًا وكبيرًا، حيًّا وميتًا مطيعًا وعاصيًا، معافى ومبتلى، بالروح، والقلب، واللسان، والجوارح. وفيه أيضًا: أن مالي ونفسي ملك لك؛ فإنَّ العبد وما يملك لسيده. وفيه أيضًا: أنك أنت الذي مننت عليَّ بكلِّ ما أنا فيه من نعمة، فذلك كله من إنعامك على عبدك. وفيه أيضًا: أنّي لا أتصرف فيما خولتني من مالي ونفسي إلا بأمرك، كما لا يتصرف العبد إلا بإذن سيده، وإني لا أملك لنفسي ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة، ولا نشورًا، فإن صحَّ له شهود ذلك فقد قال: إني عبدك حقيقة.

ثم قال: «**ناصيتي بيدك**»، أي: أنت المتصرف فيَّ، تصرِّفني كيف تشاء، لست أنا المتصرِّف في نفسي..."[١].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال العلماء: أصل العبادة: الطاعة. وكل عبادة فلها معنى قطعًا؛ لأن الشرع لا يأمر بالعبث، ثم معنى العبادة قد يفهمه المكلف وقد لا يفهمه، فالحكمة في الصلاة: التواضع والخضوع، وإظهار الافتقار إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والحكمة في الصوم: كسر النفس، وقمع الشهوات، والحكمة في الزكاة: مواساة المحتاج،

---

(١) انظر: الفوائد، لابن القيم (ص:٢٢-٢٦).

وفي الحج: إقبال العبد أشعث أغبر من مسافة بعيدة إلى بيت فضله الله عَزَّوَجَلَّ كإقبال العبد إلى مولاه ذليلًا.

ومن العبادات التي لا يفهم معناها: السعي، والرمي، فكلف العبد بهما؛ ليتم انقياده؛ فإن هذا النوع لا حظَّ للنفس فيه، ولا للعقل به، ولا يحمل عليه إلا مجرد امتثال الأمر، وكمال الانقياد"(١).

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ما ذكره الشيخ النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من أن حكمة السعي والرمي غير معقولة المعنى غير صحيح فيما يظهر لي -والله تعالى أعلم-، بل حكمة الرمي، والسعي معقولة، وقد دل بعض النصوص على أنها معقولة، أما حكمة السعي: فقد جاء النص الصحيح ببيانها، وذلك هو ما رواه البخاري في (صحيحه): عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في قصة ترك إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هاجر، وإسماعيل عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ في (مكة)، وأنه وضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، وفي الحديث الصحيح المذكور: «**وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت، وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى**»، أو قال: «**يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها، ونظرت**

(١) المجموع شرح المهذب (٨/٢٤٣).

هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات» قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فذلك سعي الناس بينهما**» الحديث(١). وهذا الطرف الذي ذكرنا من هذا الحديث سقناه بلفظ البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في (صحيحه)، وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث: «**فذلك سعي الناس بينهما**»، فيه الإشارة الكافية إلى حكمة السعي بين الصفا والمروة؛ لأن هاجر سعت بينهما السعي المذكور، وهي في أشد حاجة، وأعظم فاقة إلى ربها جَلَّ وَعَلَا؛ لأن ثمرة كبدها، وهو ولدها إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ تنظره يتلوى من العطش في بلد لا ماء فيه، ولا أنيس، وهي أيضًا في جوع، وعطش في غاية الاضطرار إلى خالقها جَلَّ وَعَلَا، وهي من شدة الكرب تصعد على هذا الجبل، فإذا لم تر شيئًا جرت إلى الثاني، فصعدت عليه؛ لترى أحدًا، فأمر الناس بالسعي بين الصفا والمروة؛ ليشعروا بأن حاجتهم وفقرهم إلى خالقهم ورازقهم كحاجة وفقر تلك المرأة في ذلك الوقت الضيق، والكرب العظيم إلى خالقها ورازقها، وليتذكروا أن من كان يطيع الله عَزَّوَجَلَّ كإبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام لا يضيعه، ولا يخيب دعاءه، وهذه حكمة بالغة ظاهرة دلَّ عليها حديث صحيح وقد قدمنا في حديث: البيهقي المذكور حكمة الرمي أيضًا، فتبين بذلك أن حكمة السعي والرمي معروفة ظاهرة، خلافًا لما ذكره النووي رَحِمَهُ اللَّهُ -والعلم عند الله عَزَّوَجَلَّ-"(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومن خصائص الإلهية: العبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما: غاية الحب، مع غاية الذل. هذا تمام العبودية، وتفاوت منازل

---

(١) صحيح البخاري [٣٣٦٤].

(٢) أضواء البيان (٤/٤٨٠-٤٨١)، وانظر ما ذكره من بيان حكمة الرمي (٤/٤٧٩-٤٨٠).

الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين. فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله عَزَّوَجَلَّ فقد شبهه به في خالص حقِّه، وهذا من المحال أن تجيء به شريعة من الشرائع، وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل، ولكن غيرت الشياطين فطر الخلق وعقولهم وأفسدتها عليهم، واجتالتهم عنها، ومضى على الفطرة الأولى من سبقت له من الله عَزَّوَجَلَّ الحسنى، فأرسل إليهم رسله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم، فازدادوا بذلك نورًا على نور، ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور:٣٥]"(١).

وقال: "والعبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع، والعرب تقول: طريق معبد، أي: مذلل، والتعبد: التذلل والخضوع، فمن أحببته ولم تكن خاضعًا له لم تكن عابدًا له، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابدًا له حتى تكون محبًّا خاضعًا"(٢).

خامسًا: العبادة علم وعمل:

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العبادة ضربان: علم وعمل. وحقهما أن يتلازما؛ لأن العلم كالأُس، والعمل كالبناء، وكما لا يغني أُس ما لم يكن بناء، ولا يثبت بناء ما لم يكن أسٌّ، كذلك لا يغني علم بغير عمل، ولا عمل بغير علم، ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠].

قال: والعلم ضربان: نظري وعملي:

---

(١) الجواب الكافي (ص:١٣٦-١٣٧).

(٢) مدارج السالكين (١/٩٥-٩٦).

١ - فالنظري: ما إذا علم كفى ولم يحتج فيه بعده إلى عمل، كمعرفة وحدانية الله عَزَّوَجَلَّ، ومعرفة ملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ومعرفة السماوات، وما أشبه ذلك.

٢ - والعملي: ما إذا عُلم لم يغن حتى يعمل به، كمعرفة الصلاة، والزكاة، والجهاد، والصوم، والحج، وبرِّ الوالدين.

والأعمال ثلاثة أضرب:

١ - منها: ما يختص بالقلب.

٢ - ومنها ما يختص بالبدن.

٣ - ومنها: ما يشارك فيه البدن القلب.

والعلم أيضًا إذا نظر إليه وهو مكتسب فاكتسابه عمل. وإذا نظر إليه وقد اكتسب وتصوِّر في القلب خرج في تلك الحال عن أن يكون عملًا.

ومن وجه آخر ضربان: واجب، وندب:

١ - فالواجب يقال له: العدل.

٢ - والندب يقال له: الإحسان.

وهما المذكوران في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠].

فالفرض والعدل: تحري الإنسان لما إذا عمله أثيب، وإذا تركه عوقب.

والندب والإحسان: تحري الإنسان لما إذا عمله أثيب، وإذا تركه لم يعاقب.

والإنصاف من العدل، والتفضل من البر والإحسان، فالإنصاف هو مقابلة الخير من الخير، والشرِ من الشرّ بما يوازيه.

والتفضل والبر هو مقابلة الخير بأكثر منه، والشر بأقل منه.

فالإحسان والتفضل احتياط في العدالة، والإنصاف ليؤمن به من وقوع خلل فيه، وذلك إذا زدت في إعطاء ما عليك ونقصت في أخذ ما لك فقد احتطت وأخذت بالحزم، كدفع زيادة زكاء إلى الفقير وترك ما أُحل لك أن تتناول من مال اليتيم. فالعدالة إن كانت جميلة فالتفضل أحسن منها؛ ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ فيمن استوفى حقه فتحرى العدالة: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١﴾ [الشورى:٤١]، وقال جَلَّوَعَلَا بعده: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧]؛ إشارة إلى أن الإحسان حسن، والتفضل أحسن.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، فالإنسان إنما يكون محسنًا متفضلًا بعد أن يكون عادلًا منصفًا.

فأما من ترك ما يلزمه، ثم تحرى ما لا يلزمه فإنه لا يقال له: متفضل، ولا يجوز تعاطي التفضل إلا لمن كان مستوفيًا وموفيًا لنفسه، فأما الحاكم المستوفي والموفي لغيره فليس له إلا تحري العدالة والنَّصَفَة"(١).

وتفصيل القول في العدل والإحسان سيأتي في موضعه، وقد تقرَّر في غير موضع بيان أهمية العمل بالعلم، كما سيأتيك شيء من التفصيل والإحالة في مبحث: (طلب العلم وتحري الحق، والتلازم بين العلم والعمل).

---

(١) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين (ص:٨٦-٨٨).

سادسًا: أقسام العبادات:

١ - العبادات القلبية: كالمحبة، والخوف، الرجاء، والتوكل، والخشوع، والإنابة، والإخلاص، والنية.

ولا بد من اقتران أعمال القلوب بسلامة النية والقصد، بأن تكون خالصة لله عَزَّوَجَلَّ، لا يقصد بها إلا وجهه جَلَّوَعَلَا.

ويدخل في ذلك: الإيمان، والتسليم، وسلامة الاعتقاد.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة:١٧٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ [النساء:١٥٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد:٢١].

ولا بدَّ من اقتران الاعتقاد بالعمل -كما جاء بيان ذلك في غير موضع-. وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال:٢-٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٧٤﴾ [الأنفال:٧٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝١٥﴾ [الحجرات:١٥].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾ [الحديد:٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ﴾ [الحديد:١٩].

٢ – **العبادات القولية**: كالنطق بالشهادتين، والذكر، والدعاء، وتلاوة القُرآن، والدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ونشر العلم النافع، والنصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولا بد من اقترانها بالنية حتى تكون نافعة للعبد.

٣ – **العبادات الذاتية الشخصية**: كالصلاة والصوم:

ولذلك قالوا: لا يجوز أن يصلي أحد عن أحد، وقال أكثر الفقهاء: لا يجوز أن يصوم أحد عن أحد، كبطل رياضي عنده مبارة قريبة، فهو يعد نفسه، فإذا كان مشغولًا لا يصح أن يبعث أحدًا مكانه للتمرين. ولكن من عجز عن الصوم الواجب لمرض أو شيخوخة فهو يفطر ويدفع الفدية. فلا يُصامُ عن أحدٍ في حياته، وقد نقل الإجماع على ذلك غير واحد، وأما الميت ففي الصيام عنه خلاف ينظر في مظانه.

٤ - العبادات المالية: كالزكاة، والصدقة:

فالزكاة الواجبة من العبادات المالية التي تجوز فيها النيابة، وتقبل الوكالة.

فإذا كانت الزوجة -مثلًا- عندها مال كثير، ولكنها بخيلة فقالت لزوجها: أخرج الزكاة عني، فرضي، جاز ذلك.

وتجري الوكالة فيها فإذا كان الشخص الذي ستدفع إليه الزكاة بعيدًا لا يستطيع المؤدي زكاة ماله أن يصل عليهن جاز له أن يوكل غيره.

وزكاة الفطر يجب عليه أداؤها على المعيل المكلف بالنفقة، فيخرجها عن نفسه، وعن كل من تلزمه نفقتهم من أولاده الصغار، وأولاده الكبار العاجزين عن الكسب، وعن زوجته.

وأما الخادم والخادمة والأجير ممن له أجرة معلومة، ففطرته على نفسه، ولا تجب على سيده، ولكن لو أحب أن يخرجها عنه أو عنها فله ذلك، وهو عمل طيب، لكن ينبغي أن يعلمه بذلك قبل إخراجها من أجل النية من الخادم أو الخادمة أو الأجير.

٥ - عبادات بدنية ومالية معًا: كالحج:

فهل هو عبادة ذاتية كالصلاة لا يقبل الإنابة أم أنه عبادة مالية مثل: الزكاة يجوز أن ينوب فيها شخص عن آخر؟

قال الفقهاء: الحج فيه الشبهان:

أ. شبه الصلاة: فهو يشبه الصلاة؛ لأن فيه عبادة ذاتية من نية، ووقوف بعرفة، وطواف، ورمي للجمرات.

ب. شبه الزكاة: لأن فيه نفقات مالية.

ولذلك أشبه الأمرين، فعند العجز الكامل يقبل الإنابة، فمن بلغت به الشيخوخة أو المرض مبلغًا لا يستطيع فيه الذهاب إلى الحج فله أن ينيب غيره.

وبدون عجز كامل لا يقبل الإنابة: فإذا كان قادرًا أو مرضه آني يقبل الشفاء فلا ينوب عنه أحد.

سابعًا: العبادات: شخصية ومتعدية:

ومن الممكن تقسيم العبادات باعتبار آخر إلى شخصية ومتعدية، فالشخصية تقدم ذكرها.

والمتعدية كالبر، والصلة، والإحسان إلى الخلق -كما سيأتي- وصنائع المعروف.

ويقال أيضًا: منها: ما له خاص، كالصلاة ونحوها، ومنها ما هو اجتماعي، كصلة الرحم، واتباع الجنازة، وعيادة المريض، وقضاء حوائج...إلى غير ذلك.

ثامنًا: مقصد العبادة:

إنَّ لكل عبادة مقصد ومعنى شرعت لأجله؛ لأن الشرع لا يأمر بالعبث -كما تقدم-.

إنَّ العبودية لله عَزَّوَجَلَّ لها مقاصد سامية، وهي تحقُّق في العبد معنى: التكليف، وهو الإذعان لشرعة الله عَزَّوَجَلَّ، ذلك الإذعان الذي يخرج المكلَّفَ إلى حدِّ الإنسانية، وإلى مقام العبودية، فالصَّلاة ليست مجرَّد حركاتٍ يؤديها الإنسان دون أن يكون لها الأثر النَّاجع في المكلَّف، فقد بيَّن الحقُّ عَزَّوَجَلَّ أنها تورث المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ، فتزكو نفس العبد، وتعلو همته، ويبتعد عما يسخط الله عَزَّوَجَلَّ من قول أو فعل؛ لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكر الله عَزَّوَجَلَّ مراقبه، والشعور بالمراقبة يحمل العبد على ترك كل فعل قبيح.

قال الله عَزَّوَجَلَّ عن الصلاة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥].

فالصلاة تطهر الروح، وتزكي النفس؛ لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتربي في المصلي ملكة مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ وخشيته لدى الإساءة، وحبه والرجاء فيه عند الإحسان، وتذكره دائمًا بكماله المطلق، فتوجه همته دائمًا إلى طلب الكمال.

والنفوس في حاجة إلى مذكِّر يرقى بها إلى العالم الروحي، ويخلعها من عالم الحس، ويوجهها إلى مراقبة من برأها وفطرها حتى تطهر من تلك الأرجاس والأدران، وتترفع عن البغي والعدوان، وتميل إلى العدل والإحسان، ذلك المذكر هى الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتنفي الجزع والهلع عند المصايب، وتعلِّم البخيل الكرم والجود [١].

(١) انظر: تفسير المنار (٦/٢١٤)، تفسير المراغي (٢/٢٠١).

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ الطهارة شرطًا للدخول في الصلاة، ومقدمة لها تطهر البدن وتنشطه، فيسهل بذلك العمل من عبادة وغيرها. وفيها تنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغي أن يطهروها فبواطنهم بذلك أولى.

وفي (الصحيح): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسلُ منه كُلَّ يوم خمسَ مرَّاتٍ، هل يَبْقَى من دَرَنِهِ شيءٌ؟**»، قالوا: لا يبقى من دَرَنِهِ شيء، قال: «**فذلك مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْس، يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الخطايا**» (١).

وكذلك سائر العبادات لها مقاصد سامية. فالصيام -مثلًا- يعزز شعور المراقبة فهو جُنَّة ووجاء. وقل مثل ذلك في سائر العبادات والتكاليف؛ فإن لها مقاصد تسمو بالمكلف، وتصلح أحواله.

والعبادة سبب للتبصُّرِ والتَّفطن، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن بلاغه إنما يعيه قوم عابدون حيث قال: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦﴾ [الأنبياء:١٠٦].

والحاصل أن العبودية لله عَزَّوَجَلَّ شرفٌ وعزةٌ، وعطاء وإحسان، وقد وُصِف بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سياق ذكر حادثة (الإسراء). قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء:١].

ووصِفَ بها الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣﴾ [الأنبياء:٧٣].

---

(١) صحيح البخاري [٥٢٨]، مسلم [٦٦٧].

ووَصْفُ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بالعبوديَّة مشعرٌ بأنهم قد حصَّلوا معنى العبودية بسبب الاجتهاد في الطاعة، والإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّ التَّحقق بالعبودية لله عَزَّوَجَلَّ يسمو بالروح، ويطهرُّ النَّفْسَ، ويرتقي بالإنسان. والله عَزَّوَجَلَّ غنيٌّ عن عباده، وهم الفقراء إليه، وحاجتهم الدنيويَّة، وكذلك الأخرويَّة هي التي تحوجهم إلى هذه الدينونة له بالعبادة. وهذا مما لا يختلف فيه اثنان.

وأخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن بلاغه إنما يعيه قوم عابدون في قوله: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء:١٠٦].

"فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يأمر الخلق وينهاهم، لا لأنه تضره معصيتهم، ولا تنفعه طاعتهم، بل نفع طاعتهم لهم وضرر معصيتهم عليهم، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ [الإسراء:٧]، وقال: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ [فصلت:٤٦]، وقال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:١٥]"(١). وقال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد:٣٨].

وفي (صحيح مسلم): عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه عَزَّوَجَلَّ أنه قال: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم،**

---

(١) أضواء البيان (١/ ٢٠٣).

وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا» الحديث (١).

أما العبودية للبشر فهي نقيصةٌ وذلٌّ؛ لأنَّ السيِّدَ يريد أن يأخذ خير عبده، وقد أرسل الله عَزَّوَجَلَّ الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن الظلمات إلى النور، والناس سواسية لا فضل لأحد إلا بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فلا ينبغي لمسلم قد رسخت في نفسه العقيدة الصحيحة أن يذل نفسه إلا لله عَزَّوَجَلَّ.

ومن حِكَم الخلق: الابتلاءُ والاختبار (٢).

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦]: "التحقيق -إن شاء الله- في معنى هذه الآية الكريمة: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾، أي: إلا لآمرهم بعبادتي وأبتليهم، أي: أختبرهم بالتكاليف، ثم أجازيهم على أعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وإنما قلنا إن هذا

---

(١) صحيح مسلم [٢٥٧٧].

(٢) الشَّرع فيه تكاليف، وفيه ما يَشُقُّ على النُّفُوس، وهذا هو السَّبب في تسمية الأحكام بالتَّكليف؛ لأنَّ الجنة حُفَّت بالمكاره، وقد يكون ذلك في بداية الأمر، فإذا اعتاده وأدرك ما فيه من المصلحة والصِّلة والمقصد فإنَّه يتلذَّذ بالطَّاعة. والتكليف من أهم مستلزمات العبودية لله جَلَّوَعَلَا؛ إذ لا معنى للعبودية لله جَلَّوَعَلَا إن لم يكن ثمة تكليف. وقد استلزم التكليف تحمل المشاق ومجاهدة النفس والأهواء. ولو ترك الناس لدعوى الإسلام ومحبة الله عَزَّوَجَلَّ على ألسنتهم فقط، لاستوى الصادق والكاذب. ولكن الفتنة والابتلاء، هما الميزان الذي يميز الصادق عن الكاذب. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت:١-٣].

هو التحقيق في معنى الآية؛ لأنه تدل عليه آيات محكمات من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، فقد صرح جَلَّوَعَلَا في آيات من كتابه أنه خلقهم؛ ليبتليهم أيهم أحسن عملًا، وأنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم.

قال جَلَّوَعَلَا في أول (سورة هود): ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]. ثم بين الحكمة في ذلك فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [هود:٧].

وقال جَلَّوَعَلَا في أول (سورة الملك): ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [الملك:٢]. وقال جَلَّوَعَلَا في أول (سورة الكهف): ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف:٧].

فتصريحه جَلَّوَعَلَا في هذه الآيات المذكورة بأن حكمة خلقه للخلق، هي ابتلاؤهم أيهم أحسن عملًا، يفسر قوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾، وخير ما يفسر به القرآنَ: القرآنُ.

ومعلوم أن نتيجة العمل المقصود منه لا تتم إلا بجزاء المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.."(١).

ويعلم من مجموع النصوص أن القصر في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦] ليس قصرًا حقيقيًّا. وقد بيَّن ذلك الإمام محمد الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تفسيره) فقال: "فالحصر المستفاد من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا

(١) انظر: أضواء البيان (٧/٤٤٥-٤٤٦).

خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ قصر علة خلق الله عَزَّوَجَلَّ الإنس والجن على إرادته أن يعبدوه. والظاهر أنه قصر إضافي، وأنه من قبيل قصر الموصوف على الصفة، وأنه قصر قلب (١) باعتبار مفعول: ليعبدون، أي: إلا ليعبدوني وحدي، أي: لا

(١) القصر إما حقيقيٌّ، وهو أن يختصَّ المقصورُ بالمقصور عليه بحسب الحقيقة والواقع، بألا يتعدَّاه إلى غيره أصلًا، نحو: (لا إله إلَّا الله)، فإنّنا نقصر وصف الإلهية الحق على موصوف هو الله وحده، هذا من قصر الصفة على الموصوف، وهو قصر حقيقي. وإما إضافيٌّ، وهو أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحسب الإضافة والنسبة إلى شيء آخر معين، لا لجميع ما عداه، نحو: (ما خليل إلَّا مسافر)، فإنك تقصد قصر السفر عليه بالنسبة لشخص غيره، كمحمود مثلًا وليس قصدك أنه لا يوجد مُسافر سواه؛ إذ الواقع يشهد ببطلانه. وينقسم القصر باعتبار طرفيه: (المقصُور والمقصور عليه) -سواء أكان القصر حقيقيًّا أم إضافيًّا إلى نوعين: (أ) قصر صفة على موصوف: هو أن تحبس الصفة على موصوفها وتختص به، فلا يتَّصف بها غيره، وقد يتَّصف هذا الموصوف بغيرها من الصفات. مثاله من الحقيقي: (لا رازق إلَّا الله). ومثاله من الإضافي، نحو: (لا زعيم إلَّا سعد). ب. قصر موصوف على صفة، هو أن يحبس الموصوف على الصفة ويختصّ بها، دون غيرها، وقد يشاركه غيره فيها. مثاله من الحقيقي، نحو: (ما الله إلَّا خالق كلّ شيءٍ). ومثاله من الإضافي، قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران:١٤٤]. وينقسم القصر الإضافي بنوعيه السابقين على حسب حال المخاطب إلى ثلاثة أنواع. (أ) قصر إفراد: إذا اعتقد المخاطب الشركة، نحو: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النساء:١٧١] ردًّا على من اعتقد أنَّ الله ثالث ثلاثةٍ. (ب) قصر قَلب: إذا اعتقد المخاطب عكس الحكم الذي تثبته نحو: (ما محمد إلا قائم) في الموصوف على الصفة لمن يعتقد اتصافه بالقعود دون القيام، ونحو قولنا: (ما تاجر إلَّا محمد) في قصر الصفة على الموصوف لمن يعتقد أن التَّاجر عبد الله. وسمى قصر قلب؛ لأنه يقلب -أي: يعكس- حكم المخاطب الذي كان معتقدًا إياه ويثبت له غيره. (جـ) قصر تعيين: إذا كان المخاطب يتردّد في الحكم: نحو قولنا: (ما محمد إلَّا مدرس) ولا يعرف على التعيين وظيفته، وذلك في قصر الموصوف على الصفة. ومثل قولنا: (ما مزارع إلَّا إبراهيم) وذلك في قصر الصفة على الموصوف=

ليشركوا غيري في العبادة، فهو رد للإشراك، وليس هو قصرًا حقيقيًّا؛ فإنا وإن لم نطلع على مقادير حكم الله عَزَّوَجَلَّ من خلق الخلائق، لكنا نعلم أن الحكمة من خلقهم ليست مجرد أن يعبدوه؛ لأن حكم الله عَزَّوَجَلَّ من أفعاله كثيرة لا نحيط بها. ألا ترى أن الله عَزَّوَجَلَّ ذكر حكمًا للخلق غير هذه، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ﴾ [هود:١١٨- ١١٩].. بَلْهَ [١] ما ذكره من حكمة خلق بعض الإنس والجن كقوله في خلق عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّاۚ﴾ [مريم:٢١]"[٢].

والحاصل أن لله عَزَّوَجَلَّ حِكَمًا من الخلق عُلِمَ بعضها.

والإنسان السوي المتحقق بمعنى: (الإنسانية) من خلال السير على النهج الذي جاء به الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يحبه، وهو جَلَّ وَعَلَا يحبُّه؛ لإحسانه؛ ولرجوعه إلى الله عَزَّوَجَلَّ وإنابته. بل ويعينه على سلوك طريق الهداية، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾ [محمد:١٧]، ويحبُّه؛ لطهارته؛ ولاحترازه عن المعاصي؛ ولتوكله على الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولعدله، ولمحبته لإخوانه...الخ.

=لمن ظن أن المزارع إما إبراهيم أو أحمد من غير أن يعرفه على التعيين. وسمي قصر تعيين؛ لأنك عينت له إحدى الصفتين وأبقيت الأخرى أو أحد الوصفين وأبقيت الآخر.

(١) (بَلْهَ) بمعنى: دع عنك أو فضلًا عن..، وهي مبنية على الفتح، وقيل: معناها: سوى.

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/٢٧).

فإذا خالف منهج الله عَزَّوَجَلَّ فاعتدى أو ظلم، أو أفسد في الأرض، أو كفر بالله عَزَّوَجَلَّ، أو تكبَّر، أو خان، أو جهر بالسوء، أو أسرف، أو بطر فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يحبه؛ لفعله ذلك.

وقد جاء القول في ذلك مفصلًا في كتاب: (المحبة صورها وأحكامها في ضوء الكتاب والسنة).

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واعلم أن من أهم المباحث: البحث عن سر العبادة، وتأثيرها وسر مشروعيتها لنا، وذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ خلق هذا العالم ليكون مظهرًا لكمال صفاته جَلَّوَعَلَا: الوجود، والعلم، والقدرة. وجعل قبول الإنسان للكمالات التي بمقياسها يعلم نسبة مبلغ علمه وقدرته من علم الله عَزَّوَجَلَّ وقدرته، وأودع فيه الروح والعقل اللذين بهما يزداد التدرج في الكمال؛ ليكون غير قانع بما بلغه من المراتب في أوج الكمال والمعرفة، وأرشده وهداه إلى ما يستعين به على مرامه؛ ليحصل له بالارتقاء العاجل رقي آجل لا يضمحل، وجعل استعداده لقبول الخيرات كلها عاجلها وآجلها متوقفًا على التلقين من السفرة الموحى إليهم بأصول الفضائل.

ولما توقف ذلك على مراقبة النفس في نفراتها وشرداتها، وكانت تلك المراقبة تحتاج إلى تذكر المجازي بالخير وضده، شرعت العبادة لتذكر ذلك المجازي؛ لأن عدم حضور ذاته، واحتجابه بسبحات الجلال يسرب نسيانه إلى النفوس، كما أنه جعل نظامه في هذا العالم متصل الارتباط بين أفراده فأمرهم بلزوم آداب المعاشرة والمعاملة؛ لئلا يفسد النظام، ولمراقبة الدوام على ذلك أيضًا شرعت العبادة؛ لتذكر به، على أن

في ذلك التذكر دوام الفكر في الخالق وشؤونه وفي ذلك تخلق بالكمالات تدريجًا فظهر أن العبادة هي طريق الكمال الذاتي والاجتماعي مبدأ ونهاية، وبه يتضح معنى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦]، فالعبادة على الجملة لا تخرج عن كونها محققة للمقصد من الخلق، ولما كان سر الخلق والغاية منه خفية الإدراك عرفنا الله عَزَّوَجَلَّ إياها بمظهرها وما يحققها؛ جمعًا لعظيم المعاني في جملة واحدة وهي جملة: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾....الخ"[١].

تاسعًا: بيان أركان الإسلام:

جاء في الحديث: عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت**»[٢].

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مباني الإسلام الخمس كل واحد منها يكفر الذنوب والخطايا ويهدمها"[٣].

وقال: "أفضل الأعمال بعد الإيمان الجهاد معنيين:

(١) التحرير والتنوير (١/١٨٢).

(٢) صحيح البخاري [٨]، مسلم [١٦].

(٣) لطائف المعارف (ص:٦١).

أحدهما: أن يقال: إنما كان ذلك حيث كان الجهاد فرض عين، فكان حينئذ أفضل الأعمال بعد الإيمان، وقرينًا له، فلما نزلت الرخصة وصار الجهاد فرض كفاية تأخر عن فرض الأعيان.

وقد اختلف ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وعبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في عد الجهاد من فرائض الإسلام، فعده عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا منها بعد الحج، وأنكر ذلك ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عليه، وقال: فرائضه تنتهي إلى الحج.

وقد روى اختلافهما في ذلك أبو عبيد رَحِمَهُٱللَّهُ في كتاب: (الناسخ والمنسوخ)[1] وغيره.

وعدَّ حذيفة بن اليمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الجهاد من سهام الإسلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأضافهما إلى مباني الإسلام الخمس، وجعلها ثمانية سهام، وكأنه جعل الشهادتين سهمين.

والثاني -وهو أشبه-: أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان إذا سئل عن أفضل الأعمال، فتارة يذكر الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لدخوله في مسمى الأعمال.. وتارة

---

(١) قال أبو عبيد: حدثنا علي بن معبد، عن أبي المليح الرقي، عن ميمون بن مهران قال: كنت عند ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، فجاء رجل على عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، فسأله عن الفرائض وابن عمر جالس حيث يسمع كلامه، فقال: «الفرائض: شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصيام رمضان، والجهاد في سبيل الله»، قال: فكأن ابن عمر غضب من ذلك، ثم قال: «الفرائض: شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصيام رمضان» وترك الجهاد.." الناسخ والمنسوخ، لأبي عُبيد القاسم بن سلام (ص:٢٠٢).

يذكر أعمال الجوارح؛ لأن المتبادي إلى الفهم عند ذكر الأعمال مع الإطلاق: أعمال الجوارح، دون عمل القلب واللسان، فكان إذا تبين له أن ذلك هو مراد السائل ذكر الصلاة له، كما ذكرها في حديث: ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(1)؛ فإن الصلاة أفضل أعمال الجوارح، وحيث أجاب بذكر الإيمان، أو بذكر الصلاة، فإنما مقصوده: التمثيل بأفضل مباني الإسلام، ومراده: المباني بجملتها؛ فإن المباني الخمس كالشيء الواحد، وكل من

(1) يعني: حديث: عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: سألت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها»، قال: ثم أي؟ قال: «ثم بر الوالدين»، قال: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»، قال: حدثني بهن، ولو استزدته لزادني. صحيح البخاري [٥٢٧، ٥٩٧٠]، مسلم [٨٥]. وقدَّم في الحديث: برَّ الوالدين على الجهاد؛ إشارةً إلى أن حقوق العباد اللَّازمة (التي هي من فروض الأعيان) تقدَّم على التطوع بالجهاد. فتح الباري، لابن رجب (٤/٢١٦). يعني: من باب تقديم فرض العين على فرض الكفاية. ويدل عليه حديث: عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاستأذنه في الجهاد، فقال: «أحيٌّ والداك؟»، قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد» صحيح البخاري [٣٠٠٤، ٥٩٧٢]، مسلم [٢٥٤٩]. قال البغوي في (شرح السنة): "هذا في جهاد التطوع لا يخرج إلَّا بإذن الأبوين إذا كانا مسلمين. فإن كان الجهاد فرضًا متعينًا، فلا حاجة إلى إذنهما، وإن منعاه عصاهما وخرج. وإن كان الأبوان كافرين، فيخرج دون إذنهما، فرضًا كان الجهاد أو تطوعًا، وكذلك لا يخرج إلى شيء من التطوعات كالحج والعمرة والزيارة، ولا يصوم التطوع إذا كره الوالدان المسلمان أو أحدهما إلا بإذنهما، وما كان فرضًا فلا يحتاج فيه إلى إذنهما، وكذلك لا يخرج إلى جهاد التطوع إلا بإذن الغرماء إذا كان لهم عليه دين عاجل، كما لا يخرج إلى الحج إلا بإذنهم، فإن تعين عليه فرض الجهاد لم يُعَرِّجْ على الإذن" انظر: شرح السنة، للبغوي (١٠/٣٧٨). ولو منعه أبواه الكافران عن الخروج للجهاد الكفائي، مخافة عليه، ومشقة لهما بخروجه وتركهما، فعند الحنفية: لهما ذلك، ولا يخرج إلا بإذنهما برًا بهما وطاعة لهما، إلا إذا كان منعهما له لكراهة قتال أهل دينهما، فإنه لا يطيعهما ويخرج له. انظر: حاشية ابن عابدين (٣/٢٢٠).

دخل في الإسلام بالإقرار بالشهادتين أو بالصَّلاة -على رأي من يرى فعلها إسلامًا-، فإنه يؤمر ببقية المباني، ويلزم بذلك، ويقاتل على تركه جيمعًا: (الصلاة، والزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت)..."[١].

قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقول ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا لهذا السائل عن الغزو: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذكر حديث: «**بُني الإسلام على خمس**»، يُستدل به على سقوط فرض الجهاد، وأنه ليس من مباني الإسلام، وإنما هو من فروض الكفايات، وهو قول جماعة من العلماء أن فرضه نسخ بعد فتح مكة، وذكر أنه مذهب ابن عمر والثوري وابن شبرمة، ونحوه لسُحنون من أصحابنا، إلا أن ينزل العدو بقومٍ، أو يأمر الإمام بالجهاد، ويستنفر الناس فتلزمهم طاعته. وقال الداودي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لما فتحت مكة سقط فرض الجهاد عمن بَعُد من الكفار، وبقي فرضه على من يليهم، وكان أوَّلًا فرضًا على الأعيان..."[٢].

وقال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**بُنِيَ الإسلام على خمس**»، يعني: أن هذه الخمس أساسُ دين الإسلام، وقواعدُه عليها تنبني، وبها تقوم. وإنما خَصَّ هذه بالذكر، ولم يذكُر معها الجهاد، مع أنه به ظهر الدين، وانقمع به عُتَاةُ الكافرين؛ لأنَّ هذه الخمس فرضٌ دائم على الأعيان، ولا تسقطُ عمَّن اتَّصَفَ بشروط ذلك، والجهادُ من فروض الكفايات، وقد يسقُطُ في بعض الأوقات، بل وقد صار جماعة كثيرةٌ إلى أنَّ فرضَ الجهاد قد سقَطَ بعد فتح مكَّة، وذُكرَ أنَّه مذهبُ ابنِ عمر،

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب (٤/٢١٤-٢١٥).

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم (١/٢٢٧).

والثوري، وابن سِيرِينَ، ونحوُهُ لسُحنُون من أصحابنا، إلا أن ينزلَ العَدُو بقوم، أو يأمر الإمامُ بالجهاد، فيلزمُ عند ذلك.

وقد ظهَرَ مِن عدولِ ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن جواب الذي قال له: ألا تغزو؟ إلى جوابه بقول النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بُنِيَ الإسلامُ على خمس**»، أنَّه كان لا يرى فرضيَّةَ الجهاد في ذلك الوقت خاصَّة، أو على أنَّهُ يرى سقوطَهُ مطلقًا؛ كما نُقِلَ عنه.

وحديث: ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هذا قد روي من طرق: ففي بعضها: «**شهادة أن لا إله إلا الله**»، وفي بعضها: «**على أن تعبَدَ اللهُ، وتكفرَ بما دونه**»، فالأُولَى نَقلٌ للفظ، والأخرى نقلُ بالمعنى، والأصل نقل اللفظ، وهو المتفق عليه.

وقد اختُلِفَ في جواز نقل الحديثِ بالمعنى مِنَ العالِمِ بمواقعِ الكلم، وتركيبها على قولين: الجواز، والمنع. وأما مَن لا يَعرِف، فلا خلافَ في تحريمِ ذلك عليه"(١).

الركن الأول: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله:

١ - بيان أعظم أركان الإسلام:

إن أعظمَ وأجلَّ أركان الإسلام: (شهادة: أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله)، فهي التي تدخل العبد دائرة الإسلام، إذا كان معتقدًا بها، وإذا كانت مستوفية للشروط، وهي سبيل للفوز بالجنة، والنجاة من النار.

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/١٦٨-١٦٩).

والنصوص الواردة في فضل هذه الشهادة ومكانتها كثيرة جدًّا؛ مما يدل على أنها الركن الأعظم، والأساس الأقوم، والعروة الوثقى، وأنها أعلى شعب الإيمان، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣]، ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران:١٨]، ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ﴾ [الأنعام:١٠٢]، ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾ [الأنعام:١٠٦]، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ﴾ [الأعراف:١٥٨]، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [التوبة:٣١]، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾ [التوبة:١٢٩]، ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود:١٤]، ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرعد:٣٠]، ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل:٢]، ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه:٨]، ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾ [طه:١٤]، ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه:٩٨]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥]، ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ﴾ [القصص:٧٠]، ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا

هُوَۚ﴾ [القصص:٨٨]، ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣﴾ [فاطر:٣]، ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾ [غافر:٦٥]، ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد:١٩]، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾ [الحشر:٢٢]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣﴾ [التغابن:١٣]، ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾ [المزمل:٩]...والآيات في ذلك كثيرة.

"قال طائفة من العلماء: إن كلمة التوحيد سبب مقتض لدخول الجنة وللنجاة من النار، لكن له شروط، وهي: الإتيان بالفرائض، وموانع، وهي: إتيان الكبائر.

قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ للفرزدق: إن للا إله إلا الله شروطًا، فإياك وقذف المحصنة.

وروي عنه أنه قال: هذا العمود، فأين الطنب، يعني: أن كلمة التوحيد عمود الفسطاط، ولكن لا يثبت الفسطاط بدون أطنابه، وهي: فعل الواجبات، وترك المحرمات.

وقيل للحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن ناسًا يقولون: من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة، فقال: من قال: لا إله إلا الله، فأدَّى حقَّها وفرضها، دخل الجنة [1].

(١) انظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١/٢٠٨).

وقيل لوهب بن منبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: بلى ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان، فتح لك، وإلا لم يفتح لك"[2].

ومراده بالأسنان: الأعمال المنجية المنضمة إلى كلمة التوحيد، وشبهها بأسنان المفتاح من حيث الاستعانة بها في فتح المغلقات، وتيسير المستصعبات.

وقول الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أراد بها القواعد التي بني الإسلام عليها، تعقبه في (المصابيح): بأن من جملة القواعد: كلمة الشهادة التي عبر عنها بالمفتاح، فكيف تجعل بعد ذلك من الأسنان؟![3].

وقال المهلب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا خلاف بين أئمة المسلمين أنه من قال: لا إله إلا الله، ومات عليها أنه لا بد له من الجنة، ولكن بعد الفصل بين العباد، ورد المظالم إلى أهلها[4].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفضائل هذه الكلمة وحقائقها وموقعها من الدين: فوق ما يصفه الواصفون ويعرفه العارفون، وهي حقيقة الأمر كله"[5].

---

(١) انظر: صحيح البخاري (٢/٧١).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/٥٢٢).

(٣) انظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٢/٣٧٢)، التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح، للزركشي (١/٣٠١)، مصابيح الجامع، لمحمد بن أبي بكر، بدر الدين الدماميني (١/٩٨)، (٣/٢٠٢).

(٤) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٣/٢٣٦).

(٥) مجموع الفتاوى (٢/٢٥٦).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإيمان بضع وسبعون -أو بضع وستون- شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**» (١).

وعن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لنا معاذ في مرضه: قد سمعت من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا كنت أكتمكموه، سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله وجبت له الجنة**» (٢).

وعن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله، دخل الجنة**» (٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مسير، قال: فنفدت أزواد القوم، قال: حتى هم بنحر بعض حمائلهم، قال: فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله، لو جمعت ما بقي من أزواد القوم، فدعوت الله عليها، قال: ففعل، قال: فجاء ذو البر ببره، وذو التمر بتمره، قال: وقال مجاهد: وذو النواة بنواه، قلت: وما كانوا يصنعون بالنوى؟ قال: كانوا يمصونه ويشربون عليه الماء، قال: فدعا عليها قال: حتى

---

(١) صحيح مسلم [٣٥].

(٢) أخرجه أحمد [٢٢٠٣٤]، وأبو داود [٣١١٦]، والبزار [٢٦٢٦]، والشاشي [١٣٧٢]، والطبراني في (الكبير) [٢٢١]، والحاكم [١٢٩٩]، وقال: "صحيح الإسناد"، كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٩٣]. قال الحافظ ابن حجر: "أخرجه أحمد، وأبو داود، والحاكم من حديث: معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأعله ابن القطان بصالح بن أبي عريب، وأنه لا يعرف، وتعقب بأنه روى عنه جماعة، وذكره ابن حبان في الثقات" التلخيص الحبير (٢/٢١١).

(٣) أخرجه مسلم [٢٦].

ملأ القوم أزودتهم، قال: فقال عند ذلك: «**أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما، إلا دخل الجنة**» (١).

وفي رواية: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أو عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –شك الأعمش– عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك، فيحجب عن الجنة**» (٢).

وفي رواية: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له يومًا: «**من لقيت يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه، فبشره بالجنة**» (٣).

وعن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**» (٤).

واللفظ عند مسلم: «**من قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله، وابن أمته، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، وأن النار حق، أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء**» قال: وحدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي، حدثنا مبشر بن إسماعيل، عن الأوزاعي،

---

(١) صحيح مسلم [٢٧].

(٢) صحيح مسلم [٢٧].

(٣) صحيح مسلم [٣١].

(٤) صحيح البخاري [٣٤٣٥].

عن عمير بن هانئ، في هذا الإسناد بمثله، غير أنه قال: «**أدخله الله الجنة على ما كان من عمل**»، ولم يذكر: «**من أي أبواب الجنة الثمانية شاء**» (١).

وعن الصنابحي قال: دخلت على عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو في الموت في الموت، فبكيت، فقال: مهلًا، لم تبكي؟ فوالله لئن استشهدت لأشهدن لك، ولئن شفعت لأشفعن لك، ولئن استطعت لأنفعنك، ثم قال: والله ما من حديث سمعته من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكم فيه خير إلا حدثتكموه، إلا حديثًا واحدًا، وسوف أحدثكموه اليوم، وقد أحيط بنفسي، سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول: «**من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، حرم الله عليه النار**» (٢).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رديفه على الرحل، قال: «**يا معاذ بن جبل**»، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «**يا معاذ**»، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثًا، قال: «**ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، صدقًا من قلبه، إلا حرمه الله على النار**»، قال يا رسول الله: أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: «**إذا يتكلوا**»، وأخبر بها معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند موته تأثمًا (٣).

---

(١) صحيح مسلم [٢٨].

(٢) صحيح مسلم [٢٩].

(٣) صحيح البخاري [١٢٨]، مسلم [٣٢]. قال الهروي في تفسير غير هذا الحديث: تأثم الرجل: إذا فعل فعلًا يخرج به من الاثم، وكذلك تحنث: ألقى الحنث عن نفسه، وتحرج: ألقى الحرج عن نفسه. قال الإمام: والأظهر عندي أنه لم يرد في هذا الحديث هذا المعنى؛ لأن في سياقه ما يدل على خلافه.=

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: أتيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو نائم عليه ثوب أبيض، ثم أتيته فإذا هو نائم، ثم أتيته وقد استيقظ فجلست إليه، فقال: «**ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة**» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «**وإن زنى وإن سرق**» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال:

=قال القاضي: لعله لم ير هذا التفسير بيِّنًا لما ورد أول الحديث: «ألا أبشِّر الناسَ؟» قال: «لا تبشرهم فيتكلوا»، فأي إثم في كتم ما أمر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكتمه؟ لكني أقولُ: لعل معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يفهم من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النهي، لكن كسر عزمه عما عرض عليه من بشراهم به، بدليل حديث: أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من لقيت يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا قلبه فبشره بالجنة» ثم لما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ= للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أخشى أن يتكل الناس عليها، فخلهم يعملوا، قال: «فخلهم»، أو يكون معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلغه بعد أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك لأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحذر أن يكتم علمًا علمه، ويأثم بذلك، فأخبر به. أو يكون حمل النهي على إذاعته، وهذا الوجه ظاهر، وقد اختاره الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: منعه من التبشير العام؛ خوفًا من أن يسمع ذلك من لا خبرة له، ولا علم فيغتر ويتكل، وأخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الخصوص من أمن عليه الاغترار والاتكال من أهل المعرفة؛ فإنه أخبر به معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فسلك معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا المسلك، فأخبر به من الخاصة، من رآه أهلًا لذلك. قال: وأما أمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث: أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالتبشير فهو من تغير الاجتهاد، وقد كان الاجتهاد جائزًا له، وواقعًا منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند المحققين، وله مزية على سائر المجتهدين بأنه لا يقر على الخطأ في اجتهاده...الخ. انظر ذلك مفصلًا في (المعلم بفوائد مسلم)، للإمام أبي عبد الله المازري (١/٢٩١)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (١/٢٦١)، شرح النووي على صحيح مسلم (١/٢٤٠-٢٤١).

«**وإن زنى وإن سرق**» ثلاثًا، ثم قال في الرابعة: «**على رغم أنف أبي ذر**» قال: فخرج أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يقول: وإن رغم أنف أبي ذر [(١)].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: حدثني محمود بن الربيع، عن عِتْبَانَ بن مالك، قال: قدمت المدينة، فلقيت عتبان، فقلت: حديث بلغني عنك، قال: أصابني في بصري بعض الشيء، فبعثت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أني أحب أن تأتيني فتصلي في منزلي، فَأَتَّخِذَهُ مُصَلًّى، قال: فأتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن شاء الله من أصحابه، فدخل وهو يصلي في منزلي وأصحابه يتحدثون بينهم، ثم أسندوا عُظْمَ ذلك وَكُبْرَهُ إلى مالك بن دُخْشُمٍ، قالوا: وَدُّوا أنه دعا عليه فهلك، ودوا أنه أصابه شَرٌّ، فقضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصلاة، وقال: «**أليس يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؟**»، قالوا: إنه يقول ذلك، وما هو في قلبه، قال: «**لا يشهد أحد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فيدخل النار، أو تطعمه**»، قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأعجبني هذا الحديث، فقلت لابني: اكتبه فكتبه[(٢)].

---

(١) صحيح البخاري [٥٨٢٧]، مسلم [٩٤]. وفي لفظ: «من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة»، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق» وهو كذلك في (الصحيحين).

(٢) والحديث بهذا اللفظ في (صحيح مسلم) [٣٣]. وقد أخرج الإمام البخاري في (صحيحه) نحوه [١١٨٦، ٥٤٠١]. و(عظم) بضم العين وإسكان الظاء، أي: معظمه. و(كبره) فبضم الكاف وكسرها لغتان فصيحتان مشهورتان ذكرهما القاضي عياض وغيره، لكنهم رجحوا الضم. ومعنى قوله: (أسندوا عظم ذلك وكبره): أنهم تحدثوا وذكروا شأن المنافقين وأفعالهم القبيحة، وما يلقون منهم، ونسبوا معظم ذلك إلى مالك. ومالك بن دخشم هذا من الأنصار، ذكر أبو عمر بن عبد البر اختلافًا بين العلماء في شهوده العقبة، قال: ولم يختلفوا أنه شهد بدرًا وما بعدها من المشاهد، قال: ولا يصح عنه النفاق،=

وفي رواية: عن عِتْبَانَ بن مالك الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: غدا عَلَيَّ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**لن يُوَافِيَ عَبْدٌ يوم القيامة يقول: لا إله إلَّا الله، يبتغِي به وجهَ الله، إلَّا حرَّمَ اللهُ عليه النَّار**»(١).

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله، ونفسه، إلا بحقه وحسابه على الله**» الحديث(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قيل يا رسول الله: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن**

=فقد ظهر من حسن إسلامه ما يمنع من اتهامه، هذا كلام أبي عمر رَحِمَهُ اللَّهُ. قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد نص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على إيمانه باطنًا، وبراءته من النفاق بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رواية البخاري: «ألا تراه قال: لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله عَزَّ وَجَلَّ»، فهذه شهادة من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له بأنه قالها مصدقًا بها، معتقدًا، صدقها متقربًا بها إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وشهد له في شهادته لأهل بدر بما هو معروف، فلا ينبغي أن يشك في صدق إيمانه. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١/٢٤٣)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر (٣/١٣٥٠-١٣٥١)، المنتقى شرح الموطأ (١/٣٠٦)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٤/١٦٩).

(١) صحيح البخاري [٦٤٢٣، ٦٩٣٨]، و«يوافي»: يأتي.

(٢) صحيح البخاري [١٣٩٩، ١٤٠٠، ٦٩٢٤، ٦٩٢٥، ٧٢٨٤]، مسلم [٢٠]، وسيأتي.

هذا الحديث أحد أول منك؛ لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة: من قال: لا إله إلا الله، خالصًا من قلبه، أو نفسه»(١).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يَخْرُجُ من النَّارِ من قال: لا إله إلَّا الله، وفي قلبه وَزْنُ شَعِيرَةٍ من خَيْرٍ، ويَخْرُجُ من النَّار من قال: لا إله إلَّا الله، وفي قلبه وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، ويَخْرُجُ من النَّار من قال: لا إله إلَّا الله، وفي قلبه وَزْنُ ذَرَّةٍ من خَيْرٍ»، قال أبو عبد الله: قال أبان، حدثنا قتادة، حدثنا أنس، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من إيمان» مكان: «من خير»(٢).

وعن أبي إسحاق عن الأغَرِّ أبي مسلمٍ، قال: أشهد على أبي سعيد، وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنهما شهدا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «من قال: لا إله إلا الله والله أكبر، صَدَّقَهُ رَبُّهُ، فقال: لا إله إلا أنا، وأنا أكبر، وإذا قال: لا إله إلا الله وحده قال: يقول الله: لا إله إلا أنا وحدي، وإذا قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، قال الله: لا إله إلا أنا وَحْدِي لا شريك لي، وإذا قال: لا إله إلا الله له الملك وله الحمد، قال الله: لا إله إلا أنا، لي الملك ولي الحمد، وإذا قال: لا إله إلا الله ولا

(١) أخرجه البخاري [٩٩، ٦٥٧٠].

(٢) صحيح البخاري [٤٤]. و«برة» قمحة. و«ذرة» النملة الصغيرة، وقيل: أقل شيء يوزن، وقيل غير ذلك.

حول ولا قوة إلا بالله، قال الله: لا إله إلا أنا، ولا حول ولا قوة إلا بي، وكان يقول: من قالها في مرضه ثم مات لم تَطْعَمْهُ[1] النّار»[2].

قال العلامة السندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: «**مَنْ رُزِقَهُنَّ**» على بناء المفعول، ورجع نائب الفاعل إلى «**مَنْ**»، أي: من أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ هذه الكلمات عند الموت، ووَفَّقَهُ لها لم تَمَسَّهُ النَّار، بل يدخل الجنة ابتداء مع الأبرار، اللهم اجعلنا ممن رَزَقْتَهُ إِيَّاهُنَّ"[3].

وعند مسلم: عن يحيى بن عمارة، قال: سمعت أبا سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لقنوا موتاكم لا إله إلا الله**»[4]. ورواه كذلك عن أبي حازم، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[5].

---

(١) وفي رواية: "لم تمسَّه".

(٢) أخرجه عبد بن حميد [٩٤٣]، وابن ماجه [٣٧٩٤]، والترمذي [٣٤٣٠]، وقال: "هذا حديث حسن".
كما أخرجه البزار [٨٢٧٣]، وقال: "وهذا الحديث قد رواه عن أبي إسحاق، عن الأغر غير واحد".
وأخرجه أيضًا: النسائي في (الكبرى) [٩٧٧٥]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٣١]، وأبو يعلى [١٢٥٨]، وابن حبان [٨٥١]، والطبراني في (الأوسط) [٢٩٥٨]، و(الصغير) [٢٣٤]، والحاكم [٨٥١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٥٤].

(٣) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٢/٤١٩).

(٤) صحيح مسلم [٩١٦].

(٥) صحيح مسلم [٩١٦].

وعند ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لا إلهَ إلَّا الله؛ فإنَّهُ من كان آخِرُ كَلِمَتِهِ لا إلَهَ إلَّا اللهُ عند الموت دخلَ الجنَّة يومًا من الدَّهْر، وإن أصابه قبل ذلك ما أصابه**»(١).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "معناه: من حضره الموت، والمراد: ذَكِّرُوه لا إله إلا الله؛ لتكون آخر كلامه، كما في الحديث: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**». والأمر بهذا التلقين أمر ندب، وأجمع العلماء على هذا التلقين، وكرهوا الإكثار عليه والموالاة؛ لئلا يضجر بضيق حاله وشدة كربه، فيكره ذلك بقلبه، ويتكلم بما لا يليق.."(٢).

٢ – حديث البطاقة:

جاء في الحديث: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يقول: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله سَيُخَلِّصُ رجلًا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة؛ فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله،**

(١) أخرجه ابن حبان بسند صحيح [٣٠٠٤]، كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (١٣/٣٩٧).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ٢١٩).

فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السِّجِلَّاتِ، فقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السِّجِلَّاتِ في كَفَّةٍ والبطاقة في كَفَّةٍ، فطاشت السِّجِلَّاتِ وثَقُلَتِ البطاقة، فلا يَثْقُلُ مع اسم الله شيء»(١).

قيل: هذا الحديث يدل على فضل كلمة التوحيد إذا مشفوعة بالاعتقاد والعمل، ومستوفية للشروط، من الصدق، والإخلاص، واليقين، وصفاء النية، والبعد عن جميع أنواع الشرك.

وقد تقدم قول الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن ناسًا يقولون: من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة، فقال: من قال: لا إله إلا الله، فأدَّى حقَّها وفرضها، دخل الجنة.

وقيل لوهب بن منبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: بلى ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان، فتح لك، وإلا لم يفتح لك.

ومراده بالأسنان: الأعمال المنجية المنضمة إلى كلمة التوحيد -كما تقدم-.

فكلمة: (لا إله إلا الله) سبب لدخول الجنة، والنجاة من النار، إذا توفرت الشروط، وانتفت الموانع.

فالمنافقون يقولون: (لا إله إلا الله)، ولكنها لا تنفعهم، وهم في الدرك الأسفل من النار؛ لأنهم يقولونها بألسنتهم فقط، من غير اعتقاد لمعناها، وعمل بمقتضاها.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) (٢/١٠٩)، وأحمد [٦٩٩٤]، وابن ماجه [٤٣٠٠]، والترمذي [٢٦٣٩]، وقال: "حسن غريب". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٢٢٥]، والطبراني في (الكبير) [١٤٦١٤]، والحاكم [٩]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي. كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٢٧٩]، والبغوي في (شرح السنة) [٤٣٢١].

ومن أهل العلم من حمل هذا الحديث على حال إيمانية عالية، ويقين راسخ، ويقين، وصدق، وإخلاص، وإلا، فكل مسلم يشهد الشهادتين، ولكن منهم من يدخل النار بذنوبه؛ حتى يطهَّر منها، ثم يدخل الجنة.

قال الحكيم الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فهذا عبد كثرت سيئاته حتى غمرته، فأدركه غوث تلك الكلمة، وليست تلك بأول مما قالها، ولكنها كانت مقالة طاهرة خرجت من زكاوة قلبه، في ساعة من عمره، فأنجته، فحاطت ذنوبه وهدمتها، وطاشت بالسجلات يوم الوزن؛ لوزن تلك الكلمة. وإنما ثقلت؛ لعظم نورها؛ لأنها خرجت من نور استنار قلبه بالنطق بها، وإذا أراد الله عَزَّوَجَلَّ بعبد خيرًا منَّ عليه في ساعة من عمره، ونبهه، فإذا انتبه انفتح قلبه، واستنار صدره من تلك الفتحة، فإذا انفتح القلب خرج النور إلى الصدر، فأشرق، فأي كلمة نطق بها في ذلك الوقت فإنما ينطق على شرح الصدر، والمعاينة لصورة تلك الكلمة، تسمى: كلمة الإخلاص، وكلمة يقين، تثقل في الوزن يوم الوزن، وتكون سببًا لنجاة صاحبها، وهذا لا يكون في شهادة التوحيد؛ إذ لو كان لها لاستوى الناس فيها"(١). فهذه الشهادة- على ما قاله الحكيم الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ- ليست شهادة التوحيد؛ لأن من شأن الميزان: أن يوضع في إحدى كفتيه شيء، وفي الأخرى ضده، فتوضع الحسنات في كفة، والسيئات في كفة، ومن المستحيل أن يؤتى لعبد واحد بكفر وإيمان معًا، فيستحيل أن توضع شهادة التوحيد في الميزان، أما بعد

---

(١) نوادر الأصول (١/٣٧٨).

الإيمان فإن النطق بهذه الكلمة الطيبة حسنة فتوضع في الميزان كسائر الحسنات. وأيد ذلك بقوله جَلَّوَعَلَا في الحديث: «**إن لك عندنا حسنة**» دون أن يقول جَلَّوَعَلَا: إيمانًا.

وجوز أن يكون المراد هذه الكلمة إذا كانت آخر كلامه في الدنيا[1].

وجوز غيره أن تكون كلمة التوحيد، ومنع لزوم وضع الضد في الكفة الأخرى؛ ليلزم المحال فتدبر[2].

وفي (المرقاة): قوله: «**إن لك عندنا حسنة**» أي: واحدة عظيمة مقبولة تمحو جميع ما عندك. قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [النساء:٤٠]. وإذا قال الله جَلَّجَلَالُهُ ولا إله غيره لشيء عظيم فهو عظيم.

وفي (المرقاة) كذلك: "ثم هذا الحديث يحتمل أن تكون البطاقة وحدها غلبت السجلات، وهو الظاهر المتبادر، ويحتمل أن تكون مع سائر أعماله الصالحة، ولكن الغلبة ما حصلت إلا ببركة هذه البطاقة.

---

(١) قال أبو عبد الله القرطبي في (التذكرة): "ويجوز أن تكون هذه الكلمة هي آخر كلامه في الدنيا، كما في حديث: معاذ بن جبل رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «من كان آخر كلامه في الدنيا: لا إله إلا الله؛ وجبت له الجنة» [وقد تقدم] ... وقيل: يجوز حمل هذه الشهادة على الشهادة التي هي الإيمان، ويكون ذلك في كل مؤمن ترجح حسناته، ويوزن إيمانه كما توزن سائر حسناته، وإيمانه يرجح سيئاته، كما في هذا الحديث، ويدخله النار بعد ذلك فيطهره من ذنوبه، ويدخله الجنة بعد ذلك... انظر: التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص:٧٢٩-٧٣١).

(٢) روح المعاني (٤/٣٢٤).

«**فلا يثقل مع اسم الله شيء**» والمعنى: لا يقاومه شيء من المعاصي، بل يترجح ذكر الله عَزَّوَجَلَّ على جميع المعاصي. قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]، ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥].

فإن قيل: الأعمال أعراض لا يمكن وزنها، وإنما توزن الأجسام، أجيب: بأنه يوزن السجل الذي كتب فيه الأعمال، ويختلف باختلاف الأحوال، أو أن الله عَزَّوَجَلَّ يجسم الأفعال والأقوال فتوزن، فتثقل الطاعات، وتطيش السيئات؛ لثقل العبادة على النفس وخفة المعصية عليها؛ ولذا ورد: «**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**»[(١)]"[(٢)].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا وأمثاله مما يبين أن الأعمال توزن بموازين تبين بها رجحان الحسنات على السيئات، وبالعكس، فهو ما به تبين العدل. والمقصود بالوزن: العدل، كموازين الدنيا. وأما كيفية تلك الموازين فهو بمنزلة كيفية سائر ما أخبرنا به من الغيب"[(٣)].

وقال: "قوله: «**وثقلت البطاقة**» فهذا لما اقترن بهذه الكلمة من الصدق، والإخلاص، والصفاء، وحسن النية؛ إذ الكلمات والعبادات وإن اشتركت في الصورة الظاهرة فإنها تتفاوت بحسب أحوال القلوب تفاوتًا عظيمًا. ومثل هذا الحديث الذي

---

(١) صحيح مسلم [٢٨٢٢]، وقد تقدم.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/٣٥٣١-٣٥٣٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٤/٣٠٢).

في حديث: المرأة البغي التي سقت كلبًا فغفر الله عَزَّوَجَلَّ لها[1]؛ فهذا لما حصل في قلبها من حسن النية والرحمة إذ ذاك، ومثله: قوله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم القيامة**»[2]"[3].

٣ - شروط شهادة: لا إله إلا الله، محمد رسول الله:

بناء على ما تقدم من قول الحسن رَحِمَهُاللَّهُ وغيره من أن للا إله إلا الله شروطًا، فيمكن إجمال تلك الشروط على النحو التالي:

أ. إن هذه الشهادة لا تكون نافعة للعبد، ورافعة له إلا إذا كان مع اعتقاد معناها، والعمل بمقتضاها، من فعل الواجبات، وترك المحرمات.

---

(١) الحديث في (الصحيحين)، وسيأتي.

(٢) الحديث في صحيح الإمام البخاري: عن أبي هريرة رَضِيَاللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بلفظ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يلقي لها بالًا، يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالًا، يهوي بها في جهنم» صحيح البخاري [٦٤٧٨]. وهو عند مالك، والترمذي وغيرهما: عن بلال بن الحارث المزني بلفظ: «إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه» وقد صححه الترمذي وغيره.

(٣) مجموع الفتاوى (٧٣٥/١٠).

وإن الإتيان بهذه الشهادة من غير عمل أشبه بمفتاح ليس له أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان، فتح لك، وإلا لم يفتح لك، والمراده بالأسنان: الأعمال المنجية المنضمة إلى كلمة التوحيد، فلا تنفع هذه الشهادة من غير عمل بمقتضاها من نحو: التوبة، والإنابة، ورد المظالم إلى أهلها، والصدق، والإخلاص، وحسن النية.

ب. إن هذه الشهادة وإن كانت أعلى شعب الإيمان فينغي لطالب النجاة أن يحرص على الإتيان بشعب الإيمان التي جاء الشارع ببيانها، والتي تقدم ذكرها في (الإيمان).

ج. يشترط العلم بما تقتضيه هذه الشهادة من نفي وإثبات:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩]. والمعنى: فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله عَزَّوَجَلَّ، وعلى التواضع، وهضم النفس باستغفار ذنبك وذنوب من هم على دينك.

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فالأمر في قوله: ﴿فَٱعْلَمْ﴾ كناية عن طلب العلم وهو العمل بالمعلوم، وذلك مستعمل في طلب الدوام عليه؛ لأن النبيء صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد علم ذلك وعلمه المؤمنون، وإذا حصل العلم بذلك مرة واحدة تقرر في النفس؛ لأن العلم لا يحتمل النقيض، فليس الأمر به بعد حصوله لطلب تحصيله، بل

لطلب الثبات، فهو على نحو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء:١٣٦]"(١).

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغي أو تصلح له الألوهة، ويجوز لك وللخلق عبادته، إلا الله عَزَّ وَجَلَّ الذي هو خالق الخلق، ومالك كل شيء، يدين له بالربوبية كل ما دونه"(٢).

وهذا خطاب للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وكل واحد من الأمة داخل معه فيه. واحتج بهذه الآية من قال من أهل السنة: إن العلم والنظر قبل القول، والإقرار في مسألة أول الواجبات. وبوب البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العلم قبل القول والعمل؛ لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ [محمد:١٩] الآية (٣).

قال ابن المنير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل فلا يعتبران إلا به فهو متقدم عليهما؛ لأنه مصحح للنية المصححة للعمل فنبه الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ذلك حتى لا يسبق إلى الذهن من قولهم: إن العلم لا ينفع إلا بالعمل تهوين أمر العلم والتساهل في طلبه. وقوله البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فبدأ بالعلم) أي: حيث قال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ثم قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩]"(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٠٥/٢٦).

(٢) تفسير الطبري (١٧٣/٢٢).

(٣) انظر: المحرر الوجيز (١١٦/٥). وسيأتي بيان ما أورده الإمام البخاري في باب: (العلم قبل القول والعمل في (العلم).

(٤) فتح الباري، لابن حجر (١٦٠/١)، عمدة القاري (٣٩/٢).

يعني: أن الشيء يعلم أوَّلًا، ثم يقال ويعمل به، فالعلم مقدم عليهما بالذات، وكذا مقدم عليهما بالشرف؛ لأنه عمل القلب، وهو أشرف أعضاء البدن (١).

قال المهلب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العمل لا يكون إلا مقصودًا لله عَزَّوَجَلَّ إلا بمعنى متقدم عليه، وهو علم ما وعد الله عليه من الثواب، وإخلاص العمل لله عَزَّوَجَلَّ، فحينئذ يكون العمل مرجو النفع؛ إذ تقدمه العلم، ومتى خلا العمل من النية، ورجاء الثواب عليه، وإخلاص العمل لله عَزَّوَجَلَّ فليس بعمل، وإنما هو كفعل المجنون الذي رفع عنه القلم. وقد بين ذلك صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**إنما الأعمال بالنيات**»"(٢).

وقال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد استدل بالآية من قال بوجوب النظر، وإبطال التقليد في العقائد، ومن قال بأن أول الواجبات: المعرفة قبل الإقرار"(٣).

وقال جَلَّ وَعَلَا في آية أخرى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝٨٦﴾ [الزخرف:٨٦].

قال يحيى بن سلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: "وقلوبهم مخلصة بشهادة لا إله إلا الله، يعلمون أنها الحق"(٤).

وقال أبو الحسن الواحدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومعنى: ﴿شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الزخرف:٨٦]: شهد أنه لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وهم يعلمون بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم، وفي هذا دليل على أنه لا يتحقق إيمان، وشهادة حتى يكون ذلك عن علم بالقلب؛ لأن

---

(١) الكواكب الدراري، لشمس الدين الكرماني (٢/٢٩-٣٠).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١/١٥١).

(٣) الإكليل في استنباط التنزيل، للسيوطي (ص:٢٣٨).

(٤) تفسير يحيى بن سلام (٢/٧٥٨).

الله عَزَّوَجَلَّ شرط مع الشهادة العلم، وقد قال أصحابنا: إن شرط الإيمان: طمأنينة القلب على ما اعتقده، بحيث لا يتشكك إذا شكك، ولا يضطرب إذا حرك"(١).

وقيل: إنَّ قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ فيه وجهان:

أحدهما: يعني أن الشهادة بالحق إنما هي لمن شهد في الدنيا بالحق وهم يعلمون أنه الحق، فتشفع لهم الملائكة، قاله الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الثاني: أن الملائكة لا تشفع إلا لمن شهد أن لا إله إلا الله، وهم يعلمون أن الله عَزَّوَجَلَّ ربهم"(٢).

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولما كان من لوازم الإيمان التصديق قالوا: الإيمان هو التصديق، وقال: ولا يكون التصديق قالوا: الإيمان هو التصديق، وقال: ولا يكون التصديق إلا عن علم؛ ولذلك قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾، فالإيمان: اسمٌ لثلاثة أشياء: علمٌ بالشيء، وإقرارٌ به، وعملٌ بمقتضاه إن كان لذلك المعلوم عملٌ كالصلاة والزكاة. هذا هو الأصل، ثم قد يستعمل في كل واحدٍ من هذه الثلاثة فيقال: فلانٌ مؤمن، أي: أنه مقرٌ بما يحصن دمه وماله؛ وبذلك حكم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الجارية، فسألها ما سألها، ثم قال: «**أعتقها فإنها مؤمنة**» (٣).

---

(١) الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٤/٨٤).

(٢) تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٥/٢٤٢).

(٣) أخرجه مسلم [٥٣٧].

ويقال: مؤمنٌ، ويراد به أنه يعرف الأدلة الإقناعية التي يحصل معها سكون النفس، وإياه عنى ﷺ: «**من قال: لا إله إلا الله مخلصًا دخل الجنة**» (١)"(٢).

وقد تقدم حديث: عثمان رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله، دخل الجنة**» (٣).

قال الإمام أبو العباس القرطبي رحمه الله: "حقيقةُ العلم: هي وضوحُ أمرٍ ما، وانكشافُهُ على غايته، بحيثُ لا يَبقى له بعد ذلك غايةٌ في الوضوح.

ولا شكَّ في أنَّ من كانت معرفتُهُ بالله عز وجل، ورسوله ﷺ كذلك، كان في أعلى درجات الجَنَّة، وهذه الحالةُ هي حالةُ النبيّين والصِّدّيقين. ولا يلزمُ فيمن لم يكن كذلك ألّا يدخل الجَنَّة؛ فإنَّ من اعتقد الحقَّ وصدَّقَ به تصديقًا جازمًا لا شَكَّ فيه ولا ريب، دخل الجَنَّة، كما قدَّمناه، وكما دَلَّ عليه قولُهُ عليه الصلاة والسلام في حديث: أبي هريرة رضي الله عنه: «**من لَقِيَ اللهَ وهو يشهَدُ أن لا إلهَ إلاَّ الله، وأَنِّي رسولُ الله غيرَ شاكٍّ فيهما، دخَلَ الجَنَّةَ**» (٤)، وكما قال: «**من كَانَ آخِرَ قوله: لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ دخَلَ الجَنَّةَ**» (٥).

---

(١) أخرجه البزار [٧] عن أبي سعيد، كما أخرجه الطبراني في (الدعاء) [١٤٧٨]. قال الهيثمي (١/١٧): "رواه البزار، ورجاله ثقات، إلا أن من روى عنهما البزار لم أقف لهما على ترجمة".

(٢) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني (١/٧٩)، حاشية الطيبي على الكشاف (٢/٨٤)، حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي (١/٢٩٣).

(٣) أخرجه مسلم [٢٦].

(٤) تقدم.

(٥) تقدم.

فحاصلُ هذين الحديثين: أنَّ من لقي الله عَزَّوَجَلَّ وهو موصوفٌ بالحالة الأولى والثانية دخَلَ الجنَّة؛ غير أنَّ هناك فرقًا بين الدرجتين، كما بين الحالتين، كما صرَّحت به الآياتُ الواضحات؛ كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [المجادلة:١١]"(١).

د. يتبين مما تقدم أنه يشترط كذلك مع العلم: **اليقين الجازم الذي لا يعتريه شك**، كما ذلك مبينًا في قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**من لَقِيَ اللهَ وهو يشهَدُ أن لا إله إلاَّ الله، وأَنِّي رسولُ الله غيرَ شاكٍّ فيهما، دخَلَ الجنَّةَ**» (٢)

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات:١٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المدثر:٣١].

وقال جَلَّوَعَلَا في وصف المنافقين المرتابين: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة:٤٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْۗ﴾ [التوبة:١١٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت:٤٨-٤٩]،

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/١٩٦-١٩٧).

(٢) تقدم.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ [هود:١١٠].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن شك من شك من قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود:٦٢].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [يونس:١٠٤].

وقال جَلَّوَعَلَا مخبرًا عن الشاكين المنقادين لإبليس: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ [سبأ:٢٠-٢١].

وقال جَلَّوَعَلَا مبينًا للعباد شرعته التي جاء بها الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ [الشورى:١٣-١٤].

وقال جَلَّوَعَلَا في بيان عاقبة الغافلين الشَّاكين: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾ [الدخان:٩-١٠]، وقال: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء:١].

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من حديث طويل أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثه بنعليه، وقال: «**اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ، فمن لَقِيتَ من وَرَاءِ هذا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أن لا إله إلَّا الله مُسْتَيْقِنًا بها قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بالْجَنَّة**» الحديث [(١)].

هـ. ومن شرط هذه: الشهادة القبول والإذعان:

إن شرط هذه الشهادة: التحقق بها، ولا يكون إلا بالقبول والإذعان، والتسليم والانقياد، وقد بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ عاقبة الذين يستكبرون عن هذه الشهادة فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣﴾ [الصافات:٢٢-٢٣]،............ إلى أن قال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٤ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ۝٣٦ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٧ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ۝٣٨ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٩﴾ [الصافات:٣٤-٣٩]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا

---

(١) صحيح مسلم [٣١].

لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ [ص:٥-٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ﴾ [لقمان:٢٢]. فقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُسْلِمْ﴾ أي: ينقاد مخلصًا موحدًا. وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ﴾ قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العروة: الإيمان. وقال السدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإسلام. وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وسعيد ابن جبير والضحاك رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ: لا إله إلا الله، وروي عن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ مثله (١).

قال القاضي أبو محمد ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذه عبارات ترجع إلى معنى واحد"(٢).

وقيل: المراد: القرآن. وقيل: الحب في الله عَزَّ وَجَلَّ والبغض فيه.

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥]: "أشار في هذه الآية الكريمة إلى تحقيق معنى: (لا إله إلا الله)؛ لأن معناها مركب من أمرين: نفي وإثبات. فالنفي: خلع جميع المعبودات غير الله عَزَّ وَجَلَّ في جميع أنواع العبادات. والإثبات: إفراد رب السماوات والأرض وحده بجميع أنواع

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٥/٤٢١-٤٢٢)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٢/٤٩٦)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٤/١٩٩)، النكت والعيون (٤/٣٤٣)، تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (١/٢٦٠)، تفسير ابن كثير (١/٦٨٤)، الدر المنثور (٢/٢٢-٢٣)، البحر المحيط في التفسير (٢/٦١٧)، معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (١/٢٧٢).

(٢) المحرر الوجيز (١/٣٤٤)، وانظر: تفسير القرطبي (٣/٢٨٢).

العبادات على الوجه المشروع. وقد أشار إلى النفي من (لا إله إلا الله) بتقديم المعمول الذي هو ﴿إِيَّاكَ﴾. وقد تقرر في الأصول في مبحث: (دليل الخطاب) الذي هو مفهوم المخالفة. وفي المعاني في مبحث: (القصر): أن تقديم المعمول من صيغ الحصر. وأشار إلى الإثبات منها بقوله: ﴿نَعْبُدُ﴾"[1].

و. ومن شروط هذه الشهادة: الصدق:

فالصفة الفارقة بين المؤمن والمنافق هي: الصدق المنافي للكذب، كما جاء ذلك مبينًا في نصوص الكتاب والسنة.

وفي (الصحيحين) من حديث: أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ومعاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ رديفه على الرحل، قال: «**يا معاذ بن جبل**»، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «**يا معاذ**»، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثًا، قال: «**ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، صدقًا من قلبه، إلا حرمه الله على النار**» الحديث[2]، وقد تقدم.

---

(١) أضواء البيان (١/٧).

(٢) تقدم.

ز. ومن شروط هذه الشهادة: الإخلاص:

وفي الحديث: «**لن يُوَافِيَ عَبْدٌ يوم القيامة يقول: لا إله إلَّا الله، يبتغِي به وجهَ الله، إلَّا حرَّمَ اللهُ عليه النَّار**»(١). وفي لفظ: «**فإن الله قد حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله**»، والحديث متفق عليه. وفي الحديث: «**أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة: من قال: لا إله إلا الله، خالصًا من قلبه، أو نفسه**»(٢).

وسيأتي الحديث عن الإخلاص في مبحث مطول؛ لأهميته.

ح. ومن شروط هذه الشهادة: محبة الله عَزَّوَجَلَّ، ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وقد تقرر بيان ذلك في غير موضع.

٤ - الطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا الله عَزَّوَجَلَّ:

أ. تدبر آيات الله عَزَّوَجَلَّ في الخلق.

ب. تدبر أسماء الله عَزَّوَجَلَّ الخالق وصفاته الدالة على العظمة والجلال، وأنه ليس كمثله شيء.

ج. تدبر صفات العبد ومدى ضعفه وحاجته.

---

(١) تقدم.

(٢) أخرجه البخاري [٩٩، ٦٥٧٠]، وقد تقدم.

د. العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير.

هـ. العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة.

و. التأمل في عناية الله عَزَّوَجَلَّ وتوفيقه لعباده الصالحين.

ز. تدبر ما أعده الله عَزَّوَجَلَّ لعباده الصالحين من النعيم المقيم في الآخرة.

ح. التأمل في تخبط الكافرين في معرفة الحق، وانحطاط أخلاقهم في السلوك والمعاملات.

ط. معرفة أوصاف من عبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ، وأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة، ولا نشورًا.

ي. تدبر آيات القرآن الكريم، وسنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتمسك بهما، والاهتداء بهما إلى صحيح الاعتقاد، وخالص التوحيد.

الركن الثاني: الصلاة:

١ - بيان مكانة الصلاة:

إن الصلاة هي الرُّكن الثاني من أركان الإسلام، وهي عمود الدِّين، وهي الصِّلة الدائمة بين العبد وربه جَلَّ وَعَلَا.

والصلاة دليلٌ على محبَّة العبدِ لربِّه عَزَّوَجَلَّ، وتقديره لنعمه التي لا تُحصى.

وهي تنمي في العبد شعور المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ، فتنهاه عن الفحشاء والمنكر والبغي، كما أخبر الحق عَزَّوَجَلَّ عن ذلك بقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت:٤٥]؛ لأنها تجعَل العبد دائمًا مراقبًا لله عَزَّوَجَلَّ في أعماله وأقواله وأحواله.

والمواظبة على الصلاة عنوان فلاح المؤمن في الدنيا والآخرة، وقد وصف الله عَزَّوَجَلَّ عباده الأخيار بأنهم ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام:٩٢]، ووصفهم بأنهم: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج:٢٣]، وبأنهم مهتمون بالصلاة، وحريصون على أدائها في أوقاتها. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء:١٠٣].

والصلاة هي الفريضة الوحيدة التي فرضت ليلة (الإسراء والمعراج) في السماء السابعة، وبدون واسطة، فأصبحت الركن الثاني من أركان الإسلام، وعماد الدين، من تركها وأهملها فكأنه هدم دينه وأضاعه. وفي هذا دليل على أهمية الصلاة؛ ولذلك شدَّد الإسلام عليها كلَّ التشديد، وأمر بالقيام بها في السفر والحضر، والأمن والخوف، والصحة والمرض. إنَّ الصلاة هي المعراج الروحي لكل مسلم، فهي صلة بين العبد وربه عَزَّوَجَلَّ. هذه الفريضة التي تجعل المرء على موعد مع ربه عَزَّوَجَلَّ، وقد فرضت أول ما فرضت خمسين صلاة، ثم مازال النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسأل ربَّه التخفيف بإشارة أخيه

موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى خفَّفَ الله عَزَّوَجَلَّ عنهم هذه الصلوات إلى خمس. فهي خمس في الفرض، وخمسون في الأجر؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها.

والصلاة تمد المؤمن بقوة روحية تعينه على تحمل الشدائد والمكاره، فقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن خير ما يستعان به على ذلك: الصبر والصلاة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة:٤٥]. وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة(١).

وكان الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة، كما في حديث: صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيما حكاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن نبي من الأنبياء السابقين: «**فقام إلى الصلاة، وكانوا إذا فزعوا، فزعوا إلى الصلاة**»(٢).

والصلاة هي الغذاء الروحي الذي يعين على مقاومة الجزع إذا مسَّ الإنسانَ الضُّرُّ، والمنع والإمساك إذا مَسَّهُ الخيرُ. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣﴾ [المعارج:١٩-٢٣]، أي: إلا الذين يطيعون الله بأداء ما افترض عليهم من الصلاة، وهم على أداء ذلك مقيمون لا يضيعون منها شيئًا.

---

(١) جاء في الحديث: عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حزبه أمر، صلَّى» أخرجه أحمد [٢٣٢٩٩]، وأبو داود [١٣١٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٢٩١٢]. قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) (١٧٢/٣): "أخرجه أبو داود بإسناد حسن".

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٤٨٠]، وأحمد بإسناد صحيح [١٨٩٣٧]، والبزار [٢٠٨٩]، والنسائي في (الكبرى) [١٠٣٧٥]، وابن حبان [١٩٧٥]، والضياء [٥٢]، وقال: "إسناده صحيح".

والصلاة تعلم العبد التواضع والشكر، وتملأ قلبه بالرحمة، وفيه تدريب على النظام.

وصلاة الجماعة مظهر من مظاهر الوحدة والمساواة بين المسلمين، وتقوية لروابط المحبة فيما بينهم، فهي سبب لتآلف القلوب، ووحدة الكلمة.

الصلاة التي هي سنام الطاعات، والمحافظة عليها من أسباب التوفيق في الدنيا، كما أنها من أعظم المنجيات من العذاب في الآخرة كما دلَّت النُّصوص على ذلك. وقد وردت كذلك أحاديث لفضلِ صلواتٍ مخصوصة، والنَّص على أنها من المنجيات من النَّار.

وقد توعد الله عَزَّوَجَلَّ تارك الصلاة بالعذاب في الآخرة فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩﴾ [مريم:٥٩]. يقال لعَقِب الخير: خلَفٌ -بفتح اللام-، ولعقب شر خلْفٌ -بالسكون- أي فعقَبهم وجاء بعدهم عَقِبُ سوء(١).

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومعنى الآية الكريمة: أن هذا الخلف السيئ الذي خلف من بعد أولئك النبيين الكرام كان من صفاتهم القبيحة: أنهم أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات.

واختلف أهل العلم في المراد بإضاعتهم الصلاة، فقال بعضهم: المراد بإضاعتها: تأخيرها عن وقتها، وممن يروى عنه هذا القول ابن مسعود، والنخعي، والقاسم بن

(١) تفسير أبي السعود (٥/٢٧٢).

مخيمرة، ومجاهد، وعمر بن عبد العزيز وغيرهم، وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: إن هذا القول هو الصحيح.

وقال بعضهم: إضاعتها الإخلال بشروطها، وممن اختار هذا القول الزجاج، وقال بعضهم: المراد بإضاعتها جحد وجوبها، ويروى هذا القول وما قبله عن محمد بن كعب القرظي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وقيل: إضاعتها: إقامتها في غير الجماعات، وقيل: إضاعتها: تعطيل المساجد والاشتغال بالصنائع والأسباب.

قال مقيده -عفا الله عنه وغفر له-: وكل هذه الأقوال تدخل في الآية؛ لأن تأخيرها عن وقتها، وعدم إقامتها في الجماعة، والإخلال بشروطها، وجحد وجوبها، وتعطيل المساجد منها كل ذلك إضاعة لها، وإن كانت أنواع الإضاعة تتفاوت"[1].

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾، أي: أقبلوا على شهوات الدنيا وملاذِّها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنُّوا بها، فهؤلاء سيلقون غيًّا؛ أي: خسارًا يوم القيامة، وقدِ اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة ها هنا، فقال قائلون: المرادُ بإضاعتها تركها بالكلية، وقال غيرهم كالأوزاعي: إنما أضاعوا المواقيت، ولو كان تركًا كان كفرًا.

وقال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قرأ عمرُ بن عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾، ثم قال: لم تكن إضاعتهم تركها، ولكن أضاعوا الوقت.

---

(١) أضواء البيان (٣/٤٤٤).

وقال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ذلك عند قيام الساعة، وذهاب صالحي أمَّة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينزو[١] بعضهم على بعض في الأزقَّة.

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عطَّلوا المساجد، ولزموا الضيعات[٢].

وقال سعيد بن المسيب -إمام التابعين- رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو أن لا يصلي الظهر حتى يأتي العصر، ولا يصلي العصر إلى المغرب، ولا يصلي المغرب إلى العشاء، ولا يصلي العشاء إلى الفجر، ولا يصلي الفجر إلى طلوع الشمس، فمن مات وهو مصرٌّ على هذه الحالة ولم يتب توعده الله عَزَّوَجَلَّ بغي، وهو واد في جهنم، بعيد قعره، خبيث طعمه[٣].

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩﴾، أي: عذابًا مضاعفًا شديدًا. وقد ذكروا في الغي وجوها: أحدها: أن كل شر عند العرب غي، وكل خير رشاد[٤]. وقال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو على حذف المضاف، أي: يلقون جزاء الغي، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨﴾ [الفرقان:٦٨]، أي: مجازاة الآثام. وثالثها: غيًّا عن طريق الجنة. ورابعها: الغي واد في جهنم يستعيذ منه أوديتها[٥].

---

(١) (نزا): وثب.

(٢) تفسير ابن كثير (٥/٢٤٤- ٢٤٥).

(٣) انظر: الوسيط، للواحدي (٣/١٨٨)، تفسير البغوي (٣/٢٣٩-٢٤٠)، الكشف والبيان (٦/٢٢٢).

(٤) انظر: الكشاف (٣/٢٦).

(٥) تفسير الرازي (٢١/٥٥٢)، غرائب القرآن (٤/٤٩٥)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣/٣٣٦)، معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (٤/٣٤١)، المحرر الوجيز (٤/٢٢-٢٣).

قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والوجهان الأولان أقرب، فإن كان في جهنم موضع يسمى بذلك جاز، ولا يخرج من أن يكون المراد ما قدمنا؛ لأنه المعقول في اللغة"(١).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٤٢ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [القلم:٤٢-٤٣].

وقد قيل: السجود في هذا الموضع: الصلاة المكتوبة(٢).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٧ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ۝٤٨﴾ [المرسلات:٤٧-٤٨]. قيل: عُني بالركوع في هذا الموضع: الصلاة(٣).

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ مخبرًا عن أصحاب الجحيم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ۝٤٧ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾ [المدثر:٤٢-٤٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون:٤-٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿سَاهُونَ ۝٥﴾ عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائمًا أو غالبًا، وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به، وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشمل هذا كله"(٤).

---

(١) تفسير الرازي (٢١/٥٥٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٣/٥٦٠)، معالم التنزيل (٥/١٤٢)، الدر المنثور (٨/٢٥٦).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٤/١٤٥)، المحرر الوجيز (٥/٤٢١).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/٦٨١).

وقد جاء عن عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنهما قالا: الحمد لله الذي قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥﴾، ولم يقل: (في صلاتهم)(١).

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَـٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَـٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون:٩].

قيل: المراد بذكر الله في هذه الآية: الصلوات الخمس(٢).

وجاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عَمَلِه: صَلَاتُه، فإن صَلُحَتْ فقد أَفْلَحَ وأَنْجَح، وإن فَسَدَتْ فقد خابَ وخَسِر**»(٣).

ومما يدل على أن الصلاة من المنجيات: ما أخرجه ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن يزيد بن أبي مريم، قال: مرَّ عمر بمُعاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فقال: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ثلاث، وهنَّ المنجيات: الإخلاص، وهو الفطرة ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٤/٦٣٣)، الكشف والبيان (١٠/٣٠٥)، تفسير ابن كثير (٨/٤٦٨)، الدر المنثور (٨/٦٤٣)، أضواء البيان (٩/١١٥)، الإتقان في علوم القرآن (٢/١٦٧)، معترك الأقران (١/٣٨٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٣/٤١٠)، الوجيز، للواحدي (ص:١١٠٠)، معالم التنزيل (٥/١٠١)، الكشاف (٤/٥٤٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه [١٤٢٥]، والنسائي [٤٦٥]، والترمذي [٤١٣]، وقال: "حسن غريب من هذا الوجه، وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه". وللحديث طرق أخرى.

﴿ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الروم:٣٠]، والصلاة: وهي الملة، والطاعة: وهي العصمة. فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صدقت(١).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**»(٢).

وفي رواية: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر**»(٣)، أي: وهو جاحد لها على قول كثير من أهل العلم، وإلا فهو فاسق إذا تهاون في أداء الصلاة من غير إنكار وجحد.

وفي (صحيح البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ) أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله**»(٤).

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه: ذكر الصلاة يومًا فقال: «**من حافظ عليها؟ كانت له نورًا، وبرهانًا، ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ**

---

(١) تفسير الطبري (٢٠/٩٨)، وانظر: المحرر الوجيز (٤/٣٣٧)، تفسير ابن كثير (٦/٣١٦)، الدر المنثور (٦/٤٩٣)، كنز العمال [٤٤٢٧٦]، درء تعارض العقل والنقل (٨/٣٧٤)، أحكام أهل الذمة، لابن القيم (٢/ ٩٦٥)، شفاء العليل (ص:٢٨٧).

(٢) صحيح مسلم [٨٢].

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٠٣٩٦]، وأحمد [٢٢٩٣٧]، وابن ماجه [١٠٧٩]، والترمذي [٢٦٢١]، وقال: "حسن صحيح غريب". وأخرجه أيضًا: النسائي [٤٦٣]، وابن حبان [١٤٥٤]، والحاكم [١١]، وقال: صحيح الإسناد. قال الذهبي: "صحيح ولا تعرف له علة". وأخرجه أيضًا: البيهقي [٦٤٩٩].

(٤) صحيح البخاري [٥٥٣].

عليها لم يكن له نور، ولا برهان، ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون، وفرعون، وهامان، وأبي بن خلف»(١).

"وفيه أنه لا انتفاع للمصلي بصلاته إلا إذا كان محافظًا عليها؛ لأنه إذا انتفى كونها نورًا وبرهانًا ونجاة مع عدم المحافظة انتهى نفعها"(٢).

وهذا وعيد شديد لمن يصلي ويترك، فلا بدَّ من محافظة المسلم على الصلاة حتى تكون له يوم القيامة نورًا وبرهانًا ونجاة.

وفي (صحيح مسلم): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا وَيْلَه**(٣) -وفي رواية أبي كريب: **يا ويلي- أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرتُ بالسجود فأبيتُ فَلِيَ النار»**. حدثني زهير بن حرب، حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش بهذا الإسناد، مثله غير أنه قال: **«فعصيتُ فَلِيَ النار»**(٤).

وفي (صحيح مسلم): عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«كيف أنت إذا كانت عليك أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها؟** -أو- **يميتون**

---

(١) أخرجه أحمد [٦٥٧٦]، قال الهيثمي (١/٢٩٢): "رجاله ثقات". وأخرجه أيضًا: عبد بن حميد [٣٥٣]، والدارمي [٢٧٦٣]. والبيهقي في (شعب الإيمان) [٢٥٦٥].

(٢) نيل الأوطار (١/٣٦٤).

(٣) هو من آداب الكلام، وهو أنه إذا عرض في الحكاية عن الغير ما فيه سوء، واقتضت الحكاية رجوع الضمير إلى المتكلم صرف الحاكي الضمير عن نفسه؛ تصاونًا عن صورة إضافة السوء إلى نفسه. شرح النووي على صحيح مسلم (٢/٧١).

(٤) صحيح مسلم [٨١].

الصلاة عن وقتها؟»، قال: قلت: فما تأمرني؟ قال: «**صل الصلاة لوقتها، فإن أدركتها معهم، فصل، فإنها لك نافلة**»(١).

٢ - الوقاية من آفات ترك الصلاة والعلاج:

أ. تقوية الوازع الإيماني من خلال سماع الدروس الدينية والمواعظ المفيدة، ومجالسة العلماء والصالحين.

ب. تعليم الأهل والأولاد أحكام الصلاة وفضلها، وحثهم على أدائها في وقتها:

وقد جاء في الحديث: «**مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع**»(٢).

قال الفقهاء: وهكذا في الصوم؛ ليكون ذلك تمرينًا لهم على العبادة؛ لكي يبلغوا وهم مستمرون على العبادة والطاعة، ومجانبة المعصية وترك المنكر (٣).

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: "فواجبٌ على كلِّ مسلم أن يعلِّمَ أهله ما بهم الحاجة إليه من أمر دينهم، وينهاهم عما لا يحلُّ لهم"(٤).

---

(١) صحيح مسلم [٦٤٨].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٤٨٢]، وأحمد [٦٦٨٩]، وأبو داود [٤٩٥]، والخرائطي في (مكارم الأخلاق [٤٥٧]، والدارقطني [٨٨٧]، والحاكم [٧٠٨]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢٦/١٠)، والبيهقي في (السنن الكبرى) [٣٢٣٣]، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. قال الإمام النووي في (رياض الصالحين) (ص:١٢٦): "رواه أبو داود بإسناد حسن".

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (١٨٩/٨).

(٤) الاستذكار (٧٢/٣).

ج. أن يفقه المكلف مكانة الصلاة وفضلها وأحكامها، وأن يسأل أهل العلم عما جهله منها:

إنَّ المحافظةَ على الصَّلاة عمومًا يُعَدُّ من المنجيات من العذاب كما دلَّت النُّصوص على ذلك. وقد وردت أحاديث لفضلِ صلواتٍ مخصوصة، والنَّص على أنها من المنجيات من النَّار.

فمن الأحاديث الدالة على أن المحافظة على الصَّلاة عمومًا من المنجيات: ما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ الميت إذا وضع في قبره إنه ليسمع خَفْقَ نِعَالِهِمْ حين يُوَلُّونَ عنه، فإذا كان مؤمنًا كانت الصَّلَاةُ عند رأسه، والزَّكَاةُ عن يمينه، والصَّوم عن شماله، وفعلُ الخيرات، والمعروفُ، والإحسانُ إلى النَّاس عند رجليه**» الحديث(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عَمَلِهِ صَلَاتُه، فإن صَلُحَتْ فقد أَفْلَحَ وأَنْجح، وإن فَسَدَتْ فقد خابَ وخَسِرَ**»(٢).

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في (المصنف) [٦٧٠٣]، وابن أبي شيبة [١٢٠٦٢]، وابن حبان [٣١١٣]، والطبراني في (الأوسط) [٢٦٣٠]، والبيهقي في (إثبات عذاب القبر) [٦٧]، قال الهيثمي (٣/٥١-٥٢): "رواه الطبراني في (الأوسط)، وإسناده حسن".

(٢) أخرجه ابن ماجه [١٤٢٥]، والنسائي [٤٦٥]، والترمذي [٤١٣]، وقال: "حسن غريب من هذا الوجه، وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه". وللحديث طرق أخرى.

وفي (الصحيح): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسلُ منه كُلَّ يوم خمسَ مَرَّاتٍ، هل يَبْقَى من دَرَنِهِ شيءٌ؟**»، قالوا: لا يبقى من دَرَنِهِ شيء، قال: «**فذلك مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْس، يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الخطايا**»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الصَّلَاةُ الخَمْس، والجُمْعَة إلى الجُمْعَة، كَفَّارَةٌ لما بَيْنَهُنَّ، ما لم تُغْشَ الكبائر**»(٢).

وعن حَنْظَلَةَ الأُسَيْدِيِّ، أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من حافظ على الصَّلوات الخَمْسِ، على وُضُوئِهَا، ومواقيتِهَا، وركوعِهَا، وسجودها، يراها حقًّا للهِ عليه، حُرِّمَ على النَّار**»(٣).

وفي الحديث: «**حَرَّمَ الله على النَّار أن تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجود**»(٤). إلى غير ذلك من الأحاديث، وهي كثيرة.

*ومن الأحاديث الدَّالة على فضل صلواتٍ مخصوصة، والنَّصِ على أنها من المنجيات من النار: ما جاء في (صحيح مسلم) عن أبي بكرِ بنِ عُمَارَةَ بن رُؤَيْبَة، عن

---

(١) صحيح البخاري [٥٢٨]، مسلم [٦٦٧].

(٢) صحيح مسلم [٢٣٣].

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة [٨٣٢]، وأحمد [١٨٣٤٦]، والطبراني [٣٤٩٤]. قال الهيثمي (١/٢٨٩): "رواه أحمد والطبراني في (الكبير)، ورجال أحمد رجال الصحيح". كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٢٥٦٦].

(٤) صحيح البخاري [٧٤٣٧]، مسلم [١٨٢].

أبيه، قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لن يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها**»، يعني: الفجر والعصر(١).

وفي (الصحيحين): «**من صَلَّى البَرْدَيْن دخل الجنَّة**»(٢).

قوله: «**البَرْدَيْن**»: تثنية برد، بفتح الباء الموحدة وسكون الراء، والمراد بهما: صلاة الفجر والعصر(٣).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال كثير من العلماء: هما الفجر والعصر، وسُمِّيا بذلك؛ لأنهما يفعلان في وقتي البرد"(٤).

وقال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: "لأنهما يصليان في بردي النهار، وهما طرفاه حين يطيب الهواء وتذهب سَوْرَةُ الحرِّ"(٥).

وقال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "أي: الفجر والعصر، وخصمهما؛ لكونهما شاقين، فمن واظب عليهما واظب على غيرهما بالأولى"(٦).

وعن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنظر إلى القمر ليلة -يعني: البدر- فقال: «**إنكم سترون ربكم، كما ترون هذا القمر، لا تُضَامُّونَ**

---

(١) صحيح مسلم [٦٣٤].

(٢) صحيح البخاري [٥٧٤]، مسلم [٦٣٥].

(٣) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٢/٥٣)، عمدة القاري (٥/٧١)، مرعاة المفاتيح (٢/٣٣١).

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢/٢٦٢).

(٥) انظر: غريب الحديث، لأبي سليمان الخطابي (١/١٨٥-١٨٨)، فتح الباري، لابن حجر (٢/٥٣)، عمدة القاري (٥/٧١). و(سَوْرَة الحر): وُثُوبُه واشتداده.

(٦) التيسير بشرح الجامع الصغير (٢/ ٣٠٣).

في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغْلَبُوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝٣٩﴾ [ق:٣٩]، قال إسماعيل: افعلوا لا تفوتنكم(١).

وعن أُمِّ حَبِيبَةَ -زوج النَّبِيِّ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«من حافظ على أربع ركعاتٍ قبل الظُّهر، وأربعٍ بعدها، حَرُمَ عَلَى النَّارِ»**(٢).

د. الإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ في سائر الأعمال:

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "إن كان العمل موافقًا للشريعة في الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله عَزَّ وَجَلَّ فهو مردود على فاعله، وهذا حال المنافقين والمرائين، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢﴾ [النساء:١٤٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون:٤-٧]، ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ۝١١٠﴾ [الكهف:١١٠]"(٣).

هـ. تذكر الموت والآخرة، والتزود من دار الفناء لدار البقاء.

---

(١) صحيح البخاري [٥٥٤، ٥٧٣، ٤٨٥١، ٧٤٣٤]، مسلم [٦٣٣].

(٢) أخرجه أبو داود [١٢٦٩]، والترمذي [٤٢٨]، وقال: "حسن صحيح غريب". وأخرجه أيضًا: النسائي [١٨١٦]، والطبراني في (الكبير) [٤٤١]، و(الأوسط) [٣٠٨٣]، والشاميين [١٢٦٣]، والحاكم [١١٧٥]، والبيهقي في (السنن) [٤٢٦٤].

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٥).

و. الاهتمام بمواقيت الصلاة، والتعود على النظام، واحترام المواعيد. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾ [النساء:١٠٣]، فلا يجوز تأخير الصلاة عن وقتها إلا لعذر شرعي من نوم أو إغماء أو نسيان أو نحوه.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾: "مسوق مساق التعليل للحرص على أدائها في أوقاتها. والموقوت: المحدود بأوقات، والمنجم عليها، وقد يستعمل بمعنى المفروض على طريق المجاز. والأول أظهر هنا"(١).

ز. الابتعاد عن الذنوب والمعاصي، ومجاهدة النفس والهوى والشيطان.

ح. تدبر الآيات، ومطالعة سيرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحاله في صلاته، وحال أصحابه الكرام رضوان الله عليهم، وحال السلف الصالح في صلاتهم وقراءتهم أو سماعهم لآيات القرآن الكريم، فقد جاء عن عبد الله بن الشِّخِّير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: رأيت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء(٢).

و«**الأزيز**» -بفتح الألف بعدها زاي مكسورة ثم تحتانية ساكنة ثم زاي أيضًا-: وهو صوت القدر. قال في (النهاية): هو أن يجيش جوفه، ويغلي من البكاء.

و«**المرجل**» -بكسر الميم وسكون الراء وفتح الجيم-، قدر من نحاس، وقد يطلق على كل قدر يطبخ فيها. ولعله المراد في الحديث.

---

(١) التحرير والتنوير (١٨٩/٥).

(٢) أخرجه أحمد [١٦٣١٧]، وأبو داود [٩٠٤]، والنسائي [١٢١٤]، وأبو يعلى [١٥٩٩]، وابن خزيمة [٩٠٠]، وابن حبان [٦٦٥]، والحاكم [٩٧١]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: تمام [١٦١٩]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢١١/٢)، والبيهقي [٣٣٥٦].

وفي رواية أبي داود: «**كأزيز الرحا**» يعني: الطاحون[1].

وعندما مرض رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واشتد عليه المرض قال: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**»، قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: إنه رجل رقيق، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس، قال: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**» فعاودته، فقال: «**مروه فيصلي، إنكن صواحب يوسف**»، فصلَّى بالنَّاس في حياة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2].

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: خرجنا مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة ذات الرقاع، فأصيبت امرأة من المشركين، فلما انصرف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قافلًا، وجاء زوجها وكان غائبًا، فحلف أن لا ينتهي حتى يهريق دما في أصحاب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخرج يتبع أثر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنزل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منزلًا، فقال: «**من رجل يكلؤنا ليلتنا هذه؟**»، فانتدب رجل من المهاجرين، ورجل من الأنصار، فقالا: نحن يا رسول الله، قال: «**فكونوا بفم الشعب**»، قال: وكانوا نزلوا إلى شعب من الوادي، فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب، قال الأنصاري للمهاجري: أي الليل أحب إليك أن أكفيكه؟ أوله أو آخره؟ قال: اكفني أوله، فاضطجع المهاجري فنام،

---

(١) نيل الأوطار (٢/٣٧٥)، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة (أزز) (١/٤٥).

(٢) صحيح البخاري [٦٦٤، ٦٧٨، ٦٧٩، ٦٨٢، ٧١٢، ٧١٣، ٧١٦، ٣٣٨٤، ٣٣٨٥، ٧٣٠٣]، مسلم [٤١٨، ٤٢٠]. و«صواحب يوسف» أي: مثل صواحبه في التظاهر على ما يردن من كثرة الإلحاح فيما يمكن أن يكون.

وقام الأنصاري يصلي، وأتى الرجل، فلما رأى شخص الرجل عرف أنه ربيئة القوم(١)، فرماه بسهم، فوضعه فيه، فنزعه فوضعه، وثبت قائمًا، ثم رماه بسهم آخر، فوضعه فيه، فنزعه فوضعه، وثبت قائمًا، ثم عاد له بثالث، فوضعه فيه، فنزعه فوضعه، ثم ركع وسجد، ثم أهب(٢) صاحبه، فقال: اجلس فقد أُوتِيت، فوثب، فلما رآهما الرجل عرف أن قد نذروا(٣) به فهرب، فلما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء، قال: سبحان الله، ألا أهببتني، قال: كنت في سورة أقرؤها، فلم أحب أن أقطعها حتى أُنْفِذَهَا، فلما تابع الرمي ركعت فَأُرِيتُكَ، وايم الله، لولا أن أضيع ثغرًا أمرني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحفظه، لقطع نفسي قبل أن أقطعها(٤)، أو أُنْفِذَهَا(٥).

ط. أن يبادر المكلف إلى الصلاة برغبة منه ومحبة لشرع الله عَزَّ وَجَلَّ:

يجب على كل مسلم محبَّة ما شرع الله عَزَّ وَجَلَّ من أحكام؛ فمن أبغض شريعة الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو أبغض شعيرة من شعائر الإسلام، أو أبغض أيَّ طاعة مما يتعبد به الناس في دين الإسلام فإنه يبطل عمله؛ لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ

---

(١) ربيئة القوم: -بفتح راء وكسر موحدة وياء ساكنة وهمزة بعدها، وقد تشدد الياء وتترك الهمزة تخفيفًا-، وهو الرقيب والجاسوس والحارس الذي يكون في طليعة القوم.

(٢) (أهبَّ) بتشديد الباء، أي: أيقظ.

(٣) (نذروا به) -بفتح نون وكسر ذال معجمة-، أي: شعروا به، وعلموا بمكانه.

(٤) أي: الصلاة.

(٥) أخرجه أحمد [١٤٧٠٤]، وأبو داود [١٩٨]، وابن خزيمة [٣٦]، وابن حبان [١٠٩٦]، والدارقطني [٨٦٩]، والحاكم [٥٥٧]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي [٦٦٣].

اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:٩]. ولا شكَّ أنَّ الشَّرع فيه تكاليف، وفيه ما يَشُقُّ على النُّفُوس، وهذا هو السَّبب في تسمية الأحكام بالتَّكليف؛ لأنَّ الجنة حُفَّت بالمكاره، وقد يكون ذلك في بداية الأمر، فإذا اعتاده وأدرك ما فيه من المصلحة والصلة والمقصد فإنه يتلذَّذ بالطَّاعة. والرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**أرحنا يا بلال بالصَّلاة**»(١).

ويقول: «**وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»(٢).

ولا بد في التكليف من الاصطبار –ولا سيما في بداية الأمر قبل أن يعتاده– كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه:١٣٢].

وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**»(٣).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "معناه: أن كل مؤمن مسجون ممنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة، مكلف بفعل الطاعات الشاقة، فإذا مات استراح من

---

(١) قال في (الكشف): "رواه أبو داود عن سالم بن أبي الجعد قال: قال رجل: ليتني صليت فاسترحت، فكأنهم عابوا ذلك عليه، فقال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها». ولأبي داود عن محمد بن الحنفية أنه قال: انطلقت أنا وأبي إلى صهر لنا في الأنصار نعوده فحضرت الصلاة فقال لبعض أهله: يا جارية: ائتوني بوضوء لعلي أصلي فأستريح، قال: فأنكرنا ذلك عليه، فقال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «قم يا بلال فأرحنا بالصلاة»"كشف الخفاء [٣١٢]. والحديث له أطراف كثيرة.

(٢) أخرجه أحمد [١٢٢٩٣]، والنسائي [٣٩٣٩]، وأبو يعلى [٣٤٨٢]، والطبراني في (الأوسط) [٥٢٠٣]، و(الصغير) [٧٤١]، والحاكم [٢٦٧٦]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي [١٣٤٥٤]، كلهم عن أنس. كما أخرجه الطبراني في (الكبير) [١٠١٢] عن المغيرة.

(٣) صحيح مسلم [٢٩٥٦].

هذا، وانقلب إلى ما أعد الله عَزَّوَجَلَّ له من النعيم الدائم، والراحة الخالصة من النقصان. وأما الكافر فإنما له من ذلك ما حصل في الدنيا -مع قلته وتكديره بالمنغصات- فإذا مات صار إلى العذاب الدائم، وشقاء الأبد"(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولا يزال العبد يعاني الطاعة و يألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله عَزَّوَجَلَّ برحمته عليه الملائكة تؤُزُّهُ إليها أزًا، وتحرضه عليها، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها. ولا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها، حتى يرسل الله عَزَّوَجَلَّ إليه الشياطين، فتؤزه إليها أزًا.

فالأول قويٌّ جنَّدَ الطَّاعَةَ بالمدد، فكانوا من أكبر أعوانه، وهذا قوي جنَّدَ المعصية بالمدد فكانوا أعوانًا عليه"(٢).

---

(١) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٨/٩٣).

(٢) الجواب الكافي (ص:٥٦).

الركن الثالث: الزكاة:

١ - بيان مكانة الزكاة وما جاء في فضلها وعقوبة تاركها:

إن من بين أركان الإسلام العظيمة ركن الزكاة، وهو ثالث أركان الدين كما جاء في الحديث: عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت**» (١).

قال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ اللَّهُ: "الزكاة في اللغة لمعنيين:

أحدهما: النماء.

والثاني: الطهارة.

فمن الأول: قولهم: زكاة الزرع. ومن الثاني: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣].

وسمي هذا الحق زكاة بالاعتبارين. أما بالاعتبار الأول: فبمعنى أن يكون إخراجها سببًا للنماء في المال، كما صح في الحديث: «**ما نقص مال من صدقة**» (٢).

---

(١) صحيح البخاري [٨]، مسلم [١٦].

(٢) أخرجه مسلم بلفظ: «ما نقصت صدقة من مال». وسيأتي، والحديث: أخرجه أحمد [١٨٠٣١]، وابن حميد [١٥٩]، والترمذي [٢٣٢٥]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: البزار [١٠٣٢]، وأبو يعلى [٨٤٩]، والطبراني [٨٥٥]. قال الهيثمي (١٠٥/٣): "رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، وفيه رجل لم يسم، وله عند البزار طريق عن أبي سلمة عن أبيه، وقال: إن الرواية هذه أصح".

ووجه الدليل منه: أن النقصان محسوس بإخراج القدر الواجب، فلا يكون غير ناقص إلا بزيادة تبلغه إلى ما كان عليه، على المعنيين جميعًا، أعني: المعنوي والحسي في الزيادة، أو بمعنى: أن متعلقها الأموال ذات النماء. وسميت بالنماء؛ لتعلقها به أو بمعنى: تضعيف أجورها، كما جاء في الحديث: «**إن الله يربي الصدقة حتى تكون كالجبل**» [(١)].

وأما بالمعنى الثاني: فلأنها طهرة للنفس من رذيلة البخل، أو لأنها تطهر من الذنوب. وهذا الحق أثبته الشارع لمصلحة الدافع والآخذ معًا. أما في حق الدافع: فتطهيره وتضعيف أجوره. وأما في حق الآخذ: فلسد خلته"[(٢)].

ويظهر فضل الزكاة من أوجه: منها: اقترانها بالصلاة في مواضع كثيرة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

وفي (الصحيح): عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: لما توفي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ واستخلف أبو بكر بعده، وكفر من كفر من العرب، قال عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لأبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله، ونفسه، إلا بحقه وحسابه على الله**»، فقال أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: والله لأقاتلن من فَرَّقَ بين الصلاة، والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى

---

(١) متفق عليه، وسيأتي.

(٢) إحكام الإحكام (١/٣٧٤-٣٧٥).

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقاتلتهم على منعه، فقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فو الله، ما هو إلا أن رأيت الله عَزَّ وَجَلَّ قد شرح صدر أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للقتال، فعرفت أنه الحق[1].

ومنها: أنها ثالث أركان الإسلام الخمسة -كما تقدم-.

ومن حيث هي فريضة أفضل من سائر الصدقات، كما جاء في الحديث القدسي: «**وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه**»[2].

---

(١) صحيح البخاري [١٣٩٩، ١٤٠٠، ٦٩٢٤، ٦٩٢٥، ٧٢٨٤]، مسلم [٢٠]، واللفظ له. قوله: «وحسابه على الله» معناه: أي فيما يستسرون به ويخفونه دون ما يخلون به في الظاهر من الأحكام الواجبة. وأما (العقال) فقد اختلفوا في تفسيره، فقال أبو عبيد القاسم بن سلام: العقال صدقة عام. وقال غيره: العقال الحبل الذي يعقل به البعير وهو مأخوذ مع الفريضة؛ لأن على صاحبها التسليم، وإنما يقع قبضها برباطها" معالم السنن (١٢/٢). وقال الإمام النووي: ذهب كثير من المحققين إلى أن المراد بالعقال: الحبل الذي يعقل به البعير، وهذا القول يحكى عن مالك وابن أبي ذئب وغيرهما، وهو اختيار صاحب التحرير، وجماعة من حذاق المتأخرين. قال صاحب التحرير: قول من قال: المراد صدقة عام تعسف وذهاب من طريقة العرب؛ لأن الكلام خرج مخرج التضييق والتشديد والمبالغة فيقتضي قلة ما علق به العقال وحقارته، وإذا حمل على صدقة العام لم يحصل هذا المعنى. قال النووي: وهذا الذي اختاره هو الصحيح الذي لا ينبغي غيره. قال الشوكاني: وكذلك أقول أنا. ثم اختلفوا المراد بقوله: «منعوني عقالا» فقيل: قدر قيمته في زكاة الذهب والفضة والمعشرات والمعدن والركاز والفطرة والمواشي في بعض أحوالها، وهو حيث يجوز دفع القيمة. وقيل: زكاة عقال إذا كان من عروض التجارة. وقيل: المراد المبالغة ولا يمكن تصويره ويرده ما تقدم. وقيل: إنه العقال الذي يؤخذ مع الفريضة؛ لأن على صاحبها تسليمها برباطها. شرح النووي على صحيح مسلم (٢٠٨/١-٢٠٩)، نيل الأوطار (١٤٦/٤). وعند البخاري [٧٢٨٤]: قال ابن بكير، وعبد الله عن الليث: عناقًا، وهو أصح. و(العناق): الأنثى من أولاد المعز ما لم يتم لها سنة.

(٢) صحيح البخاري [٦٥٠٢].

والمحافظة على أداء فريضة الزكاة بنفس طيبة من أسباب دخول الجنة، ورفعة الدرجات، كما جاء في الحديث: عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خمس من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة: من حافظ على الصلوات الخمس، على وضوئهن وركوعهن وسجودهن ومواقيتهن، وصام رمضان، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلًا، وأعطى الزكاة طيبة بها نفسه، وأدى الأمانة**»، قيل: يا نبي الله، وما أداء الأمانة؟ قال: «**الغسل من الجنابة، إن الله لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيرها**» (١).

وعن عمرو بن مرة الجهني قال: جاء رجل من قضاعة إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إني شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وصليت الصلوات الخمس، وصمت رمضان وقته، وآتيت الزكاة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من مات على هذا كان من الصديقين والشهداء**» (٢).

---

(١) أخرجه أبو داود [٤٢٩]، ومحمد بن نصر المروزي في (الوتر) (ص:٢٧٢)، والطبراني كما في (مجمع الزوائد) قال الهيثمي (٤٧/١): "رواه الطبراني في (الكبير) وإسناده جيد". وقال أيضًا المنذري (١٤٨/١): "إسناده جيد". وأخرجه أيضًا: وأبو نعيم في (الحلية) (٢٣٤/٢).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [٢٥٥٨]، والبزار كما في (كشف الأستار) [٢٥]، وابن خزيمة [٢٢١٢]، وابن حبان [٣٤٣٨]، والطبراني في (الشاميين) [٢٩٣٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٣٤٥]. قال الهيثمي (٤٦/١): "رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح خلا شيخي البزار، وأرجو إسناده أنه إسناد حسن أو صحيح".

وقد شرعت الزكاة لحكم عظيمة، ومصالح جمة تعود على الأفراد والمجتمعات بالخير والفضل العظيم، فهذا الحق أثبته الشارع لمصلحة الدافع والآخذ معًا –كما تقدم–.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]. فالزكاة تطهر النفس من درن الشح والبخل، وهي سبب لحصول النماء والبركة في المال.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة:٢٧٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الروم:٣٩].

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**ما نقصت صدقة من مال**» (١).

وعن أبي هريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ما تَصَدَّقَ أحد بصدقة من طيب، ولا يقبل الله إلا الطَّيِّب، إلا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرة، فَتَرْبُو في كَفِّ الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل، كما يُرَبِّي أحدكم فَلُوَّهُ أو فَصِيلَه**» (٢).

---

(١) صحيح مسلم [٢٥٨٨].

(٢) صحيح البخاري [١٤١٠، ٧٤٣٠]، صحيح مسلم، واللفظ له [١٠١٤]. قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «فَتَرْبُو في كَفِّ الرحمن» قيل: إن المراد بذلك تعظيم أجرها، وتضعيف ثوابها. قال: ويصح أن يكون على ظاهره، وأن تعظم ذاتها، ويبارك الله جَلَّوَعَلَا فيها، ويزيدها من فضله حتى تثقل في الميزان. وهذا الحديث نحو قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة:٢٧٦]. قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله». قال أهل اللغة: (الفلو): المهر، سمي بذلك؛ لأنه فلي عن أمه، أي: فصل=

فليست الزكاة محض مال يؤخذ من الجيوب، بل غرس للرحمة والرأفة في القلوب.

وإن منع الزكاة بخلًا بها وحرصًا وجشعًا من أكبر الكبائر، وأقبح المنكرات؛ ولذلك جاء الوعيد الشديد في حق تارك الزكاة، وقد أخبرت النصوص أن عذابهم بها على وجوه:

منها: أن يمثل لصاحب المال مالُه شجاعًا أقرع له زبيبتان، فيطوق عنقه، ويأخذ بلهزمتي صاحبه، قائلاً له: أنا مالك، أنا كنزك، كما جاء في (صحيح البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ):

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من آتاه الله مالًا، فلم يُؤَدِّ زكاته مُثِّلَ له ماله يوم القيامة شجاعًا أقرع له زبيبتان يُطَوَّقُهُ يوم القيامة، ثم يأخذ بِلِهْزِمَتَيْه** -يعني: بِشِدْقَيْه- **ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك**».

ثم تلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾ [آل عمران:١٨٠]» (١).

و(الشجاع الأقرع): الذي تَمَعَّطَ شَعْرُهُ؛ لِكَثْرَةِ سُمِّه، و(الزبيبتان): نُقْطَتَانِ سَوْدَاوَانِ على عَيْنَيْه، وهو أخبثُ الْحَيَّات.

ومنها: أن يؤتى بالمال نفسه الذي منع زكاته، فإن كان من الذهب والفضة جعل صفائح من نار، ثم عذب به صاحبه، وإن كان المال حيوانًا -إبلاً أو بقرًا أو

=وعزل. و(الفصيل): ولد الناقة إذا فصل من إرضاع أمه، فعيل بمعنى مفعول، كجريح وقتيل بمعنى مجروح ومقتول، وفي (الفلو) لغتان فصيحتان أفصحهما وأشهرهما: فتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو، والثانية: كسر الفاء وإسكان اللام وتخفيف الواو. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٧/٩٩).

(١) صحيح البخاري [١٤٠٣، ٤٥٦٥].

غنمًا- أرسل على صاحبه فعذب به، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾ [التوبة:٣٤-٣٥][(١)].

وفي (صحيح مسلم): عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما من صاحب ذهب ولا فضة، لا يُؤَدِّي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة، صُفِّحَتْ له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله، إما إلى الجنة، وإما إلى النار»**.

قيل: يا رسول الله، فالإبل؟ قال: **«ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها، ومن حقها حَلَبُهَا [(٢)] يوم وِرْدِهَا، إلا إذا كان يوم القيامة، بُطِحَ [(٣)] لها بِقَاعٍ [(٤)]**

---

(١) القيامة الكبرى (ص:١٤٢-١٤٢).

(٢) هو بفتح اللام على اللغة المشهورة. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٧/٦٤).

(٣) بطح قال جماعة: معناه: ألقي على وجهه. وقال القاضي: ليس من شرط البطح كونه على الوجه، وإنما هو في اللغة بمعنى: البسط والمد، فقد يكون على وجهه، وقد يكون على ظهره، ومنه سميت: بطحاء مكة؛ لانبساطها. إكمال المعلم، للقاضي عياض (٣/٢٥٩-٢٦٠)، شرح النووي على صحيح مسلم (٧/٦٤-٦٥).

(٤) القاع: المستوي من الأرض. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٧/٦٤)، الصحاح، للجوهري، مادة: (قوع) (٣/١٢٧٤).

قَرْقَرٍ (١)**، أَوْفَرَ ما كانت** (٢)**، لا يَفْقِدُ منها فصيلًا واحدًا، تَطَؤُهُ بأخْفَافِهَا وتَعَضُّهُ بأفواهها، كلما مَرَّ عليه أولاها رُدَّ عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار».**

قيل: يا رسول الله، فالبقر والغنم؟ قال: «**ولا صاحب بقر، ولا غنم، لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر، لا يفقد منها شيئًا، ليس**

(١) و(القرقر): المستوي أيضًا من الأرض، الواسع، وهو بفتح القافين. إكمال المعلم (٢٥٩/٣)، شرح النووي على صحيح مسلم (٦٤/٧).

(٢) قال في (طرح التثريب): قوله: "«أوفر ما كانت» أي: عند مانع زكاتها؛ لأنها قد تكون عنده على حالات: مرة هزيلة، ومرة سمينة، ومرة صغيرة، وأخرى كبيرة، فتأتي يوم القيامة على أوفر أحوالها عنده؛ زيادة في عقوبته بقوتها، وكمال خلقها، فتكون أثقل في وطئها. وأيضا فيأتي جميعها لا يفقد منها شيئًا، حتى (الفصيل) وهو بفتح الفاء وكسر الصاد: ولد الناقة إذا فصل عن أمه، وقد تجب فيه الزكاة إما لبلوغه حولًا، وإما لبناء حوله على حول أمه، وهذا الذي ذكرته هو الظاهر، وذكر معه والدي في شرح الترمذي احتمالين آخرين: أحدهما: أنها تأتي أوفر ما كانت في الدنيا مطلقًا فقد تكون عند صاحبها الذي منع زكاتها هزيلة في جميع مدتها عنده، وتسمن بعد ذلك عند غيره، أو تكون قبل أن يملكها سمينة، فتحشر على أتم حالاتها؛ تغليظًا عليه. الاحتمال الثاني: أنها تجيء على أعظم حالات الإبل مطلقًا -هي وغيرها-، وكذلك البقر والغنم. ويدل له قوله بعد ذلك: «ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء». وفي حديث جابر عند مسلم أيضًا: «ليس فيها جماء ولا منكسر قرنها» وربما كان في بقره وغنمه في الدنيا ما هو بهذه الصفة من النقص فأخبر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنها تأتي تامة الخلقة؛ تغليظًا عليه" طرح التثريب في شرح التقريب (١٢/٤-١٣). وقال الإمام النووي: "في الرواية الأخرى: «أعظم ما كانت» هذا للزيادة في عقوبته بكثرتها وقوتها وكمال خلقها، فتكون أثقل في وطئها، كما أن ذوات القرون تكون بقرونها؛ ليكون أنكى وأصوب لطعنها ونطحها". شرح النووي على صحيح مسلم (٦٥/٧).

فيها عَقْصَاء، ولا جَلْحَاء (١)**، ولا عَضْبَاء، تنطحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها** (٢)**، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار».**

قيل: يا رسول الله، فالخيل؟ قال: «**الخيل ثلاثة: هي لرجل وِزْرٌ، وهي لرجل سِتْرٌ، وهي لرجل أجر، فأما التي هي له وزر فرجل ربطها رِيَاءً وفَخْرًا ونِوَاء** (٣) **على أهل الإسلام، فهي له وزر. وأما التي هي له ستر، فرجل ربطها في سبيل الله، ثم لم يَنْسَ حق الله في ظهورها ولا رقابها** (٤)**، فهي له ستر. وأما التي هي له أجر، فرجل**

---

(١) قال أهل اللغة: (العقصاء): ملتوية القرنين، و(الجلحاء): التي لا قرن لها والعضباء التي انكسر قرنها الداخل. شرح النووي على صحيح مسلم (٦٥/٧)، وانظر: طرح التثريب (١٣/٤).

(٢) (الظلف) للبقر والغنم والظباء، وهو المنشق من القوائم، و(الخف) للبعير، و(القدم) للآدمي، و(الحافر) للفرس والبغل والحمار. شرح النووي على صحيح مسلم (٦٥/٧).

(٣) أي: مناوأة ومعاداة.

(٤) قال الإمام النووي: "استدل به أبو حنيفة على وجوب الزكاة في الخيل. ومذهبه: أنه إن كانت الخيل كلها ذكورًا فلا زكاة فيها، وإن كانت إناثًا أو ذكورًا وإناثًا وجبت الزكاة. وهو بالخيار إن شاء أخرج عن كل فرس دينارًا، وإن شاء قومها وأخرج ربع عشر القيمة. وقال مالك والشافعي وجماهير العلماء: لا زكاة في الخيل بحال؛ لحديث: «ليس على المسلم في فرسه صدقة» صحيح البخاري [١٤٦٣، ١٤٦٤]، مسلم [٩٨٢]. وتأولوا هذا الحديث على أن المراد أنه يجاهد بها. وقد يجب الجهاد بها إذا تعين. وقيل: يحتمل أن المراد بالحق في رقابها الإحسان إليها والقيام بعلفها وسائر مؤنها. والمراد بظهورها: إطراق فحلها إذا طلب منه إعارته، وهذا على سبيل الندب وقيل: المراد حق الله مما يكسبه من مال العدو على ظهورها، وهو خمس الغنيمة. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٦٦/٧)، وانظر: طرح التثريب (١٤/٤)، تفسير القرطبي (٧٨/١٠).

ربطها في سبيل الله لأهل الإسلام، في مَرْجٍ وروضة (١)، فما أكلت من ذلك المرج، أو الروضة من شيء، إلا كتب له، عدد ما أكلت حسنات، وكتب له، عدد أرواثها وأبوالها، حسنات، ولا تقطع طِوَلَهَا (٢) فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا، أو شَرَفَيْنِ (٣)، إلا كتب الله له عدد آثارها (٤) وأرواثها (٥) حسنات، ولا مر بها صاحبها على نهر (٦)، فشربت منه ولا يريد أن يسقيها (٧)، إلا كتب الله له، عدد ما شربت، حسنات».

(١) قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (المرج): الأرض الواسعة ذات نبات كثير، تَمْرُجُ فيه الدواب، أي: تُخَلَّى تَسْرَح مُخْتلطة اهـ. و(الروضة) أخص من المرعى. النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/٣١٥)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٤/١٢٦٥).

(٢) هو بكسر الطاء وفتح الواو. ويقال: طيلها –بالياء– كذا جاء في (الموطأ). والطول والطيل: الحبل الذي تربط فيه. شرح النووي على صحيح مسلم (٧/٦٦)، وفي (المرقاة) (٤/١٢٦٦): "حبلها الطويل الذي شد أحد طرفيه في يد الفرس، والآخر في وتد أو غيره؛ لتدور فيه، وترعى من جوانبها، ولا تذهب لوجهها".

(٣) «فاسْتَنَّتْ» –بتشديد النون– أي: عدت ومرجت ونشطت لِمَرَاحِهَا أو نشاطها. «ولا راكب عليها شرفا» أي: شوطًا أو ميدانًا أو موضعا عاليًا من الأرض، أو ذهابًا إلى إخراج المرج أو مع العود إلى مَحَلِّهَا. «أو شرفين» وإنما سمي شرفًا؛ لأن الدابة تعدو حتى تبلغ شرفًا من الأرض، أي: مرتفعًا فتقف عند ذلك وقفة، ثم تعدو ما بدا لها. مرقاة المفاتيح (٤/١٢٦٦).

(٤) أي: بعدد خطاها.

(٥) أي: في تلك الحالة.

(٦) بفتح الهاء وسكونها.

(٧) بفتح الياء وضمها.

قيل: يا رسول الله، فالْحُمُر؟ قال: «**ما أنزل علي في الْحُمُر شيء، إلا هذه الآيةَ الْفَاذَّةُ**[1] **الجامعة**: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة:٧- ٨]»[2].

هذا بالنسبة لعقوبته الأخروية. أما بالنسبة للعقوبة الدنيوية فقد جاء في الحديث: «**ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين**»[3]، أي: بالجدب والقحط.

وعن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا قال: قال: أقبل علينا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فقال: «**يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين، وشدة المئونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله، وعهد رسوله، إلا سلط الله عليهم**

---

(١) القليلة النظير والجامعة، أي: العامة المتناولة لكل خير ومعروف. ومعنى الحديث: لم ينزل علي فيها نص بعينها، لكن نزلت هذه الآية العامة. شرح النووي على صحيح مسلم (٦٧/٧).

(٢) صحيح مسلم [٩٨٧].

(٣) أخرجه الطبراني في (الأوسط) [٤٥٧٧]. قال الهيثمي (٦٦/٣): "رواه الطبراني في (الأوسط)، ورجاله ثقات". وأخرجه أيضًا: تمام في (الفوائد) [٩٤٠].

عدوا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم»[(١)].

وفي رواية: عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما نقض قوم العهد قط، إلا كان القتل بينهم، ولا ظهرت الفاحشة في قوم قط، إلا سلط الله عليهم الموت، ولا منع قوم الزكاة، إلا حبس الله عنهم القطر»**[(٢)].

ومن منع الزكاة وهو في قبضة الإمام تؤخذ منه قهرًا؛ لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله، ونفسه، إلا بحقه وحسابه على الله»**[(٣)]. ومن حق المال: الزكاة. قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمحضر الصحابة: الزكاة حق المال[(٤)]. وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والله لو

---

(١) أخرجه ابن ماجه واللفظ له [٤٠١٩]، والبزار [٦١٧٥]، والحاكم [٨٦٢٣]، وقال: "صحيح الإسناد".
وأخرجه أيضًا: أبو نعيم (٣٣٣/٨)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٠٤٢]، وابن عساكر (٢٦٠/٣٥). قال الهيثمي (٣١٧/٥): "رواه البزار ورجاله ثقات".

(٢) أخرجه البزار [٤٤٦٣]، والحاكم [٢٥٧٧]، واللفظ له، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.
وأخرجه أيضًا: البيهقي في (السنن) [٦٣٩٧]، وفي (شعب الإيمان) [٣٠٤٠]. قال الهيثمي (٢٦٩/٧): "رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح غير رجاء بن محمد وهو ثقة".

(٣) تقدم.

(٤) تقدم.

منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقاتلتهم عليه (١). وأقره الصَّحابة على ذلك، والحكم مبسوط في مظانه.

٢ - الوقاية من آفات ترك الزكاة والعلاج:

أ. أن يفقه المكلف أحكام الزكاة، وأن يسأل أهل العلم عما جهله منها.

ب. اليقين الجازم بأن هذه الدنيا وما فيها عرض زائل، وما فيها من النِعم والمتاع إنما هو ابتلاء واختبار:

ينبغي على طالب العلم والهداية أن يحذر الاغترار بالدنيا بما فيها، ويبتعد عن الأسباب المؤدية للانهماك فيها، أو الزيادة على الحاجة؛ فإنها عرض زائل، وحال حائل، وما فيها من النعيم أو من السرور محفوف بالأحزان والتنكيد، فما من فرح في الدنيا إلا ويتلوه ترح وحزن.

فهذا نعيم الدنيا الذي يُرى ويُحسُّ، ولكنَّه لا يدوم، فهو في وشك الزوال، ومظنة الترحال، وما عند الله عَزَّوَجَلَّ أعظمُ وأبقى. ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧٧﴾ [النساء:٧٧].

قال الشاعر:

أشـــد الغم عندي في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا (٢)

---

(١) تقدم.

(٢) ديوان المتنبي (ص:١٤٠).

يعني: أن السرور الذي تيقن صاحبه الانتقال عنه هو أشدُّ الغمّ؛ لأنه يراعي وقت زواله، ولا يطيب له ذلك السرور، وهذا من أبلغ الكلام وأوعظه.

وإنما يُعْنى العاقل بسرور لا ينقطع، فيعمل في الدنيا صالحًا؛ ليحيا حياة طيبة، ثم يوفى الأجر والثواب في الآخرة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧].

وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم جملة من الشهوات والملذات التي يستمتع بها الناس في حياتهم الدنيا، وتتطلبها الغرائز الإنسانية على سبيل الامتنان والتذكير بها، إلَّا أنه بين أن هناك ما هو أولى منها، وهو ما عند الله عَزَّوَجَلَّ في الآخرة؛ حثًّا للإنسان على عدم الاسترسال والإغراق في هذه الشهوات التي تحول بينه وبين ما هو أولى، كما أن الاسترسال في الشهوات له مضار ظاهرة وباطنة وحسية ومعنوية وفردية واجتماعية، فلا ينبغي لهم أن يجعلوا كل همهم في هذا المتاع القريب العاجل، بحيث يشغلهم عن الاستعداد لما هو خير منه في الآجل. قال عزَّ من قائل: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران:١٤-١٥].

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ المالَ قوامًا للأمم، ومعززًا للدين، ووسـيلة لإقامة ركنين من أركانه (١)، ومن أعظم أسباب التقرب إليه. فعلى المؤمن المتقي ألا يفتنَ بهذه الشهوات،

(١) يعني: الزكاة والحج.

ويجعلَها أكبرَ همه، والشاغلَ له عن آخرته، فإذا اتقى ذلك، واستمتع بها بالقصد والاعتدال، والوقوف عند حدود الله عَزَّوَجَلَّ، فهو السعيد في الدارين، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة:٢٠١-٢٠٢] [1]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ [القصص:٧٧].

وينبغي على المكلف أن يعلم أن كل شيء في هذه الحياة الدنيا من النِعم والمتاع إنما هو ابتلاء واختبار، فالمال ظل زائل، وعارية مستردة، والدنيا مهما طالت فهي قصيرة، ومهما عظمت فهي حقيرة.

ومن ثم فلا ينبغي أن ينسيه هذا المال أو الجاه ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وافتقاره إليه. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:١٥]، وعليه أن يعلم بأن هذا اليقين هو أساس الإيمان الصادق، وأنه منه، (أي: اليقين من الإيمان) بمنزلة الروح من الجسد.

ولأن كل شيء -من النعم والمتاع- ابتلاء واختبار من الله عَزَّوَجَلَّ، فقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ المال من أعظم أنواع الابتلاء؛ وذلك لما يحقق من المصالح.

---

(١) بتصرف عن (تفسير المنار) (٣/٢٠٢).

وفي الحديث: عن ابن كعب بن مالك الأنصاري، عن أبيه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»** (١).

وعن حكيم بن حزام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سألت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فأعطاني، ثم سألته، فأعطاني، ثم سألته، فأعطاني ثم قال: **«يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع، اليد العليا خير من اليد السفلى»** (٢).

قال العلماء: "إشراف النفس: تطلعها إليه، وتعرضها له، وطمعها فيه. وأما طيب النفس فذكر القاضي فيه احتمالين؛ أظهرهما: أنه عائد على الآخذ، ومعناه: من أخذه بغير سؤال ولا إشراف وتطلع بورك له فيه. والثاني: أنه عائد إلى الدافع،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٣٧٦]، وأحمد [١٥٧٨٤]، والدارمي [٢٧٧٢]، والترمذي [٢٣٧٦]، وقال: "حسن صحيح"، وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٣٢٢٨]، والطبراني [١٨٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٧٨٣]. قوله: «بأفسد لها» أي: بأكثر فسادًا للغنم. «والشرف» أي: الجاه، معطوف على المال. واللام في قوله: «لدينه» لام البيان، كهي في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة:٢٣٣]، كأنه قيل لمن؟ قال: لمن أراد. وكذا هنا، كأنه قيل: بأفسد لأي شيء؟ فقيل: لدينه. ولا يصح جعلها متعلقة بأفسد؛ لأنه لا يجوز تعلق حرفي جرٍّ بلفظ واحد، ومعنى واحد بعامل واحد إلا على سبل البدل" انظر: دليل الفالحين، لابن علان (٤/٤١٩-٤٢٠). وفيه مبالغة في الذم لمن جعل المال والجاه غاية.

(٢) صحيح البخاري [١٤٧٢،٢٧٥٠، ٣١٤٣]، مسلم [١٠٣٥].

ومعناه: من أخذه ممن يدفع منشرحًا بدفعه إليه طيب النفس لا بسؤال اضطره إليه أو نحوه مما لا تطيب معه نفس الدافع.

وأما قوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كالذي يأكل ولا يشبع**» فقيل: هو الذي به داء لا يشبع بسببه. وقيل: يحتمل أن المراد التشبيه بالبهيمة الراعية. وفي هذا الحديث وما قبله وما بعده: الحث على التعفف والقناعة والرضا بما تيسر في عفاف -وإن كان قليلًا- والإجمال في الكسب، وأنه لا يغتر الإنسان بكثرة ما يحصل له بإشراف ونحوه؛ فإنه لا يبارك له فيه، وهو قريب من قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ [البقرة:٢٧٦]"(١).

فالمال وسيلة وليس غاية؛ لأنه متى أصبح غاية قضى على صاحبه؛ لأنه سيعيش لاهثًا خلفه، طالبًا للزيادة، خائفًا من زواله، فيورث صاحبه من الهموم والغموم والأحزان، وتنفتح أمامه أبواب الفتن والفساد بسبب المال. فمهما كان غنيًا فإن فقره بين عينيه، والآفات محدقة بماله، وبجسده من المرض إلى الموت. قال النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له**»(٢).

---

(١) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (٧/١٢٦)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (٣/٢٩٨).

(٢) الحديث مروي عن أنس وعن زيد بن ثابت. حديث أنس: أخرجه هناد (٢/٣٥٥)، والترمذي [٢٤٦٥]، وأبو نعيم في (الحلية) (٦/٣٠٧). حديث زيد بن ثابت: أخرجه الطيالسي [٦١٧]، وأحمد [٢١٥٩٠]، وابن ماجه [٤١٠٥]. وابن حبان [٦٨٠]، والطبراني في (الكبير) [٤٨٩١]، وتمام=

فينبغي على المسلم أن يتذكر دائمًا أن التوسعة في الرزق ليست إلا اختبارًا له من مولاه جَلَّ وَعَلَا، وليست دليلًا على الرضا، فقد نفى القرآن الكريم أن تكون كثرة المال أو الولد دليلًا على رضى المولى عَزَّ وَجَلَّ، وإنما العمل الصالح هو الوسيلة للحصول على هذا الرضوان والقرب من الله عَزَّ وَجَلَّ. يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧﴾ [سبأ:٣٧]، ويقول: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [الأنفال:٢٨]، أي: بلاء واختبار، يحملكم على كسب الحرام، ومنع حق الله تعالى، فلا تطيعوهم في معصية الله عَزَّ وَجَلَّ. وقد قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [المنافقون:٩].

ج. أن يطهر المسلم نفسه عن أدران الشح، وأن يتعوَّد على الإحسان في جميع الأحوال:

إن الموفق من يوق شُحَّ نفسه، فيخالفها فيما يغلب عليها من حبِّ المال، وبغض الإنفاق، وهو الفائز بالسعادتين.

وقد أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ عن الإنسان أنه لحب الخير لشديد، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾ [العاديات:٨]. والخير هنا: المال اتفاقًا (١).

=[١٤٦١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٨٥٥]. قال العراقي في (المغني عن حمل الأسفار) (ص:١٧٣٢): "أخرجه ابن ماجه من حديث: زيد بن ثابت بإسناد جيد".

(١) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٥/٣٩٨).

ومعناه: وإنه لأجل حب المال لبخيل ممسك، أو إنه لحب المال لقوي، وهو لحب عبادة الله عَزَّوَجَلَّ ضعيف، أي: إنه لأجل حب المال بخيل؛ فلذلك يحتجب به غارزًا رأسه في تحصيله وحفظه وجمعه ومنعه، مشغولًا به عن الحق، معرضًا به عن جنابه.

وفي الحديث: «**إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة، إلَّا من أعطاه الله خيرًا، فنفح فيه يمينه وشماله وبين يديه ووراءه، وعمل فيه خيرًا**»(١).

ومن أدل الآيات على أن حب المال غريزة في النفس مقتضية للحرص على المنع -الذي هو البخل-: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر:٩].

ومن الآيات التي تحذر من حب المال مع الحرص والطمع: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ [الفجر:١٩-٢٠]، أي: حبًّا كثيرًا مع حرص وطمع. ثم قال جَلَّوَعَلَا: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١﴾ إلى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦﴾ الآيات [الفجر:٢١-٢٦]، وهي ردع عن أكل التراث، وعن حب المال؛ فماذا يفيد أكل حقوق الغير عند دخول القبر؟ وماذا يجدي حب المال عند المآل؟ وماذا يفيد النعيم الزائل عند العذاب الدائم؟

---

(١) صحيح البخاري [٦٤٤٣]، مسلم [٩٤]. والمراد بـ: «يمينه وشماله»: ما سبق أنه جميع وجوه المكارم والخير. و«نفح» -بالحاء المهملة-، أي: ضرب يديه فيه بالعطاء والنفح: الرمي والضرب.

فينبغي أن يطهر المسلم نفسه عن أدران الشح وأوضار التخلف، وعن حب المال الذي كان التخلف بسببه، وعن سائر الأخلاق الذميمة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة:١٠٣].

والحق أن شهوة حب المال عمت غالب الخلق حتى فُتِنوا بالدنيا وزهرتها، وصارت غاية قصدهم، فلها يطلبون، وبها يرضون، ومن أجلها يغضبون، وبسببها يوالون، وعليها يعادون. فكم قطعت أرحام في سبيلها، وسفكت دماء بسببها، ووقعت فواحش من أجلها، ونزلت القطيعة وحلَّت البغضاء، وفُرِّق بين الأخ وأخيه، وتقاتل الأب مع ابنه، وتعادى الأصحاب والخلان.

وفي الحديث: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «**إذا فتحت عليكم فارس والروم، أي قوم أنتم؟**»، قال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ، قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أو غير ذلك، تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون، أو نحو ذلك، ثم تنطلقون في مساكين المهاجرين، فتجعلون بعضهم على رقاب بعض**» (١).

وقد بين الحق جَلَّوَعَلَا أن الإيمان ليس بالادعاء، وإنما هو مجموعة من الصفات ينبغي أن يتصف الإنسان حتى يكون مؤمنًا، ومنها: بذل المال، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾

(١) صحيح مسلم [٢٩٦٢].

[الأنفال:٢-٤]، ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران:١٣٤]، وفي ذلك إشارة إلى أن النفوس يجب أن تكون كريمة مهما ألحَّ عليها الفقر، وأن تتعوَّدَ الإحسان بقدر الطاقة، كما قال جَلَّ وَعَلَا في آية أخرى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ [الطلاق:٧].

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**سبق درهم مائة ألف درهم**»، قالوا: وكيف؟ قال: «**كان لرجل درهمان تصدق بأحدهما، وانطلق رجل إلى عرض ماله، فأخذ منه مائة ألف درهم فتصدق بها**» (١). فالنفس التي تجود بنصف ما تملك، ولا يتبقى لها إلا درهم، خير من أخرى تنفق جزءًا ضئيلًا مما تملك، ويتبقى لها المال الكثير.

والجهاد يكون بالمال والنفس يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة:٤١].

ولذلك فإنك ترى أن الشارع جعل من أهم علامات التقوى: بذل المال، وإعانة المحتاج، محذرًا من الشح، مبينًا عاقبته، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**» (٢).

---

(١) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) (٢/٢٣)، وابن زنجويه في (الأموال) [١٣٣٦]، والبزار [٨٨٩٧]، والنسائي [٢٥٢٧]، وابن خزيمة [٢٤٤٣]، وابن حبان [٣٣٤٧]، والحاكم [١٥١٩]، وقال: "صحيح على شرط مسلم". وأخرجه أيضًا: البيهقي [٧٧٧٩].

(٢) صحيح مسلم [٢٥٧٨].

د. أن يحمد الله عَزَّوَجَلَّ ويشكره على ما أنعم به عليه، وأن ينظر إلى كل عطاء على أنه اختبار من الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ [النمل:٤٠].

هـ. أداء حق الله عَزَّوَجَلَّ في هذا المال: ويتمثل ذلك في إخراج الزكاة، والصدقة والبر، والإحسان إلى الفقراء والمساكين.

و. أن ينفق المال على حبه:

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة:١٧٧]، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران:٩٢]، ويقول: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ٩﴾ [الإنسان:٨-٩]، أي: على حبِّ الله عَزَّوَجَلَّ، أو حب المال، أو حب الإيتاء. يريد: أن يعطيه وهو طيب النفس بإعطائه (١).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾، أي: أخرجه، وهو محب له، راغب فيه. نص على ذلك ابن مسعود وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف، كما ثبت في (الصحيحين) من حديث: أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل

(١) انظر: الكشاف (١/٢١٩)، تفسير النسفي (١/١٥٣).

إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجرًا؟ قال: «**أن تَصَدَّقَ وأنتَ صحيحٌ شَحِيحٌ، تَخْشَى الفقر، وتَأْمُلُ الغِنَى**»[1].

ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩] نمط آخر أرفع من هذا، وهو أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه، وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبون له"[2].

والإيثار من أسمى معاني الإحسان، وهو يحقق مفهوم الجسد الواحد من التآلف والتعاون والتعاضد، يطهر النفس من آفات الشح.

ومن الآيات الدالة على أسمى معاني الإيثار قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر:٩]. فبين الحق عَزَّوَجَلَّ أن هذا الإيثار ليس عن غنى عن المال، ولكنه عن حاجة وخصاصة، فالإيثار: هو تقديم حاجة الغير على حاجة النفس، سخاءً وتفضلًا. وهذا لا يكون إلَّا من نفوس مهيأة للتضحية..

و(الإيثار): ضد الأثرة، وهي: حب النفس حبًّا يعميها عن كل شيء، فلا يرى المرء إلَّا ذاته، ولا يعمل إلَّا من خلال هذه الذات، وما يحقق لها من نفع ذاتي لا يشاركها فيه أحد.

(١) صحيح البخاري [١٤١٩]، مسلم [١٠٣٢].
(٢) تفسير ابن كثير (٤٨٦/١)، بتصرف.

و(الخصاصة): الحاجة، والفقر الذي يعجز الإنسان عن إدراك الضروري من مطالب الحياة.

ز. أن يطالع سير الصحابة والسلف الصالح رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ في بذل المحبوبات في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ والإيثار:

وآثار السلف في بذل المحبوبات في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ كثيرة، فمن ذلك: ما جاء في (الصحيحين): عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رجلًا أتى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فبعث إلى نسائه فقلن: ما معنا إلَّا الماء، فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**من يضم أو يضيف هذا؟**»، فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقالت: ما عندنا إلَّا قوت صبياني، فقال: هيئي طعامك، وأصبحي سراجك، ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاء، فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال: «**ضحك الله الليلة، أو عجب، من فعالكما**(١)»، فأنزل الله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر:٩] (٢).

---

(١) في (صحيح مسلم) [٢٠٥٤]: «صنيعكما».

(٢) صحيح البخاري [٣٧٩٨، ٤٨٨٩]، مسلم [٢٠٥٤]. قوله: (رجل) هو أبو طلحة زيد بن سهل الأنصاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. «أصبحي»: أوقدي. «يريانه»، أي: يتظاهران بذلك. قوله: «طاويين»، حال تثنية طاو، وهو الجائع الذي يطوي ليله بالجوع. ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾: يختارون ويفضلون. ﴿خَصَاصَةٌۚ﴾: =

وفي الحديث: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما نحن في سفر مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ جاء رجل على راحلة له، قال: فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالًا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من كان معه فضل ظهر، فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد، فليعد به على من لا زاد له**»، قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل(١).

ح. الإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ في سائر الأعمال:

إن من الآيات الدالة على الإخلاص لله جَلَّ وَعَلَا في إنفاق المال؛ ابتغاء مرضاته وحده، وعدم الرياء فيه: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة:٢٦٤]، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ﴾ [البقرة:٢٧١]، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان:٨-٩]. والنصوص في ذلك كثيرة.

=حاجة. و﴿يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾: يخالف هواها ويغلبها على ما أمرته بتوفيق الله عَزَّ وَجَلَّ وعونه من (الوقاية)، وهي الحفظ من الشح البخل والحرص.

(١) صحيح مسلم [١٧٢٨].

فلا يوجد دينٌ يحثُّ أبناءَه على التَّحَابُب والمودة والإيثار كدين الإسلام. والنماذج الدَّالة على الإيثار من النصوص ومن حياة السلف كثيرة، ولو طبق الناس ما جاء في الآيات والأحاديث من معاني الإيثار لم يبق محتاجٌ.

ط. البعد عن الصفات المذمومة المهلكة من نحو التكبر والعظمة والظلم والاستعلاء والغرور والحسد، والبغي، والغل، والخداع، والمكر إلى غير ذلك.

ورياضة النفس بحملها على الفضائل، والنأي بها عن الرذائل، ورياضة الجسد، وذلك بالإكثار من الطاعات والنوافل، والتخفف من التنعم بملذات الدنيا، وتزكية النفس واتهامها ومحاسبتها والتنقيب عن عيوبها ونقائصها، فإن محاسبة النفس هو طريق استقامتها وكمالها وفلاحها وسعادتها.

ي. استحضار ما جاء من النصوص في فضل الإنفاق، وما جاء في ذمِّ الشح والبخل.

ك. مكافحة البطالة، وشغل الوقت بما ينفع من العلم والعمل.

ل. صحبة أهل الخير والعدل والفضل والزهد.

م. تجنب الشبع، وحمل النفس على القصد أو التقلل من المأكل والمشرب والملبس والمركب، والتوسط في ذلك من غير إسراف ولا تقتير.

ن. التفكر في آثار الإسراف وعواقبه المترتبة على البدن والقلب والفكر والسلوك.

س. دوام النَّظر في سُنَّة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيرته العطرة، فهو خير قدوة في الزهد، وفي القصد والاعتدال، وفي التطلع إلى الآخرة مع عدم إغفال الحقوق والواجبات، وفي العناية بالنهوض والريادة لهذه الأمة في سائر المجالات.

ع. تذكر الموت والآخرة.

الركن الرابع: صوم رمضان:

١ - تعريف الصوم:

الصِّيَامُ والصَّوْمُ: مصدر صام. صام الرجل صَوْمًا وصِيَامًا. قيل: هو مطلق الإمساك في اللُّغَة، ثم أُسْتُعْمِلَ في الشَّرْعِ في إمساكٍ مخصوص. قال أبو عبيدة: كُلُّ ممسكٍ عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم. يقال: صامت الخيل: إذا أمسكت عن السير. وصامت الريح: إذا أمسكت عن الهبوب. ورجل صائمٌ وصَوَّام مبالغة.

والعرب تسمي كل ممسك: صائمًا، ومنه: الصوم في الكلام. وفي التنزيل: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم:٢٦] (١).

وهو في الشرع: عبارة عن الإمساك عن أشياء مخصوصة، في زمن مخصوص، من شخص مخصوص، بنية مخصوصة (٢).

---

(١) انظر: العين، مادة: (صوم) (١٧١/٧)، الصحاح، للجوهري (١٩٧٠/٥-١٩٧١)، تهذيب اللغة (١٨٢/١٢)، المصباح المنير (٣٥٢/١)، المخصص (٥٩/٤)، المحيط (٢٣٧/٢)، المطلع على ألفاظ المقنع (ص:١٨٢)، وانظر: روح المعاني (٤٥٣/١)، البحر المحيط في التفسير (١٧٢/٢)، غرائب القرآن (٤٩٤/١).

(٢) انظر: روح المعاني (٤٥٣/١)، المطلع على ألفاظ المقنع (ص:١٨٢).

وقيل: الإمساك عن أشياء مخصوصة، وهي: الأكل، والشرب، والجماع، بشرائط مخصوصة [١].

وقيل: "هو ترك الأكل والشُّرب والجماع من الصُّبح إلى الغروب بنيَّةٍ من أهله"[٢].

وفي (المقدمات): "إمساك عن أشياء مخصوصة، في أزمان معلومة على وجوه مخصوصة، فهو إمساك عن الطعام والشراب والجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، مع اقتران النيات به على اقتران وجوهها، من فرض واجب، أو تطوع غير لازم، أو كفارة يمين، أو غيره، فمتى انخرم وجه من هذه الوجوه لم يكن صائمًا شرعًا، وإن صحَّ أن يسمَّى: صائمًا في اللغة –على ما قدمناه–"[٣].

وقال الشيخ نظام الدين النيسابوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الصيام في الشرع: عبارة عن الإمساك عن أشياء مخصوصة تسمى: المفطرات، كالأكل والشرب والوقاع، في زمان مخصوص، هو من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس. ولا بد في صحته من النية، وأن يقع في غير يومي العيد بالاتفاق، وفي غير أيام التشريق عند الأكثرين. ويوافقه الجديد من قول الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن غير يوم الشك بلا ورد ونذر وقضاء

---

(١) بدائع الصنائع (٢/٧٥).

(٢) انظر: كنز الدقائق (ص:٢١٩)، وانظر: تبيين الحقائق (٣١٢/١)، البحر الرائق (٢٧٨/٢)، رد المحتار على الدر المختار (٣٧١/٢)، درر الحكام (١٩٦/١).

(٣) المقدمات الممهدات، لأبي الوليد محمد بن رشد القرطبي (٢٣٧/١- ٢٣٨).

وكفارة). ولا بد للصائم من الإسلام، والنقاء عن الحيض والنفاس، ومن العقل كل اليوم، ومن انتفاء الإغماء في جزء من اليوم"[1].

٢ - مكانة صيام رمضان وما جاء في فضله:

*__إنَّ من بين أركان الإسلام العظيمة: ركن الصيام:__ وهو رابع أركان الدين، كما جاء في الحديث: عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت**»[2].

وقد ورد في صيام رمضان آيات كريمة، وأحاديث عظيمة تدلُّ على تمام الإكرام من الله عَزَّ وَجَلَّ، فمن الأحاديث: ما جاء في (الصحيحين): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: قال الله عَزَّ وَجَلَّ: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جُنَّةٌ، فإذا كان يوم صوم أحدكم، فلا يَرْفُثْ**[3] **ولا يَصْخَبْ**[4]**، فإن سَابَّهُ أحد أو قاتله، فليقل: إني امرؤ صائم. والذي نفس محمد**

(١) غرائب القرآن (١/٤٩٤).

(٢) صحيح البخاري [٨]، مسلم [١٦].

(٣) (الرفث): الجماع وما دونه من التعريض به، وذكر ما يفحش من القول.

(٤) «يصخب» من الصخب وهو الخصام والصياح، وأن يكثر لغطه. وعند مسلم: «ولا يسخب»، قال الإمام النووي: "هكذا هو هنا بالسين، ويقال بالسين والصاد، وهو الصياح، وهو بمعنى الرواية الأخرى: «ولا يجهل، ولا يرفث»". شرح النووي على صحيح مسلم (٨/٣١)، وانظر: إكمال المعلم، للقاضي=

بيده، لَخُلُوفُ فم الصائم(١) **أطيب عند الله، يوم القيامة، من ريح المسك. وللصائم فرحتان يَفْرَحُهُمَا: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه»** (٢).

فقوله: «**كل عمل ابن آدم له، إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به**» بيان لعظم فضله؛ لأن الكريم إذا تولى الجزاء بنفسه اقتضى عظم قدر الجزاء، وسعة العطاء.

قال القاضي ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لما كان الصوم نوعًا من الصبر حين كان كفًّا عن الشهوات، قال الله جَلَّ وَعَلَا: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي، وأنا أجزي به**» (٣). قال أهل العلم: كل أجر يوزن وزنًا، ويكال كيلًا إلا الصوم؛ فإنه يحثى حثيًا، ويغرف غرفًا؛ ولذلك قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو الصبر على فجائع الدنيا وأحزانها٤. فلا شك أن كل من سلم فيما أصابه، وترك ما نهى عنه فلا مقدار لأجره، وأشار بالصوم إلى أنه من ذلك الباب، وإن لم يكن جميعه -والله أعلم-"(٥).

=عياض (٤/٥٨). والرواية الأخرى: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الصيام جنة فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم مرتين» أخرجه البخاري [١٨٩٤]. واللفظ عند (مسلم) [١١٥١]: «إذا أصبح أحدكم يومًا صائمًا، فلا يرفث ولا يجهل، فإن امرؤ شاتمه أو قاتله، فليقل: إني صائم، إني صائم».

(١) (الخلوف): تغير رائحة الفم من أثر الصيام لخلو المعدة من الطعام.

(٢) صحيح البخاري [١٩٠٤، ٧٤٩٢]، مسلم [١١٥١].

(٣) تقدم.

(٤) سيأتي في (الصبر).

(٥) أحكام القرآن، لأبي بكر بن العربي (٤/٧٦-٧٧)، وسيأتي في (الصبر).

وصيام رمضان من أسباب دخول الجنة، ورفعة الدرجات، كما جاء في الحديث:

عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خمس من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة: من حافظ على الصلوات الخمس، على وضوئهن وركوعهن وسجودهن ومواقيتهن، وصام رمضان، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلًا، وأعطى الزكاة طيبة بها نفسه، وأدى الأمانة**»، قيل: يا نبي الله، وما أداء الأمانة؟ قال: «**الغسل من الجنابة، إن الله لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيرها**» (١).

وعن عمرو بن مرة الجهني قال: جاء رجل من قضاعة إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إني شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وصليت الصلوات الخمس، وصمت رمضان وقمته، وآتيت الزكاة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من مات على هذا كان من الصديقين والشهداء**» (٢).

لقد اختص الله عَزَّ وَجَلَّ بعض الأزمنة وشرفها بمزايا وفضائل دائمة مستمرة غير منقطعة، وخصَّها بقرب تؤدى فيها، وضاعف لعباده الأجر فيها، وحثهم على التعبد له فيها، كشهر رمضان، والعشر الأواخر منه، وليلة القدر

---

(١) أخرجه أبو داود [٤٢٩]، ومحمد بن نصر المروزي في (الوتر) (ص:٢٧٢)، والطبراني كما في (مجمع الزوائد) قال الهيثمي (٤٧/١): رواه الطبراني في (الكبير) وإسناده جيد". وقال أيضًا المنذري (١٤٨/١): "إسناده جيد". وأخرجه أيضًا: وأبو نعيم في (الحلية) (٢٣٤/٢).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [٢٥٥٨]، والبزار كما في (كشف الأستار) [٢٥]، وابن خزيمة [٢٢١٢]، وابن حبان [٣٤٣٨]، والطبراني في (الشاميين) [٢٩٣٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٣٤٥]. قال الهيثمي (٤٦/١): "رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح خلا شيخي البزار، وأرجو إسناده أنه إسناد حسن أو صحيح".

وقد فاضَل الحقُّ عَزَّوَجَلَّ بين الأزمنة كما فاضَلَ بين الأمكنة، وكما فاضَلَ بين الخلائق. فمن الأزمنة الفاضلة من أيام الأسبوع: يوم الجمعة، ومن أيام السنة: يوم عرفة، ومن ليالي السنة: ليلة القدر، ومن شهور السنة: شهر رمضان.

وقد نصَّ العلماء على أن الأعمال الصالحة يتضاعف ثوابها؛ لشرف الزمان، أو شرف المكان، أو بهما معًا، وكذا المعصية يتضاعف وزرها في الأماكن المفضلة، كمكة -شرفها الله جَلَّوَعَلَا-، وفي الأزمنة المفضلة، كرمضان وغيره.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنَّ الله جَلَّوَعَلَا إذا أحبَّ عبدًا استعمله في الأوقات الفاضلة بفواضل الأعمال، وإذا مقته استعمله في الأوقات الفاضلة بسيء الأعمال؛ ليكون ذلك أوجع في عقابه، وأشد لمقته؛ لحرمانه بركة الوقت، وانتهاكه حرمة الوقت"(١).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العمل المفضول في الوقت الفاضل يلتحق بالعمل الفاضل في غيره، ويزيد عليه لمضاعفة ثوابه وأجره"(٢).

وقال ابن مفلح رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الآداب الشرعية): "زيادة الوزر كزيادة الأجر في الأزمنة والأمكنة المعظمة"(٣).

---

(١) إحياء علوم الدين (١/١٨٨).

(٢) لطائف المعارف (ص:٢٦١).

(٣) الآداب الشرعية (٣/٤٣٠).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المعاصي في الأيام المعظمة والأمكنة المعظمة تغلظ معصيتها وعقابها بقدر فضيلة الزمان والمكان"(١).

ومن فضائل شهر رمضان:

أ. **نزول القرآن الكريم**: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾ [الدخان:٣-٦]، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر:١].

ب. **غفران الذُّنوب، وتكفير السيئات**: كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من صام رمضان، إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**» (٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر**» (٣).

---

(١) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية (٤١٢/٣).

(٢) صحيح البخاري [٢٠١٤]، مسلم [٧٦٠].

(٣) صحيح مسلم [٢٣٣].

ج. **استجابة الدعاء**: كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثلاثة لا ترد دعوتهم**»، وذكر منهم: «**الصائم حين يفطر**» (١).

د. **فيه ليلة القدر**: قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ۝٥﴾ [القدر: ١-٥].

هـ. **تُصَفَّدُ فيه الشياطين**: كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار، وَصُفِّدَتِ الشياطين**» (٢). وفي لفظ: «**وسلسلت الشياطين**» (٣).

---

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه [٣٠٠]، وأحمد [٨٠٤٣]، وابن ماجه [١٧٥٢]، والترمذي [٣٥٩٨]، وقال: "هذا حديث حسن". وأخرجه أيضًا: ابن خزيمة [١٩٠١]، وابن حبان [٣٤٢٨]، والبيهقي [٦٣٩٣].

(٢) صحيح مسلم [١٠٧٩]. و(الصفد) هو الغل، أي: أوثقت بالأغلال.

(٣) صحيح البخاري [١٨٩٩، ٣٢٧٧]، مسلم (٢) [١٠٧٩]. و«سلست الشياطين»: شدت بالسلاسل، ومنعت من الوصول إلى بغيتها من إفساد المسلمين بالقدر الذي كانت تفعله في غير رمضان.

و. العمرة فيه يعدل ثوابها ثواب حجة مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

كما جاء في الحديث: «**عمرة في رمضان تَقْضِي حَجَّةً أو حَجَّةً معي**» (١).

ز. الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة:

جاء في الحديث: عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أَيْ رَبِّ! مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ والشَّهَوَاتِ بالنَّهار فَشَفِّعْنِي فيه، يقول القرآن: منعته النوم بالليل، فشفعني فيه**»، قال: «**فيشفعان**» (٢).

ح. الصيام وقاية من الذنوب والمعاصي، وسبب في التوبة، ووقاية من عذاب النار، ووقاية من عذاب البرزخ:

وقد تقدم قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في (الصحيحين): «**والصيام جُنَّةٌ**»؛ لأنه يورث مراقبة العبد لله عَزَّ وَجَلَّ، ولأنه يكسر الشهوة، ويضعف القوة.

---

(١) صحيح البخاري [١٨٦٣].

(٢) أخرجه أحمد [٦٦٢٦]، قال الهيثمي (٣٨١/١٠): "رواه أحمد، وإسناده حسن على ضعف في ابن لهيعة، وقد وثق". كما أخرجه الحاكم [٢٠٣٦]، وقال: "صحيح على شرط مسلم". أخرجه أيضًا: أبو نعيم في (الحلية) (١٦١/٨)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٨٣٩]. قال الهيثمي (١٨١/٣): "رواه أحمد والطبراني في (الكبير)، ورجال الطبراني رجال الصحيح".

جاء في الحديث: عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**قال ربنا** عَزَّ وَجَلَّ: **الصيام جُنَّةٌ يَسْتَجِنُّ بها العبد من النار، وهو لي وأنا أجزي به**»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الصيام جُنَّةٌ، وحِصْنٌ حَصِينٌ من النَّار**»(٢).

وعن عثمان بن أبي العاص قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**الصِّيَامُ جُنَّةٌ كجُنَّةِ أحدكُمْ من القتال**»(٣).

وأصل (الْجُنَّة) بالضم: التُّرس، شبه الصوم به؛ لأنه يحمي الصائم عن الآفات النفسانية في الدنيا، وعن العقاب في الأخرى. قال القاضي البيضاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: و(الْجُنَّة) بالضم: التُّرس، وبالكسر: الجنون، وبالفتح: الشَّجر الْمُظلُّ(٤)، وأُطلق على البستان؛

---

(١) أحمد [١٤٦٦٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٢٩٢]. قال الهيثمي (٣/١٨٠): "رواه أحمد، وإسناده حسن". وأخرجه البزار [٢٣٢١]، والطبراني في (الكبير) [٨٣٨٦]. من طريق: الحسن، عن عثمان بن أبي العاص.

(٢) أخرجه أحمد [٩٢٢٥]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٢٩٣]، قال الهيثمي (٣/١٨٠): "رواه أحمد. قلت: هو في الصحيح، خلا قوله: «وحصن حصين من النار» وإسناده حسن".

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة [٨٨٩١]، وأحمد [١٦٢٧٣]، وابن ماجه [١٦٣٩]، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [١٥٤٢]، والبزار [٢٣٢١]، والنسائي [٢٢٣٠]، والروياني [١٥٢٢]، وابن خزيمة [١٨٩١]، وابن حبان [٣٦٤٩]، والطبراني [٨٣٦٠]، وأبو نعيم في (الحلية) (٦/٢٦٥)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٢٩٥].

(٤) وقد جمعت هذه المعاني بقول من قال: (جزاءُ الصومِ للصُوَّامِ جَنَّة***وتصفيدٌ لِمُرَّادٍ وجِنَّة)، (وإن رسولنا قد قال فيهِ***ألا صوموا فإنَّ الصومَ جُنَّة).

لما فيها من الأشجار، وعلى دار الثواب؛ لما فيها من البساتين. وثلاثتها مأخوذ من الجَنّ بمعنى: الستر.

وإنما جُعل الصوم جُنَّةً؛ لأنه يقمع الهوى، ويردع الشهوات التي هي أسلحة الشيطان؛ فإن الشِّبعَ مجلبةٌ للآثام، منقصةٌ للإيمان، ولهذا قال المصطفى ﷺ: «**ما ملأ ابن آدمَ وعاءً شرًّا من بطنِهِ**»(١)؛ فإن من ملأ بطنَه انتكست بصيرته، وتشوَّشتْ فكرته؛ لما يستولي على معادن إدراكه من الأبخرة الكثيرة الصاعدة من مَعِدَتِه إلى دماغِه، فلا يتأتَّى له نظرٌ صحيحٌ، ولا يتَّفق له رأيٌ صالحٌ، ولعلَّه يقع في مداحضَ فيزيغ عن الحقِ، ويغلب عليه الكسَل والنعاس، فيمنعه مِن وظائف العبادات، وقويت قوى بدنه، وكثرت المواد والفضول فيه، فينبعث غضبه وشهوته، ويشتد شبقه؛ لدفع ما زاد على ما يحتاج إليه بدنه، فتوقعه بسبب ذلك في المحارم"(٢).

وقال في (النهاية): قوله: "«**الصوم جنة**» أي: يقي صاحبه ما يؤذيه من الشهوات. و(الجنة): الوقاية"(٣).

---

(١) أخرجه أحمد [١٧١٨٦]، وابن ماجه [٣٣٤٩]، والترمذي [٢٣٨٠]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: النسائي في (الكبرى) [٦٧٣٧]، وابن حبان [٦٧٤] والطبراني [٦٤٤]، والحاكم [٧١٣٩]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي.

(٢) تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة (١/٦٧-٦٨)، بتصرف يسير، وانظر: فيض القدير (٤/٢٤٢)، شرح الأربعين النووية، لعبد الرؤوف الْمُناوي (ص:٩٨-١٠٠).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (جنن) (١/٣٠٨).

وأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الصيام من المنجيات من العذاب في البرزخ، كما جاء في الحديث: واللفظ عند ابن حبان: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الميت إذا وضع في قبره إنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه فإن كان مؤمنًا كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصيام عن يمينه، وكانت الزكاة عن شماله، وكان فعل الخيرات من الصدقة، والصلة، والمعروف، والإحسان إلى الناس عند رجليه.**

فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى عن يمينه فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من قبل رجليه فتقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس: ما قبلي مدخل».

واللفظ عند الطبراني في (الأوسط): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والذي نفسي بيده، إنه ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، فإن كان مؤمنًا كانت الصلاة عند رأسه، والزكاة عن يمينه، والصوم عن شماله، وفعل الخيرات والمعروف والإحسان إلى الناس من قبل رجليه، فيؤتى من قبل رأسه، فتقول الصلاة: ليس قبلي مدخل، فيؤتى عن يمينه، فتقول الزكاة: ليس من قبلي مدخل، ثم يؤتى عن شماله، فيقول الصوم: ليس من قبلي مدخل، ثم يؤتى من قبل**

رجليه، فيقول فعل الخيرات والمعروف والإحسان إلى الناس: ليس من قبلي مدخل»[(١)].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "تالله لو قيل لأهل القبورِ تمنَّوْا لَتَمَنَّوْا يومًا مِنْ رمضان"[(٢)]؛ لأنَّ رمضان هو سيد الشهور، وتضاعف فيه الحسنات والأجور. وقد دلت الأحاديث على أنَّ الصلاةَ، والزكاةَ، والصيامَ، وفعلَ الخيراتِ، من الصدقةِ، والصلةِ، والمعروفِ، والإحسانِ إلى الناسِ من أسباب النجاة من عذابِ القبر وكُرَبِه وفِتَنِه.

ورمضان موسم الخير، تضاعف فيه الحسنات، وترجى فيه المغفرة، والمحروم حقًا في هذا الشهر من حرم رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، من أدرك رمضان ولم يغفر له، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**رَغِمَ أَنْفُ رجل ذكرت عنده فلم يُصَلِّ عَلَيَّ، ورَغِمَ أَنْفُ رجل دخل عليه رمضان ثم انْسَلَخَ قبل أن يُغْفَرَ له، ورَغِمَ أَنْفُ رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة**»[(٣)]. وقوله: «**رَغِمَ**

(١) أخرجه عبد الرزاق في (المصنف) [٦٧٠٣]، وابن أبي شيبة [١٢٠٦٢]، وابن حبان [٣١١٣]، والطبراني في (الأوسط) [٢٦٣٠]، والحاكم [١٤٠٣]، والبيهقي في (إثبات عذاب القبر) [٦٧]، قال الهيثمي (٣/٥١ -٥٢): "رواه الطبراني في (الأوسط)، وإسناده حسن".

(٢) التبصرة (٢/٧٨).

(٣) أخرجه أحمد [٧٤٥١]، والترمذي [٣٥٤٥]، وقال: "حسن غريب". وأخرجه أيضًا: البزار [٨٤٦٥]، وابن حبان [٩٠٨].

أَنْفُ»: أي: لَصِقَ بِالرُّغَام، وهو التُّراب، كناية عن غاية الذل والهوان، وهو إِخْبَارٌ أو دعاء.

وإنما تنال رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بالإقبال عليه والاجتهاد في طاعته وعبادته. جاء في الحديث: عن سهل بن سعد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن في الجنة بابا يقال له: الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل معهم أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيدخلون منه، فإذا دخل آخرهم، أغلق فلم يدخل منه أحد**» (١).

والصيام جُنَّة ووجاء، شرع لتصفية مرآة القلب والعقل، ولرياضة النفس بحبسها عن شهواتها، ولكبحها عن الاسترسال في اللذات، وإمساكها عن خسيس العادات. فهو تصفية للقلب من كدورات البشرية، وتشبه بالملائكة الروحانية، وتعرض لنفحات الله عَزَّوَجَلَّ ورحماته، ومغفرة للذنوب، وإجابة للدعوات، واكتساب للحسنات، وتنقية لصحائف الأعمال من المخالفات، وخضوع لله عَزَّوَجَلَّ، وتعود على الصبر والمكاره، ومواساة للفقراء والمساكين، وحفظ للسان والجوارح، وتنظيم للوقت، وقوة للجسد، وتقوية للإرادة، فهو قيادة للنفس، فمن لم يستطع أن يقود نفسه هيهات أن يقود غيره!! ومن لم ينتصر على نفسه هيهات أن ينتصر على عدوه!!

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز رَحِمَهُٱللَّهُ: "إن ما في الصوم من كبت وحرمان ليس هدفه هذا الكبت والحرمان، وإنما الصوم وسيلة إلى غاية نبيلة.

---

(١) صحيح البخاري [١٨٩٦]، مسلم [١١٥٢].

إنه التدريب على السيادة والقيادة، قيادة النفس وضبط زمامها، وكفها عن أهوائها ونزواتها، بل إنه التسامي بتلك القيادة إلى أعلى مراتبها. فلقد كنت في بحبوحة الإفطار إنما تحمى جوفك عن تناول السُّحت والخبيث، فأصبحت في حظيرة الصوم تفطمه حتى عن الحلال الطيب. ولقد كنت بالأمس تكف لسانك عن الشتم والإيذاء، فأصبحت اليوم تصونه حتى عن رد الإساءة وعن إجابة التحريش والاستفزاز، فإن خاصمك أحد أو شاتمك، لم تزد على أن تقول: (إني صائم، إني صائم)، هكذا ملكت بالصوم زمامي شهوتك وغضبك.. وإنه لصبر يجر إلى صبر، ونصر يقود إلى نصر. فلئن كان الصوم قد علمك أن تصبر اليوم طائعًا مختارًا في وقت الأمن والرخاء، فأنت غدًا أقدر على الصبر والمصابرة، في البأساء والضراء وحين البأس، ولئن كان الصوم قد علمك كيف تنتصر اليوم على نفسك، فلقد أصبحت به أجدر أن تنتصر غدًا على عدوك. وتلك عاقبة التقوى، التي أراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يرشحك لها بالصيام.

إن هذا الهدف الذي صورناه وحدَّدناه، إنما يقوم في منتصف الطريق، الذي رسمه الله عَزَّوَجَلَّ للصائمين، وإن في نهاية هذا الطريق، هدفًا آخر، بل أهدافًا أخرى أهم وأعظم.

إن شريعة الصوم عبادة ذات شطرين، وليس شطرها الأول إلا تمهيدًا وإعدادًا لشطرها الثاني، إنها شجرة جذعها الصبر، وأغصانها الشكر، وأوراقها وثمارها الذكر والفكر.

وإن من تأمل كلمة التقوى التي عبَّر عنها القرآن في حكمة الصيام يجدها منطوية على هذين الشطرين، فهي في شطرها الأول: كف وانتهاء، وابتعاد واجتناب، لكنها في شطرها الثاني: إقبال واقتراب، وإنشاء وبناء.

وهذا الجانب الإيجابي هو الشطر الثاني لشريعة الصوم، ولما جعل الله عَزَّوَجَلَّ شهر الصوم موسمًا لانطلاق الروح من عقالها، فتح للأرواح بابين تندفق منهما: بابًا إنسانيًّا، وبابًا ربانيًّا.

فأما انطلاق الروح من الباب الإنساني فذلك أنه أرشدنا إلى أن يكون زهدنا في الطعام والشراب ليس قبضًا وإمساكًا بالحفظ والادخار، بل بسطًا وسخاء بالبذل والإيثار.

وأما انطلاق الروح من الباب الثاني فذلك أن الإسلام فتح فيه للطاعة مسالك مسلوكة: تسبيح وتحميد، وتكبير وتمجيد، تضرع وابتهال، ودعاء وسؤال، ركوع وسجود، وقيام وتشمير ونهوض"(١).

وفي الصوم خصيصة ليست في غيره، وهي إضافته إلى الله عَزَّوَجَلَّ حيث يقول جَلَّوَعَلَا: «**الصوم لي وأنا أجزى به**»، وكفى بهذه الإضافة شرفًا، كما شرف البيت بإضافته إليه في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج:٢٦]. وإنما فضل الصوم لمعنيين:

أحدهما: أنه سر وعمل باطن، لا يراه الخلق، ولا يدخله رياء.

---

(١) انظر: الصوم تربية وجهاد، د. محمد عبد الله دراز (ص:٤٥-٥٠)، مقالات الإسلاميين في الصيام (ص:٢٦٥-٢٦٦)، مجلة التمدن الإسلامي، ج (٢١-٢٤)، مجلد [٢٩]، سنة [١٣٨٢هـ]، (ص:٤٥٣-٤٥٤).

الثـاني: أنه قهر لعدو الله؛ لأن وسيلة العدو الشهوات، وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب، وما دامت أرض الشهوات مُخْصِبَةٌ، فالشياطين يترددون إلى ذلك المرعى، وبترك الشهوات تضيق عليهم المسالك (١).

وأهم مقاصد الصيام أنه يورث المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ والتقوى؛ إذ هو يكف النفس عن كثير مما تتطلع إليه، حيث إنه ينمي في الصائم شعور المراقبة لله تعالى، فالإنسان الذي يخلو بنفسه لا يمنعه شيء عن الأكل والشرب سوى شعوره بأن الله جَلَّوَعَلَا مطلع عليه في كل ما يصنع، فيبتعد عما يسخط الله تعالى من قول أو عمل، وهذا معنى قول النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**والصِّيامُ جُنَّة**».

أما إذا كان الصيام قد أصبح عند الكثيرين عادة، أو أنه يصوم لنصيحة طبيب لا عن عقيدة وإيمان واحتساب فإن الصيام لا يثمر في نفسه تلك الثمرات الناشئة عن المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ، فإذا انعدم شعور الصائم بالمراقبة فليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، وهذا معنى قول النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**» (٢)، وقوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**من صام رمضان، إيمانًا واحتسابًا..**» الحديث، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة:١٨٣]. فليس

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص:٤٣).

(٢) صحيح البخاري [١٩٠٣، ٦٠٥٧].

المراد: مجرَّد الإمساك عن الطعام والشراب والجماع دون ما يحقق الصيام من الأثر في الصائم، وهو التقوى، وهي صيانة المرء نفسه عما يضر في الآخرة.

وقد فرض الله عَزَّوَجَلَّ الصيام على أمة محمد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما فرضه على من قبلها من الأمم؛ لأن الصيام يمتاز عن بقية العبادات بأنه مدرسة تدريبية فعالة تحمل المسلم على ترك الماديات والشهوات والعادات السلوكية المنحرفة، فتسموا روح الصائم، وتزكو نفسه، ويشرق قلبه، وعند ذلك يجد لذَّة العبادة، ويتذوق حلاوة الطاعة.

وليس كالصوم شيءٌ يصلحُ النفوسَ، ويحملها على أمهات الفضائل، ويجملها بمكارم الأخلاق، ويزيدها تحرزًا عن كل خلق قبيح. فبالصوم يكون المسلم عفيفًا مهذبًا لا يسب ولا يغتاب. وينبغي أن يكون هذا حاله بعد الصيام؛ لأنه قد استفاد من هذه المدرسة. وفي الحديث: «**فإذا كان يوم صوم أحدكم، فلا يَرْفُثْ ولا يَصْخَب، فإن سَابَّهُ أحد أو قاتله، فليقل: إني امرؤ صائم**»(١).

وأما تأثير الصوم في المجتمعات فيتجلى في تحقيق الشعور والحس المرهف بالمساواة بين الناس، فالصائم عندما يجوع يتذكر الفقير فيواسيه، فتظهر وحدة المسلمين، وتماسكهم، وتعاطفهم.

وإذا كان في الصوم فرصة لتقوية الروح ففيه كذلك فرصة لتقوية البدن، فإن كثيرًا مما يصيب الناس من أمراض إنما هو بسبب بطونهم التي يتخمونها بكل ما تشتهي، وقد قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ما ملأ آدمي وعاء شرًّا من بطن، بحسب ابن آدم**

---

(١) تقدم.

أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه» (1).

وإذا كان البطن مستنقع البلايا فإن الحمية رأس الدواء، وليس كالصوم فرصة تستريح فيها المعدة، ويتخلص الجسد من كثير من فضلاته الضارة.

وفي الصوم تقوية للإرادة، وتربية على الصبر، فالصائم يجوع وأمامه شهي الطعام، ويعطش وبين يديه بارد الماء، ويعف وإلى جانبه زوجته، لا رقيب عليه في ذلك إلا ربه، يتكرر ذلك خمس عشرة ساعة أو أكثر كل يوم، وتسعة وعشرين أو ثلاثين يومًا في كل عام، عدا النوافلَ والكفارات والقضاء والمنذورات.

فأي مدرسة تقوم بتربية الإرادة الإنسانية، وتعليم الصبر الجميل كمدرسة الصوم التي يفتحها الإسلام إجباريًّا للمسلمين في شهر رمضان. وحسبك أن تسمع نداء النبي ﷺ للشباب: «**يا معشر الشباب، من استطاع الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وِجَاءٌ**» (2).

إن الإسلام ليس دين استسلام وخمول وكسل، بل هو دين جهاد وكفاح متواصل، وهمة عالية. وأول عدة الجهاد: الصبر والإرادة القوية، فمن لم يجاهد نفسه هيهات أن يجاهد عدوا، ومن لم ينتصر على نفسه وشهواتها هيهات أن ينتصر على

---

(1) أخرجه أحمد [١٧١٨٦]، وابن ماجه [٣٣٤٩]، والترمذي [٢٣٨٠]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: النسائي في (الكبرى) [٦٧٣٧]، وابن حبان [٦٧٤] والطبراني [٦٤٤]، والحاكم [٧١٣٩]، وقال: "صحيح الإسناد". ووافقه الذهبي.

(2) صحيح البخاري [١٩٠٥، ٥٠٦٥، ٥٠٦٦]، مسلم [١٤٠٠].

عدوه. ومن لم يصبر على جوع هيهات أن يصبر على فراق أهل ووطن من أجل هدف كبير.

والحاصل أن لفرض الصيام حِكمًا اجتماعية، من اجتماعِهم على عبادة واحدة، في وقت واحد، وصبرِهم جميعًا، قويِّهم وضعيفِهم، شريفِهم ووضيعِهم، غنيِهم وفقيرِهم، على معاناتِها وتحملِها، مما يسبب ربْطَ قلوبهم، وتآلف أرواحهم، ولَمَّ كلمتهم. كما أنه سبب عطف بعضهم على بعض، ورحمةِ بعضهم بعضًا، حينما يُحِس الغنيَ ألم الجوع، ولَدْغَ الظَّمأ فيتذكر أن أخاه الفقير يعاني هذه الآلام دَهْرَه كله، فيجود عليه من ماله بشيء يزيل الضغائن والأحقاد، ويحل محلها المحبةُ والوئام.

ومنها، حكم أخلاقية تَربوِية، فهو يعلِّم الصبر والتحمل، ويقوي العزيمة والإرادة، ويُمَرّن على ملاقاة الشدائد وتذليلها، والصعاب وتهوينها.

ومنها: حكم صِحِّيَّة، فإن المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء كما تقدم.

٣ - عقوبة من أفطر في رمضان من غير عذر:

ومَن ترَك صِيام رمضان بغير عذر فلا يخلو إمَّا أنْ يترُكَه جحودًا، أو كسَلًا، فإن تركه ترَكَه جُحودًا فهو كافر؛ لأنَّه أنكَر أمرًا مجمعًا معلومًا من الدِّين بالضَّرورة، ورُكنًا من أركان الإسلام، وأمَّا مَن ترَكَه كسَلًا فهو فاسق، وقد ورد في حقِّه وعيد شديد.

ويتساهَلُ البعضُ بتعمُّد الإفطار في رمضان، فيفطر أيامًا منه من غير عذر، ويفطر البعض رمضان كله وهو في عافية من الأمراض، وسلامة من الأعذار، ولكنه يتبع النفس والهوى والشيطان.

والأخطَرُ من ذلك مَن يُجاهِرُ بالإفطار في رَمضان منتهكًا حرمة الشهر، وحرمة المجتمع، فتجدُه يتحدَّى مشاعرَ المسلمين الصائمين، فيُدخِّن ويأكُل ويشرَب في العمل أو في الشارع.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**من أفطر يومًا من رمضان من غير رخصة من الله لقي الله به، وإن صام الدهر كله إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه**» (١).

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في (الكبائر): "وعند المؤمنين مقرر أن من ترك صوم رمضان بلا مرض ولا غرض (٢) أنه شر من الزاني، والمكَّاس، ومدمن الخمر، بل يشكون في إسلامه، ويظنون به الزندقة والانحلال"(٣).

وقد ورد الوعيد الشديد فيمن أفطر في نهار رمضان من غير عذر كما جاء في الحديث: عن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**بينا أنا نائم إذ أتاني رجلان فأخذا بِضَبْعَيَّ فأتيا بي جبَلًا وَعْرًا، فقالا لي: اصْعَدْ حتى إذا كنتُ في سَوَاءِ الجَبَل، فإذا أنا بِصَوْتٍ شَدِيد، فقلتُ: ما هذه الأصواتُ؟ قال: هذا عُوَاءُ أهلِ النّار، ثم انطَلَقَ بي فإذا أنا بقوم مُعَلَّقِينَ بِعَرَاقِيبِهِمْ، مُشَقَّقَة أَشْدَاقُهُمْ، تَسِيلُ أَشْدَاقُهُمْ دَمًا، فقلتُ: من هؤلاء؟ فقيل: هؤلاء الذين يُفطِرُونَ قَبْلَ تَحِلَّةِ صَوْمِهِمْ، ثم انطَلَقَ بي، فإذا بِقَوْم أشَدّ شيءٍ انْتِفَاخًا، وأَنْتَنِه رِيحًا، وأَسْوَئِهِ**

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في (مصنفه) [٧٤٧٦]، والطبراني في (الكبير) [٩٥٧٤]. قال الهيثمي (٣/١٦٨): "رواه الطبراني في (الكبير)، ورجاله ثقات".

(٢) أي: بلا عذر يبيح ذلك.

(٣) الكبائر، للذهبي (ص:١٥٧)، بتحقيق: مشهور بن حسن.

مَنْظَرًا، فقلت: من هؤلاء؟ قِيلَ: الزَّانُونَ وَالزَّوَانِي، ثم انْطَلَقَ بِي، فإذا بنسَاءٍ تَنْهَشُ ثَدْيَهُنَّ الحَيَّاتُ، قلتُ: ما بال هؤلاء؟ قيل: هَؤُلَاءِ اللَّاتِي يَمْنَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ أَلْبَانَهُنَّ، ثم انْطَلَقَ بِي، فإذا أنا بِغِلْمَانٍ يَلْعَبُونَ بين نَهْرَيْنِ، فقلتُ: من هؤلاء؟ فقيل: هؤلاء ذَرَارِيُّ المؤمنين، ثم شَرَفَ بِي شَرَفًا، فإذا أنا بثلاثةٍ يشربونَ من خَمْرٍ لهم، فقلتُ: من هؤلاء؟ قالوا: هذا إبراهيمُ، وموسى، وعيسى وهم ينتظرونكَ» (١).

والحديث يفيد الوعيد الشديد في حقِّ من أفطر في نهار رمضان من غير عذر، وأن العذاب واقع بهم، فيُرَوْنَ مُعلَّقين بعَراقِيبهم كما يُعلِّق الجزَّارُ الذبيحةَ، وقد شُقَّتْ أشداقهم، والدم يسيل منها.

وقوله: «**قَبْلَ تَحِلَّةِ صَوْمِهِمْ**» معناه: يفطرون قبل وقت الإفطار، أي: قبل تحقق دخول وقته.

قال الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذه عقوبة من صام ثم أفطر عمدًا قبل حلول وقت الإفطار، فكيف يكون حال من لا يصوم أصلًا؟! نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة"(٢).

قال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وظاهر أن مثل ذلك: ترك واجب مضيق من نذر وكفارة، فيكون كبيرة كالإفطار منه بغير عذر، وظاهر -والله أعلم- أن حكمة كثرة ما جاء من الوعيد في ترك الصلاة والزكاة دون الصوم: أنه لا يتركه كسلًا مع

(١) أخرجه: ابن خزيمة [١٩٨٦]، وابن حبان [٧٤٩١]، والطبراني [٧٦٦٧]، والحاكم [٢٨٣٧]، وقال: "حديث صحيح على شرط مسلم" ووافقه الذهبي.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٧/١٦٧١- ١٦٧٢).

القدرة عليه إلا الفذ النادر، بخلاف ترك الصلاة والزكاة فإنه كثير في الناس، بل أكثر الناس يتهاونون بالصلاة والزكاة، ومع ذلك يثابرون على الصوم، ومن ثم تجد كثيرين يصومون وهم لا يصلون وكثيرين لا يصلون إلا في رمضان دون غيره"(١).

أما عقوبة من أفطر عمدًا في رمضان من غير عذر في الدنيا فقد اختلف العلماء فيها، فقال الحنفية: إن تارك الصوم كتارك الصلاة، إذا كان عمدًا كسلًا، فإنه يحبس حتى يصوم. وقيل: يضرب في حبسه. كما جاء في (البحر): "والمفطر في رمضان يعزر ويحبس"(٢).

وقال الخطيب الشربيني الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ووجوبه معلوم من الدين بالضرورة، فمن جحد وجوبه فهو كافر، إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام، أو نشأ بعيدًا عن العلماء. ومن ترك صومه غير جاحد من غير عذر كمرض وسفر كأن قال: الصوم واجب عليَّ ولكن لا أصوم، حبس ومنع الطعام والشراب نهارًا؛ ليحصل له صورة الصوم بذلك"(٣).

وقال: أبو اسحاق الشيرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومن أفطر في رمضان بغير جماع من غير عذر وجب عليه القضاء، والإمساك بقية النهار؛ لأنه أفطر بغير عذر، فلزمه إمساك بقية النهار، ولا تجب عليه الكفارة، وإن بلغ ذلك السلطان عذَّره؛ لأنه محرَّم ليس فيه

---

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/٣٢٤).

(٢) البحر الرائق شرح كنز الدقائق (٥/٤٦)، وانظر: رد المحتار على الدر المختار (٤/٦٧).

(٣) الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع (١/٢٣٤) مغني المحتاج (٢/١٤٠)، حاشية البجيرمي على الخطيب (٢/٣٧٢)، نهاية الزين في إرشاد المبتدئين (ص:١٨٤).

حدٌّ ولا كفارة، فثبت فيه التعزيز، كالمباشرة فيما دون الفرج من الأجنبية"[1]. وبه قال أحمد وداود رَحِمَهُمَاٱللَّهُ[2].

وفي (منح الجليل): "وجب تأديب ومعاقبة الشخص المفطر في أداء رمضان عمدًا، اختيارًا، بلا تأويل قريب، بما يراه الإمام من ضرب، أو سجن، أو منهما معًا. وإن كان فطره بموجب حدٍّ كزنا وشرب مسكر حُدَّ وأُدِّب، وإن كان رجمًا قُدِّم الأدبُ. واستظهر بعضهم سقوط الأدب بالرجم؛ لإتيان القتل على الجميع"[3].

ومفهومه: أنه إن كان الحدُّ جلدًا، فإنه يُقدَّم على الأدب. فإن جاء المفطر عمدًا قبل الاطلاع عليه، حال كونه تائبًا، قبل الظهور عليه، فلا يؤدب [4].

وقال ابن جُزَي رَحِمَهُٱللَّهُ: "وأما العقوبة فهي للمنتهك لصوم رمضان، وذلك بقدر اجتهاد الإمام، وصورة حاله"[5]. ولعل هذا القول هو الأقرب إلى مقاصد التشريع.

---

(١) المهذب في فقه الإمام الشافعي (١/٣٣٦-٣٣٧)، وانظر: حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء (٣/١٦٥).

(٢) انظر: حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء (٣/١٦٥).

(٣) منح الجليل شرح مختصر خليل (٢/١٥٤)، وانظر: حاشية الدسوقي على الشرح الكبير (١/٥٣٧).

(٤) انظر: حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، للدردير (١/٥٣٧)، جواهر الإكليل (١/١٥٤)، منح الجليل (١/٤١٢-٤١٣)، شرح الزرقاني بحاشية البناني (٢/٢١٥-٢١٦).

(٥) القوانين الفقهية، لابن جزي الغرناطي (ص:٨٤).

٤ - الوقاية والعلاج من آفات الإفطار من غير عذر:

أ. العلم بأركان الإسلام، وأن الصيام رابعها.

ب. معرفة فضل الصيام، وأحكامه وآدابه، وتعليمها للأولاد والطلاب.

ج. العلم بعاقبة من ترك صيام شهر رمضان من غير عذر، أو ترك صيام يوم أو أيام منه من غير عذر.

د. مراقبة الله جَلَّوَعَلَا في سائر الأحوال، وأنْ يتذكَّر العبد أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ مُطَّلعٌ على السرائر.

هـ. تذكر الموت والآخرة.

و. الاستعانة على الصيام بالإكثار من النوافل.

ز. حضور مجالس العلماء التي تذكر بالآخرة، والتفقه في الدين، ومن ذلك: تعلم آداب الصيام وأحكامه.

ح. الاستعانة على الصيام بأكلة السَّحر:

جاء في الحديث: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تسحروا؛ فإن في السحور بركة**» (١).

ويستحب تأخير السحور؛ لأنه أقرب إلى حصول المقصود منه من حفظ القوى، والتقوي به على النشاط، كما جاء في الحديث: عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**تسحرنا مع النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **ثم قام إلى الصلاة**»، قلت: كم كان بين الأذان

(١) صحيح البخاري [١٩٢٣]، مسلم [١٠٩٥].

والسحور؟ قال: «**قدر خمسين آية**»[(١)]. وفي رواية: «**قدر خمسين أو ستين**»، يعني: آية[(٢)].

قال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فيه دليل على استحباب السحور للصائم. وتعليل ذلك بأن فيه بركة. وهذه البركة: يجوز أن تعود إلى الأمور الأخروية؛ فإن إقامة السنة توجب الأجر وزيادته. ويحتمل أن تعود إلى الأمور الدنيوية؛ لقوة البدن على الصوم، وتيسيره من غير إجحاف به. و(السحور) بفتح السين: ما يتسحر به. وبضمها الفعل. هذا هو الأشهر.

و(البركة) محتملة لأن تضاف إلى كل واحد من الفعل والمتسحر به معًا"[(٣)].

ط. تدريب الأولاد منذ الصغر على الصيام.

ي. الإكثار من الجلوس في المساجد:

---

(١) صحيح البخاري [١٩٢١]، مسلم [١٠٩٧].

(٢) صحيح البخاري [٥٧٥].

(٣) إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام (٢/٩). قال ابن الملقن: "ويجوز أن تكون البركة بمجموع الأمرين: وحاصل البركة في السحور يتنوع أنواعًا: **أولها**: اتباع السنَّة والاقتداء. **ثانيها**: مخالفة أهل الكتاب في الزيادة في الأكل على الإفطار. **ثالثها**: التقوي به والنشاط للصوم سيما الصبيان. **رابعها**: التسبب للصدقة على من يسأل إذ ذاك. **خامسها**: التسبب لذكر الله والدعاء وللرحمة فإنه وقت الإجابة. **سادسها**: التسبب في حسن الخلق؛ فإنه إذا جاع ربما ساء خلقه. **سابعها**: تجديد نية الصوم فيخرج من خلاف من أوجب تجديدها إذا نام ثم تنبه. ثم قال: أجمع العلماء على استحباب السحور، وأنه ليس بواجب، وإنما الأمر به أمر إرشاد، وهو من خصائص هذه الأمة". الإعلام بفوائد عمدة الأحكام، لابن الملقن (٥/١٨٧-١٨٨).

أخرج ابن أبي شيبة عن أبي المتوكل، أن أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأصحابه كانوا إذا صاموا جلسوا في المسجد (١). وقالوا: نطهر صيامنا (٢).

ي. صحبة الصالحين، وأصحاب الهمم، والبعد عن صحبة المجاهرين بالمعاصي.

ك. البعد عن أماكن الشبهات، والإعلام الهابط.

ل. الواجب على أفطر من رمضان من غير عذر، أن يتوبَ إلى الله جَلَّ وَعَلَا توبةً نصوحًا، وأن يندمَ على ما فات، ويعقد العزم على عدم العود، وأن يقضيَ الأيام التي أفطرها إذا كان الإفطارُ عاريًا عن الجماع، وإلا فإنه يقضي ويكفر.

م. مخالفة النفس والشيطان والهوى.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٨٨٨١].

(٢) حلية الأولياء (١/٣٨٢).

الركن الخامس: الحج:

١ - مكانة الحج وما جاء في فضله:

إن الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام -كما تقدم-، وشعيرة عظيمة من شعائر الله عَزَّوَجَلَّ.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران:٩٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج:٢٧-٣٢].

إن الله عَزَّوَجَلَّ قد فرض الحج إلى بيتِه العتيق لِحِكمٍ عظيمة، وأسرارٍ سامية، وغاياتٍ نبيلة، ينبغي على المسلم أن يعيَها؛ ليعظُم أجره، وليتمَّ عمله، وليحقق بذلك ما شُرع الحج لأجله من المقاصد العظيمة، والأهداف النبيلة.

الحجُّ فرضُ عين على كل مسلم ومسلمة، بالغ، عاقل، مستطيع، جاحده يكفر، وتاركه مع الاستطاعة يفسق، وهو الركن الخامس من أركان الإسلام -كما تقدم-.

وأكثر العلماء على أنه واجب على الفور لا على التراخي متى توفرت شروطه؛ لأن الإنسان لا يدري من مستقبل أيامه شيئًا، ولا يعلم ما يجد عليه من أمر الله عَزَّوَجَلَّ وقضائه، ولا يضمن لنفسه في مستقبل الأيام أجلًا ولا صحة ولا رزقًا.

ويجب على المسلم أن يحج مرة واحدة في عمره، فإذا بعد ذلك كان ذلك تطوعًا منه، وقد صحَّ في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: خطبنا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: «**أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج، فحجوا**»، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا، فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لو قلت: نعم لوجبت، ولما استطعتم**»، ثم قال: «**ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه**» (١).

وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن الأقرع بن حابس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ سأل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، الحج في كل سنة، أو مرة واحدة، قال: «**بل مرة واحدة، فمن زاد فهو تطوع**» (٢).

---

(١) صحيح مسلم [١٣٣٧].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [١٥٦٧٤]، وعبد بن حميد [٦٧٧]، وابن ماجه [٢٨٨٦]، وأبو داود [١٧٢١]، والدارقطني [٢٦٩٩]، والحاكم [٣١٥٥]، وقال: "حديث صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (الكبرى) [٨٦١٧] وغيره.

والحج أشهر معلومات، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة:١٩٧].

وفي (صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ): "باب قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة:١٩٧]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة:١٨٩]: وقال ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أشهر الحج: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: من السنة: أن لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج، وكره عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن يحرم من خراسان، أو كرمان"(١).

قال شمس الدين الكرماني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: (من السنة) أي: من الشريعة؛ إذ هو واجب ولا ينعقد الإحرام بالحج إلا في أشهره عند الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢)، وأما عند غيره: فلا يصح شيء من أفعال الحج إلا فيها"(٣).

---

(١) صحيح البخاري (٢/١٤١-١٤٢).

(٢) "فلو أحرم به في غير أشهره، كرمضان، انعقد عمرة عند الشافعية؛ لأن الإحرام شديد التعلق واللزوم، فإذا لم يقبل الوقت ما أحرم به انصرف إلى ما يقبله، وهو العمرة. وقال المالكية والحنفية: ينعقد حجًّا، ولا يصح شيء من أفعاله إلا فيها، لكنه يكره. قال الحنفية: لأنه لا يأمن في التقديم وقوع محظور. وقال المالكية: لأنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما أحرم به في أشهره" إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٣/١٢٤).

(٣) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (٨/٨٦).

وأجاز الحنفية الإحرام بالحج قبل أشهر الحج، مع الكراهة؛ لكون الإحرام شرطًا عندهم، فجاز تقديمه على الوقت، إلا أنه لا يجوز له شيء من أفعاله إلا في هذه الأشهر. فعلى هذا القول يكون معنى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾، أي: معظم الحج يقع في هذه الأشهر، كما جاء في الحديث: عن عبد الرحمن بن يعمر قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الحَجُّ عَرَفَةُ، من جاء ليلة جمع قبل طلوع الفجر فقد أدرك الحج. أيام منى ثلاثة،** ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:٢٠٣]»، وفي لفظ: «**الحج عرفات**» الحديث [(١)]، فقوله: «**الحج عرفة**» أي: عِمَادُه، وأعظم أركانه عرفة.

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾: (الرفث): الجماعُ، وما دونه من قول الْفُحْش.

﴿وَلَا فُسُوقَ﴾: يعني: السباب، أو التنابز بالألقاب، أو المعاصي كلها.

والحج عبادة وليس عادة، ومما يؤسف له أن كثيرًا من الناس قد حرَّفوا أوامر ربهم، فحوَّلوا العبادة إلى عادة، وصيَّروا الدِّين مجرَّد أشكالٍ ومظاهر، وذلك بإفراغهم العبادات عن معانيها الجوهرية. أصبحت اليوم عند الكثيرين مظهرًا للتباهي والتفاخر، والتمتع بالألقاب، ووسيلة سهلة لإيهام الناس بورع صاحبها، وليس هذا مقصد العبادة، بل هو على النقيض مما شرعت العبادة لأجله.

---

(١) أخرجه أحمد، وأصحاب السنن، وقال الترمذي: "حسن صحيح"، كما أخرجه ابن حبان، والحاكم، والدارقطني، والبيهقي، كلهم من حديث: عبد الرحمن بن يعمر الديلمي. وقد تقدم تخريجه مفصلًا.

فالحج -مثلًا- بمثابة عملية تطهير كاملة للإنسان مما اقترفه من ذنوب وآثام. وأيُّ منفعةٍ أعظمُ مِنْ أن يرجعَ العبدُ مِن ذنوبِه كيوم ولدتْه أمُّه، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من حَجَّ هذا البيت، فلم يَرْفُثْ، ولم يَفْسُقْ، رجع كما وَلَدَتْهُ أُمُّه»**[1]، فقد تعلَّم الحاجُّ من تلك الرحلة ما تعلَّم، وتركت في نفسه من الآثار ما تركت، وهو يجدد فيها علاقته مع الله عَزَّ وَجَلَّ، وينعكس ذلك على سلوكه مع الخلق.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«العُمْرَةُ إلى العُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لما بينهما، وَالحَجُّ المبرور ليس له جزاءٌ إلَّا الجنَّة»**[2].

وسيأتيك بيان المراد من (الحج المبرور)، والمراد من (بر الحج) في (أعمال البر).

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«تابعوا بين الحَجِّ والعُمْرَة؛ فإنهما ينفيان الفَقْرَ وَالذُّنوب، كما ينفي الكيرُ خَبَثَ الحديد، والذَّهب، والفِضَّة، وليس لِلْحَجَّة المَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إلَّا الجنَّة»**[3].

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«تابعوا بين الحَجِّ والعُمْرَة»** أي: قاربوا بينهما، إما بِالْقِرَانِ، أو بفعل أحدهما بعد الآخر، فإذا اعتمرتم فحجوا، وإذا حججتم فاعتمروا.

---

(١) صحيح البخاري [١٥٢١، ١٨١٩، ١٨٢٠]، مسلم [١٣٥٠].

(٢) صحيح البخاري [١٧٧٣]، مسلم [١٣٤٩].

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة [١٢٦٣٨]، وأحمد [٣٦٦٩]، والترمذي [٨١٠] وقال: "حسن صحيح غريب". وأخرجه: البزار [١٧٢٢]، والنسائي [٢٦٣١]، وأبو يعلى [٤٩٧٦]، وابن خزيمة [٢٥١٢]، وابن حبان [٣٦٩٣]، والطبراني [١٠٤٠٦]، وأبو نعيم في (الحلية) (٤/١١٠). وللحديث طرق أخرى.

«**فإنهما**» أي: الحج والاعْتِمَار.

«**ينفيان الفَقْر**» أي: يزيلانه، وهو يحتمل الفقر الظاهر، بحصول غنى اليد، والفقر الباطن، بحصول غنى القلب، ويحتمل كليهما.

«**والذُّنُوب**» أي: يمحوانها.

«**كما يَنْفِي الْكِيرُ**»، وهو ما ينفخ فيه الحداد؛ لاشتعال النار؛ للتصفية.

«**خبَثَ الحديد والذَّهب والفضَّة**» أي: وسخها المشبه بوسخ المعصية.

والحج وسيلة لتعارف المسلمين وتعاونهم على اختلاف أقطارهم، وألوانهم، ولغاتهم، يتبادلون أواصر المحبة والإخاء، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ [الحج:٢٨].

وإن من أعظم مقاصد الحج: تحقيق توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وإخلاص العبودية له، والبراءة من الشرك ومظاهره، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج:٢٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج:٣١].

وفي الحديث: عن عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أن تلبية رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَبَّيْكَ اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك**» (١).

---

(١) صحيح البخاري [١٥٤٩]، مسلم [١١٨٤].

وإن من أعظم مقاصد الحج: تحقيق تقوى الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولذا تكررت الوصية بالتقوى في آيات الحج من (سورة البقرة)، و(سورة الحج)، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة:١٩٧].

ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج:٣١-٣٧].

ويشرع الاستغفار في الحجِّ، وعقب إكمال أعماله؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٩٩]؛ والمؤمن يحرص أن يكون عمله خالصًا لله عَزَّوَجَلَّ، فهو يستغفر الله عَزَّوَجَلَّ من أيِّ تقصير، أو نقص.

وسيأتي بيان ذلك في (الاستغفار).

وإن من أعظم مقاصد الحج: إقامة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولذا تكررت الوصية بذكره جَلَّوَعَلَا في آيات الحج في (سورة البقرة)، وفي سورة الحج، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٖ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾ [البقرة:١٩٨]، وقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًاۗ﴾ [البقرة:٢٠٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعْدُودَٰتٖۚ﴾ [البقرة:٢٠٣]، وقال: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ [الحج:٢٨].

وفي الحَجِّ: تهذيبٌ للنفوس، وتكميلها بالأخلاق الفاضلة، وتطهيرٌ للقلوب من الأحقادِ والأهواء، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٞ مَّعْلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّۗ﴾ [البقرة:١٩٧].

ومن مقاصد الحج العظيمة: استشعار منَّة الله عَزَّوَجَلَّ على عبده بالهداية، والتوفيق للطاعة، ولا سيما لأداء هذا الركن العظيم، والعمل الجليل، والسلامة من اتباع طرق أهل الضلال، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾ [البقرة:١٩٨].

ويشرع في أيام الحج المباركة: ذكرُ الله عَزَّوَجَلَّ، وشكرُه على ما رزق من بهيمة الأنعام، كما يشرع: التهليل، والتكبير، والتحميد؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ٢٨﴾ [الحج:٢٧-٢٨].

وفي الحديث: «**مَا مِنْ أَيَّامٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ، وَلَا أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْعَمَلِ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ، فَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّهْلِيلِ، وَالتَّكْبِيرِ، وَالتَّحْمِيدِ**»(١).

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: واذكروا الله في أيام معلومات: أيام العشر، والأيام المعدودات: أيام التشريق. وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يخرجان إلى السوق في أيام العشر يكبران، ويكبر الناس بتكبيرهما. وكبر محمد بن علي خلف النافلة. وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يكبر في قبته بمنى فيسمعه أهل المسجد، فيكبرون ويكبر أهل الأسواق حتى ترتج منى تكبيرًا، وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يكبر بمنى تلك الأيام، وخلف الصلوات، وعلى فراشه، وفي فسطاطه ومجلسه، وممشاه تلك الأيام جميعًا، وكانت ميمونة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: تكبر يوم النحر، وكن النساء يكبرن خلف أبان بن عثمان، وعمر بن عبد العزيز ليالي التشريق مع الرجال في المسجد"(٢).

وفي الحج تجديد الصلة بإمام الملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج:٧٨]، عندما أتم بناء الكعبة أمره الله عَزَّ وَجَلَّ أن يؤذن في الناس بالحج، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا

---

(١) الحديث مروي عن ابن عباس، وعن ابن عمر: حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الطبراني [١١١١٦]، قال الهيثمي (١٦/٤): هو في (الصحيح) باختصار التسبيح، وغيره. رواه الطبراني في (الكبير)، ورجاله رجال الصحيح". مجمع الزوائد (١٦/٤-١٧). حديث: ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أخرجه ابن أبي شيبة [١٣٩١٩]، وأحمد [٥٤٤٦]، وعبد بن حميد [٨٠٧]، وأبو عوانة في (مستخرجه) [٣٠٢٤]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٤٧٥]. قال البوصيري في (إتحاف الخيرة) (١٧٠/٣-١٧١): "رواه أبو بكر بن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو يعلى، والبيهقي في (الشعب) بسند صحيح".

(٢) صحيح البخاري (٢٠/٢).

وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج:٢٦]. قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ أي: أريْناهُ أصلهُ؛ لِيَبْنِيَه، وكان قد دَرَسَ بالطُّوفان وغيره.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج:٢٧]، أي: يأتوك مشاة على أقدامهم أو ركبانًا على جمل هزيل قد أتعبه وأنهكه بعد المسافة. ﴿يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾﴾: من كل طريق بعيد.

وقد كان السابقون يتكبدون مشاق السفر ومخاطره لأجل أداء هذا الركن العظيم. ذكر بعض المفسرين: عن محمد بن ياسين القاضي أنه قال: رأيت في الطواف كهلًا قد أجهدته العبادة، واصفرَّ لونه، وبيده عصًا وهو يطوف معتمدًا عليها، فتقدَّمت إليه وجعلت أسائله فقال لي: من أين أنت؟ قلت: من خراسان قال: في أي ناحية تكون خراسان؟ -كأنَّه جهلها- قلت: ناحية من نواحي المشرق، فقال: في كم تقطعون هذا الطريق؟ قلت: في شهرين وثلاثة أشهر، قال: أفلا تحجُّون كلَّ عام فأنتم من جيران هذا البيت؟ فقلت له: وكم بينكم وبين هذا البيت؟ فقال: مسيرة خمس سنوات، خرجت من بلدي ولم يكن في رأسي ولحيتي شيبٌ، خرجت وأنا شاب فاكتهلت. فقلت: هذا والله الجهد البيّن والطاعة الجميلة والمحبة الصادقة، فضحك في وجهي، وأنشأ يقول:

زُرْ مَن هَوَيْتَ وإن شطتْ بِكَ الدارُ ... وحالَ من دُونه حُجُبٌ وأستارُ
لا يَمْنَعَنَّكَ بُعْدٌ عنْ زِيارته ... إنَّ الْمُحبَّ لمنْ يهواه زوَّارُ (١)

(١) انظر: تفسير الثعلبي (الكشف والبيان) (١٩/٧)، تفسير النسفي (٤٣٦/٢). وانظر: زهر الأكم في الأمثال والحكم، للحسن بن مسعود اليوسي (١٤٤/١).

وعن علي بن عبد الحميد الغضائري الحلبي، يقول: سمعت سَرِيًّا السَّقَطِيَّ، ودققت عليه الباب فقام إلى عِضَادَتِيَ الباب فسمعته يقول: اللهم اشغل من شغلني عنك بك، فكان من بركة دعائه أني حججت أربعين حجة من حلب على رجلي ماشيًا ذاهبًا وجائيًا [1].

ومن حكم الحج: أنه إذا رأى في ذلك الموقف ازدحام الخلق، وارتفاع الأصوات فإنه يتذكر مشهدًا من مشاهد يوم القيامة، عندما يساق الناس حفاة عراة على أرض بيضاء عفراء، ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه:١٠٦-١٠٧].

وعندما يلبس ثياب الإحرام يتذكر الكفن والموت، أكبر واعظ قدره الله عَزَّوَجَلَّ على مخلوقاته.

وفي رمي الجمار يتذكر قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وهذه الذكرى من أهم مقاصد الحج؛ لأن فيها تجديد الصلة بإمام الملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإن أشد المواطن اتصالًا بهذه الذكرى رمي الجمار، حيث ظهر الشيطان لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يوسوس له، ويحاول أن يصرفه عن امتثال أمر الله عَزَّوَجَلَّ عندما أمره بذبح ولده إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ففتح له كل باب لمعاودة النظر في ذلك الأمر الإلهي، بقصد التأويل بما لا يحقق طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ اتجه بكل عزمه إلى تنفيذ أمر الله عَزَّوَجَلَّ، ولعن الشيطان وزجره.

---

(١) حلية الأولياء، لأبي نعيم (١٠/١١٧)، صفة الصفوة (٢/٣٩٢)، سير السلف الصالحين، لإسماعيل بن محمد الأصبهاني (ص:١١٤١)، طبقات الأولياء، لابن الملقن (ص:١٦٤).

٢ – الوقاية من آفات التسويف في أداء ركن الحج:

أ. إن من أخطر أمراض النفس: التسويف، وهو تأجيل الأعمال، ومن ذلك: تأجيل أداء الواجبات والحقوق مع القدرة، ويقابله: المبادرة والمسارعة على الفور عند الاستطاعة، والمسوف ربما يفوت أداء ركن الحج؛ لأن الإنسان لا يملك رزقًا، ولا صحَّة، ولا أجلًا، وهو لا يأمن بعد أن كان قادرًا أن تمنعه النوازل أو الآفات عن أداء ركن الحج.

وفي الحديث: «**استمتعوا من هذا البيت؛ فإنه قد هدم مرتين، ويرفع في الثالثة**» (١).

والأمر بالاستمتاع به يشمل: النظر إليه، والطواف به، والصلاة فيه، وهذه من منافع الحج والعمرة التي تترك أثرًا عظيمًا في النفس، فينبغي على طالب الهداية والنجاة، القادر على أداء ركن الحج: أن يعجل، وأن لا يؤجل ويسوف، فربما تمنعه الآفات أو النوازل على أداء الحج، فيفوته ذلك الركن العظيم، وما فيه من الخير.

والتَّسويف يؤول في كثير من الأحيان إلى تخلُّفِ العبد عن أداء الحقوق والواجبات، وهو من أسباب الإخفاق، والقصور عن طلب المعالي، وعن المنافسة في فعل الخير.

---

(١) أخرجه البزار [٦١٥٧]، وابن خزيمة [٢٥٠٦]، وابن حبان [٦٧٥٣]، والطبراني في (الكبير) [١٤٠٣٣]، والحاكم [١٦١٠]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضا: أبو نعيم في (تاريخ أصبهان) (٢٠٣/١)، والضياء في (المختارة) [٢٢٤]. قال الهيثمي (٢٠٦/٣): "رواه البزار والطبراني في (الكبير)، ورجاله ثقات". وذكره ابن أبي شيبة [١٤١٠٨] موقوفًا.

والتسويف من أسباب سوء العاقبة، والندم في وقت لا ينفع فيه، كما نبَّه الحق جَلَّ وَعَلَا إلى ذلك في غير آية، ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾ [النساء:٤٧]، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]، وقوله: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾ [إبراهيم:٣١]، وقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الروم:٤٣]، وقوله: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزمر:٥٤-٥٩]، وقوله: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [الشورى:٤٧]، وقوله: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون:١٠-١١].

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ العباد بالمسارعة إلى فعل الخيرات، واتقاء المحظورات؛ لنيل القربات، وإدراك جنته التي عرضها الأرض والسماوات، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران:١٣٣]، فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ﴾ أي: بادروا وأقبلوا. ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: إلى ما يستحق به العبد المغفرة، كالإسلام، والطاعة، والتوبة، والإخلاص. وقد بين الله عَزَّوَجَلَّ صفات أولئك الذين يستحقون هذه المغفرة، وهذا الإكرام عقب هذه الآية، حيث قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾ [آل عمران:١٣٤-١٣٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ [الحديد:٢١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾ [فاطر:٣٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ١٢﴾ [الواقعة:١٠-١٢]، والسابقون هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا.

وينبغي على من أراد السلامة والعافية والنجاة: أن يبادر إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة:

وقد قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاثًّا أُمَّتَه على المبادرة والمسارعة إلى الخيرات قبل فوات الأوان: «**بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا**» (١).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "معنى الحديث: الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة، كتراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر..."(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بادروا بالأعمال ستًّا: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم أو أمر العامة**» (٣).

قال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللهُ في (المفهم): "قوله: قوله: «**خاصة أحدكم**» يعني: الموانع التي تخصه مما يمنع العمل، كالمرض، والكِبَر، والفقر المنسي، والغنى المطغي، والعيال والأولاد، والهموم والأنكاد، والفتن والمحن.. إلى غير ذلك مما لا يتمكن الإنسان مع شيء منه من عمل صالح، ولا يسلم له، وهذا المعنى هو الذي فصله في حديث آخر، حيث قال: وفي الحديث: «**اغتنم خمسًا قبل خمس: حياتك قبل موتك،**

---

(١) صحيح مسلم [١١٨].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٣٣/٢).

(٣) صحيح مسلم [٢٩٤٧].

وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك» [1]. قوله: «**أمر العامة**»: يعني: الاشتغال بهم فيما لا يتوجه على الإنسان فرضه؛ فإنهم يفسدون من يقصد إصلاحهم، ويهلكون من يريد حياتهم، لا سيما في مثل هذه الأزمان التي قد مرجت فيها عهودهم، وخانت أماناتهم، وغلبت عليهم الجهالات والأهواء، وأعانهم الظلمة والسفهاء"[2].

فإذا كانت الفتن واقعة لا محالة فإن الاستعداد لها يكون بالعلم والعمل، والعلم يبصر المسلم بصور الفتن وأنواعها، فلا يسقط فيها، بل يبادر إلى الأعمال الصالحة، ويسأل الله عَزَّوَجَلَّ السلامة والعافية.

---

(١) الحديث مروي عن ابن عباس، وعن عمرو بن ميمون مرسلًا. حديث ابن عباس: أخرجه الحاكم [٧٨٤٦] وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٩٧٦٧] وقال البيهقي: "هكذا وجدته في كتاب: (قصر الأمل)، وكذلك رواه غيره عن ابن أبي الدنيا، وهو غلط، وإنما المعروف بهذا الإسناد ما أخبرنا...فذكر حديث: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس..» الحديث. قال البيهقي: وأما المتن الأول، يعني: حديث: (اغتنم خمسًا) فعبد الله بن المبارك إنما رواه في كتاب عن جعفر بن برقان، عن زياد بن الجراح، عن عمرو بن ميمون الأودي مرسلًا. حديث عمرو بن ميمون المرسل: أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [٢]، وابن أبي شيبة [٣٤٣١٩]، والنسائي في (الكبرى) [١١٨٣٢]، وأبو نعيم في (الحلية) (٤/١٤٨)، والقضاعي [٧٢٩]. والبيهقي في (الآداب) [٨٠٩]، قال الحافظ في (الفتح) (١١/٢٣٥): "أخرجه ابن المبارك في (الزهد) بسند صحيح من مرسل: عمرو بن ميمون". وقال العراقي: "إسناده حسن". وعزاه العجلوني (١/١٦٧) لأحمد في (الزهد) والبيهقي عن عمرو بن ميمون مرسلًا.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/٣٠٨-٣٠٩).

والمراد من هذا أن هذه الأشياء كلها تعوق عن الأعمال، فبعضها يشغل عنه، إما في خاصة الإنسان، كفقره وغناه ومرضه وهرمه وموته، وبعضها عام، كقيام الساعة، وخروج الدجال، وكذلك الفتن المزعجة كما جاء في حديث: «**بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم**» (١).

عن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: "إياك والتسويف؛ فإنك بِيَوْمِكِ ولسْتَ بِغَدِكَ.."(٢).

وأوصى بعض الحكماء ابنه، فقال له: يا بني! إياك والتسويف لما تهم به من فعل الخير؛ فإن وقته إذا زال لم يعد إليك، واحذر طول الأمل؛ فإنه هلاك الأمم (٣).

ب. إن من يثق بالله عَزَّوَجَلَّ يعلم أن ما ينفقه في الحج والعمرة فإن الله عَزَّوَجَلَّ سيخلفه، وقد أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما تقدم- «**أن الحج والعمرة ينفيان الفقر والذنوب..**»، فالحج من أسباب غنى اليد والنفس، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾ [الطلاق:٢-٣].

---

(١) جامع العلوم والحكم (٣٨٨/٢).

(٢) الزهد والرقائق، لابن المبارك [٨] (٤/١)، الزهد، لهناد [٥٠٢] (٢٨٩/١)، قصر الأمل، لابن أبي الدنيا [٢١٩] (١٤٤/١).

(٣) المجالسة وجواهر العلم (١٦٦/٥)، قصر الأمل، لابن أبي الدنيا [٢١٨] (١٤٤/١).

وفي الحديث: «**من كانت الآخرة هَمَّهُ جعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ في قلبه وجَمَعَ له شَمْلَهُ، وأَتَتْهُ الدُّنيا وهي رَاغِمَة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وَفَرَّقَ عليه شَمْلَهُ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له**»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الله تعالى يقول: يا ابن آدم تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي؛ أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى، وأَسُدَّ فَقْرَكَ، وإلَّا تَفْعَلْ؛ مَلَأْتُ صَدْرَكَ شُغْلًا، ولم أَسُدَّ فَقْرَكَ**»(٢). وعند الحاكم والبيهقي رَحِمَهُمَا اللَّهُ: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠﴾ [الشورى:٢٠]، ثم قال: «**يقول الله** عَزَّوَجَلَّ: **ابن آدم، تفرغ لعبادتي..**» الحديث.

قوله: "«**تفرغ لعبادتي**» أي: تفرغ من مهامك لعبادتي حتى أقضي مهامك، ومن كان الله عَزَّوَجَلَّ قاضيًا لمهامه يستغني به عن خلقه؛ لأنه الغني على الإطلاق، وهو المعنى بقوله: «**أملأ صدرك غِنًى**»، وإن لم تتفرغ، واشتغلت بغيري لم أسد فقرك؛ لأن

---

(١) الحديث مروي عن أنس، وعن زيد بن ثابت. حديث أنس: أخرجه هناد (٢/٣٥٥)، والترمذي [٢٤٦٥]، وأبو نعيم في (الحلية) (٦/٣٠٧). حديث زيد بن ثابت: أخرجه الطيالسي [٦١٧]، وأحمد [٢١٥٩٠]، وابن ماجه [٤١٠٥]. وابن حبان [٦٨٠]، والطبراني في (الكبير) [٤٨٩١]، وتمام [١٤٦١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٨٥٥]. قال العراقي في (المغني عن حمل الأسفار) (ص:١٧٣٢): "أخرجه ابن ماجه من حديث: زيد بن ثابت بإسناد جيد".

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٤٦٩٩]، وأحمد [٨٦٨١]، وابن ماجه [٤١٠٧]، والترمذي [٢٤٦٦] وقال: "حسن غريب". كما أخرجه: ابن حبان [٣٩٣]، والحاكم [٣٦٥٧]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٩٨٥٦].

الخلق فقراء على الإطلاق، فيزيد فقرك على فقرك وهو المراد بقوله: «**ملأت يدك شُغْلًا**»، فاليد عبارة عن سائر جوارحه؛ لأن معظم الكسب إنما يتأتى من اليد"(١).

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ما أُبَالِي على أَيِّ حالٍ أَصْبَحْتُ، على ما أُحِبُّ أو على ما أَكْرَهُ، لِأَنِّي لا أَدْرِي الْخَيْرَ فيما أُحِبُّ أو فيما أَكْرَهُ**» (٢).

ج. معالجة أمراض النفس من نحو: التسويف، والبخل، والتي قد تمنع الإنسان من فعل الخير، وتحمله على ترك ما يجب عليه من واجبات.

د. العلم بأركان الإسلام، ومكانتها، وأن الحج خامسها.

هـ. معرفة فضل الحج، وأحكامه، وآدابه.

و. العلم بعاقبة من ترك الحج من غير عذر.

ز. صحبة الصالحين، وأصحاب الهمم العالية.

ح. التأمل في هِمم السلف الصالح، وما كانوا يكابدون من المشاق لأجل أداء ركن الحج، ومسارعتهم إلى فعل الخيرات، واغتنام الأوقات، وعمارتها بالطاعات.

ط. مخالفة النفس والشيطان والهوى.

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٠/٣٢٨٢).

(٢) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [٤٢٥]، وأبو داود في (الزهد) [٩٦]، والدولابي في (الكنى والأسماء) [٩٦]، وانظر: شرح السنة، للبغوي (١٤/٣٠٦)، إحياء علوم الدين (٤/٣٤٦).

عاشرًا: مكانة العبادات القلبية:

إن من عيوب النفس: اشتغالها بإصلاح الظَّاهِر الذي هو موضع نظر الخلق، وغفلتها عن إصلاح الباطن الذي هو موضع نظر الله عَزَّوَجَلَّ، والذي هو أولى بالإصلاح من الظَّاهِر. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء:١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ [الحجرات:١١].

وقد أخرج (مسلم) من حديث: أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم**»، وأشار بأصابعه إلى صدره(١).

وفي رواية عند (مسلم) أيضًا: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»(٢).

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُٱللَّهُ: "ويستفاد من هذا الحديث فوائد:

إحداها: صرف الهمة إلى الاعتناء بأحوال القلب وصفاته، بتحقيق علومه، وتصحيح مقاصده وعزومه، وتطهيره عن مذموم الصفات، واتصافه بمحمودها، فإنَّه لما كان القلب هو محل نظر الله عَزَّوَجَلَّ، فحق العالم بقدر اطلاع الله عَزَّوَجَلَّ على قلبه أن

---

(١) صحيح مسلم (٣٣) [٢٥٦٤].

(٢) صحيح مسلم (٣٤) [٢٥٦٤].

يفتش عن صفات قلبه وأحوالها؛ لإمكان أن يكون في قلبه وصف مذموم يمقته الله عَزَّوَجَلَّ بسببه.

الثانية: أن الاعتناء بإصلاح القلب وبصفاته مقدم على الأعمال بالجوارح؛ لتخصيص القلب بالذكر مقدمًا على الأعمال، وإنَّما كان ذلك لأن أعمال القلوب هي المصححة للأعمال؛ إذ لا يصح عمل شرعي إلا من مؤمن عالم بمن كلفه، مخلص له فيما يعمله، ثمَّ لا يكمل ذلك إلا بمراقبة الحق فيه، وهو الذي عبر عنه بالإحسان، حيث قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه**»(١)، وقد تقدَّم قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**» (٢).

الثالثة: أنه لما كانت القلوب هي المصححة للأعمال الظاهرة، وأعمال القلب غيب عنا، فلا يقطع بمغيب أحد؛ لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة، فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله عَزَّوَجَلَّ من قلبه وصفًا مذمومًا لا تصح معه تلك الأعمال، ولعل من رأينا عليه تفريطًا أو معصية يعلم الله من قلبه وصفًا محمودًا يغفر له بسببه، فالأعمال أمارات ظنية لا أدلة قطعية، ويترتب عليها: عدم الغلو في تعظيم من رأينا عليه أفعالًا صالحة، وعدم الاحتقار لمسلم رأينا عليه أفعالًا

(١) صحيح البخاري [٥٠، ٤٧٧٧]، مسلم [٨، ٩، ١٠].

(٢) صحيح البخاري [٥٢]، مسلم [١٥٩٩]، وقد تقدم.

سيئة، بل تحتقر وتذم تلك الحالة السيئة، لا تلك الذات المسيئة، فتدبر هذا؛ فإنَّه نظر دقيق"(١).

"فيا عجبًا ممن يهتم بوجهه الذي هو نظر الخلق فيغسله وينظفه من القذر والدنس، ويزينه بما أمكن؛ لئلا يطلع فيه مخلوق على عيب، ولا يهتم بقلبه الذي هو محلُّ نظر الخالق جَلَّ وَعَلَا، فيطهره ويزينه؛ لئلا يطلع ربه جَلَّ وَعَلَا على دنس أو غيره فيه"(٢).

وفي (لمعات التنقيح): "أن قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله لا ينظر**» أي: نظر الرحمة. «**إلى صوركم**» المجردة عن السيرة المرضية. «**وأموالكم**» العارية عن الخيرات والإنفاق في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ. «**ولكن ينظر إلى قلوبكم**» التي هي محل التقوى. «**وأعمالكم**» التي يتقرب بها إليه جَلَّ وَعَلَا"(٣). وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "نظر الله عَزَّوَجَلَّ: مجازاته ومحاسبته، فلا يكون إلا على القلوب دون الصور الظاهرة"(٤).

ومما يدل كذلك على أنه لا ينبغي أن يُقْطَعَ بعيب أحد؛ لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة الظاهرة، أو المخالفة الظاهرة: حديث: أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بالأبواب، لو أقسم على الله لَأَبَرَّهُ**»(٥).

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس القرطبي (٦/٥٣٨-٥٣٩)، وانظر: تفسير أبي عبد الله القرطبي (١٦/٣٢٦-٣٢٧).

(٢) انظر: فيض القدير (٢/٢٧٧).

(٣) لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح (٨/٥٢٣).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/١٢١).

(٥) صحيح مسلم [٢٦٢٢، ٢٨٥٤].

وفي رواية: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كم من أشعث أغبر ذي طِمْرَيْنِ، لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم: البراء بن مالك**» (١).

و(الأشعث) يعني: مغبر الرأس، ومتفرق الشعر. قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: هو "الْمُلَبَّدُ الشَّعر، الْمُغَبَّرُ، غير مدهون ولا مرجل.

و«**مدفوع بالأبواب**» أي: لا قَدْرَ له عند الناس، فهم يدفعونه عن أبوابهم، ويطردونه عنهم؛ احتقارًا له.

«**لو أقسم على الله لَأَبَرَّهُ**» أي: لو حلف على وقوع شيء أوقعه الله عَزَّوَجَلَّ؛ إكرامًا له بإجابة سؤاله، وصيانته من الحنث في يمينه، وهذا لعظم منزلته عند الله عَزَّوَجَلَّ، وإن كان حقيرًا عند الناس. وقيل: معنى القسم هنا: الدعاء، وإبراره: إجابته"(٢).

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ عمن زين ظاهره وأهمل باطنه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة:٥]، فهؤلاء زينوا ظواهرهم، وأهملوا بواطنهم، فتعهدوا الأعمال الظاهرة، وما تعهدوا القلوب، مع أن القلب هو الأصل؛ إذ لا ينجو يوم القيامة ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٩].

فالقلوب هي محلُّ التقوى، وأوعية الجواهر، وكنوز المعرفة، وميزان التفاضل بين الخلق، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا

---

(١) أخرجه الترمذي [٣٨٥٤]، وقال: "حسن غريب من هذا الوجه". و«ذي طمرين» -بكسر فسكون- تثنية: طمر، وهو الثوب الخلق. و«لا يؤبَهُ له»، أي: لا يبالى به، ولا يلتفت إليه لحقارته.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/١٧٤-١٧٥)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (٨/٤٩).

وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات:١٣]. وعمارة القلب هي العمارة النافعة، والميت في قبره كذلك، ليست بزخرفة القبر، ولا التربة، ولا تزويقها، وإنما العمارة بالصدقة عن ساكنها، وأفعال القرب عنه(١).

فالتقوى محلُّها القلب، وتظهرُ آثارها على الجوارح بعمل الطاعات، والانكفاف عن المحرمات.

وفي الحديث: «**المسلم أخو المسلم، لا يَظْلِمُهُ، ولا يَخْذُلُهُ، ولا يَحْقِرُهُ، التقوى هاهنا**»، ويشير إلى صدره ثلاث مرات(٢).

فإذا برَّ القلبُ واتقى برَّت الجوارح، وإذا فجرَ القلب، فجرت الجوارح. وفي ذلك ما يدل على أنَّ ميزان التفاضل بين الخلق، وما يحدد مدى قربهم من الله عَزَّوَجَلَّ، وإكرام الله عَزَّوَجَلَّ لهم إنما هو بحسب تقواهم، فربَّ من يحتقره الناس لضعفه، وقلة حظِّه من الدُّنيا هو أعظم قدرًا عند الله عَزَّوَجَلَّ ممن له قدر في الدنيا، فإنما الناس يتفاوتون بحسب التقوى.

وصلاح القلب إنما يكون بالعقيدة الصحيحة، والأخلاق الفاضلة، وسلوك طريق الاستقامة، والسلامة من الزيغ.

قال الشيخ عبد الحميد بن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ليس المقصود من القلب: مادته وصورته، وإنما المقصود: النفس الإنسانية المرتبطة به.

---

(١) تسلية أهل المصائب (ص:١٩٠).

(٢) صحيح مسلم (٣٢) [٢٥٦٤].

وللنفس ارتباط بالبدن كله، ولكن القلب عضو رئيسي في البدن، ومبعث دورته الدموية، وعلى قيامه بوظيفته تتوقف صلوحية البدن، لارتباط النفس به، فكان حقيقًا لأن يعبر به عن النفس على طريق المجاز.

وصلاح القلب -بمعنى: النفس- بالعقائد الحقة، والأخلاق الفاضلة، وإنما يكونان بصحة العلم، وصحة الإرادة، فإذا صلحت النفس هذا الصلاح صلح البدن كله، بجريان الأعضاء كلها في الأعمال المستقيمة. وإذا فسدت النفس من ناحية العقد، أو ناحية الخلق، أو ناحية العلم، أو ناحية الإرادة، فسد البدن، وجرت أعمال الجوارح على غير وجه السداد.

فصلاح النفس هو صلاح الفرد، وصلاح الفرد هو صلاح المجموع، والعناية الشرعية متوجهة كلها إلى إصلاح النفوس، إما مباشرة وإما بواسطة. فما من شيء مما شرعه الله عَزَّوَجَلَّ لعباده من الحق والخير والعدل والإحسان إلا وهو راجع عليها بالصلاح. وما من شيء نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه من الباطل والشر والظلم والسوء إلا وهو عائد عليها بالفساد.

فتكميل النفس الإنسانية هو أعظم المقصود من إنزال الكتب، وإرسال الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وشرع الشرائع"(١).

---

(١) آثار ابن باديس (١/٢٣٢-٢٣٣)، تفسير ابن باديس (ص:٧٣-٧٤).

فينبغي على الإنسان أن يشتغل بتحسين ظاهره بالأعمال الصالحة، وباطنه بالإخلاص، فإنه محل نظر الله عَزَّوَجَلَّ منه، فلا عبرة بحسن الظاهر، وزخرف اللسان، مع خبث الجنان.

إن أعمال القلوب لها منزلة عظيمة، وثواب جزيل، وهي مقدمة على على أعمال الجوارح؛ وأعمال الجوارح تابعة لها، ومبنيَّةٌ عليها، ولهذا يُقال: القلبُ ملكُ الأعضاء، وبقيةُ الأعضاء جنوده.

فإذا كان يجب على المؤمن أن يطهر ظاهره، فباطنه أحق بذلك وأولى، كما دلت على ذلك النصوص، نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنفال:١١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢٢].

فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ يعني: من الذنوب. و﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ أي: من الأقذار، فالتطهر شامل للطهارتين الحسية والمعنوية، أي: المتطهرين من الأقذار والأحداث، ومن الفواحش والمنكرات.

وإن أعمال القلوب هي التي تبعثُ على الأعمال الصالحة، وتُرغِّب في الدار الآخرة، وتزجُر عن الأعمال السيئة، وتُزهِّدُ في الدنيا، وتكبَحُ جماحَ النفس العاتية.

ومعنى استقامة القلب: توحيده لله عَزَّوَجَلَّ، وتعظيمه، ومحبته، وخوفه ورجاؤه، ومحبة طاعته، وبُغض معصيته.

فأعمال القلوب -كما تقرَّر في غير موضع- أشرف عند الله عَزَّوَجَلَّ من أعمال الجوارح؛ لأن القلب محلُّ نَظَر الحقِّ جَلَّوَعَلَا من العبد، ولأن العبادات القلبية هي الأساس لما بعدها من أعمال الجوارح.

والإسلام -كما تقرَّر في غير موضع- ليس مجرَّد ادِّعاء يدعيه الإنسان بلسانه فقط، ولكنه اعتقاد وقول وعمل.

وإذا أخلص المسلم القصد والنية، وصَدَقَ في إسلامه وتوجُّهِهِ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، أَسلَمَت جَوَارِحُهُ وأذعَنَت وانقادت، ورَقَّ قَلبُهُ وانشرح صدرُهُ، فجملت أَخلاقُهُ، وحسُنَ تعاملهُ، واستقامت حياتُهُ.

وإنَّ الأعضاء والجوارح في هذا الجسد، رعيَّةٌ تتبَعُ مَلِكًا وقائدًا، ذلكم الملِكُ والقائد هو القلب، فهو سَيِّدُ الجوارح وآمرُهَا وناهيها، فإذا أَسلَمَ وصَدَقَ في توجُّهه إلى الله عَزَّوَجَلَّ أذعَنَتِ الجوارح وانقادت لله عَزَّوَجَلَّ، وإذا استعصى القلبُ وتكبَّرَ وتعَالى جمحتِ الأعضاءُ وفسدت وأفسَدَت، فبصلاح القلب يصلح باقي الجسد، وبفساده يفسد باقيه، كما قال صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صَلَحَتْ صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**» (١).

وقد أكرم الله عَزَّوَجَلَّ العباد بنعمٍ لا تحصى، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:٣٤].

ومن هذه النعم: نعمة الجوارح التي أوجب الله عَزَّوَجَلَّ شكرها. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ

---

(١) صحيح البخاري [٥٢]، مسلم [١٥٩٩]، وقد تقدم.

﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النحل:٧٨]. فمن شكر نِعَم الله عَزَّوَجَلَّ: أن نحفظ هذه الجوارح، وأن نستعملها فيما أمرنا به الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

فمن حق الجوارح: أن يستخدمها المكلَّف ويوظِّفها فيما يرضي خالقها جَلَّوَعَلَا، وأن يشكر المنعم بها عليه.

وقد جمعت هذه الجوارح السبعة في حديث: أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا، مدرك ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأُذُنَانِ زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا، والقلب يهوى ويَتَمَنَّى، ويُصَدِّقُ ذلك الفرج ويُكَذِّبُهُ**»(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: "وقد مثلت النفس مع صاحبها بالشريك في المال، فكما أنه لا يتم مقصود الشركة من الربح إلا بالمشارطة على ما يفعل الشريك أولًا، ثم بمطالعة ما يعمل، والإشراف عليه ومراقبته ثانيًا، ثم بمحاسبته ثالثًا، ثم بمنعه من الخيانة إن اطلع عليه رابعًا، فكذلك النفس: يشارطها أولا على حفظ الجوارح السبعة التي حفظها هو رأس المال، والربح بعد ذلك. فمن ليس له رأس مال، فكيف يطمع في الربح؟ وهذه الجوارح السبعة، وهي: العين، والأذن، والفم، واللسان والفرج، واليد، والرجل: هي مراكب العطب والنجاة، فمنها عطب من عطب بإهمالها. وعدم حفظها، ونجا من نجا بحفظها ومراعاتها فحفظها أساس كل خير، وإهمالها أساس كل شر. قال

(١) صحيح مسلم [٢٦٥٧]، واللفظ له، كما أخرجه البخاري مختصرًا [٦٢٤٣، ٦٦١٢].

عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء:٣٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء:٣٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء:٥٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾ [الأحزاب:٧٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر:١٨].

فإذا شارطها على حفظ هذه الجوارح انتقل منها إلى مطالعتها والإشراف عليها ومراقبتها، فلا يهملها، فإنه إن أهملها لحظة رتعت في الخيانة ولا بد، فإن تمادى على الإهمال تمادت في الخيانة حتى تُذهب رأس المال كله، فمتى أحس بالنقصان انتقل إلى المحاسبة، فحينئذ يتبين له حقيقة الربح والخسران، فإذا أَحَسَّ بالخسران وتيقنه استدرك منها ما يستدركه الشريك من شريكه: من الرجوع عليه بما مضى، والقيام بالحفظ والمراقبة في المستقبل، ولا مطمع له في فسخ عقد الشركة مع هذا الخائن، والاستبدال بغيره، فإنه لا بد له منه فليجتهد في مراقبته ومحاسبته، وليحذر من إهماله"(١).

فينبغي على طالب التوفيق والهداية: أن يحفظ جوارحه عن معصية الله عَزَّوَجَلَّ، وأن يستعملها في طاعة الله جَلَّوَعَلَا، وأن لا يشرد عن نهج الصالحين، حتى يكون في حفظ الله جَلَّوَعَلَا وكَلاءَته، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن الله قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما**

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/٧٩-٨٠).

تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته»(١).

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المراد بهذا الكلام أن من اجتهد بالتقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالفرائض، ثم بالنوافل قربه إليه، ورقاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان، فيصير يعبد الله عَزَّوَجَلَّ على الحضور والمراقبة كأنه يراه، فيمتلئ قلبه بمعرفة الله عَزَّوَجَلَّ، ومحبته، وعظمته، وخوفه، ومهابته، وإجلاله، والأنس به، والشوق إليه، حتى يصير هذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهدًا له بعين البصيرة"(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن تأمل الشريعة في مصادرها ومواردها علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح وهل يميز المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كل واحد منهما من الأعمال التي ميزت بينهما؟ وهل يمكن أحد الدخول في الإسلام إلا بعمل قلبه قبل جوارحه؟ وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم، فهي واجبة في

---

(١) صحيح البخاري [٦٥٠٢]، قوله: «ما ترددت»: كناية عن اللطف والشفقة، وعدم الإسراع بقبض روحه. و(مساءته): إساءته بفعل ما يكره.

(٢) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (ص:٣٤٥- ٣٤٦).

كل وقت؛ ولهذا كان الإيمان واجب القلب على الدوام. والإسلام واجب الجوارح في بعض الأحيان، فمركب الإيمان: القلب، ومركب الإسلام: الجوارح"(١).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال:٢-٤]: "جمع بين أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل، وبين أعمال الجوارح من الصلاة والصدقة"(٢).

وقال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾ [العاديات:٩-١١]: "إنما خص أعمال القلوب بالتحصيل دون أعمال الجوارح؛ لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلوب؛ فإنه لولا البواعث والإرادات في القلوب لما حصلت أفعال الجوارح؛ ولذلك جعلها الله عَزَّوَجَلَّ الأصل في الذم فقال: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة:٢٨٣]، والأصل في المدح فقال: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢]، و[الحج:٣٥]"(٣).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الأعمال الظاهرة تدخلها آفات كثيرة، وما لم تسلم منها لم تكن مقبولة؛ ولهذا كانت أعمال القلب المجردة أفضل من أعمال البدن المجردة، كما

---

(١) بدائع الفوائد (٣/١٩٣).

(٢) الكشاف (٢/١٩٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٣٢/٢٦٣-٢٦٤).

قال بعض السلف: قوة المؤمن في قلبه، وضعفه في جسمه، وقوة المنافق في جسمه، وضعفه في قلبه"(١).

ويغفل كثير من الناس عن الاهتمام بأعمال القلوب، ويهتمون بعبادات الجوارح، مع أن العبادات القلبية مُقدَّمة على أعمال الجوارح -كما تقدم-.

وإن سلامة القلب والعناية به من أهم أسباب النجاة يوم القيامة، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ليس الاعتبار بأعمال البر بالجوارح، وإنما الاعتبار بلين القلوب، وتقواها، وتطهيرها عن الآثام، سفر الدنيا ينقطع بسير الأبدان، وسفر الآخرة ينقطع بسير القلوب. قال رجل لبعض العارفين: قد قطعت إليك مسافة قال: ليس هذا الأمر بقطع المسافات، فارق نفسك بخطوة وقد وصلت إلى مقصودك، سير القلوب أبلغ من سير الأبدان، كم من واصل ببدنه إلى البيت وقلبه منقطع عن رب البيت، وكم من قاعد على فراشه في بيته وقلبه متصل بالمحل الأعلى.

جسمي معي غير أن الروح عندكم ... فالجسم في غربة والروح في وطن

قال بعض العارفين: عجبًا لمن يقطع المفاوز والقفار ليصل إلى البيت، فيشاهد فيه آثار الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ كيف لا يقطع هواه؛ ليصل إلى قلبه!"(٢).

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/٢٤٥).

(٢) لطائف المعارف (ص:٢٥١).

حادي عشر: تنوع العبادات القلبية:

العبادات القلبية: هي العبادات التي تتعلق بقلب الإنسان -كما تقدم-، مثل: الاعتقاد، والنية، ومحبة الله عَزَّوَجَلَّ، وتوحيده، وخوفه، ورجاؤه، ومحبة طاعته وشرعه، وبُغض معصيته، ومعرفة صفاته، وتعظيمه، وتعظيم أمره، ومهابته، وإجلاله، والأنس به، والشوق إليه، وشكره، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والصدق، والإخلاص، واليقين، والتفكُّر، والخشوع، والمراقبة، والوَرَع، والصبر، والزهد، والقناعة، والإيثار، والحياء.

ومحبة رسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتعظيمه وتوقيره، واعتقاد أنه خير أسوة للناس، وأن سنته خير السنن وأنفعها، وأنه مبين للناس ما نزل إليهم.

ومحبة أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وآل بيته رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، واعتقاد أن زوجاته أمهات المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ.

ومحبة العلماء الرَّبانيين، والصديق الصالح، وعباد الله عَزَّوَجَلَّ الصالحين، ومحبة المساكين، ومحبة فعل الخيرات، والأعمال الصالحة، وإرادة الخير والهداية للناس، والعطف والرحمة، ومحبة الوالدين، والأرحام، ومحبة الأولاد، وإرادة الخير والصلاح لهم، ومحبة الأماكن والأزمنة الفاضلة.

ومن أكثر الأعمال القلبية فائدة، وأعلاها مكانة: محبة الله عَزَّوَجَلَّ، ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما سيأتي-.

وقد تقدَّم أن المؤمن حقًّا من كملت فيه شعب الإيمان، وهي تتفرع -كما ذكر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ- عن أعمال القلب، وأعمال اللسان، وأعمال البدن. فأعمال القلب فيه: المعتقدات والنيات، وتشتمل على أربع وعشرين خصلة: الإيمان

بالله، ويدخل فيه: الإيمان بذاته، وصفاته، وتوحيده بأنه ليس كمثله شيء، واعتقاد حدوث ما دونه. والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره وشره، والإيمان باليوم الآخر، ويدخل فيه: المسألة في القبر، والبعث، والنشور، والحساب، والميزان، والصراط، والجنة والنار. ومحبة الله عَزَّوَجَلَّ، والحب والبغض فيه. ومحبة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واعتقاد تعظيمه، ويدخل فيه: الصلاة عليه، واتباع سنته، والإخلاص، ويدخل فيه: ترك الرياء والنفاق، والتوبة، والخوف والرجاء، والشكر، والوفاء، والصبر، والرضا بالقضاء، والتوكل، والرحمة، والتواضع، ويدخل فيه: توقير الكبير، ورحمة الصغير، وترك الكبر والعجب، وترك الحسد، وترك الحقد، وترك الغضب.... الخ"[1].

فإذا خلا القلب من هذه الصفات أصبح بلا أخلاق، ولا إنسانية، كالميت الذي لا روح فيه، فيكون أضل من الأنعام، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:١٧٩].

(١) انظر: فتح الباري (١/٥٢-٥٣)، وانظر: إكمال المعلم، للقاضي عياض (١/٢٧١-٢٧٣).

ثاني عشر: أركان العبادات القلبية:

تقدم أنَّ العبادات القلبية ينبغي أن تكون قائمة على أركان ثلاثة، هي: (المحبة، والخوف، والرجاء).

وأعظم أركان العبادات القلبية: محبة العبد لله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تلك المحبة التي تثمر ثمارًا عظيمة في دنيا العبد الفانية، وفي أخراه الباقية، وتصلح حاله في تعامله مع الخلق.

وقد أجمعت الأمة على أن حب الله عَزَّوَجَلَّ وحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرض [١].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "محبة الله عَزَّوَجَلَّ، بل محبة الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أعظم واجبات الإيمان، وأكبر أصوله، وأجلِّ قواعده؛ بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين، كما أن التصديق به أصل كل قول من أقوال الإيمان والدين"[٢].

وهذه المحبة من شروط الإيمان؛ لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤].

(١) نقل الإجماع الإمام الغزالي في (إحياء علوم الدين) (٤/٢٩٤)، وقد نقله عنه نجم الدين ابن قدامة في (منهاج القاصدين) (ص:٣٧٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٤٨-٤٩)، وانظر: أمراض القلب وشفاؤها (ص:٥٩)، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن قيم الجوزية (٢/١٩٦).

ولقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده**» (١).

إنَّ محبة الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليست مجرد الاتباع، بل هي أساس الاتباع وباعثه، وهي واجب من الواجبات.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة:٢٤] جاءت هذه الآية تفضح كذب المدعين، وتختبر حبَّ الإنسان لله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقوله في هذه الأشياء إذا كانت ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يدل على أن محبة هذه الأشياء في الأصل لا حرج فيها، فالإنسان يحب والده، ويحب ولده، ويحب أخاه، ويحب قبيلته، ويحب ماله، ويحب تجارته، ويحب مسكنه. فأصل المحبة لهذه الأشياء مباح؛ لأنها من المحبة الطبيعية، لكن إنما يأتي اللوم إذا قدَّم محبة هذه الأشياء على محبة الله عَزَّوَجَلَّ فأخَّرته هذه الأشياء عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعن الهجرة إلى الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) صحيح البخاري [١٤، ١٥]، انظر: إحياء علوم الدين (٤/٢٩٤)، مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة المقدسي (ص:٣٧٣).

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي الآية دليل على وجوب حب الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا خلاف في ذلك بين الأمة، وأن ذلك مقدم على كل محبوب"(١).

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأصل الأشياء وموجدها ومخترعها هو الله عَزَّوَجَلَّ الذي جعلها أشياء، فلو عرف كل شيء ولم يعرف الله عَزَّوَجَلَّ فكأنه لم يعرف شيئًا. وعلامة المعرفة: المحبة؛ فمن عرف الله جَلَّ وَعَلَا أحبه. وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات"(٢).

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان لزوم محبة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "فكفى بهذا حضًا وتنبيهًا ودلالة وحجة على التزام محبته ووجوب فرضها، وعظم خطرها، واستحقاقه لها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إذ قرع الله عَزَّوَجَلَّ من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله وأوعدهم بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾ [التوبة:٢٤]، ثم فسقهم بتمام الآية، وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله"(٣).

وقد بيّن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن مقياس الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ امتلاء القلب بمحبة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحيث تغدو متغلبة على محبة الولد والوالد والناس أجمعين، فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لا يؤمن أحدكم، حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»(٤) ليس نفيًا لأصل الإيمان، وإنما هو نفيٌ لكمال الإيمان، أي: لا يكمُل

(١) تفسير القرطبي (٨/٩٥)، وانظر: الاستقامة، لابن تيمية (١/٢٦٣-٢٦٤).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/٦٣).

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/٤٣).

(٤) صحيح البخاري [١٥]، مسلم [٤٤].

إيمان أحدكم. هذا إذا كان يحب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكن لا يقدم محبته على محبة غيره من الخلق. أما إذا كان الإنسان لا يحب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصلًا، بل يبغض الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهذا كافر. أما الذي يحب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكنه يقدِّم محبة ولده ووالده على محبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهذا ناقصُ الإيمان، بل لا يكمُل إيمان العبد، ولا يتم حتى يكون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحبَّ إليه من نفسه التي بين جنبيه، وأحب إليه من ولده الذي هو بضْعَةٌ منه وجزءٌ منه، وأحب إليه من والده الذي هو أصله والمحسِن إليه، وأحب إليه من النَّاس أجمعين أيًّا كانوا.

وهذا يقتضي أن الإنسان يقدِّم طاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على طاعة غيره: فإذا أمرك الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمر وأمرك والدك أو ولدك أو أحد من النَّاس بأمر يخالف أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه يجب عليك معصية هذا الآمر وطاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقال عبد الله بن هشام: كنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلَّا من نفسي، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك**» فقال له عمر: فإنه الآن، والله، لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الآن يا عمر**»(١).

---

(١) صحيح البخاري [٦٦٣٢]، مسلم [١٤٠٠]. قال الخطابي: "حب الإنسان نفسه طبع، وحبه غيره اختيار بتوسط الأسباب، وإنما أراد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله لعمر حب الاختيار؛ إذ لا سبيل إلى قلب الطباع وتغييرها عما جبلت عليه. يقول: لا تصدق في حبي حتى تفني في طاعتي نفسك، وتؤثر رضاي على هواك، وإن كان فيه هلاكك". وقال الحافظ في (الفتح) (١١/٥٢٨): "فعلى هذا فجواب عمر=

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من أشد أمتي لي حُبًّا، ناس يكونون بعدي، يود أحدهم لو رآني بأهله وماله**»(١).

ومحبة الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير ما يعده الإنسان للقاء الله عَزَّ وَجَلَّ، فهي سبب دخول الجنة، والنجاة من النار، ففي حديث: أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رجلًا سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الساعة، فقال: متى الساعة؟ قال: «**وماذا أعددت لها**»، قال: لا شيء، إلَّا أني أحب الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**أنت مع من أحببت**»، قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فما فرحنا بشيء، فرحنا بقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنت مع من أحببت**»، قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فأنا أحب النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وأبا بكر، وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم**»(٢).

وفي رواية: قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله، قال: «**أنت مع من أحببت**»(٣).

=أوَّلًا كان بحسب الطبع، ثم تأمل فعرف بالاستدلال أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحب إليه من نفسه؛ لكونه السبب في نجاتها من المهلكات في الدنيا والأخرى، فأخبر بما اقتضاه الاختيار؛ ولذلك حصل الجواب بقوله: «الآن يا عمر»، أي: الآن عرفت فنطقت بما يجب" أعلام الحديث (٤/٢٢٨٢)، وانظر: شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (٢/١٥)، طرح التثريب في شرح التقريب (٦/٢٢٨-٢٢٩).

(١) صحيح مسلم [٢٨٣٢].

(٢) صحيح البخاري [٣٦٨٨]، مسلم [٢٦٣٩].

(٣) صحيح البخاري [٦١٧١]، مسلم [٢٦٣٩].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحبَّ قومًا ولم يلحق بهم؟

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المرء مع من أحب**» (١).

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومحبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على درجتين:

إحداهما: **فرض**: وهي المحبةُ التي تقتضي قبول ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عند الله عَزَّوَجَلَّ، وتلقِّيه بالمحبة والرِّضا والتعظيم والتسليم، وعدم طلب الهدى من غير طريقه بالكليَّة، ثم حسن الاتباع له فيما بلَّغه عن ربِّه من تصديقه في كلِّ ما أخبر به، وطاعته فيما أمر به من الواجباتِ، والانتهاء عمَّا نهى عنه من المحرَّمات، ونصرة دينه والجهاد لمن خالفه بحسب القدرة، فهذا القدر لا بدَّ منه، ولا يتمُّ الإيمان بدونه.

والدرجة الثانية فضل: وهي المحبة التي تقتضي حسن التَّأسِّي به، وتحقيق الاقتداء بسنته في أخلاقه وآدابه ونوافله وتطوعاته وأكله وشربه ولباسه وحسن معاشرته لأزواجه وغير ذلك من آدابه الكاملة وأخلاقه الطاهرة، والاعتناء بمعرفة سيرته وأيامه، واهتزاز القلب عند ذكره، وكثرة الصلاةِ عليه لما سكن في القلب من محبَّته وتعظيمه وتوقيره، ومحبة استماع كلامه، وإيثاره على كلام غيره من المخلوقين. ومن أعظم ذلك: الاقتداء به في زهده في الدُّنيا والاجتزاء باليسير منها، ورغبته في الآخرة"(٢).

---

(١) صحيح البخاري [٦١٦٩، ٦١٧٠] مسلم [٢٦٤٠].

(٢) استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس، لأبي الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي (ص:٨٥).

و"محبة السنة وسيلة إلى محبة صاحبها، فمن لم يحصل له كمال محبته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فليواظب على سنته فيحصل محبته بالاضطرار"(١).

قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن محبته: نصرة سنته، والذب عن شريعته، وتمني حضور حياته، فيبذل نفسه وماله دونه"(٢).

ولأن يكون الحب هو الباعث الأساس على الاتباع فذلك أسمى من أن يكون ترغيبًا وترهيبًا.

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا شك أن داعي العبادة التعظيم والإجلال، وهو إما عن محبة أو عن خوف مجرد، وأهمه ما كان عن محبة؛ لأنه يرضي نفس فاعله"(٣).

لقد وصف الله عَزَّوَجَلَّ الرجال الذين يصلحون لدينه بأنهم قوم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ﴾ [المائدة:٥٤].

وقد فصلتُ القول في ذلك في كتاب: (المحبة صورها وأحكامها في ضوء الكتاب والسنة).

ومن أراد التوفيق والهداية والنجاة فينبغي أن يجمع بين المحبة والخوف والرجاء.

---

(١) بريقة محمودية، للخادمي (٧٨/١).

(٢) إكمال المعلم شرح صحيح مسلم، للقاضي عياض (٢٠٤/١).

(٣) التحرير والتنوير (١٨٢/١-١٨٣).

إنَّ جمهرة الناس تسيرهم مشاعرُ الرَّغبة والرَّهبة والوعد والوعيد؛ لأنَّ خوف الإنسان من عاقبة أمر يولِّد عنده الدافعية لاجتنابه والابتعاد عنه، فمثلًا: إذا خُوِّف الطالب من عاقبة الإهمال، وهي الرسوب والفشل، ونظرة الناس إليه يحملُه هذا الخوفُ على الجدِّ والاجتهاد، ويحرِّضُ الدافعيةَ عنده لاستدراك ما فاته؛ ولذلك فإن خوف الله عَزَّوَجَلَّ والعاقبة من أسباب التبصر والتذكر، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣﴾ [طه:١-٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ۝٢٦﴾ [النازعات:٢٦]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ۝٤٥﴾ [النازعات:٤٥]، وقال: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾ [ق:٤٥]، وقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝١٠﴾ [الأعلى:١٠].

وفي قولِ الله عَزَّوَجَلَّ عن الزنا -مثلًا-: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ۝٣٢﴾ [الإسراء:٣٢] تنفيرٌ من الزنا عن طريقِ الخوفِ من العاقبة، فذلك الخوف من العاقبة والمآل يحمل الإنسان على تجنب ذلك الفعل، والبعد عن الأسباب الموصلة إليه.

ومن التخويف من سوء العاقبة: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩﴾ [مريم:٥٩] إلى غير ذلك.

ذلك الخوف من سوء العاقبة من الأسباب التي تحمل العاقل على التقوى، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ۝١٦﴾ [الزمر:١٦].

ومن أسباب تذكر أولي الألباب، وإنابتهم إلى الواحد القهار. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود:١٠٣].

إنَّ خوفَ الله عَزَّوَجَلَّ من عناصر الإيمان الأولى، تدرك ذلك من آيات وثَّقت الصلة بين الخوف والإيمان، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل:٥١].

ويتعرض المؤمن في حياته لمخاوف شتى من نحو: ما يقع عليه من ظلم ظالم، وقهر، وبغي، وتهديد، وإيذاء وتعذيب، ولكنَّ خوفَ الناس، وخوفَ الشيطان، وكلَّ خوفٍ يتلاشى إذا كان المسلمُ راسخَ الطمأنينةِ بالله عَزَّوَجَلَّ، واثقًا بوعده، يتلاشى أمامَ إجلالِ الله عَزَّوَجَلَّ، وإعظامِ أمره. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران:١٧٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ﴾ [الزمر:٣٦].

ولما طلب الله عَزَّوَجَلَّ من اليهود أن يدينوا دينَ الحق كان الخوفُ من أول ما كلِّفوا به. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة:٤٠].

وعندما وعد الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين بالنصر على الأعداء ربط وعده بهذه الرهبة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم:١٣-١٤].

وبيَّن أنه على قدر معرفة الله عَزَّوَجَلَّ تكون خشيته، فلذلك كان العلماءُ الربانيونَ أكثرَ الناس خشيةً: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

ومع وعد المؤمنين بحسن العقبى في الآخرة أكد أن ذلك لا يتمُّ إلا مع خشية الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق:٣١-٣٣]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة:٧-٨]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن:٤٦].

ولكن مع هذا الخوفِ لا يقنطُ الإنسان من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر:٥٣]. فإنَّ المرء في هذه الدنيا لا يُفلِتْ من غيمةٍ إلا لتحتويه أخرى، ولولا شعاع الرجاءِ في قلبه لغابَ في الظلام، وهذا الرجاء يومضُ من الإيمان بالغيب، والثقةِ فيما عند الله عَزَّوَجَلَّ، ومن ثم فإن الماديين لا يعرفونه؛ لأنهم محجوبونَ بالأسباب الظاهرة، ويستمدونَ أحكامَهم من عَالَمِ المحسوسات.

إن الخوف والرجاء هما الجناحان اللذان يرتقي بهما السالك إلى سُدَّة النجاة، ولا ينفعُ واحدٌ منهما دون الآخر، بل هما صِنوان، وبمثابةِ كفتي الميزان.

فمن الاغترار: التمادي في الذنوب مع رجاءِ العفو، وتوقُّع القرب من الله جَلَّوَعَلَا بغير طاعة، وانتظارُ زرع الجنة ببَذْر النار. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: «**وعِزَّتِي لا أجمعُ على**

عبدي خوفين، ولا أجمع له أمنين، إذا أَمِنَني في الدنيا أَخَفْتُهُ يوم القيامة، وإذا خافني في الدنيا أَمَّنْتُهُ يوم القيامة» (١).

ولا بدَّ من تحقيق التَّكافؤ والتَّوازن بين الخوف والرَّجاء؛ حتى تستقيم حياة المؤمن في الدُّنيا، ويفوز بالنَّعيم في الآخرة.

فلا يغلِّبُ العبدُ جانبَ الرجاء؛ لئلا يفضي به ذلك إلى الأمنِ من مكرِ الله؛ فيكونَ من الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ فيهم: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝٩٩﴾ [الأعراف:٩٩]. ولا يغلِّبُ جانبَ الخوف؛ لئلا يفضي به إلى اليأسِ من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ فيكونَ من الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ فيهم حكاية عن قيل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾ [الحجر:٥٦]. ومن الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ فيهم حكاية عن قيل يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝٨٧﴾ [يوسف:٨٧]. قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ قومًا ألهتهُمُ الأمانيُّ حتى خرجوا من الدنيا بغيرِ توبة، يقول أحدهم: إني لأحسنُ الظنَّ بربي، وكَذَبَ لو أحسنَ الظنَّ لأحسن العمل (٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "القلب في سيره إلى الله عَزَّوَجَلَّ بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف

---

(١) تقدم.

(٢) انظر: كشف المشكل، لابن الجوزي (٣/٣٢٣)، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبي (ص:١٢٨)، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص:٢٨).

استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف، هذه طريقة أبي سليمان وغيره، قال: ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإن غلب عليه الرجاء فسد.

وقال غيره: أكمل الأحوال: اعتدال الرجاء والخوف، وغلبة الحب، فالمحبة هي المركب، والرجاء حاد، والخوف سائق، والله الموصل بمنه وكرمه"(١).

وجاء في الحديث: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل على شَابٍّ وهو في الموت، فقال: «**كيف تَجِدُكَ؟**»، قال: والله يا رسول الله، إني أرجو الله، وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمَنَهُ مما يخاف**» (٢).

---

(١) مدارج السالكين (٥١٣/١)، وانظر: تنوير المستبصر الفائز ببيان أحكام الجنائز، مطلب في معنى: المحتضر، لإبراهيم بن يوسف البولوي، تحقيق ودراسة وشرح: د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، مصطفى محمود سليخ (ص:٣٥)، المحبة صورها وأحكامها (ص:٢٦-٢٧).

(٢) الحديث مروي عن أنس وعن عبيد بن عمير مرسلًا. حديث: أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أخرجه عبد بن حميد [١٣٧٠]، وابن ماجه [٤٢٦١]، والترمذي [٩٨٣]، والبزار [٦٨٧٤]، والنسائي في (الكبرى) [١٠٨٣٤]، وأبو يعلى [٣٣٠٣]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢٩٢/٦)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٧٠]، والضياء [١٥٨٧]. حديث: عبيد بن عمير: أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٩٧١]. قال المنذري (١٣٥/٤): "رواه الترمذي، وقال: "حديث غريب، وابن ماجه، وابن أبي الدنيا، كلهم من رواية جعفر بن سليمان الضبعي عن ثابت عن أنس. قال الحافظ: إسناده حسن؛ فإن جعفرًا صدوق صالح احتج به مسلم، ووثقه النسائي، وتكلم فيه الدارقطني وغيره". وفي (تحفة المحتاج إلى أدلة المنهاج)، لابن الملقن (٥٨٣/١): "رواه الترمذي بإسناد جيد، وقال: غريب، وأن بعضهم رواه مرسلًا".

ثالث عشر: المحافظة على عبادة الخفاء والعزلة في وقت تشرع فيه:

إنَّ أحبَّ الأعمال التي تقرِّبُ العبدَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وترفعُه عنده درجاتٍ، وتنجِّيْه من النَّوازِلِ والشَّدائدِ والكُرُبَات: ما كان منها خالصًا لله عَزَّوَجَلَّ، وبعيدًا عن الرِّياء.

ومن هذه الأعمال التي هي أقرب إلى الإخلاص، وأبعد عن الرِّياء: عبادةُ الخفاء.

فلا يَتقربُ العبد إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ في الخلوة إلا وهو يوقن أن اللهَ عَزَّوَجَلَّ يعلمُ سرَّه ونجواه، وما أعلنه وما أخفاه، وهذا سبيلٌ يُبَلِّغُ العبدَ: مرتبةَ الإحسانِ العالية، التي عرفها النَّبِيُّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لجبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لَمَّا جاء لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُم، فقال: يا رسول اللَّه، ما الإحسان؟ فقال رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**» (١).

وإنَّ عبادة الخفاء هي دليل صدق العبد وإخلاصه؛ لأنَّ فيها: طهارة القلب من النفاق، حيث يغيب العبد عن الخلق، ولا يشهد على عمله إلا الخالق جَلَّوَعَلَا، وهي من علامات محبة الله عَزَّوَجَلَّ للعبد، كما جاء في الحديث: «**إن الله يُحِبُّ العبدَ التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ**» (٢).

والمراد بالغنى: غنى النفس، وهو الغنى المحبوب، وقيل: المراد غنى المال. والمال غير محذور لعينه، بل لكونه يَعُوق ويَشْغَلُ عن الطَّاعات، ويفتح أمام العبد أبواب الشهوات.

---

(١) صحيح البخاري [٥٠، ٤٧٧٧]، مسلم [٨، ٩، ١٠].

(٢) صحيح مسلم [٢٩٦٥].

ولكن كم من غنيٍّ لم يشغلْه غناهُ عن الله عَزَّوَجَلَّ؟ وكم من فقير شَغَلَه فقره عن الله جَلَّوَعَلَا؟

والله عَزَّوَجَلَّ يبتلي كل عبد مكلَّف بما يبتليه؛ ليتحقق فيه معنى: العبودية والتكليف، ثم يحاسب الله عَزَّوَجَلَّ كل عبد على ما عمله. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ [مريم:٧٧-٨٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم:٩٥].

فالتحقيق أنه لا يطلق القول بتفضيل الغني على الفقير على العموم، وعكسه.

و«**الخفي**» -بخاء معجمة- أي: الخامل الذكر، قد اعتزل الناس؛ ليتفرغ للتعبد في الخفاء، ولِيتَجنَّبَ ما يترتَّبُ على المخالطةِ في بعض الأحوال من المحاذير والآثار.

ففي الحديث: إشارة إلى أن أحب العمل: ما كان خالصًا لله عَزَّوَجَلَّ.

ومَثَلُ (عبادة الخفاء) كَمَثَلِ من يشتري لنفسه ذهبًا خالصًا، يدَّخره لوقت الأزمات، فيتنفع منه في أشدِّ أوقات حاجته.

والشارع يُرغِّب في (عبادة الخفاء)، كصلاة المرء النَّافلة في بيته، ودعاء الخفاء، كما يرغِّبُ في (عباداتٍ ظاهرة)، كصلاةِ الجماعة، وحضور الجنائز، وحِلَق العلم، ومخالطة الصالحين، وأرباب الهمم العالية، ويوجب صلاة الجمعة؛ ليكون العبد مخلصًا في سائر عباداته وأحواله، ما ظهر منها للعباد وما لم يظهر.

ومن الترغيب في (عبادة الخفاء): ما جاء في (الصحيح): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**سبعةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ يوم لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ**»، وذكر

منهم: «**ورجلٌ تَصَدَّقَ بصدقةٍ فأخفاها؛ حتى لا تعلم يمينُه ما تنفقُ شمالُه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**»(١).

كما حثَّ الشارع على صلاة النافلة في البيت، كما جاء في الحديث: «**صلوا أيها الناس في بيوتكم؛ فإن أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة**»(٢).

ومن (عبادة الخفاء): الصيام.

وقد تقرر في (عبادة الصيام) أن من أهمِّ مقاصده: أنه يورث المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ والتقوى؛ إذ هو يكف النفس عن كثير مما تتطلع إليه، حيث إنه ينمي في الصائم شعور المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ، فالإنسان الذي يخلو بنفسه لا يمنعه شيء عن الأكل والشرب سوى شعوره بأن الله جَلَّوَعَلَا مطلع عليه في كل ما يصنع، فيبتعد عما يسخط الله عَزَّوَجَلَّ من قولٍ أو عمل، وهذا معنى قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جُنَّةٌ**»(٣).

أما إذا كان الصيام قد أصبح عند الكثيرين عادة، أو أنه يصوم لنصيحة طبيب لا عن عقيدة وإيمان واحتساب فإن الصيام لا يثمر في نفسه تلك الثمرات الناشئة عن المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ، فإذا انعدم شعور الصائم بالمراقبة فليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، وهذا معنى قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**من لم يدع قول الزور والعمل به،**

---

(١) صحيح البخاري [٦٦٠، ١٤٢٣، ٦٤٧٩، ٦٨٠٦]، مسلم [١٠٣١]، وقد تقدم.

(٢) صحيح البخاري [٧٣١، ٦١١٣، ٧٢٩٠]، مسلم [٧٨١].

(٣) صحيح البخاري [١٩٠٤، ٧٤٩٢]، مسلم [١١٥١].

فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[1]، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من صام رمضان، إيمانًا واحتسابًا..»**، وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة:١٨٣]. فليس المراد مجرَّد الإمساك عن الطعام والشراب والجماع دون ما يحقق الصيام من الأثر في الصائم، وهو التقوى، وهي صيانة المرء نفسه عما يضر في الآخرة.

ويدخل في (عبادة الخفاء): المحافظة على الوضوء، كما جاء في الحديث: **«لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»**[2].

وقد نُقل عن الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: خيرُ العمل: أخْفاه، وأمْنَعُه من الشيطان، وأبعدُه من الرِّياء[3].

وعبادة الخفاء دليل صدق العبد في سيره إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وعنوان الإخلاص، وعلامة المحبة، وأثر من آثار الإيمان؛ ولذلك فإنها لا تكون إلا من نفوس طيبة، وقلوب نقية، ونيات صافية، ولا يفعلها المنافق، ولا المرائي بفعله، ولا المدعي الكاذب.

وعبادة الخفاء من خير ما يعده العبد من الزَّاد ليوم المعاد.

---

(١) صحيح البخاري [١٩٠٣، ٦٠٥٧].

(٢) الحديث مروي عن ثوبان، وقد أخرجه الطيالسي [١٠٨٩]، وأحمد [٢٢٣٧٨]، والدارمي [٦٨١]، وابن ماجه [٢٧٧]، قال البوصيري (٤١/١): "هذا الحديث رجاله ثقات أثبات، إلا أنه منقطع بين سالم وثوبان، فإنه لم يسمع منه بلا خلاف، لكن له طرق أخرى متصلة". وأخرجه الروياني [٦١٤]، وابن حبان [١٠٣٧]، والطبراني [١٤٤٤]، والحاكم [٤٤٧]، والبيهقي [٣٨٤].

(٣) انظر: تاريخ دمشق (٤٠٤/٤٨)، سير السلف الصالحين، لإسماعيل الأصبهاني (ص:١٠٣٦).

وقد صحَّ عن قيس بن أبي حازم أنه قال: سمعت الزبير بن العوام رَضِيَاللَّهُعَنْهُ يقول: «**أَيُّكُمُ استطاع أن يكون له خَبِيئَةٌ من عملٍ صالحٍ فَلْيَفْعَلْ**»[1]. وفي لفظ: «**من استطاع منكم أن يكون له خَبْءٌ..**»[2]. وقوله: «**أن يكون له خَبْءٌ**» أي: شيء مخبوء، أي: مدخر. يقال: له خبيئة خبأها ليوم حاجته، وله خبايا. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النمل:٢٥]. و(أخرج خبءُ السماءِ خبءَ الأرض)، أي: المطرُ النباتَ. وواحدةُ (الخَبَايَا): خبِيئة، وهي: اسم المخبوء.

وقال ابن الأثير رَحِمَهُٱللَّهُ: "الخبء كل شيء غائب مستور. يقال: خبأت الشيء أخبؤه خبأً: إذا أخفيته، والخبء والخبي، والخبيئة: الشيء المخبوء.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١١٠٩]، وابن الجعد في (مسنده) [٦٨٢]، وأبو داود في (الزهد) [١١٢]، وابن الأعرابي في (معجمه) [١٢٠٧]، والضياء في (المختارة): [٨٨٣]، وقال: "سئل الدارقطني عنه فقال: يرويه إسحاق بن إسماعيل الطالقاني: عن ابن فضيل، عن إسماعيل عن قيس، عن الزبير مرفوعًا إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولم يتابع على رفعه. ورواه شعبة، وزهير، ويحيى القطان، وهشيم، وعلي بن مسهر، وابن عيينة، وأبو معاوية، وعبدة، ومحمد بن يزيد: عن إسماعيل عن قيس عن الزبير موقوفًا، وهو الصحيح". وانظر: فيض القدير (٥٤/٦). وأخرجه القضاعي [٤٣٤]: عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٤٦٢٥، ٣٤٧٥١].

ومنه: «**ابتغوا الرزق في خبايا الأرض**»(١) هي جمع: خبيئة، كخطيئة وخطايا، وأراد بالخبايا: الزرع؛ لأنه إذا ألقى البذر في الأرض فقد خبأه فيها"(٢).

وقد بين الشارع أن من أفضل القربات: الصدقة لوجه الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ ما كان منها على سبيلِ الخفاءِ فهو خيرٌ، وأنفعُ للعبد، وأكرمُ له؛ لأن عمله يدخل في (عبادة الخفاء)، وهي كذلك خير للمتصدَّق عليه، وأكرم له، فيكونُ عمل المتصدِّق على سبيل الخفاء أقرب إلى الإخلاص، وأبعد عن الرياء، وفي كلٍّ خير إن خلا عن الرِّياء، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْۗ﴾ [البقرة: ٢٧١].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية في صدقة التطوع؛ لأن الإخفاء فيها أفضل من الإظهار، وكذلك سائر العبادات، الإخفاء أفضل في تطوعها؛ لانتفاء الرياء عنها، وليس كذلك الواجبات، بيد أن علماءنا قالوا: إن هذا على الغالب مخرجه.

---

(١) أخرجه: أبو يعلى [٤٣٨٤]، والطبراني في (الأوسط) [٨٩٥]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١١٧٨] بسند ضعيف: عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا. قال البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا إن صح فإنما أراد به الحرث وإثارة الأرض للزرع". قال الهيثمي (٦٣/٤): "رواه أبو يعلى، والطبراني في (الأوسط)، وفيه: هشام بن عبد الله بن عكرمة. ضعفه ابن حبان". وقال ابن الجوزي في (العلل المتناهية) (٦٠٣/٢): "قال ابن طاهر المقدسي: هذا الحديث لا أصل له من حديث: رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال أبو عبد الرحمن النسائي: وهو حديث منكر، وقد روى من قول عروة".

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (خبأ) (٣/٢).

والتحقيق فيه: أن الحال في الصدقة تختلف بحال المعطي لها، والمعطى إياها، والناس الشاهدين لها، أما المعطي فله فيها فائدة: إظهار السنة، وثواب القدوة. قلت: هذا لمن قويت حاله، وحسنت نيته، وأمن على نفسه الرياء، وأما من ضعف عن هذه المرتبة فالسر له أفضل. وأما المعطى إياها فإن السر له أسلم من احتقار الناس له، أو نسبته إلى أنه أخذها مع الغنى عنها وترك التعفف. وأما حال الناس فالسر عنهم أفضل من العلانية لهم، من جهة أنهم ربما طعنوا على المعطي لها بالرياء، وعلى الآخذ لها بالاستغناء، ولهم فيها تحريك القلوب إلى الصدقة، لكن هذا اليوم قليل"[1].

كما حثَّ الشارع على (دعاء الخفاء) الذي يخلص العبد فيه التوجه إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥﴾ [الأعراف:٥٥].

يقول تعالى ذكره: ادعوا، أيها الناس، ربَّكم وحده، فأخلصوا له الدعاء، دون ما تدعون من دونه. ﴿تَضَرُّعٗا﴾، أي: تذلُّلًا واستكانة لطاعته. ﴿وَخُفۡيَةًۚ﴾، أي: بخشوع قلوبكم، وصحة اليقين منكم بوحدانيته فيما بينكم وبينه، لا جهارًا ومراءاةً، وقلوبكم غير موقنة بوحدانيته وربوبيته، كما هو فِعْل أهل النفاق.

وعن الحسن رَحِمَهُٱللَّهُ قال: إنْ كانَ الرَّجل لقد جمع القرآن، وما يشعرُ جارُه، وإن كان الرجل لقد فَقُه الفقهَ الكثير، وما يشعرُ به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزَّوْر وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في السرِّ فيكون علانية أبدًا! ولقد كان المسلمون

(١) انظر: تفسير القرطبي (٣/٣٣٢).

يجتهدون في الدعاء، وما يُسمع لهم صوت، إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم جَلَّ وَعَلَا، وذلك أن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:٥٥].

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ عن زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم:٣]، فذكَرَ أنه توجَّه إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بدعاءٍ خفيٍّ، وأن الله جَلَّ وَعَلَا قد رضي فعلَه، واستجاب دعائه.

"يقول حين دعا ربه عَزَّ وَجَلَّ، وسأله بنداء خفي، يعني: وهو مُسْتَسِرٌّ بدعائه ومسْأَلَتِه إيَّاهُ ما سَأَل؛ كراهة منه للرياء.

وقد جاء: عن قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾، أي: سرًّا، وإن الله يعلم القلب النقيَّ، ويسمع الصوت الخفيَّ"(١).

قال جار الله الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "راعى سنة الله عَزَّ وَجَلَّ في إخفاء دعوته، لأنَّ الجهر والإخفاء عند الله جَلَّ وَعَلَا سيان، فكان الإخفاء أولى؛ لأنه أبعد من الرياء، وأدخل في الإخلاص. وعن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: نداء لا رياء فيه..."(٢).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله: (راعى سنة الله عَزَّ وَجَلَّ)، يعني: راعى زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ سنة العبودية مع المعبود جَلَّ وَعَلَا في إخفاء دعائه.

قوله: (نداءً لا رياء فيه)، فيكون الإخفاء ملزومًا للإخلاص الذي هو: عدم الرياء؛ لأن الإخفاء أبعدُ من الرياء. ولما كنى عن عدم الرياء بالخفاء عُلم أن لا اعتبار للظاهر، وأن الأمر يدور على الإخلاص حتى إنه لو نادى جهرًا بلا رياء دخل فيه،

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/٤٨٥)، (١٨/١٤٢).

(٢) الكشاف (٣/٣).

أو نادى سرًّا بلا إخلاص خرج منه، وفي الجمع بين النداء والإخفاء: إيماءٌ إلى هذا المعنى.

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ [مريم:٣] (١): أشار بالنداء إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه تصور نفسه بعيدًا منه بذنوبه وأحواله السيئة.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ﴾ [فصلت:٤٤]، فاستعمال النداء فيهم تنبيه على بعدهم عن الحق، وقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَـٰنِ﴾ [آل عمران:١٩٣]، فالإشارة بالمنادي إلى العقل، والكتاب المنزل، والرسول المرسل، وسائر الآيات الدالة على وجوب الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، وجعله مناديًا للإيمان؛ لظهوره ظهور النداء، وحثه على ذلك كحث المنادي.

فإن قلت: كيف جمع بين النداء وهو رفع الصوت، وبين ﴿خَفِيًّا ۝٣﴾ وهو خفتُ الصوت؟ قلت: جعل ﴿خَفِيًّا ۝٣﴾ مجازًا عن الإخلاص لا كناية؛ لأن المجاز ينافي إرادة الحقيقة، والنداء عبارة عن إظهار الاستكانة، وإبداء التضرع والخشوع"(٢).

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (ندا) (ص:٧٩٧).

(٢) الكشاف (٣/٣)، حاشية الطيبي على الكشاف (٥٦١/٩-٥٦٢)، وانظر: حاشية ابن التمجيد على البيضاوي (١٨٧/١٢).

وقيل: إنما نادى خفيًا؛ لئلا يلام على طلب الولد في إبان الكبر والشيخوخة (١)، أو لأن ضعف الهرم أخفى صوته.

واختلف في سنه حينئذ، فقيل: ستون، وقيل: سبعون، وقيل: خمس وسبعون، وقيل: خمس وثمانون، وقيل: تسع وتسعون (٢).

وذكر الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فوائد في قصة زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في (سورة مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ)، منها: تعليم آداب الدعاء وهي من جهات:

أحدها: قوله: ﴿نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾، وهو يدل على أن أفضل الدعاء ما هذا حاله ويؤكد قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، ولأن رفع الصوت مشعر بالقوة والجلادة، وإخفاء الصوت مشعر بالضعف والانكسار، وعمدة الدعاء: الانكسار، والتبري عن حول النفس وقوتها، والاعتماد على فضل الله عَزَّوَجَلَّ وإحسانه.

---

(١) قال الجوهري: "وَإِبَّانُ الشيء -بالكسر والتشديد: وقته وأوانه، وقال: الكِبَرُ في السن، وقد كبر الرجل يَكْبَرُ كِبَرًا، أي: أسن، والاسم: الكَبْرَةُ -بفتح الكاف وسكون الباء-. يقال: علت فلانًا كَبْرَةٌ" الطيبي (٥٦٢/٩)، الصحاح، للجوهري، مادة: (ابن) (٢٠٦٦/٥)، ومادة: (كبر) (٨٠١/٢).

(٢) انظر: الكشاف (٣/٣)، مفاتيح الغيب (٥٠٧/٢١)، تفسير البيضاوي (٥/٤). وفي (حاشية القونوي على البيضاوي) (١٨٨/١٢): "وقد مرَّ في (آل عمران) أن سنه كان تسعًا وتسعين، وسن امرأته كان ثمانية وتسعين، وهذا هو الظاهر الراجح؛ إذ ما ذكره من وهن العظم الخ. يناسبه؛ إذ ما ذكره المصنف هنا سوى الأخير لا يلائمه؛ إذ العادة قاضية أن من كان سنه ستين أو سبعين، أو خمسة وسبعين لا يبلغ هذه المرتبة، لا سيما صاحب النبوة، وذو القوة القدسية".

وثانيها: أن المستحب: أن يذكر في مقدمة الدعاء: عجز النفس وضعفها، كما في قوله جَلَّ وَعَلَا عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم:٤]، ثم يذكر كثرة نعم الله عَزَّوَجَلَّ على ما في قوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾ [مريم:٤].

وثالثها: أن يكون الدعاء لأجل شيء متعلق بالدين، لا لمحض الدنيا(١)، كما قال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي﴾ [مريم:٥]. وأن يكون الدُّعاء بلفظ: (يا ربِّ) ونحوه، إلى غير ذلك"(٢).

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: "وجه خوفه: أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفًا سيئًا فسأل الله عَزَّوَجَلَّ ولدًا يكون نبيًّا من بعده؛ ليسوسهم بنبوته بما يوحى إليه، فأجيب في ذلك، لا أنه خشي من وراثتهم له ماله؛ فإن النبي أعظم منزلة، وأجل قدرًا من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده، وأن يأنف من وراثة عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد؛ ليحوز ميراثه دونهم وهذا وجه. الثاني: أنه لم يذكر أنه كان ذا مال، بل كان نجارًا يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالًا، ولا سيما الأنبياء؛ فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا. الثالث: أنه قد ثبت في (الصحيحين) من غير وجه: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا نورث ما تركنا صدقة». وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: «نحن معشر الأنبياء لا نورث» وعلى هذا فتعين حمل قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي﴾ [مريم:٥-٦]، على ميراث النبوة؛ ولهذا قال: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم:٦]، كقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل:١٦]، أي: في النبوة؛ إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة؛ إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل: أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها، وكل هذا يقرره ويثبته ما صح في الحديث: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة»". تفسير ابن كثير (٣/٣٦٤-٣٦٥).

(٢) تفسير الرازي (٢١/٥١٩).

قال ابن المنير الإسكندري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الانتصاف): "وحسبك في تعين الإسرار في الدعاء: اقترانه بالتضرع في الآية. فالإخلال به كالإخلال بالضراعة إلى الله عَزَّوَجَلَّ في الدعاء. وإن دعاء لا تضرع فيه ولا خشوع لقليل الجدوى، فكذلك دعاء لا خفية ولا وقار يصحبه. وترى كثيرًا من أهل زمانك يعتمدون الصراخ والصياح في الدعاء، خصوصًا في الجوامع، حتى يعظم اللغط ويشتدُّ، وتستكُّ المسامع وتستدُّ، ويهتز الداعي بالناس، ولا يعلم أنه جمع بين بدعتين: رفع الصوت في الدعاء، وفي المسجد، وربما حصلت للعوامِّ حينئذ رقة لا تحصل مع خفض الصوت، ورعاية سمت الوقار، وسلوك السنة الثابتة بالآثار. وما هي إلا رقة شبيهة بالرقة العارضة للنساء والأطفال، ليست خارجة عن صميم الفؤاد؛ لأنها لو كانت من أصل، لكانت عند اتباع السنة في الدعاء. وفي خفض الصوت به، أوفر وأوفى وأزكى. فما أكثر التباس الباطل بالحق، على عقول كثيرة من الخلق! اللهم أرنا الحقَّ حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه"(١).

والحاصل أن الدعاء سرًّا أبعد عن الرياء، وأقرب إلى الصفاء والإخلاص -على ما تقدم-.

وقد قيل: إن أنواع الاعتداء بالدعاء كثيرة، منها -كما تقدم-: الجهر الكثير المفرط (٢).

---

(١) الانتصاف، لابن المنير (٢/١١٠).

(٢) انظر: أحكام القرآن، لابن الفرس (٣/٥٢-٥٣).

وفي (الصحيح): عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنَّا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سَفَر، فَجَعَلَ النَّاسُ يجهرونَ بالتَّكبير، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا أيها الناس ارْبَعُوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أَصَمَّ ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا، وهو معكم**»(١).

قال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله: «**اربعوا على أنفسكم**»، يريد: أمسكوا عن الجهر، وقفوا عنه، وأصل هذه الكلمة من قولك: ربع الرجل بالمكان: إذا وقف عن السير وأقام به. ويقال للرجل: ارْبَعْ على نفسك، واربع عليك، أي: قف. وقيل: معناه: ارفق بنفسك. ويقال: معناه: انتظر"(٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "(ارْبَعُوا) -بهمزة وصل، وبفتح الباء الموحدة- معناه: ارْفُقُوا بأنفسكم، واخفضوا أصواتكم؛ فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لبعد من يخاطبه ليسمعه وأنتم تدعون الله عَزَّوَجَلَّ، وليس هو بأصم، ولا غائب، بل هو سميع قريب، وهو معكم بالعلم والإحاطة. ففيه: الندب إلى خفض الصوت بالذكر إذا لم تدع حاجة إلى رفعه؛ فإنه إذا خفضه كان أبلغ في توقيره وتعظيمه، فإن دعت حاجة إلى الرفع رفع، كما جاءت به أحاديث"(٣).

---

(١) صحيح البخاري [٢٩٩٢، ٤٢٠٥، ٦٣٨٤، ٦٦١٠، ٧٣٨٦]، مسلم [٢٧٠٤].

(٢) أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) (١٤٢٤/٢)، وانظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (ربع) (١٢١٢/٣).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٢٦/١٧).

ورَوَى ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن ابن جريج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن من الدعاء اعتداءً، يُكره رفعُ الصوتِ والنداءُ والصياحُ بالدعاء، ويُؤمر بالتضرُّع والاستكانة[(١)]. وأخرج ابن أبي حاتم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مثله: عن زيد بن أسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث كان يرى أن الجهر بالدعاء الاعتداء[(٢)].

وفسره أبو مجلز رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسؤال منازل الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وفسره سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالدعاء على المؤمن والمؤمنة بالشر، اللهم اخزه والعنه، ونحو ذلك؛ فإن ذلك عدوان. أخرج ذلك: ابن أبي حاتم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (التفسير)[(٣)].

قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولا يخفى أن هذا جميعه مما يشمله الاعتداء"[(٤)].

وفي (تفسير أبي المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ): "قيل: من الاعتداء في الدعاء: أن يسأل لنفسه درجة ليس من أهلها؛ بأن يسأل درجة الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وليس بنبي، ودرجة الشهداء، وليس بشهيد"[(٥)].

---

(١) تفسير الطبري (١٢/٤٨٧). قال في (الدر المنثور) (٣/٤٧٦): "أخرجه ابن جرير، وأبو الشيخ: عن ابن جريج".

(٢) روى ابن أبي حاتم: "عن عبد الرحمن بن أبي الرجال، عن زيد بن أسلم في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾ [الأعراف:٥٥]، قال: كان يرى أن الجهر بالدعاء الاعتداء" تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٥/١٥٠٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٥/١٥٠٠).

(٤) الإكليل في استنباط التنزيل (ص:١٣٠).

(٥) تفسير أبي المظفر السمعاني (٢/١٨٩).

قال الألوسي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وإن منه: ما ذهب جمع إلى أنه كفر، كطلب دخول إبليس وأبي جهل وأضرابهما الجنة، وطلب نزول الوحي.. ونحو ذلك من المستحيلات؛ لما فيه من طلب إكذاب الله عَزَّوَجَلَّ نفسه" (١).

وفي (تبيين المحارم): "ومن أنواع الدعاء ما هو كفر، كأن يدعو بالمغفرة لمن مات كافرًا، وتعين موته على الكفر، كأبي جهل، وفرعون، ونمرود وأحزابهم؛ فإن النص القاطع المجمع عليه يدل على أن الله عَزَّوَجَلَّ ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨]، فالدعاء بالمغفرة لمن مات كافرًا يستلزم تكذيب النَّص القاطع، وهو كفر، ولو دعا لكافر حي بأن يقول: اللهم اهده للإيمان، اللهم اجعله مسلمًا، ونحو ذلك، يجوز له ذلك" وتفصيل ذلك في (تبيين المحارم) (٢). وفي (تفسير أبي السعود رَحِمَهُ اللَّهُ): "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾ [الأعراف:٥٥]، أي: لا يحب دعاء المجاوزين لما أمروا به في كل شيء، فيدخل فيه: (الاعتداء في الدعاء) دخولًا أوليًّا. وقد نبَّه به على أن الداعي يجب أن لا يطلب ما لا يليق به، كرتبة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، والصعود إلى السماء. وقيل: هو الصياح في الدعاء، والإسهاب فيه"(٣).

وفي الحديث: «**سيكون قوم يعتدون في الدعاء**».

وفي رواية: عن أبي العلاء، قال: سمع عبد الله بن المغفل ابنا له، وهو يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة، قال: يا بني، إذا سألت، فاسأل الله

---

(١) روح المعاني (٤/٣٧٩).

(٢) انظر: تحقيقنا لـ: (تبيين المحارم)، لسنان الدين يوسف بن عبد الله الأماسي، باب: (التعدي في الدعاء).

(٣) تفسير أبي السعود (٣/٢٣٣).

الجنة، وتعوذ به من النار، فإني سمعت رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**يكون في آخر الزمان قوم يعتدون في الدعاء والطهور**»(١).

قال التُّورِبِشْتِي رَحِمَهُٱللَّهُ في (شرح المصابيح): "أنكر الصحابي على ابنه في هذه المسألة؛ لأنه طمع ما لم يبلغه عملًا وحالًا، حيث سأل منازل الأنبياء عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ والأولياء، وجعلها من باب: (الاعتداء في الدعاء)؛ لما فيها من التجاوز عن حدِّ الأدب، ونظر الداعي إلى نفسه بعين للكمال"(٢).

وأما (التعدِّي في الطَّهور): فهو أن يغسِلَ الأعضاءَ أكثرَ من ثلاثِ مرَّات، أو أسرفَ في إراقةِ الماءِ في الاستنجاء والوضوء والغُسْل(٣).

وذهب بعضهم إلى أن رفع الصوت بالدعاء لا بأس به، ودعاء المعتدين الذي لا يحبه الله عَزَّوَجَلَّ هو: طلب ما لا يليق بالداعي، كرتبة الأنبياء عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ، والصعود إلى السماء.

قال الألوسي رَحِمَهُٱللَّهُ: "وفصل آخرون فقالوا: الإخفاء أفضل عند خوف الرياء، والإظهار أفضل عند عدم خوفه، وأولى منه: القول بتقديم الإخفاء على الجهر فيما إذا خيف الرياء أو كان في الجهر تشويش على نحو مصل، أو نائم، أو قارئ، أو

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٩٤١١]، وأحمد [١٦٨٠١]، وابن ماجه [٣٨٦٤]، وأبو داود [٩٦]، والروياني [٨٩٧]، وابن حبان [٦٧٦٤]، والطبراني في (الدعاء) [٥٩]، والحاكم [٥٧٩]، والبيهقي في (السنن) [٩٤٧]، من حديث: عبد الله بن مغفل.

(٢) الميسر في شرح مصابيح السنة، للتُّورِبِشْتِي (١/١٤٨)، وانظر: فيض القدير (٤/١٣٠).

(٣) المفاتيح في شرح المصابيح (١/٤٠٤).

مشتغل بعلم شرعي، وبتقديم الجهر على الإخفاء فيما إذا خلا عن ذلك، وكان فيه قصد تعليم جاهل، أو نحو إزالة وحشة عن مستوحش، أو طرد نحو: نعاس أو كسل عن الداعي نفسه، أو إدخال سرور على قلب مؤمن، أو تنفير مبتدع عن بدعة، أو نحو ذلك، ومنه: الجهر بالترضي عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والدعاء لإمام المسلمين في الخطبة. وقد سنَّ الشافعية الجهر بآمين بعد الفاتحة، وهو دعاء، ويجهر بها الإمام والمأموم عندهم.

وفرق بعضهم بين رفع الصوت جدًّا، كما يفعله المؤذنون في الدعاء بالفرج على المآذن، وبين رفعه بحيث يسمعه من عنده، فقال: لا بأس في الثاني غالبًا ولا كذلك الأول. والظاهر أن المراد بالمعتدين: المجاوزون ما أمروا به في كل شيء، ويدخل فيها: المعتدون في الدعاء دخولا أوليًّا -كما تقدم-. وقد اختلف العلماء في كفر من دعا على آخر بسلب الإيمان، أو الموت كافرًا، وهو من أعظم أنواع الاعتداء، والمفتي به: عدم الكفر"[1].

وفي (تبيين المحارم): "اختلف العلماء في الدعاء، الإخفاء أفضل فيه أم العلانية؟

ذهب كثيرون [2] إلى أن الدعاء خفية أفضل.

وقيل: العلانية أفضل؛ لترغيب الغير في الاقتداء به.

وقيل: إن خاف على نفسه الرياء فالإخفاء أفضل، وإلا فالعلانية أفضل.

---

(١) روح المعاني (٣٧٩/٤).

(٢) في نسخة: "الأكثرون".

وقيل: إن كان معه جماعة حاضرين بعضهم وقع أبعد منه بحيث لا يرونه يدعو فالعلانية أفضل، يسمعون دعاءه، فيؤمنون وإلا فالإخفاء أفضل، والأكثرون على أن الإخفاء أفضل في الدعاء والذكر، مع أن أكثر المفسرين في هذه الآية قالوا: قيل: المراد بالاعتداء: رفع الصوت، والنداء، والصياح.

واعلم أن رفع الصوت في الدعاء، وقراءة القرآن، إنما يجوز إذا لم يكن هناك موانع، فأما إذا كان موانع، بأن يشوش على المصلين، والذاكرين، والطائفين، والمتفكرين، والمشغولين بأورادهم، والمدرسين العلم، فكل من كان في عبادة فإن رفع الصوت بهذه الأشياء في هذه المواضع منهي عنه عند الأئمة الأربعة" اهـ.

وفي الحديث: عن فروة بن عمرو البياضي أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج على الناس وهم يصلون، وقد علت أصواتهم بالقراءة، فقال: «**إن المصلي يناجي ربه** عَزَّ وَجَلَّ **فلينظر بما يناجيه، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن**»[1].

وقد ورد أن من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من يدخر لنفسه عبادات في السرِّ، يخلصون فيها لله عَزَّ وَجَلَّ، ويدخرونها ليوم المعاد، كبلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد دلَّ على ذلك: ما جاء عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رأيتني دخلت الجنة، فإذا أنا بالرميصاء، امرأة أبي طلحة، وسمعت خشفة، فقلت: من هذا؟ فقال: هذا بلال،**

---

(١) أخرجه مالك في (الموطأ) [٢٦٤]، وأحمد [١٩٠٢٢] قال الهيثمي: (٢/٢٦٥): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح"، وأخرجه أيضًا: النسائي في (الكبرى) [٣٣٥٠]، والبيهقي في (السنن) [٤٧٠٤]، وانظر: نتائج الأفكار، لابن حجر (٢/١٧).

ورأيت قصرًا بفنائه جارية، فقلت: لمن هذا؟ فقال: لعمر، فأردت أن أدخله فأنظر إليه، فذكرت غيرتك»، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بأبي وأمي يا رسول الله أعليك أغار؟[1].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لبلالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند صلاة الفجر: «يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام؛ فإني سمعت دَفَّ نَعْلَيْكَ بين يَدَيَّ في الجنة»، قال: ما عملت عملًا أرجى عندي: أني لم أتطهر طهورًا، في ساعة ليل أو نهار، إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي. قال أبو عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «دَفَّ نَعْلَيْكَ»، يعني: تحريك[2].

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: أصبح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدعا بلالًا فقال: «يا بلال بم سبقتني إلى الجنة؟ ما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي، دخلت البارحة الجنة فسمعت خشخشتك أمامي، فأتيت على قصر مربع مشرف من ذهب، فقلت: لمن هذا القصر؟ فقالوا: لرجل من العرب، فقلت: أنا عربي، لمن هذا القصر؟ قالوا لرجل من قريش، فقلت: أنا قرشي، لمن هذا القصر؟ قالوا: لرجل من أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلت: أنا محمد لمن هذا القصر؟ قالوا:

---

(١) صحيح البخاري [٣٦٧٩]، مسلم [٢٤٥٧].

(٢) صحيح البخاري [١١٤٩]، مسلم [٢٤٥٨]. وعند مسلم: «فإِنِّي سمعت اللَّيلة خَشْفَ نعليك» الحديث.

لعمر بن الخطاب. فقال بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: يا رسول الله ما أذنت قط إلا صليت ركعتين، وما أصابني حدث قط إلا توضأت عندها، ورأيت أن لله عليَّ ركعتين»**(١).

قال ابن التين رَحِمَهُ اللَّهُ: إنما اعتقد بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذلك؛ لأنه علم من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الصلاة أفضل الأعمال، وأن عمل السر أفضل من عمل الجهر.

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ في (الفتح): والذي يظهر أن المراد بالأعمال التي سأله عن إرجائها: الأعمال المتطوع بها، وإلا فالمفروضة أفضل.

وقال المهلب رَحِمَهُ اللَّهُ: فيه أن الله عَزَّ وَجَلَّ يعظم المجازاة على ما يسره العبد من عمله(٢).

وجاء في (مقاصد الرعاية) في (تفضيل عمل السر على عمل العلانية): "اختلف العلماء في ذلك:

فقالت فرقة: عمل السرِّ أفضل من عمل العلانية؛ للقدوة، وغير القدوة.

وعمل العلانية للقدوة أفضل من عمل العلانية لغير القدوة.

---

(١) أخرجه أحمد [٢٣٠٤٠]، والترمذي [٣٦٨٩]، واللفظ له، وقال: "حسن صحيح غريب. قال: ومعنى هذا الحديث: «أني دخلت البارحة الجنة» يعني: رأيت في المنام كأني دخلت الجنة، هكذا روي في بعض الحديث، ويروى عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «رؤيا الأنبياء وحي»" اهـ. والحديث أخرجه أيضًا: ابن خزيمة [١٢٠٩]، وابن حبان [٧٠٨٦]، والحاكم [١١٧٩، ٥٢٤٥]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي.

(٢) فتح الباري، لابن حجر (٣٤/٣)، وانظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٤٣/٣)، عمدة القاري (٢٠٧/٧)، نيل الأوطار (٨٦/٣).

والفرق بينهما أنه في إظهار عمل السر لا يأمن الرياء، فيمكنه أن يحفظ عمله عن الرياء بإسراره وإخفائه، وحفظ إخلاص العمل أولى من المخاطرة به.

وأما عمل العلانية فلا يقدر على التحرز فيه من الرياء.

وقالت طائفة: عمل السر أفضل من عمل العلانية لغير القدوة، وعمل العلانية للقدوة أفضل من عمل السرِّ؛ لأن من تسبب إلى خير أو سن سنة حسنة أجر على ذلك أجرين، أو أجورًا كثيرة على عدد المقتدين به، ورُوِيَ: «**إن الرجل ليعمل العمل، فيكتب له عمل صالح معمول به في السِّرِّ يُضَعَّفُ أجره سبعين ضعفًا**»(١).

وعمل السر: ما شرع إسراره من أول أمره، كالنوافل، والأذكار.

وعمل العلانية: ما شرعت العلانية في أول أمره، أو ما لا يتأتى عمله إلا في العلانية، كعيادة المرضى، وتشييع الجنائز، وحضور الأعياد.

---

(١) أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٦٣٩٤]: عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وضعفه فقال: "هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين". قال الحافظ العراقي: "حديث: (تفضيل عمل السر على عمل الجهر بسبعين) ضعفه البيهقي في الشعب من حديث: أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الرجل ليعمل العمل، فيكتب له عمل صالح معمول به في السر يضعف أجره سبعين ضعفًا»، قال البيهقي هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين، وروى ابن أبي الدنيا في كتاب: (الإخلاص) من حديث: عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بسند ضعيف: «يفضل الذكر الخفي الذي لا تسمعه الحفظة على الذكر الذي تسمعه الحفظة سبعين درجة»" المغني عن حمل الأسفار (ص:١٢٠٤). وحديث: عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -الآنف الذكر- أخرجه أبو يعلى [٤٧٣٨]، بسند ضعيف، والبيهقي في (شعب الإيمان) من طريق: ابن أبي الدنيا [٥٥١]، وقال: "تفرد به معاوية بن يحيى الصدفي، وهو ضعيف" وانظر: مجمع الزوائد (١٠/٨١).

فالإسرار بأعمال السر أولى، إلا رجاء الاقتداء لمن يأمن الرياء، وعمل العلانية مع مجاهدة النفس من خطرات الرياء أولى من تركه مخافة الرياء.."[1].

والأَوْلى بالعبد -كما تقرر- أن تكون له خبيئة من عمل صالح يدخرها، مضافة إلى أعماله الظاهرة المطلوبة، وهذه الخبيئة لها أثر ونفع من أكثر من جهة، كالسلامة من الرياء -كما تقرَّر-، والتعود على الإخلاص في سائر الأحوال من غير التفات على الناس.

والإنسان بحاجة بين الفينة والأخرى إلى وقفة محاسبة يختلي فيها مع نفسه، فيستدرك ما فاته، ويراجع ما صدر منه من أخطاء وزلات، فيتدارك النقص، ويقوم الاعوجاج.

ومن الأوقات الفاضلة في (عبادة الخفاء): الخلوة وقت النزول الإلهي، لمناجاة الله عَزَّوَجَلَّ، وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب، والتأدب بأدب العبودية بين يديه.

ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

وفي الأسحار نسمات ينالها المقربون، ففي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إذا مضى شطر الليل، أو ثلثاه، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا، فيقول: هل من سائل يعطى؟ هل من داع يستجاب له؟ هل من مستغفر يغفر له؟ حتى ينفجر الصبح**»[2]، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ

---

(١) مقاصد الرعاية لحقوق الله عَزَّوَجَلَّ أو مختصر رعاية المحاسبي (ص:١٠١-١٠٢)، بتصرف يسير، الرعاية لحقوق الله، لأبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي (ص:٢٦٦).

(٢) صحيح مسلم [٧٥٨].

إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ۝١٧﴾ [آل عمران:١٦-١٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝١٨﴾ [الذاريات:١٧-١٨].

وقد كان السَّلَفُ يفرحون بقدوم (فصل الشِّتَاء)؛ لِقِصَرِ نَهارِهِ لِلصَّائم، وطُولِ لَيْلِهِ للقائم، فيتقربون إلى الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الفصل بعبادتين من (عبادات الخفاء)، وهما: الصيام والقيام، مضافتين إلى جليل أعمالهم الظاهرة؛ ولذلك كانوا يعدُّون هذا الفصل من فصول العام غنيمةً باردة، يرْتعون فيه في بساتين العبادات، ويَسْرَحُون فيه في ميادين الطَّاعَاتِ والقُرُبَات، ويسبغون فيه الوضوء مع شدَّةِ البرد؛ رجاء محو الخطايا والسيئات، وطمعًا في رفعة الدرجات. كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ألا أَدُلُّكُمْ على ما يَمْحُو اللهُ به الْخَطَايَا، ويرفَعُ به الدَّرجَاتِ؟**»، قالوا: بلى يا رسولَ الله، قال: «**إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ على الْمَكَارِه، وكَثْرَةُ الْخُطَا إلى المساجِد، وانتظار الصَّلَاةِ بعد الصَّلاة، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ**»(١).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فذلك الرباط**» إنما هو تشبيه بالرباط في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ؛ إذ انتظار الصلاة إنما هو سبيل من السبل المنجية(٢)، كما سيأتيك في بيان فضل الرباط، وأنه من المنجيات من العذاب.

(١) صحيح مسلم [٢٥١].
(٢) المحرر الوجيز (٥٦٠/١)، وانظر: تفسير القرطبي (٣٢٣/٤-٣٢٤)، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص:٤١٨).

وقد قيل إن المخلص: من يخفي حسناته كما يخفي سيئاته، فهذا من قبيل المدح والثناء لمرتبة عالية من مراتب الإخلاص تحمل العبد على إخفاء جليل أعماله التي يتقرب بها إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد تقدم بيان ذلك في بيان ثمرات: (عبادة الخفاء).

وقد يحتاج المكلف إلى العزلة والخلوة في بعض الأحوال، حيث لا يكون للمخالطة أثر نافع، بل قد يترتب على المخالطة -والحالة هذه- مخاطر وآثار مضرّة.

وقد تدفع العزلة في بعض الأحوال شرًّا أو بلاء قد يصب من بلغ شهرة بين الناس؛ ولذلك قال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن عُرِفَ خُصَّ بالبلاء)**(١).

وقال ابن عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الحكم): **(ادْفِنْ وجودَك في أرضِ الخمولِ، فما نَبتَ مما لم يُدْفَنْ لا يَتِمُّ نَتَاجُه)**، أي: ادفن نفسك، أي: شهرتها في الخمول، الذي هو كالأرض للميت في التغطية التامة بأن لا تتعاطى أسباب الشهرة؛ فإن الخمول مما يعين على الإخلاص، بخلاف حب الظهور؛ فإنه من جملة القواطع القاصمة للظهور.

(فما نبت) من الحَب، (مما لم يدفن) في الأرض لا يتم نتاجه، بل يخرج مصفرًا.

وأنشد بعضهم:

عِشْ خاملَ الذِّكْر بين الناسِ، وارضَ به ... فذاك أسلمُ للدنيا، وللدين
مَنْ عاشرَ النَّاسَ لم تسلمْ ديانَتُهُ ... ولم يزَلْ بين تحريكٍ وتسكين(٢)

---

(١) انظر: روح المعاني (١/١٤٥).

(٢) انظر: إيقاظ الهمم (ص:٥٣).

وقال ابن عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ما نَفَعَ القلبَ شيءٌ مثل عُزْلَةٍ يدخلُ بها مَيْدَانَ فكرة)** (١).

ولا يخفى أن الشهرة قد تجلب علائق من حظوظ النفس تصحب الأعمال، ربما يعسر على كثيرين التحرر منها، أو معالجتها.

والعبد بحاجة بين الفينة والأخرى إلى عُزْلَةٍ يتحرر فيها من حظوظ النفس.

ومما يدل على هذا المعنى المثمر: قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بالأبواب، لو أقسم على الله لَأَبَرَّهُ**»(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال: «**تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مُغْبَرَّةٍ قدماه، إن كان في الحراسة، كان في الحراسة، وإن كان في السَّاقَةِ كان في السَّاقَةِ، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ**»، وقال: فتعسًا: كأنه يقول: فأتعسهم الله، طُوبَى: فُعْلَى من كُلِّ شيء طيب، وهي ياء حولت إلى الواو، وهي من يطيب (٣).

---

(١) انظر: إيقاظ الهمم (ص:٥١-٥٧)، شرح الشيخ الشرنوبي (ص:٢٤-٢٥). شرح ابن عباد (ص:٤٨)، و(ص:١١٤).

(٢) تقدم.

(٣) صحيح البخاري [٢٨٨٧].

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سمعه يقول: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«حوضي كما بين عدن وعمان، أبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحًا من المسك، أكوابه مثل نجوم السماء، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا، أول الناس عليه ورودًا: صعاليك المهاجرين»**، قال قائل: ومن هم يا رسول الله؟ قال: **«الشَّعِثَةُ رُؤوسُهُمْ، الشَّحِبَةُ وجُوهُهُمْ، الدَّنِسَةُ ثِيَابُهُمْ، لا يُفْتَحُ لهم السُّدَدُ، ولا يَنْكِحُونَ الْمُتَنَعِّمَاتِ الذين يُعْطُونَ كُلَّ الذي عليهم، ولا يَأْخُذُونَ الذي لهم»** (١).

وعن أبي سَلَّامٍ الأسود، قال: بلغ عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه يُحَدِّثُ عن ثوبان حديث: أبي الأحوص، قال: فبعث إليه فحمل على البريد، قال: فلما انتهى إليه فدخل عليه سلم وقال: يا أمير المؤمنين لقد شقَّ على رِجْلِي مَرْكَبِي من البريد، قال: فقال عمر كالمتوجِّع: ما أردنا المشقَّةَ عليك يا أبا سلَّام، ولكن بلغني حديث تحدِّثُه، عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحوض فأحببت أن تشافهني به مشافهةً. قال أبو سلَّام: سمعت ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) أخرجه أحمد [٦١٦٢]، والطبراني في (الكبير) [١٤١٠٤]: عن عمر بن عمرو الأحموسي، عن المخارق بن أبي المخارق، قال: سمعت عبدالله بن عمر.. قال الهيثمي (١٠/٣٦٦): "رواه أحمد، والطبراني من رواية: عمرو بن عمر الأحموسي، عن المخارق بن أبي المخارق، واسم أبيه: عبد الله بن جابر، وقد ذكرهما ابن حبان في (الثقات)، وشيخ أحمد: أبو المغيرة من رجال الصحيح". قال المنذري في (الترغيب والترهيب) (٤/٢٢٧): "رواه أحمد بإسناد حسن. قوله: «الشحبة» بفتح الشين المعجمة، وكسر الحاء المهملة، بعدها باء موحدة، هو من الشحوب، وهو تغير الوجه من جوع أو هزال أو تعب. وقوله: «لا تفتح لهم السدد» أي: لا تفتح لهم الأبواب".

«حوضي ما بين عَدَنٍ إلى عُمَانَ الْبَلْقَاء، ماؤُه أشدُّ بياضًا من اللَّبن، وأحلى من العسل، وأكوابه عددُ النُّجوم، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا، أوَّل الناس ورودًا عليه: فقراء المهاجرين، الشُّعْثُ رُءوسًا، الدُّنْسُ ثِيَابًا، الذين لا يَنْكِحُونَ الْمُنَعَّمَات، ولا تُفْتَحُ لهم السُّدَدُ»، قال: فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«لكني قد نَكَحْتُ الْمُنَعَّمَات -فاطمةَ بِنْتَ عبد الْمَلِك- وفُتِحَتْ لِي السُّدَدُ، لا جَرَمَ أَنِّي لا أَغْسِلُ رَأْسِي حتى يَشْعَثَ، ولا ثَوْبِيَ الذي يَلِي جَسَدِي حتى يَتَّسِخَ»**(١).

وعن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: مَرَّ رجل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال لرجل عنده جالس: **«ما رأيك في هذا؟»**، فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حَرِيٌّ إن خطب أن يُنْكَحَ، وإن شفع أن يُشَفَّعَ، قال: فسكت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم مرَّ رجل آخر، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما رأيك في هذا؟»** فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حَرِيٌّ إن خطب أن لا يُنْكَحَ، وإن شفع أن لا يُشَفَّعَ، وإن قال أن لا يسمع لقوله، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«هذا خَيْرٌ من مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هذا»** (٢).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "وفي الحديث: أن السيادة بمجرد الدنيا لا أثر لها، وإنما الاعتبار في ذلك بالآخرة، وأن الذي يفوته الحظ من الدنيا يعاض عنه بحسنة

---

(١) أخرجه ابن ماجه [٤٣٠٣]، والترمذي [٢٤٤٤]، والحاكم [٧٣٧٤]، واللفظ له، وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح البخاري [٥٠٩١، ٦٤٤٧].

الآخرة. قال: ويتبين من سياق طرق القصة أن جهة تفضيله إنما هي لفضله بالتقوى"(١).

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فهذان رجلان أحدهما من أشراف القوم، وممن له كلمة فيهم، وممن يجاب إذا خطب، ويسمع إذا قال، والثاني بالعكس، رجل من ضعفاء الناس ليس له قيمة، إن خطب فلا يجاب، وإن شفع فلا يشفع، وإن قال فلا يسمع.

فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هذا خير من ملء الأرض مثل هذا**»، أي: خير عند الله عَزَّوَجَلَّ من ملء الأرض من مثل هذا الرجل الذي له شرف وجاه في قومه؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ ليس ينظر إلى الشرف، والجاه، والنسب، والمال، والصورة، واللباس، والمركوب، والمسكون، وإنما ينظر إلى القلب والعمل، فإذا صلح القلب فيما بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ، وأناب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وصار ذاكرًا لله جَلَّ وَعَلَا، خائفًا منه، مخبتًا إليه، عاملًا بما يرضي الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا هو الكريم عند الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا هو الوجيه عنده، وهذا هو الذي لو أقسم على الله لأبره. فيؤخذ من هذا فائدة عظيمة، وهي أن الرجل قد يكون ذا منزلة عالية في الدنيا، ولكنه ليس له قدر عند الله عَزَّوَجَلَّ، وقد يكون في الدنيا ذا مرتبة منحطة، وليس له قيمة عند الناس، وهو عند الله عَزَّوَجَلَّ خير من كثير ممن سواه"(٢).

---

(١) فتح الباري (١١/٢٧٨).

(٢) شرح رياض الصالحين (٣/٥٢-٥٣).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد تنازع الناس أيما أفضل: الفقير الصابر أو الغني الشاكر؟ والصحيح: أن أفضلهما أتقاهما؛ فإن استويا في التقوى استويا في الدرجة"(١).

وهذا البيان جد نفيس، وهو الذي تؤيده النصوص في الكتاب والسنة -كما تقرر في غير موضع-.

وقد تقدم أن الله عَزَّوَجَلَّ لا ينظر إلى صور الناس الظاهرة، ولا إلى أجسادهم وأموالهم، ولكن ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في النص على أن مقياس التفاضل بين الناس إنما هو التقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون:١٠١-١٠٣]. وقد تقدم كذلك حديث: «**لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أسود على أحمر، ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى**».

وأما ما جاء في العزلة عند وقوع الفتن، واختلاط الأمور: فقد أرشد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى ما ينبغي فعله عند وقوع الفتن، واختلاط الأمور، ومتى يجب اعتزال

(١) مجموع الفتاوى (١١/٢١).

الفتنة والناس، فمن ذلك: ما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ويل للعرب من شر قد اقترب، أفلح من كف يده**»(١).

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: "والإمساك فِي الفتنة سنة ماضية، واجب لزومها، فإن ابتليت فقدم نفسك دون دينك، ولا تعن على فتنة بيد ولا لسان، ولكن اكفف يدك ولسانك وهواك، -والله المعين-"(٢).

وأرشد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته عن كيفية التعامل مع الواقع عندما لا يكون أمرُ النَّاس مستقيمًا، ينقضون العهود، ويخونون الأمانات، كما جاء في الحديث: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: بينما نحن حول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ ذكر الفتنة، فقال: «**إذا رأيتم الناس قد مرجت عهودهم، وخفت أماناتهم، وكانوا هكذا**»، وشبك بين أصابعه، قال: فقمت إليه، فقلت: كيف أفعل عند ذلك، جعلني الله فداك؟ قال: «**الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ بما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر خاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة**»(٣).

---

(١) أخرجه نعيم بن حماد في (الفتن) [٣٤٤]، وابن أبي شيبة [٣٧٢٥٢]، وأحمد [٩٦٩١] بإسناد صحيح، وأبو داود [٤٢٤٩]، وأبو نعيم في (الحلية) (٨/٢٦٥)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٤٩٤٥]، والديلمي [٧١٤٢].

(٢) طبقات الحنابلة (١/٢٧)، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل (ص:٨٩).

(٣) أخرجه أحمد من غير وجه، وابن ماجة [٣٩٥٧]، وأبو داود [٤٣٤٣]، والنسائي في (الكبرى) [٩٩٦٢]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٢٠٥]، والطبراني (١٣/٩)، [٤]، وأخرجه أيضًا: الحاكم [٧٧٥٨] وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي. والحديث قد روي عن عبد الله بن عمرو، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من غير وجه. قال العراقي (ص:٦٩٨): "أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة بإسناد حسن".

وعند أبي داود بلفظ: «**كيف بكم وبزمان**»، أو «**يوشك أن يأتي زمان يغربل الناس فيه غربلة، تبقى حثالة من الناس، قد مرجت عهودهم، وأماناتهم، واختلفوا، فكانوا هكذا**»، وشبك بين أصابعه، فقالوا: وكيف بنا يا رسول الله؟ قال: «**تأخذون ما تعرفون، وتذرون ما تنكرون، وتقبلون على أمر خاصتكم، وتذرون أمر عامتكم**». قال أبو داود: هكذا روي عن عبد الله بن عمرو، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير وجه (١).

قوله: «**يغربل الناس فيه**» -على بناء المفعول-، أي: يذهب خيارهم، ويبقى شرارهم وأراذلهم. و«**حثالة**» -بضم الحاء المهملة والثاء المثلثة-: الرديء من كل شيء، والمراد: سفلة الناس وأراذلهم. «**قد مرجت**» -بكسر الراء- على بناء الفاعل، أي: اختلطت وفسدت. فقلت فيهم أسباب الديانات.

وقوله: «**فكانوا هكذا**»، وشبك بين أصابعه. أي: يموج بعضهم في بعض، ويلتبس أمر دينهم، فلا يعرف الأمين من الخائن، ولا البر من الفاجر.

قوله «**عليك بما تعرف**»، أي: ألزم وافعل ما تعرف كونه حقًّا، واترك ما تنكر أنه حق، أي: ألزم. أمر نفسك واحفظ دينك، واترك الناس، ولا تتبعهم. وقيل: «**على خَاصَّتِكُمْ**»، أي: على من يختص بكم من الأهل والخدم (٢).

---

(١) سنن أبي داود [٤٣٤٢].

(٢) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٣٤١٤/١١)، حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٤٦٨/٢)، مرقاة المفاتيح (٣٣٩٤/٨).

قال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا رخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كثر الأشرار وضعف الأخيار. والإملاك: السد والإحكام، يعني سد لسانك، ولا تتكلم في أحوال الناس كيلا يؤذوك"(١).

وكذلك روي عن طائفة من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة:١٠٥]، قالوا: لم يأت تأويلها بعد، إنما تأويلها في آخر الزمان (٢).

وروي عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: فما دامت قلوبكم واحدة، وأهواؤكم واحدة، ولم تُلبَسوا شيعًا، ولم يَذُق بعضكم بأس بعض، فأمروا وانهوا. فإذا اختلفت القلوب والأهواء، وأُلبستم شيعًا، وذاق بعضكم بأس بعض، فامرؤ ونفسه، فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية (٣).

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن الزمان إذا كثر فيه الشر، وتعذرت فيه السلامة، طابت العزلة. والجليس الصالح -إذا وجد- خير من العزلة والوحدة"(٤).

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٣٤١٤/١١).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (٢٥٢/٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٤٤/١١)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (١٢٢٧/٤)، تفسير ابن كثير (٢١٤/٣)، الدر المنثور (٢١٦/٣)، السنن الكبرى، للبيهقي [٢٠١٩٤].

(٤) الاستذكار، لابن عبد البر (٣٨٦/١).

وقد بوب الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أن (العزلة راحة للمؤمن من خُلَّاطِ السوء) (١)، وروى حديث: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يوشك أن يكون خيرَ مال المسلم غَنَمٌ يَتْبَعُ بها شَعَفَ الجِبَال، ومَوَاقِعَ القَطْرِ، يَفِرُّ بدينه من الفتن**» (٢).

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(شعف الجبال): رؤوسها وأعاليها، واحدتها شعفة، وفيه بيان فضيلة العزلة أيام الفتن، وأنها للدين عصمة"(٣).

وقال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا الحديث يدل على إباحة الانفراد والاعتزال عند ظهور الفتن؛ طلبًا لإحراز السلامة في الدين؛ خشية أن تحل عقوبة فتعم الكل، وهذا كله من كمال الدين"(٤).

وقد بوب الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابًا بعنوان: (الفرار من الفتن من الدين) (٥)، قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وليس في الحديث إلا الإشعار بفضل من يفر بدينه من الفتن، لكن لما جعل الغنم خير مال المسلم في هذه الحال دل على أن هذا الفعل من خصال الإسلام، والإسلام هو الدين. وأصرح من دلالة هذا الحديث الذي خرجه في أول (الجهاد) من رواية الزهري، عن عطاء بن يزيد، عن أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قيل: يا

---

(١) صحيح البخاري (٨/١٠٣).

(٢) صحيح البخاري [١٩، ٣٣٠٠، ٣٦٠٠، ٦٤٩٥، ٧٠٨٨].

(٣) معالم السنن (٤/٣٤٣)، أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) (١/١٥٤).

(٤) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١/٧١).

(٥) صحيح البخاري (١/١٣).

رسول الله أي الناس أفضل؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله**»، قالوا: ثم من؟ قال: «**مؤمن في شعب من الشِّعَابِ يَتَّقِي الله، ويدع الناس من شَرِّهِ**»(١). وليس في هذا الحديث: ذكر الفتن. وخرجه أبو داود، وعنده: سئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أي المؤمنين أكمل إيمانا؟**»(٢) فذكره. وهذا فيه دلالة على أن (الاعتزال عن الشر) من الإيمان.

وفي (المسند)، و(جامع الترمذي): عن طاووس، عن أم مالك البهزية قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خير الناس في الفتنة: رجل معتزل في ماله، يعبد ربه، ويؤدي حقه، ورجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله**»(٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**أظلتكم فتن، كقطع الليل المظلم، أنجى الناس منها: صاحب شاهقة يأكل من رَسْلِ غنمه، أو رجل من وراء الدروب آخذ بعنان فرسه يأكل من فيء سيفه**»(٤).

---

(١) صحيح البخاري [٢٧٨٦، ٦٤٩٤]، مسلم [١٨٨٨].

(٢) سنن أبي داود [٢٤٨٥]، وأخرجه أيضًا: الحاكم [٢٣٩٠]، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي.

(٣) فتح الباري، لابن رجب (١/١٠٥-١٠٦). والحديث أخرجه: أخرجه أحمد [٢٧٣٥٣]، والترمذي [٢١٧٧]، وقال: "وفي الباب عن أم مبشر، وأبي سعيد، وابن عباس، وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وقد رواه الليث بن أبي سليم، عن طاووس، عن أم مالك البهزية، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ". وأخرجه أيضًا: الطبراني في (الكبير) [٣٦٠].

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في (مصنفه) [٣٧٢٦٣]، والبزار [٨٢٥٣]، والحاكم [٢٤٦٠]، وقال: "صحيح الإسناد" ووافقه الذهبي.

وعن شعبة عن خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم قال: قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**خذوا حظكم من العزلة**»(١). قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: وما أحسن قول الجنيد رَحِمَهُ اللَّهُ نفع الله ببركته: مكابدة العزلة أيسر من مداراة الخلطة. وقال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ لو لم يكن في العزلة إلا السلامة من الغيبة، ومن رؤية المنكر الذي لا يقدر على إزالته لكان ذلك خيرًا كثيرًا"(٢).

وقال القاضي أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ: وأمّا الفرار والعزلة في الفتنة فواجبٌ، وفيه النَّجاة إنَّ شاء الله عَزَّوَجَلَّ. وأمَّا إذا كانت الدَّعة، ولم يكن زمان فتنة، فمخالطة النَّاس والجماعة، وحضور الجمعة والجنائز، وحِلَق العلم أفضل من العُزلة"(٣).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأما الانقطاع، فينبغي أن تكون العزلة عن الشرِّ لا عن الخير، والعزلة عن الشر واجبة على كل حال". وقال: "ما أعرف للعالم قط لذة، ولا عزًّا ولا شرفًا، ولا راحةً، ولا سلامة أفضل من العزلة؛ فإنه ينال بها: سلامة بدنه،

---

(١) أخرجه وكيع بن الجراح في (الزهد) [٢٥٣]، وابن المبارك في (الزهد) (٣/٢)، وابن أبي الدنيا في (العزلة [١٣]، وابن أبي عاصم في (الزهد) [٨٤]، والخطابي في (العزلة) (ص:١١)، والبيهقي في (الزهد الكبير) [١٢٠]، وانظر: إحياء علوم الدين (٢٢٢/٢)، التمهيد، لابن عبد البر (٤٤٥/١٧-٤٤٦)، روضة العقلاء (ص:٨١)، عمدة القاري (٨٢/٢٣)، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٣٢٣٨/١٠)، التبصرة، لابن الجوزي (٢٨٨/٢).

(٢) فتح الباري، لابن حجر (٣٣١/١١)، العزلة، للخطابي (ص:٢٦).

(٣) المسالك في شرح موطأ مالك، للقاضي أبي بكر بن العربي (٥٣٣/٧).

ودينه، وجاهه، عند الله عَزَّوَجَلَّ، وعند الخلق؛ لأن الخلق يهون عليهم من يخالطهم، ولا يعظم عندهم قدر المخالط لهم"(١).

وذكر الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن مجامع فوائد العزلة -في وقت تشرع فيه- تنحصر في ست فوائد:

الأولى: التفرغ للعبادة والفكر، والاستئناس بمناجاة الله عَزَّوَجَلَّ عن مناجاة الخلق، والاشتغال باستكشاف أسرار الله جَلَّوَعَلَا في أمر الدنيا والآخرة، وملكوت السماوات والأرض؛ فإن ذلك يستدعي فراغًا، ولا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وسيلة إليه.

الثانية: التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالبًا بالمخالطة، ويسلم منها في الخلوة، وهي: الغيبة، والنميمة، والرياء، والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة، والأعمال الخبيثة التي يوجبها الحرص على الدنيا.

الثالثة: الخلاص من الفتن والخصومات، وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها، والتعرض لأخطارها، وقلما تخلو البلاد عن تعصبات، وفتن، وخصومات، فالمعتزل عنهم في سلامة منها.

الرابعة: الخلاص من شرِّ الناس؛ فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة، ومرة بسوء الظن والتهمة، وتارة بالنميمة، أو الكذب، فربما يرون منك من الأعمال أو الأقوال ما لا

---

(١) صيد الخاطر (ص:٥٦)، (ص:٢٤٥).

تبلغ عقولهم كنهه، فيتخذون ذلك ذخيرة عندهم يدخرونها لوقت تظهر فرصة للشرِّ، فإذا اعتزلتهم استغنيت من التحفظ عن جميع ذلك.

الخامسة: أن ينقطع طمع الناس عنك، وينقطع طمعك عن الناس:

فأما انقطاع طمع الناس عنك ففيه فوائد، فإن رضا الناس غاية لا تدرك، فاشتغال المرء بإصلاح نفسه أولى.

وأما انقطاع طمعك عنهم فهو أيضًا فائدة جزيلة؛ فإن من نظر الى زهرة الدنيا وزينتها تحرك حرصه، وانبعث بقوة الحرص طمعه، ولا يرى إلا الخيبة في أكثر الأحوال، فيتأذى بذلك. ومهما اعتزل لم يشاهد، وإذا لم يشاهد لم يشته، ولم يطمع.

السادسة: الخلاص من مشاهدة الثقلاء، والحمقى، ومقاساة حمقهم وأخلاقهم"(١).

---

(١) انظر ذلك مفصَّلًا في (إحياء علوم الدين) (٢/٢٢٦-٢٣٦)، وانظر: طرق العزلة وحكمها في (منهاج العابدين) (ص:٩٦)، طبعة الرسالة.

المبحث السادس:

إخلاص العمل والقصد والنية

الإرشاد إلى أسباب النجاة

أولًا: تعريف الإخلاص:

١ - الإخلاص لغة:

يقال: (خَلَصَ الشيءُ خُلُوصًا): إذا صار خالِصًا، و(خلَصَ فلان إلى فلان)، أي: وصل إليه، وخَلَصَ الشَّيْء خلاَصًا: نجا، وأَخْلَصه وخَلَّصه. والخَلاَصُ يكونُ مصدرًا للشَّيْء الخالِص.

و(خَلَصَ الْمَاءُ من الْكَدَر): صَفَا، وَخَلَّصْتُهُ -بالتَّثْقِيل-: مَيَّزْتُهُ من غيره.

و(خلاصةُ الشَّيء): ما صَفَا منه، مأخوذٌ من خُلَاصَةِ السَّمْن، وهو ما يُلْقَى فيه تَمْرٌ أو سَوِيقٌ؛ لِيَخْلُصَ به من بَقَايَا اللَّبَن [١].

قال الواحدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(خلص الشيء يخلص خلوصًا): "إذا ذهب عنه الشائب من غيره" [٢].

وأَخْلَص لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ دِينَه: أَمْحَضَه. وأَخْلَصَ الشيءَ: اختاره.

وقرئ: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝﴾ [الحجر: ٤٠]، و﴿الْمُخْلِصِينَ﴾.

قال ثعلب: يعني بالْمُخْلِصين: الذين أخلصوا العبادة لله عَزَّوَجَلَّ. وبالْمُخْلَصِين: الذين أخلصهم الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) انظر: العين، مادة: (خلص) (١٨٦/٤)، تهذيب اللغة (٦٤/٧)، الصحاح، للجوهري (١٠٣٧/٣)، المصباح المنير (١٧٧/١).

(٢) التفسير البسيط، لأبي الحسن الواحدي (٢٠١/١٢).

ونحوه قول الجرجاني رَحِمَهُ اللَّهُ: (المخلص): -بفتح اللام- هم الذين صفاهم الله عَزَّوَجَلَّ عن الشرك والمعاصي، -وبكسرها-: هم الذين أخلصوا العبادة لله عَزَّوَجَلَّ، فلم يشركوا به ولم يعصوه.

وقيل: من يخفي حسناته كما يخفي سيئاته [1].

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصًا﴾ [مريم:٥١]،وقرئ: ﴿مُخۡلِصًا﴾ -بكسر اللام-. واسْتَخْلَصَ الشَّيْءَ: كأَخْلَصَه. والخالِصةُ: الإخلاص. ولذلك قيل لسورة: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١]: (سورة الإخلاص). قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "سميت به؛ لأنها خالصة في صفة الله عَزَّوَجَلَّ خاصة، أو لأن اللافظ بها قد أخلص التوحيد لله جَلَّ وَعَلَا" [2].

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا﴾ [الأنعام:١٣٩]، قال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: "أما قوله: ﴿خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا﴾ فهو على ضربين: أجودهما: أن يكون أنَّث الْخَبَرَ، وجعل معنى: (ما) التأنيث؛ لأنها في معنى الجماعة، كأنَّهم قالوا: جَمَاعَةً مَا في بُطُون هذه الأنعام خالصة لذكورنا، وُيرَدُّ ﴿وَمُحَرَّمٌ﴾ على لفظ: (ما)، وقال بعضهم: أنثه لتأنيث الأنعام، والذي في بطون الأنعام ليس بمنزلة بعض الشيءِ، لأن قولك: (سَقَطَتْ بعض أَصَابعه) بعض أصابع: (إِصْبَعٌ) وهي واحدة منها، والذي في بطون

---

(١) انظر: التعريفات، للجرجاني (ص:٢٠٧).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (خلص) (٢/٦١).

الأنعام: مَا في بَطْن كل وَاحِدَ غيرها. ومَنْ قال: يجوز على أن الجملة: أنعام، فكأنه قال: وقالوا: الأنعام التي في بطون الأنعام خَالِصَةٌ لذكورنا.

قال: والقول الأول أبين؛ لقوله: ﴿وَمُحَرَّمٌ﴾؛ لأنه دليل على الحمل على المعنى في (ما) على اللفظ"(١).

و(كلمة الإخلاص): التوحيد.

وأخلصه النصيحة والحب، وأخلصه له.

وهم يتخالصون: يخلص بعضهم بعضًا.

والخالص من الألوان: ما صفا ونصع، أي لون كان.

والإخلاصة: الزبد إذا خلص من الثفل.

والخلوص: الثفل الذي يكون أسفل اللبن (٢). قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الخالص كالصافي، إلا أن الخالص هو ما زال عنه شوبه بعد أن كان فيه، والصافي قد يقال لما لا شوب فيه"(٣).

ويتبين مما تقدم أن مدار الإخلاص في اللغة قائم على الصفاء الذي زال عنه الشائب الذي يخالط الشيء.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق الزجاج (٢/٢٩٤-٢٩٥).

(٢) المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده، مادة: (خلص) (٥/٥٨-٥٩).

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة: (خلص) (ص:٢٩٢).

٢ – تعريف الإخلاص في الاصطلاح:

معنى الإخلاص: أن يكون قصد الإنسان في حركاته، وسكناته، وعباداته الظاهرة منها والباطنة، خالصًا لله عَزَّوَجَلَّ، لا يريد بعمله شيئًا من حطام الدنيا، ولا ينتظر ثناء الناس عليه.

قال الإمام الجنيد رَحِمَهُ اللَّهُ: "معنى الإخلاص: إفراد النية لله عَزَّوَجَلَّ، وحسن القصد إليه.

وقال: الإخلاص: سر بين العبد وبين الله عَزَّوَجَلَّ، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله [(١)].

وقال الإمام عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام رَحِمَهُ اللَّهُ: "الإخلاص: أن يفعل المكلف الطاعة خالصًا لله عَزَّوَجَلَّ وحده، لا يريد بها تعظيمًا من الناس ولا توقيرًا، ولا جلب نفع ديني، ولا دفع ضرر دنيوي"[(٢)].

وقال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "فحقيقة الإخلاص: التبري عن كل ما دون الله عَزَّوَجَلَّ"[(٣)].

وقال أبو القاسم القشيري رَحِمَهُ اللَّهُ: "الإخلاص: تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين.

ويقال: الإخلاص: فقد رؤية الأشخاص.

---

(١) انظر: الأعمال الكاملة للجنيد البغدادي، طبعة دار الشروق (ص:٢٥٨)، رسائل الجنيد (ص:١٢٩)، طبعة دار اقرأ، وانظر: تفسير القرطبي (١٤٦/٢).

(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١٤٦/١).

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة: (خلص) (ص:٢٩٣).

ويقال: هو أن يلاحظ محل الاختصاص.

ويقال: هو أن تنظر إلى نفسك بعين الانتقاص (١).

وقال الأستاذ القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإخلاص: إفراد الحق جَلَّ وَعَلَا في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ دون شيء آخر من تصنع لمخلوق، أو اكتساب محمدة عند الناس، أو محبة مدح من الخلق، أو معنى من المعاني سوى التقرب به إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

ويصح أن يقال: الإخلاص التوقي عن ملاحظة الأشخاص"(٢).

وعن حذيفة المرعشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: الإخلاص: أن تستوي أفعال العبد في الظاهر والباطن.

وقال السيد الجليل أبو محمد سهل بن عبد الله التستري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نظر الأكياس في تفسير الإخلاص فلم يجدوا غير هذا: أن تكون حركته وسكونه في سره وعلانيته لله عَزَّوَجَلَّ، لا يمازجه شيء، لا نفس ولا هوى ولا دنيا.

وعن الأستاذ أبي علي الدقاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: الإخلاص: التَّوَقِّي عن ملاحظة الخلق (٣)، والصدق: التنقي عن مطاوعة النفس، فالمخلص لا رياء له، والصادق لا إعجاب له.

---

(١) لطائف الإشارات (٣/٢٣٢)، وانظر: الرسالة القشيرية (٢/٣٥٩).

(٢) الرسالة القشيرية (٢/٣٥٩).

(٣) قال الشيخ زكريا: "بأن لا يفرح برؤيتهم لما هو فيه من العمل؛ ليمدحوه، أو يصلوه، أو لئلا يستقصوه. قال الشيخ مصطفى العروسي: وهذا تصوير لبعض ما صدقات: عدم ملاحظة الخلق. انظر: شرح=

وعن ذي النون المصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: ثلاث من علامات الإخلاص: استواء المدح والذم من العامة، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال، ونسيان اقتضاء ثواب العمل في الآخرة.

وعن القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: أقل الصدق: استواء السر والعلانية.

وعن سهل التستري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره.
قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأقوالهم في هذا غير منحصرة [1].

وعرَّف الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإخلاص بأنه: تجريد قصد التَّقرُّبِ إلى الله عَزَّوَجَلَّ عن جميع الشَّوَائِب [2].

وقال صاحب (المنازل) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الإخلاص تصفية العمل من كل شوب"[3].
"أي: لا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات النفس، إما طلب التزين في قلوب الخلق، وإما طلب مدحهم، والهرب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم أو خدمتهم، ومحبتهم، وقضائهم حوائجه، أو غير ذلك من العلل والشوائب، التي عقد متفرقاتها هو إرادة ما سوى الله عَزَّوَجَلَّ بعمله، كائنًا ما كان". قاله ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[4].

=الشيخ زكريا الأنصاري للرسالة القشيرية مع حاشية نتائج الأفكار القدسية، للشيخ مصطفى العروسي (٢٣٤/٣).

(١) الأذكار، للإمام النووي (ص:٧-٨)، وانظر: بستان العارفين، للإمام النووي (ص:٢٨)، التبيان في آداب حملة القرآن (ص:٣٢).

(٢) إحياء علوم الدين (٣٧٩/٤).

(٣) منازل السائرين، لأبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي (ص:٤٠-٤١).

(٤) مدارج السالكين (٩٣/٢).

وقال الشريف الجرجاني رَحِمَهُ اللَّهُ: "الإخلاص: في اللغة: ترك الرياء في الطاعات. وفي الاصطلاح: تخليص القلب عن شائبة الشوب المكدر لصفاته، وتحقيقه: أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه، وخلص عنه يسمى: خالصًا، ويسمى الفعل المخلص: إخلاصًا؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ [النحل:٦٦]. فإنما خلوص اللبن ألا يكون فيه شوب من الفرث والدم.

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجلهم شرك، والإخلاص: الخلاص من هذين.

والإخلاص: أن لا تطلب لعملك شاهدًا غير الله عَزَّوَجَلَّ.

وقيل: الإخلاص تصفية الأعمال من الكدورات.

وقيل: الإخلاص: ستر بين العبد وبين الله عَزَّوَجَلَّ لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوًى فيميله"(١).

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: "اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي: خالصًا. ويسمى الفعل الْمُصَفِّي الْمُخَلِّصُ: إِخْلَاصًا. والإخلاص يُضَادُّهُ: الإشراك، فمن ليس مخلصًا فهو مشرك، إلا أن الشرك درجات.

قال: وحقيقة النية ترجع إلى إجابة البواعث، فمهما كان الباعث واحد على التجرد سمي الفعل الصادر عنه: إخلاصًا بالإضافة إلى المنوي، فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخلص(٢)، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ فهو مخلص،

---

(١) التعريفات (ص:١٣-١٤).

(٢) أي: في الاصطلاح اللغوي.

ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ عن جميع الشوائب.

ومن كان باعثه: مجرد الرياء فهو معرض للهلاك، ولسنا نتكلم فيه؛ إذ قد ذكرنا ما يتعلق به في كتاب: (الرياء) من (ربع المهلكات).

وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب، ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر، إما من الرياء، أو من غيره من حظوظ النفس. ومثال ذلك: أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر، أو ليتخلص من عدو له، أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه به ليراقب أهله أو رحله، أو يتعلم العلم؛ ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال، أو ليكون عزيزا بين العشيرة..إلى غير ذلك.

فمهما كان باعثه التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور، فقد خرج عمله عن حدِّ الإخلاص، وخرج عن أن يكون خالصًا لوجه الله عَزَّوَجَلَّ، وتطرق إليه الشرك.

وبالجملة كل حظٍّ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس، ويميل إليه القلب، قلَّ أم كثر، إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه، وزال به إخلاصه؛ فإن الخالص من العمل هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا لا يتصور إلا من محب لله عَزَّوَجَلَّ، لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار؛ ولذا كان علاج الإخلاص: كسر حظوظ النفس، وقطع الطمع عن الدنيا، والتجرد للآخرة، بحيث يغلب ذلك على القلب، فإذ ذاك يتيسر الإخلاص.

وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله عَزَّوَجَلَّ، ويكون فيها مغرورًا؛ لأنه لا يرى وجه الآفة فيها. فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق، وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر"[1].

ويلاحظُ أن الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وما عرف عنه من الزهد والورع قد حمل الإخلاص على معنى قد يعز وجوده عند كثير من الناس؛ إذ لا فرق عنده بين أن يشوب العمل رياء أو شيء من حظوظ النفس حتى يخرج عن حدِّ الإخلاص؛ ولذلك كان بعض ما أورده محلَّ نظر عند طائفة من أهل العلم فيما يتصل بشيء من مصالح النفس التي ليس لها إدراك، ولا تصلح للتعظيم.

وممن بحث هذه المسألة: أبو العباس القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الفروق)، وأبو إسحاق الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الموافقات) في كلام مطول.

قال أبو العباس شهاب الدين القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وتحقيق هذه القاعدة وسرُّها وضابطها:

١ - أن يعمل العمل المأمور به، والمتقرب به إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويقصد به وجه الله عَزَّوَجَلَّ، وأن يعظمه الناس، أو يعظم في قلوبهم، فيصل إليه نفعهم، أو يندفع عنه ضررهم، فهذا هو قاعدة أحد قسمي الرياء.

---

(١) انظر ذلك في (إحياء علوم الدين) (٤/٣٧٩-٣٨١).

٢ - والقسم الآخر: أن يعمل العمل لا يريد به وجه الله عَزَّوَجَلَّ ألبتة، بل الناس فقط، ويسمى هذا القسم: (رياء الإخلاص)، والقسم الأول: (رياء الشرك) لأن هذا لا تشريك فيه، بل خالص للخلق، والأول للخلق ولله جَلَّوَعَلَا.

وأغراض الرياء ثلاثة: (التعظيم، وجلب المصالح الدنيوية، ودفع المضار الدنيوية)، والأخيران يتفرعان عن الأول؛ فإنه إذا عظم انجلبت إليه المصالح، واندفعت عنه المفاسد، فهو الغرض الكلي في الحقيقة، فهذه قاعدة: (الرياء) المبطلة للأعمال المحرمة بالإجماع.

وأما مطلق التشريك، كمن جاهد؛ ليحصل طاعة الله عَزَّوَجَلَّ بالجهاد، وليحصل المال من الغنيمة، فهذا لا يضره، ولا يحرم عليه بالإجماع؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ جعل له هذا في هذه العبادة، ففرق بين جهاده؛ ليقول الناس: إنه شجاع، أو ليعظمه الإمام، فيكثر إعطاءه، من بيت المال، فهذا ونحوه رياء حرام، وبين أن يجاهد؛ ليحصل السبايا، والكراع، والسلاح من جهة أموال العدو، فهذا لا يضره مع أنه قد أشرك، ولا يقال لهذا: رياء، بسبب أن الرياء؛ ليعمل أن يراه غير الله عَزَّوَجَلَّ من خلقه، والرؤية لا تصح إلا من الخلق، فمن لا يرى ولا يبصر لا يقال في العمل بالنسبة إليه: رياء، والمال المأخوذ في الغنيمة ونحوه لا يقال: إنه يرى أو يبصر، فلا يصدق على هذه الأغراض لفظ: (الرياء)؛ لعدم الرؤية فيها، وكذلك من حج وشرك في حجه غرض المتجر، بأن يكون جل مقصوده أو كله: السفر للتجارة خاصة، ويكون الحج إما مقصودًا مع ذلك، أو غير مقصود، ويقع تابعًا اتفاقًا، فهذا أيضًا لا يقدح في صحة الحج، ولا يوجب إثمًا ولا معصية، وكذلك من صام؛ ليصح جسده، أو ليحصل له زوال مرض

من الأمراض التي ينافيها الصيام، ويكون التداوي هو مقصوده، أو بعض مقصوده، والصوم مقصوده مع ذلك، وأوقع الصوم مع هذه المقاصد لا تقدح هذه المقاصد في صومه، بل أمر بها صاحب الشرع في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء**»[(١)]، أي: قاطع، فأمر بالصوم لهذا الغرض، فلو كان ذلك قادحًا لم يأمر به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في العبادات وما معها.

ومن ذلك: أن يجدد وضوءه وينوي التبرد، أو التنظيف. وجميع هذه الأغراض لا يدخل فيها تعظيم الخلق، بل هي تشريك أمور من المصالح ليس لها إدراك، ولا تصلح للإدراك، ولا للتعظيم، فلا تقدح في العبادات، فظهر الفرق بين قاعدة: (الرياء في العبادات)، وبين قاعدة: (التشريك في العبادات) غرضًا آخر غير الخلق مع أن الجميع تشريك. نعم لا يمنع أن هذه الأغراض المخالطة للعبادة قد تنقص الأجر، وأن العبادة إذا تجردت عنها زاد الأجر، وعظم الثواب، أما الإثم والبطلان فلا سبيل إليه، ومن جهته حصل الفرق لا من جهة كثرة الثواب وقلته"[(٢)].

وقد بحث الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في (الموافقات) المسألة بحثًا مطولًا، فمن ذلك قوله: "لو كان شأن العبادة أن يقدح في قصدها قصد شيء آخر سواها، لقدح فيها: مشاركة القصد إلى عبادة أخرى، كما إذا جاء المسجد قاصدًا للتنفل فيه، وانتظار الصلاة، والكف عن إذاية الناس، واستغفار الملائكة له، فإن كل قصد منها شاب

(١) صحيح البخاري [١٩٠٥، ٥٠٦٥، ٥٠٦٦]، مسلم [١٤٠٠].

(٢) الفروق (أنوار البروق في أنواء الفروق) (٣/٢٢-٢٣).

غيره، وأخرجه عن إخلاصه عن غيره، وهذا غير صحيح باتفاق، بل كل قصد منها صحيح في نفسه، وإن كان العمل واحدًا؛ لأن الجميع محمود شرعًا، فكذلك ما كان غير عبادة من المأذون فيه؛ لاشتراكهما في الإذن الشرعي، فحظوظ النفوس المختصة بالإنسان لا يمنع اجتماعها مع العبادات، إلا ما كان بوضعه منافيًا لها، كالحديث، والأكل، والشرب، والنوم، والرياء، وما أشبه ذلك، أما ما لا منافاة فيه، فكيف يقدح القصد إليه في العبادة؟ هذا لا ينبغي أن يقال، غير أنه لا ينازع في أن إفراد قصد العبادة عن قصد الأمور الدنيوية أولى؛ ولذلك إذا غلب قصد الدنيا على قصد العبادة كان الحكم للغالب، فلم يعتد بالعبادة، فإن غلب قصد العبادة فالحكم له، ويقع الترجيح في المسائل بحسب ما يظهر للمجتهد"(١).

وعلى أية حال فمن أراد تحصيل الأجر الأعظم فينبغي عليه أن يجتهد في التحرر من حظوظ النفس ما أمكنه، وأن يثق بالله عَزَّوَجَلَّ ورحمته وعدله.

ثانيًا: علامات الإخلاص:

قال ذو النون المصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ -كما تقدم-: ثلاث من علامات الإخلاص:

١ - استواء المدح والذم من العامة.

٢ - ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال.

(١) الموافقات (٢/٣٧٢-٣٧٣).

٣ - ونسيان اقتضاء ثواب الأعمال في الآخرة [١].

وعن أبي القاسم القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: الصدق نهاية الأحوال، وهو استواء السِّرِّ والعلانية [٢].

وعنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الصدق عماد الأمر، وبه تمامه، وفيه نظامه، وأقله: استواء السر والعلانية.

وقال التستري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه، أو غيره.

وقال الحارث المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الصادق هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يحب اطلاع الناس على مثقال ذرة من حسن عمله [٣].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وعلامة المخلص: أن يكون في جلوته كخلوته.."[٤].

وسئل بعض الحكماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ من المخلص؟ فقال: المخلص الذي يكتم حسناته كما يكتم سيئاته [٥].

---

(١) انظر: الرسالة القشيرية (٢/٣٦٢-٣٦٦)، الأذكار، للإمام النووي (ص:٧)، بستان العارفين (ص:٢٧)، منجد المقرئين، لابن الجزري (ص:٩).

(٢) لطائف الإشارات (٢/٧١).

(٣) فيض القدير (٤/٣٤٣)، الرسالة القشيرية (٢/٣٦٣)، الأذكار، للإمام النووي (ص:٧)، بستان العارفين (ص:٢٧).

(٤) صيد الخاطر (ص:٤٣٤).

(٥) انظر: إحياء علوم الدين (٤/٣٧٨)، الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/٨٣).

قال العلامة ابن أبي شريف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (حواشي شرح العقائد): الصدق استعمله الصوفية بمعنى: استواء السرِّ والعلانية، والظاهر والباطن، بألا تكذب أحوال العبد أعماله، ولا أعماله أحواله، وجعلوا الإخلاص لازمًا أعم، فقالوا: كل صادق مخلص، وليس كل مخلص صادقًا اهـ.

وفي (شرح رسالة القشيري)، للشيخ زكريا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سئل الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أهما واحد أو بينهما فرق؟ فقال: بينهما فرق: الصدق أصل، والإخلاص فرع، والصدق أصل كل شيء، والإخلاص لا يكون إلا بعد الدخول في الأعمال، والأعمال لا تكون مقبولة إلا بهما اهـ.

وفي (حاشية الشيخ مصطفى العروسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ): قال: "إن بين الإخلاص والصدق تلازم، معناه: أنه متى تحقق الإخلاص لزمه مصاحبة الصدق، وكذا إذا ثبت الصدق لزمه مقارنة الإخلاص، فيهما يكون الترقي"(١).

ونحوه قول الشريف الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الصدق أصل؛ وهو الأول، والإخلاص فرع؛ وهو تابع. وفرق آخر: الإخلاص لا يكون إلا بعد الدخول في العمل"(٢).

---

(١) شرح الشيخ زكريا الأنصاري للرسالة القشيرية مع حاشية نتائج الأفكار القدسية، للشيخ مصطفى العروسي (٣/٢٣٤-٢٣٥)، دليل الفالحين (٢٠٧/١). وفصل الإمام الجنيد القول في ذلك. انظر: الأعمال الكاملة للجنيد البغدادي، طبعة دار الشروق (ص:٢٥٦)، رسائل الجنيد (ص:١٢٥)، طبعة دار اقرأ، وانظر: آداب النفوس، للحارث المحاسبي (ص:٩٤).

(٢) التعريفات (ص:١٣-١٤).

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما [1].

وقال الإمام عز الدين بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "من أراد أن يعلم من نفسه أنه مراء أو مخلص فعلامة كونه مرائيًا: أن يحب الحمد على الطاعة، ويكره الذم، فيفعل الطاعة؛ خوفًا من الذم.

وإذا أخلص العمل لله عَزَّوَجَلَّ، أو علم علمًا لا يعلمه الناس لم يقنع بعلم الله منه ذلك، وهاج قلبه لمحبة إطلاع الناس عليه، فأحب الناس إليه من يمدحه على ذلك.

وإن طالب نفسه بطاعة خفية ثقلت عليه ولم تطاوعه على ذلك، ولا تتمنى طاعة لا يعلم بها أحد.

وينفي الرياء بأن يعمل العبد العمل لا يريد به إلا الله جَلَّ وَعَلَا؛ اقتصارًا على علم الله الذي بيده النفع والضر، فقد يعمل العمل في السر بجوارحه أو بقلبه كالفكر الذي يهيج البكاء والأحزان فتجزع نفسه من خفاء ذلك عن الناس فتقول له: كيف تخفي مثل هذه الفضيلة عن الناس، ولو علموا بها لقمت عندهم مقامًا عظيمًا؟

ولا يعلم العبد أن في ذلك ضعة قدره عند ربه عَزَّوَجَلَّ حتى يلزم قلبه الإخلاص فيقنع بعلم الله عَزَّوَجَلَّ، فإن اطلع عليه منع قلبه من الارتياح إلى اطلاعهم عليه، فإن

---

(١) انظر: الأذكار، للإمام النووي (ص:٧)، التبيان في آداب حملة القرآن، للإمام النووي (ص:٣٢)، المجالس الوعظية، للسفيري (١/١٢٥)، الزواجر (ص:٦٩)، الرسالة القشيرية (١/٤١)، الآداب الشرعية، لابن مفلح (١/٢٦٦).

غلبته على الارتياح رد عليها بالكراهة والإباء، وامتنع من الركون إليه، ولا يزال حذرًا حتى يفرغ من العمل، فإذا فرغ من العمل منع نفسه من طلب التسميع به، فإن كان العمل ظاهرًا كتشييع الجنائز، وطلب العلم، والتطوع يوم الجمعة في المسجد، فليوطن نفسه على أن تقنع بعلم الله عَزَّوَجَلَّ، ولا ينظر إلى علم من لا يضر ولا ينفع ولا يلتفت إليه"(١).

قال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإخلاص: أن يخلص العبد دينه وعمله فلا يشرك به في دينه ولا يرائي بعمله(٢).

وقال بعضُ الحُكماء: "مثلُ من يعمل رياءً وسُمعة كمثَلِ من ملأ كيسَه حصًى، ثم دخل السوق؛ ليشتري به، فإذا فتحه بين يدي البائع افتضح، وضرب به وجهه، فلم يحصل له به منفعةٌ سوى قول الناس: ما أملأَ كيسه! ولا يُعطَى به شيئًا، فكذلك مَن عمِل للرياء والسُّمعة، لا منفعةَ له في عمله سوى مقالة الناس، ولا ثوابَ له في الآخرة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان:٢٣]، أي: الأعمال التي قصد بها غير الله عَزَّوَجَلَّ يبطل ثوابها صارت كالهباء المنثور، وهو الغبار الذي يرى في شعاع الشمس"(٣).

(١) مقاصد الرعاية لحقوق الله عَزَّوَجَلَّ، لابن عبد السلام (ص: ٨٤- ٨٥)، وانظر: الرعاية لحقوق الله عَزَّوَجَلَّ، للحارث المحاسبي (ص:٢٢٨-٢٢٩).
(٢) انظر: الكشف والبيان (٦/٢)، تفسير البغوي (١/١٧٤).
(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/٦٩).

ثالثًا: فضيلته الإخلاص وحقيقته:

١ - الإخلاص أساس قبول الأعمال:

إن أعظم أصل تبنى عليه العبادات في الإسلام هو تحقيق الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، فهو أساس قبول الأعمال؛ ولهذا كانت الحاجة إلى معرفة هذا الأصل العظيم من أجَلِّ المطالب، وأعلى المقاصد.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر:٢-٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١﴾ [الزمر:١١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤﴾ [الزمر:١٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥].

أمر الله عَزَّوَجَلَّ العباد بالإخلاص في الدين، وما يتضمنه من الشرائع الظاهرة والباطنة، وذلك بإفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالعبادة. وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، "أي: جاعلين دينهم خالصًا لله عَزَّوَجَلَّ، وجاعلين أنفسهم خالصة له في الدين. ﴿حُنَفَآءَ﴾: مائلين عن جميع العقائد الزائغة إلى الإسلام"(١).

(١) انظر: حاشية نتائج الأفكار القدسية، للشيخ مصطفى العروسي (٢٣١/٣).

وفي هذا دليل على وجوب النية في العبادات؛ فإن الإخلاص من عمل القلب، وهو الذي يراد به وجه الله عَزَّوَجَلَّ، لا غيره"[١].

وكلما أخلص المرء لله عَزَّوَجَلَّ لم يتعثر في سيره، وأُعطي توفيقًا بقدر ما في قلبه من الصدق والإخلاص.

"وحقيقة الإخلاص: سلامته من وصفين، وهما: الرياء والهوى؛ ليكون خالصًا، كما وصف الله عَزَّوَجَلَّ الخالص من اللبن، فكان بذلك تمام النعمة علينا، فقال: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا﴾ [النحل:٦٦]، فلو وجد فيه أحد الوصفين من فرث أو دم لم يكن خالصًا، ولم تتم النعمة به علينا، ولم تقبله نفوسنا، فكذلك معاملتنا لله عَزَّوَجَلَّ إذا شابها رياء بخلق، أو هوى من شهوة نفس، ولم تكن خالصة لم يتم بها الصدق والأدب في المعاملة ولم يقبلها الله عَزَّوَجَلَّ منَّا، فاعتبروا"[٢].

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال السوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإخلاص: فقد رؤية الإخلاص؛ فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص" [٣].

(١) انظر: أحكام القرآن، للكيا الهراسي (٤/٤٣١)، تفسير القرطبي (٢٠/١٤٤)، الإكليل في استنباط التنزيل (ص:٢٩٥).

(٢) قوت القلوب في معاملة المحبوب، لأبي طالب المكي (٢/٢٦٨).

(٣) قال ابن القيم: "فنقصان كُلِّ مُخْلِصٍ في إخلاصه: بِقَدْرِ رُؤْيَةِ إخلاصه. فإذا سقط عن نفسه رؤيةُ الإخلاص، صار مُخْلِصًا مُخْلَصًا" مدارج السالكين (٢/٩١).

وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل؛ فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب، وهو من جملة الآفات.

والخالص: ما صفا عن جميع الآفات، فهذا تعرض لآفة واحدة.

وقال سهل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله عَزَّوَجَلَّ خاصة. وهذه كلمة جامعة، محيطة بالغرض.

وفي معناه قول إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإخلاص صدق النية مع الله عَزَّوَجَلَّ.

وقيل لسهل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص؛ إذ ليس لها فيه نصيب.

وقال رويم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضًا في الدارين. وهذا إشارة إلى أن حظوظ النفس آفة آجلًا وعاجلًا.."[1].

وقيل: الإخلاص: استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن. والرياء: أن يكون ظاهره خيرًا من باطنه. والصدق في الإخلاص: أن يكون باطنه أعمر من ظاهره.

وقيل: الإخلاص: نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق جَلَّوَعَلَا. ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله عَزَّوَجَلَّ.

وقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء.."[2].

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/٣٨١)، وانظر: مدارج السالكين (٢/٩١)، فيض القدير (٦/٤٣).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٢/٩٢-٩١)، الرسالة القشيرية (٢/٣٦٢).

وفي (حاشية الشيخ مصطفى العروسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ): "الإخلاص هو روح سر القبول، ومن أعظم أسباب بلوغ المأمول، ومن أمارات السعادة الأبدية، حيث يحقق الرضا من ربِّ البرية؛ إذ الموصوف به من أهل العنايات، وممن منح أعظم الكرامات، وقد أشار صاحب: (الحكم العطائية رَحِمَهُ ٱللَّهُ) إلى ذلك حيث قال: **(الأعمالُ صُوَرٌ قائمةٌ، وأرواحُها: وجودُ سِرِّ الإخلاصِ فيها)** (١). قلت: فلا عبرة حينئذ بصورة لا روح فيها، كما أنه لا قيام لروح دون صورتها"(٢).

فمن عمل عملًا بلا إخلاص كان كمن أهدى جارية ميتة للأمير، يبتغي بها الثواب، وهو لا يستحق على ذلك إلا أنواع العقاب (٣).

قال ابن عباد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إخلاص كل عبد على حسب رتبته ومقامه"(٤). وقال ابن عجيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الأعمال كلها أشباح وأجساد، وأرواحها: وجود الإخلاص فيها، فكما لا قيام للأشباح إلا بالأرواح، وإلا كانت ميتة ساقطة، كذلك لا قيام للأعمال البدنية والقلبية إلا بوجود الإخلاص فيها، وإلا كانت صورًا قائمة، وأشباحًا خاوية لا عبرة بها.

قال: والإخلاص على ثلاث درجات: درجة العوام، والخواص، وخواص الخواص، فإخلاص العوام: هو إخراج الخلق من معاملة الحق، مع طلب الحظوظ

---

(١) الحكمة العاشرة من حكم ابن عطاء الله. انظر: شرح ابن عباد (ص:١١١).

(٢) نتائج الأفكار القدسية (٣/٢٣١).

(٣) شرح الشيخ عبد المجيد الشرنوبي على الحكم (ص:٢٣).

(٤) شرح ابن عباد (ص:١١١-١١٣).

الدنيوية والأخروية، كحفظ البدن والمال، وسعة الرزق والقصور والحور. وإخلاص الخواص: طلب الحظوظ الأخروية دون الدنيوية. وإخلاص خواص الخواص: إخراج الحظوظ بالكلية، فعبادتهم: تحقيق العبودية، والقيام بوظائف الربوبية، أو محبَّة وشوقًا إلى رؤيته"(١).

"فمن حصن قلبه بالإخلاص استحق القبول، وكان من الخواص، ومن حصن قلبه من الأغيار امتلأ بالعلوم والأنوار، ونبعت منه العلوم والأسرار"(٢).

وبعد أن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في (سورة النساء) صفات المنافقين بين أن توبتهم من النفاق لا تكون إلا مع إخلاص دينهم لله عَزَّوَجَلَّ، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ [النساء:١٤٦]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ [الكهف:١١٠]، نزلت فيمن يعمل لله عَزَّوَجَلَّ، ويحب أن يحمد عليه(٣).

---

(١) إيقاظ الهمم في شرح الحكم (ص:٤٩-٥٠).

(٢) إيقاظ الهمم (ص:٤٣٧).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٨/ ١٣٦)، تفسير ابن كثير (٥/٢٠٥)، التفسير البسيط (١٤/١٧٨)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٦/٤٤٨٥)، الكشف والبيان (٦/٢).

وفي الحديث: عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ثَلَاثٌ لا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إخلاصُ العمل لله، ومُنَاصَحَةُ أَئِمَّة المُسْلِمِينَ، ولُزُومُ جماعتهم»** [(١)].

ونحوه: عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«ثلاث لا يُغِلُّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله** عَزَّ وَجَلَّ، **ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة»** [(٢)].

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**«لا يُغِلُّ»** -بكسر الغين المعجمة، وتشديد اللام على المشهور، و(الياء) تحتمل الضم والفتح، فعلى الأول: من (أَغَلَّ): إذا خان. وعلى الثاني: من (غَلَّ): إذا صار ذا حقد وعداوة"[(٣)].

---

(١) الحديث مروي عن غير واحد من الصحابة. وقد أخرجه أحمد، والترمذي، والحاكم، وغيرهم، وصححه الحاكم وغيره من غير طريق.

(٢) أخرجه الطيالسي [٦١٦]، وأحمد [٢١٥٩٠]، وابن ماجة [٢٣٠]، وفي (الزوائد) (٣٢/١): "إسناده صحيح". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٦٨٠]. قال الهيثمي (٢٤٧/١٠): "روى ابن ماجه بعضه. رواه الطبراني في (الأوسط)، ورجاله وثقوا" وللحديث طرق أخرى فقد روي عن أبي سعيد الخدري، وابن مسعود، ومعاذ بن جبل، والنعمان بن بشير، وجبير بن مطعم، وأبي الدرداء، وأبي قرصافة جندرة بن خيشنة، وغيرهم من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وبعض أسانيدهم صحيح كما ذكر المنذري في (الترغيب والترهيب) (٢٣/١).

(٣) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١٠٢/١-١٠٣).

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "«**لا يُغِلُّ**»: معناه لا يكون القلب عليهن ومعهن غليلًا أبدًا، يعني: لا يقوى فيه مرض، ولا نفاق: إذا أخلص العمل لله عَزَّوَجَلَّ، ولزم الجماعة، وناصح أولي الأمر"(١).

قال أبو عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يُروَى: «**يَغِلُّ**» و«**يُغِلُّ**». فمن قال: «**يَغِلُّ**» -بالفَتْح- فإنه يجعلُه من الغِلِّ، وهو الضِّغْنُ والشَّحْناء. ومن قال: «**يُغِلُّ**» بضمِّ الياء جعله من الخيانة من الإغلال"(٢).

وقال أبو سليمان الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أما وجه الكلام وإعرابه فعلى ما ذكره أبو عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وأما تأويله ومعناه فإنه يريد -والله أعلم-: أن هذه الخلال الثلاث مما لا يخالج القلب ريب أنهن بر وطاعة؛ لأنها من المعروف الذي تعرفه النفوس وتسكن إليه القلوب"(٣).

قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "«**يُغِلُّ**» هو من الإغلال: الخيانة في كل شيء.

ويروى «**يغل**» بفتح الياء، من الغل، وهو الحقد والشحناء: أي: لا يدخله حقد يزيله عن الحق.

وروي «**يغل**» -بالتخفيف-، من الوغول: الدخول في الشرِّ.

---

(١) التمهيد، لابن عبد البر (٢١/٢٧٧).

(٢) غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام (١/١٩٩-٢٠٠).

(٣) غريب الحديث، لأبي سليمان الخطابي (١/٥٨٥).

والمعنى: أن هذه الخلال الثلاث تستصلح بها القلوب، فمن تمسك بها طهر قلبه من الخيانة والدغل والشر"(١).

وعن مصعب بن سعد، عن أبيه، أنه ظَنَّ أن له فضلًا على من دونه من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال نبيُّ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما ينصرُ الله هذه الأُمَّة بضعيفها، بدعوتهم، وصلاتهم، وإخلاصهم**» (٢).

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: "والإخلاص يضاده: الإشراك، فمن ليس مخلصًا فهو مشرك إلا أن الشرك درجات"(٣).

فالإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ هو أساس قبول الأعمال، ومعيارها الدقيق، ومقياسها الصادق الذي يميز طيبها من خبيثها، وصحيحها من فاسدها، ومقبولها من مردودها، ونافعها من ضارها، وهو السبيل للفوز بالجنة، والنجاة من النار. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر:٦٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (غلل) (٣/٣٨١).

(٢) أخرجه النسائي في (السنن) [٣١٧٨]، وفي (الكبرى) [٤٣٧٢]، وأبو نعيم في (الحلية) (٥/٢٦)، والشاشي [٧٠]، وتمام [٦٩٩]، والبيهقي في (الكبرى) [٦٣٨٩]. وهو عند البخاري [٢٨٩٦] بلفظ: «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم».

(٣) إحياء علوم الدين (٤/٣٧٩).

تَعۡلَمُونَ ۝٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ۝٨٢﴾ [الأنعام:٨١-٨٢]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله عَزَّوَجَلَّ وحده لا شريك، له، ولم يشركوا به شيئًا هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة"(١).

وإن من أهم أسباب الوقاية من الرياء: إخلاص العمل والقصد والنية لله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة:٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر:٣].

والإخلاص هو أساس أعمال القلوب؛ لأن الأعمال بالمقاصد والنيات، والقلب هو ملكُ الجوارح، وهي له تبعٌ، فإن صلح القلب صلحت الجوارح كلها، وإن فسد القلب فسدت الجوارح كلها، والقلب هو محلُّ نظر الرب جَلَّوَعَلَا من العبد.

قال الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن "مما يَتفرَّعُ على معنى الآية: إخلاص المؤمن الْمُوَحِّدِ في عبادة ربِّه جَلَّوَعَلَا، أي: أن يعبد الله لأجله، أي: طلبًا لرضاه، وامتثالًا لأمره، وهو آيِلٌ إلى أحوال النِّيَّةِ في العبادة المشار إليها بقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكلِّ امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه**»(٢).

والإخلاص في العبادة: أن يكون الدَّاعِي إلى الإتيان بالمأمور وإلى ترك الْمَنْهِيِّ: إرضاء الله عَزَّوَجَلَّ، وهو معنى قولهم: لوجه الله عَزَّوَجَلَّ، أي: لقصد الامتثال بحيث لا يكون

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٢٩٤).

(٢) صحيح البخاري [١، ٥٤، ٢٥٢٩، ٥٠٧٠، ٦٦٨٩، ٦٩٥٣]، مسلم [١٩٠٧].

الْحَظُّ الدُّنْيَوِيُّ هو الباعث على العبادة، مِثْلَ أن يَعْبُدَ اللهَ؛ ليمدحه الناس بحيث لو تَعَطَّلَ المدح لترك العبادة. ولذا قيل: الرِّيَاءُ الشِّرْكُ الأصغر، أي: إذا كان هو الباعث على العمل، ومثل ذلك أن يقاتل لأجل الغنيمة فلو أَيِسَ منها ترك القتال، فأما إن كان لِلنَّفْسِ حَظٌّ عاجل وكان حاصلًا تبعًا للعبادة وليس هو المقصود فهو مُغْتَفَرٌ، وخاصة إذا كان ذلك لا تخلو عنه النفوس، أو كان مما يعين على الاستزادة من العبادة"(١).

والرياء يذهب بمقاصد العبادات وغاياتها وآثارها، ويفرغها من حقيقتها وجوهرها، فتصبح من غير إخلاص جوفاء لا تحقق آثارها في القلب، ولا تدفع إلى العمل الصالح.

وقد قال الله جَلَّ وَعَلَا حكايةً عن المخلصين في إطعامهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٩]، وكما قال في الأتقى الذي ينفق ماله ابتغاء وجه ربه عَزَّوَجَلَّ؛ ليتطهر بإنفاقه، لا ليرائي به ويستعلي، ولا ردًّا لجميلٍ، ولا طلبًا لشكر أحد: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾﴾ [الليل:١٨-٢١].

إن الرياء يذهب بمقاصد العبادات وغاياتها وآثارها، ويفرغها من حقيقتها وجوهرها، فتصبح من غير إخلاص جوفاء لا تحقق آثارها في القلب، ولا تدفع إلى العمل الصالح.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/٣١٨).

وقال ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة:٥]: "الإخلاص هنا يراد به: التوحيد، وترك الشرك، أو ترك الرياء، وذلك أن الإخلاص مطلوب في التوحيد، وفي الأعمال، وهذا الإخلاص في التوحيد من الشرك الجلي، وهذا الإخلاص في الأعمال من الشرك الخفي.

واعلم أن الأعمال ثلاثة أنواع: مأمورات، ومنهيات، ومباحات:

فأما (**المأمورات**) فالإخلاص فيها عبارة عن خلوص النية لوجه الله عَزَّوَجَلَّ، بحيث لا يشوبها بنية أخرى، فإن كانت كذلك فالعمل خالص مقبول، وإن كانت النية لغير وجه الله عَزَّوَجَلَّ، من طلب منفعة دنيوية، أو مدح أو غير ذلك فالعمل رياء محض مردود، وإن كانت النية مشتركة ففي ذلك تفصيل فيه نظر واحتمال.

وأما (**المنهيات**) فإن تركها دون نية خرج عن عهدتها، ولم يكن له أجر في تركها، وإن تركها بنية وجه الله عَزَّوَجَلَّ حصل له الخروج عن عهدتها مع الأجر.

وأما (**المباحات**) كالأكل، والنوم، والجماع، وشبه ذلك فإن فعلها بغير نية لم يكن فيها أجر، وإن فعلها بنية وجه الله جَلَّوَعَلَا فله فيها أجر، فإن كل مباح يمكن أن يصير قربة إذا قصد به وجه الله جَلَّوَعَلَا، مثل: أن يقصد بالأكل: القوة على العبادة، ويقصد بالجماع: التعفف عن الحرام"(١).

وقد قسَّم العلماءُ العباداتِ إلى قسمين: محضة وغير محضة.

---

(١) تفسير ابن جزي (٢/٥٠١-٥٠٢).

وقالوا في العبادات المحضة: لا بد من استحضار النية فيها -فرضًا كانت أو نفلًا- كالصلاة والزكاة والصوم والحج، وما تستند إليه هذه العبادات، من الإيمان والإسلام، لقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»، فإذا تخلفت النية بطلت العبادة؛ لأن النية شرط لصحة كل عبادة.

وقالوا في العبادات غير المحضة، كإزالة النجاسة، وقضاء الديون، ورد المظالم، وأداء الحقوق، والنفقات، ونحو ذلك: لا يشترط في صحة وقوعها: النية، ولكن لا ثواب فيها بدون نية، وكل عمل من الأعمال العادية يريد به العبد التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ كالأكل والشرب، لا يحصل به الأجر إلا بنية التقرب به إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وليس في ترك النية كفارة، وإنما يترتب على تركها: بطلان العمل إذا كانت شرطا في صحته، وعدم حصول الأجر فيه إذا لم تشترط له.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والنية في كلام العلماء تقع بمعنيين:

أحدهما: بمعنى تمييز العبادات بعضها عن بعض، كتمييز صلاة الظهر من صلاة العصر -مثلًا-، وتمييز صيام رمضان من صيام غيره، أو تمييز العبادات من العادات، كتمييز الغسل من الجنابة من غسل التبرد والتنظف، ونحو ذلك، وهذه النية هي التي توجد كثيرًا في كلام الفقهاء في كتبهم.

والمعنى الثاني: بمعنى: تمييز المقصود بالعمل، وهل هو الله عَزَّوَجَلَّ وحده لا شريك له، أم غيره، أم الله عَزَّوَجَلَّ وغيره، وهذه النية هي التي يتكلم فيها العارفون في كتبهم في كلامهم على الإخلاص وتوابعه، وهي التي توجد كثيرًا في كلام السلف المتقدمين.

وقد صنف أبو بكر بن أبي الدنيا رَحِمَهُ ٱللَّهُ مصنفا سماه: كتاب: (الإخلاص والنية)[1]، وإنما أراد هذه النية، وهي النية التي يتكرر ذكرها في كلام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تارة بلفظ النية، وتارة بلفظ الإرادة، وتارة بلفظ مقارب لذلك، وقد جاء ذكرها كثيرًا في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ بغير لفظ النية أيضًا من الألفاظ المقاربة لها"[2].

ويتبين مما تقدم: أن المقصود من النية:

١ - تمييزُ العبادات بعضها عن بعض.

٢ - تمييزُ العبادات من العادات.

٣ - تمييز المقصود بالعمل.

وقال الإمام السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان ما شرعت النية لأجله: "المقصود الأهم منها: تمييز العبادات من العادات، وتمييز رتب العبادات بعضها من بعض، كالوضوء والغسل، يتردد بين التنظف والتبرد، والعبادة، والإمساك عن المفطرات قد يكون للحمية والتداوي، أو لعدم الحاجة إليه، والجلوس في المسجد، قد يكون للاستراحة، ودفع المال للغير، قد يكون هبة، أو وصلة لغرض دنيوي، وقد يكون قربة كالزكاة، والصدقة، والكفارة، والذبح قد يكون بقصد الأكل، وقد يكون للتقرب بإراقة الدماء، فشرعت النية؛ لتمييز القرب من غيرها، وكل من الوضوء، والغسل، والصلاة، والصوم، ونحوها

---

(١) والكتاب مطبوع في (دار البشائر) بتحقيق: إياد خالد الطباع، سنة [١٤١٣هـ]،

(٢) انظر ذلك في (جامع العلوم والحكم) (١/٦٥-٦٦).

قد يكون فرضًا ونذرًا ونفلًا، والتيمم قد يكون عن الحدث، أو الجنابة، وصورته واحدة، فشرعت؛ لتمييز رتب العبادات بعضها من بعض"(١).

وقال ابن نجيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان ما شرعت لأجله: "المقصود منها: تمييز العبادات من العادات، وتمييز بعض العبادات عن بعض، كما في (النهاية) و(فتح القدير)، كالإمساك عن المفطرات.

قد يكون حمية، أو تداويًا، أو لعدم الحاجة إليه.

والجلوس في المسجد قد يكون للاستراحة، وقد يكون قربة.

ودفع المال قد يكون هبة، أو لغرض دنيوي، وقد يكون قربة، زكاة، أو صدقة.

والذبح قد يكون لأكل، فيكون مباحًا، أو مندوبًا، أو للأضحية، فيكون عبادة، أو لقدوم أمير، فيكون حرامًا أو كفرًا على قول.

ثم التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ يكون بالفرض، والنفل، والواجب.

فشرعت؛ لتمييز بعضها عن بعض"(٢).

فتفرَّع على ذلك فروع كثيرة مبسوطة في مظانها.

---

(١) انظر ذلك في (الأشباه والنظائر)، للسيوطي (ص:١٢).

(٢) انظر ذلك في (الأشباه والنظائر)، لابن نجيم (ص:١٢)، وانظر: غمز عيون البصائر (١٠٥/١)، حاشية ابن عابدين (١٠٨/١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد تظاهرت أدلة الشرع وقواعده على أن القصود في العقود معتبرة، وأنها تؤثر في صحة العقد وفساده[1]، وفي حلّه وحرمته[2]، بل أبلغ من ذلك، وهي أنها تؤثر في الفعل الذي ليس بعقد تحليلًا وتحريمًا، فيصير حلالًا تارة، وحرامًا تارة، باختلاف النية والقصد، كما يصير صحيحًا تارة، وفاسدًا تارة باختلافها، وهذا كالذبح؛ فإن الحيوان يحل إذا ذبح لأجل الأكل، ويحرم إذا ذبح لغير الله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك الحلال يصيد الصيد للمحرم، فيحرم عليه، ويصيده للحلال فلا يحرم على المحرم، وكذلك الرجل يشتري الجارية ينوي أن تكون لموكله فتحرم على المشتري، وينوي أنها له فتحل له، وصورة العقد واحدة، وإنما اختلفت النية والقصد"[3].

وقال ابن علان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والنية واجبة أول كل فعل شرعي؛ لتوقف صحته عليها، ودوام استحضارها إلى آخره سنة محبوبة.

وأما التروك، كترك نحو: الزنى، فلا يتوقف عليها، نعم لا بد في حصول الثواب من قصد الترك على وجه الامتثال، وإنما وجبت النية في الصوم مع أنه من باب التروك؛ لأنه ملحق بالأفعال؛ إذ القصد منه: قمع النفس عن معتاداتها وقطعها عن عاداتها"[4].

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الطاعات مرتبطة بالنيات في أصل صحتها، وفي تضاعف فضلها. أما الأصل، فهو أن ينوي بها عبادة الله عَزَّوَجَلَّ لا غير، فإن نوى الرياء

---

(١) أي: قضاء.

(٢) أي: ديانة.

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/٨٩-٩٠).

(٤) دليل الفالحين (٤٩-٥٠).

صارت معصية. وأما تضاعف الفضل، فبكثرة النيات الحسنة؛ فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة، فيكون له بكل نية ثواب؛ إذ كل واحدة منها حسنة، ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها.

مثال ذلك: القعود في المسجد؛ فإنه طاعة، ويمكن أن ينوى بها نيات كثيرة: منها أن ينوي بدخوله انتظار الصلاة، ومنها: الاعتكاف، وكف الجوارح، فإن الاعتكاف كف وهو في معنى: (الصوم)، ومنها: دفع الشواغل الصارفة عن الله عَزَّوَجَلَّ بالانقطاع إلى المسجد، وإلى ذكر الله عَزَّوَجَلَّ فيه، ونحو ذلك، فهذا طريق تكثير النيات، فقس على ذلك سائر الطاعات؛ إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة.."[1].

وإذا كان الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ هو نهج الأبرار للوقاية من النَّار فإن ما يقابله من الرياء من أسباب ولوج النَّار.

فينبغي على كل مسلم أن يصحِّحَ النيَّةَ، ويخلصَ القصدَ لله عَزَّوَجَلَّ في سائر عباداته وأعماله وأقواله وأحواله. وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ مرشدًا العباد إلى إخلاص النية والقصد لله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام:١٦٢- ١٦٣].

والمخلص لا يهتم ولا يحب أن يطَّلعَ الناس على شيءٍ من عمله الذي يتقرَّب به إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ فلذلك صلح قلبه، وحسن عمله، فجوزي بأحسن الجزاء.

---

(١) انظر ذلك في (إحياء علوم الدين) (٤/٣٧٠)، وانظر: مختصر منهاج القاصدين (ص:٣٦٢).

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الناس كلهم محرومون إلا العالمون، والعالمون كلهم محرومون إلا العاملون، والعاملون كلهم محرومون إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم. وكما أن من خرب بيته، وضيع ماله، وترك نفسه وعياله جياعًا يزعم أنه ينتظر فضل الله عَزَّوَجَلَّ بأن يرزقه كنزًا يجده تحت الأرض في بيته الخرب يعد عند ذوي البصائر من الحمقى والمغرورين، وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله عَزَّوَجَلَّ وفضله، فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله عَزَّوَجَلَّ وهو مقصر عن الطاعة، مصر على الذنوب، غير سالك سبيل المغفرة، يعد عند أرباب القلوب من المعتوهين.."(١).

ولما غاب الإخلاص عن حياة كثير من الناس، غابت الأخلاق الفاضلة فظهر: الرياء، وحب الشهرة، والغش والخداع، والاحتيال، والمداهنة، والنفاق، والغرور، والعجب، والكبر، وغير ذلك من ذميم الأخلاق.

ومن الآيات الدالة على الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ في إنفاق المال؛ ابتغاء مرضاته وحده، وعدم الرياء فيه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾ [البقرة:٢٦٤]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ﴾ [البقرة:٢٧١]، وقوله: ﴿وَيُطۡعِمُونَ

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/٤٥-٤٦).

ﵟٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ٩ﵞ [الإنسان:٨-٩]. والنصوص في ذلك كثيرة.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﵟلَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚﵞ [الحج:٣٧]، أي: ولكن يصيبه تقوى قلوبكم التي تدعوكم إلى الامتثال لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، وتعظيمه والتقرب إليه، والإخلاص له(١).

وقيل: "كان المشركون يُلطِّخون جدار الكعبة بدماء القرابين فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﵟلَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَاﵞ، أَيْ: لن يصل إلى الله لُحُومُهَا ولا دِمَاؤُهَا. ﵟوَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚﵞ، أي: النِّيَّةُ والإِخلاص وما أريد به وجه الله عَزَّوَجَلَّ"(٢). "والنَّيْل لا يتعلق بالبارئ جَلَّوَعَلَا، ولكنه عبر عنه تعبيرًا مجازيًّا عن القبول"(٣).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﵟقُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗﵞ [آل عمران:٢٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﵟوَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤ﵞ [الملك:١٣-١٤]. "فلا يعزب عن علمه جَلَّوَعَلَا: ﵟمِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِﵞ [يونس:٦١]، ولا يغيب عنه شيء جَلَّوَعَلَا. ﵟلَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٦/١٠٨).

(٢) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي الحسن الواحدي (ص:٧٣٤)، وانظر: الكشف والبيان، للثعلبي (٧/٣٤). ويروى عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنهم كانوا في الجاهلية ينضحون بدماء البدن ما حول البيت، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ هذه الآية. انظر: معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (٤/٤١٥) تفسير القرطبي (١٢/٦٥).

(٣) تفسير القرطبي (١٢/٦٥).

وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾ [الحشر:٢٢]. وفي الآيات: تنبيه للموفق على الإخلاص، وتحذير له من الرياء، ولا يغتر بخفائه ظاهرًا؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ عالم بخفيات الأمور، لا تخفى عليه وساوس الصدور"(١).

ومن الأحاديث الدالة على أهمية الإخلاص ومكانته: حديث: ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الفتح -فتح مكة-: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية**»(٢).

وعن عطاء بن أبي رباح، قال: زرت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا مع عبيد بن عمير الليثي، فسألناها عن الهجرة فقالت: «**لا هجرةَ اليوم، كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى الله** عَزَّوَجَلَّ، **وإلى رسوله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ **مخافة أن يفتن عليه، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام، واليوم يعبد ربه حيث شاء، ولكن جهاد ونية**»(٣).

وعن أبي عبد الله جابر بن عبد الله الأنصاريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كُنَّا مع النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غَزَاةٍ، فقال: «**إنَّ بالمدينة لَرِجَالًا ما سِرْتُمْ مَسِيرًا، ولا قَطَعْتُم واديًا، إلا كانوا معكم حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ**»(٤).

وفي رواية: «**إلاَّ شَرَكُوكُمْ في الأجر**»(٥).

---

(١) دليل الفالحين (١/٥١).

(٢) صحيح البخاري [١٨٣٤، ٢٧٨٣، ٢٨٢٥، ٣٠٧٧، ٣١٨٩]، مسلم [١٣٥٣].

(٣) صحيح البخاري [٣٩٠٠، ٤٣١٢]، مسلم [١٨٦٤].

(٤) صحيح مسلم [١٩١١].

(٥) صحيح مسلم [١٩١١].

ورواهُ البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة، فقال: «**إن بالمدينة أقواما، ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم**»، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «**وهم بالمدينة، حبسهم العذر**»[(١)].

وعن أبي موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله ما القتال في سبيل الله؟ فإن أحدنا يقاتل غضبًا، ويقاتل حَمِيَّةً، فرفع إليه رأسه، قال: وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائمًا، فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله** عَزَّ وَجَلَّ»[(٢)].

وعن أبي بكرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النَّار**»، قلت: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «**إنَّه كان حريصًا على قَتْل صاحبه**»[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري [٤٤٢٣].

(٢) صحيح البخاري [١٢٣، ٢٨١٠، ٣١٢٦، ٧٤٥٨]، مسلم [١٩٠٤].

(٣) صحيح البخاري [٣١، ٦٨٧٥]، مسلم [٢٨٨٨]. والحديث محمول على ما إذا كان القتال بينهما من غير تأويل سائغ. أما ما وقع بين بعض الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ فقد كان عن تأويل سائغ، القصد منه: إصلاح الدين والدنيا، فالمصيب منهم له أجران، والمخطئ له أجر. وهي مرحلة زمنية قد مضت، فينبغي للمسلم أن يعيش الحاضر، ويستفيد من دروس الماضي، وأن يعرف للصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ قدرهم، ويقدر جهدهم في الإصلاح، وحرصهم على نشر الدين وإصلاح أحوال الناس، ويتجنب الطعن أو إثارة الفتن بين المسلمين. وقوله: «حريصًا» أي: عازمًا، وهو لا ينافي حديث: «من هم بسيئة فلم يعملها، لم تكتب»؛ لأن الهم دون العزم، فالعزم أقوى، بدليل حمله هنا لآلة القتل.

وفي (الصحيح): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من صام رمضان، إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من اتبع جنازة مسلم، إيمانًا واحتسابًا، وكان معه حتى يصلى عليها ويفرغ من دفنها، فإنه يرجع من الأجر بقيراطين، كل قيراط مثل أحد، ومن صلى عليها ثم رجع قبل أن تدفن، فإنه يرجع بقيراط**»(٢).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيما يروي عن ربه عَزَّ وَجَلَّ قال: قال: «**إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هَمَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة**»(٣)...إلى غير ذلك.

وقد نظم بعضهم مراتب القصد بقوله:

مراتبُ الْقَصْدِ خمسٌ: هاجِسٌ ذَكَرُوا ... فخاطِرٌ فحديثُ النَّفْسِ فاستمعا
يـليه هَـمٌّ فَـعَـزْمٌ كُـلُّـهـا رُفِـعَـتْ ... سوى الأخير ففيه الأَخْذُ قد وَقَعا

(١) صحيح البخاري [٢٠١٤]، مسلم [٧٦٠].
(٢) صحيح البخاري [٤٧].
(٣) صحيح البخاري [٦٤٩١]، مسلم [١٣١].

والمراد بالهمِّ: ترجيح الفعل دون عزم وتصميم؛ لأنه الذي يكتب في الخير، ولا يكتب في الشر، وأما العزم والتصميم فيكتب في الخير والشر، وأما الهاجس والخاطر وحديث النفس، فلا يؤاخذ الإنسان بها، لا في خير ولا في شر.

والقاعدة الشرعية أن (الأمور بمقاصدها)، فيعتبر ما يحصل عنها من المصالح والمفاسد.

فربَّ أمرٍ مباح أو مطلوب لمقصد ممنوع باعتبار مقصد آخر.

وفي الحديث: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء من الأرض، يخسف بأولهم وآخرهم**»، قالت: قلت: يا رسول الله، كيف يخسف بأولهم وآخرهم، وفيهم أسواقهم، ومن ليس منهم؟ قال: «**يخسف بأولهم وآخرهم، ثم يبعثون على نياتهم**»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما يبعث الناس على نياتهم**»(٢).

---

(١) صحيح البخاري [٢١١٨].

(٢) أخرجه أحمد [٩٠٩٠]، وابن ماجه [٤٢٢٩]، والبزار [٩٣٥١]، وأبو يعلى [٦٢٤٧]، وتمام [٢٣٧]، والشهاب القضاعي [٥٧٨]. وفي إسناده: ليث بن سليم. وهو ضعيف. قال البوصيري: "وله شاهد من حديث: جابر بن عبد الله رواه مسلم في (صحيحه) وغيره" مصباح الزجاجة (٤/٢٤٣). وقال المنذري (١/٢٥): "رواه ابن ماجه بإسناد حسن، ورواه أيضًا من حديث: جابر، إلا أنه قال: «يحشر الناس..»". وقال الحافظ العراقي في (المغني عن حمل الأسفار) (ص:٩٢١):" أخرجه ابن ماجه من حديث: جابر، دون قوله: «إنما»، وله من حديث أبي هريرة: «إنما يبعث الناس على نياتهم» =

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فمن مات على شيء بعث عليه، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر. وفيه: أن الأمور بمقاصدها، وهي قاعدة عظيمة مفرع عليها من الأحكام ما لا يخفى"(١).

وعن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قبل وفاته بثلاث، يقول: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن**»(٢).

وعن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**يبعث كل عبد على ما مات عليه**» (٣).

وعن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يَبْلُغُ به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل فغلبته عيناه حتى أصبح كتب له ما نوى، وكان نومه صدقة عليه من ربه** عَزَّ وَجَلَّ»(٤).

=وإسنادهما حسن، ومسلم من حديث عائشة: «يبعثهم الله على نياتهم»، وله من حديث: أم سلمة: «يبعثون على نياتهم».

(١) فيض القدير (٣/٧).

(٢) صحيح مسلم [٢٨٧٧].

(٣) صحيح مسلم [٢٨٧٨].

(٤) ابن ماجة [١٣٤٤]، والبزار [٤١٥٣]، والنسائي [١٣٤٤]، وابن خزيمة [١١٧٢]، والحاكم [١١٧٠]، والبيهقي في (الكبرى) [٤٧٢٤]. قال الحافظ العراقي (ص:٤٠٩): "أخرجه النسائي، وابن ماجه، من حديث: أبي الدرداء بسند صحيح". وقال المنذري (٢٨/١): "رواه النسائي، وابن ماجه بإسناد جيد".

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "«**حتى يصبح كتب له ما نوى**»؛ لأن الأعمال بالنيات، وفيه أن الأمور بمقاصدها"(١).

وقد ذكر الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في (رياض الصالحين)، أحاديث كثيرة في: (الإخلاص وإحضار النية في جميع الأعمال والأقوال والأحوال البارزة والخفية)(٢).

٢ - الإخلاص في الدعاء:

إنَّ كلَّ إنسانٍ محتاجٌ إلى الإخلاص في الدُّعاء حتى الكافر إذا أصابته ورطة، ووقع به ما لم يكن بحسبانه، مما لا يستطع أحد دفعَه عنه إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، توجَّه لله عَزَّوَجَلَّ مخلصًا في دعائه، بأن ينجيه الله عَزَّوَجَلَّ من هذا الهول والكرب، وأنه سيقابل نعمة الإنجاء وذلك الفضل بالتوبة، والشكر لله عَزَّوَجَلَّ على سائر نعمه، والثبات على محبته وطاعته.

إن الإخلاص في الدُّعاء هو مفتاح الإجابة عند وقوع الكرب العظيم، والأمر الجلل، فلا ملجأ، ولا مغيث، ولا منجِّي من الشَّدائد والكربات، ولا سامع للدعوات إلا هو، ولا مناص، ولا منجا للعبد من ذلك الكرب العظيم إلا بالرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والإخلاص في الدعاء، فلا يملك الأمر إلا هو جَلَّوَعَلَا، ولا رافع له إلا هو جَلَّوَعَلَا، بفضله وكرمه، وإمهاله للعبد، لعله يستعتب.

وقد أخرج ابن جرير: عن يزيد بن أبي مريم، قال: مرَّ عمر بمُعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقال: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ثلاث، وهنَّ المنجيات:

---

(١) فيض القدير (٦/٢٣).

(٢) انظر: رياض الصالحين (ص:٢٩-٣٣).

الإخلاص، وهو الفطرة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠]، والصلاة: وهي الملة، والطاعة: وهي العصمة. فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صدقت(١).

ولكن الإنسان كفور بنعم الله عَزَّوَجَلَّ، لا يعرف قدر الله عَزَّوَجَلَّ، ومدى ضعفه وحاجته إليه، إلا وقوع الملمات والشدائد، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ [عبس:١٧-٢٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس:٢١-٢٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء:٦٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان:٣٢].

---

(١) تفسير الطبري (٢٠/٩٨)، وانظر: المحرر الوجيز (٤/٣٣٧)، تفسير ابن كثير (٦/٣١٦)، الدر المنثور (٦/٤٩٣)، كنز العمال [٤٤٢٧٦]، درء تعارض العقل والنقل (٨/٣٧٤)، أحكام أهل الذمة، لابن القيم (٢/ ٩٦٥)، شفاء العليل (ص:٢٨٧).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [العنكبوت:٦٥-٦٦].

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ [يونس:٢٣]، أي: مما نزل بهم وغشيهم من الشدة والكربة، والفاء للدلالة على سرعة الإجابة.

﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس:٢٣]، أي: سارعوا إلى ما كانوا عليه من التكذيب، والشرك، والإفساد في الأرض، والجراءة على الله عَزَّوَجَلَّ.

قال أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول تعالى ذكره: فلما أنجى الله عَزَّوَجَلَّ هؤلاء الذين ظنُّوا في البحر أنهم أحيط بهم، من الجهد الذي كانوا فيه، أخلفوا الله ما وعدُوه، وبغوا في الأرض، فتجاوزوا فيها إلى غير ما أذن الله لهم فيه، من الكفر به، والعمل بمعاصيه على ظهرها"(١).

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فظاهر أن هذه لا تدل على استجابة كرامة، ولكنها لتسجيل كفرهم ونكرانهم. وقد يتوهم في بعض الأحوال أن يدعو الكافر فيقع ما طلبه، وإنما ذلك لمصادفة دعائه وقت إجابة دعاء غيره من الصالحين، وكيف يستجاب دعاء الكافر وقد جاء عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: استبعاد استجابة دعاء المؤمن الذي يأكل الحرام، ويلبس الحرام، في حديث مسلم: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ذكر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رجلًا يطيل السفر أشعث أغبر، يَمُدُّ يديه إلى السماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وَغُذِيَ**

---

(١) تفسير الطبري (١٥/٥٣).

بالحرام، فأنى يستجاب له؟» [1]؟! ولهذا لم يقل الله عَزَّوَجَلَّ: فلما استجاب دعاءهم، وإنما قال: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ﴾ [العنكبوت:٦٥]، أي: لأنه قدر نجاتهم من قبل أن يدعوا، أو لأن دعاءهم صادف دعاء بعض المؤمنين" [2].

عجيب شأن هذا الإنسان الضعيف الفقير المحتاج الذي لا يعرف الله عَزَّوَجَلَّ إلا في أحلك الظروف، وأشد الأحوال، فيتجه إليه بخالص الدعاء، فيستجيب الله عَزَّوَجَلَّ دعائه، ولكن هذه الاستجابة -كما تقدم- ليست استجابة كرامة، ولكنها لتسجيل كفرهم ونكرانهم، وفي ذلك ما فيه من الإعلام بفائدة الإخلاص، وأنه مثمر للخير، ورافع للبلاء بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

فينبغي أن تقابل تلك الاستجابة بالإنجاء مع نعم الله عَزَّوَجَلَّ على العبد التي لا تعد ولا تحصى، بدوام الشكر، لا بالجحود والنكران، حتى يدوم فضل الله عَزَّوَجَلَّ على العبد، وحتى لا يقع العبد في استدراج يهلكه، ويسجل عليه كفره وجحوده، فيستحق العذاب.

ثم قال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ [يونس:٢٣]، أي: إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم، ولا تضرون به أحدًا غيركم، كما جاء في الحديث: عن أبي بكرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ما من ذَنْبٍ أَجْدَرُ أن يُعَجِّلَ الله** عَزَّوَجَلَّ **لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يَدَّخِرُ له في الآخرة من البَغْيِ،**

---

(١) صحيح مسلم [١٠١٥].

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/١٦٦-١٦٧).

وقطيعة الرحم» (١). وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بابان معجلان عقوبتهما في الدنيا: البغي، والعقوق**» (٢).

وقوله: ﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، أي: إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة الفانية.

﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ﴾، أي: مصيركم ومآلكم. ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾، أي: فنخبركم بجميع أعمالكم، ونوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه (٣).

ومن سنن الله عَزَّوَجَلَّ: أن المكر السيء يحيق بأهله، وأن الجزاء من جنس العمل، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ٤٣﴾ [فاطر:٤٣]، أي: لا يحيط وبال المكر السيء إلا بمن مكره ودبره، كما قيل: من حفر حفرة لأخيه وقع فيها.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [٧٢٤]، والطيالسي [٩٢١]، وابن الجعد [١٤٨٩]، وأحمد [٢٠٣٩٨]، وهناد [١٣٩٨]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٢٩]، وابن ماجه [٤٢١١]، وأبو داود [٤٩٠٢]، والترمذي [٢٥١١]، وقال: "حسن صحيح". كما أخرجه البزار [٣٦٧٨]، والخرائطي في (مساوئ الأخلاق) [٢٦٦]، وابن حبان [٤٥٥]، والحاكم [٣٣٥٩]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي [٢١٠٨٢].

(٢) أخرجه الحاكم [٧٣٥٠]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: البخاري في (الأدب المفرد) [٨٩٥] بلفظ: «وبابان يعجلان في الدنيا: البغي، وقطيعة الرحم».

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٥٩)، بتصرف يسير.

قال بعض السلف: ثلاث من كُنَّ فيه كُنَّ عليه: المكر والبغي والنكث. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ﴾، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ [يونس:٢٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ﴾ [الفتح:١٠].

وقال مكحول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أربع من كن فيه كن له، وثلاث من كن فيه كن عليه، فالأربع اللاتي له: فالشكر، والإيمان، والدعاء، والاستغفار، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْۚ﴾ [النساء:١٤٧]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال:٣٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ﴾ [الفرقان:٧٧].

وأما الثلاث اللاتي عليه: فالمكر والبغي والنكث، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ﴾ [الفتح:١٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ﴾ [فاطر:٤٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ [يونس:٢٣]"[١].

وقليل من عباد الله عَزَّوَجَلَّ شكور لنعمه الوافرة، يقابل ذلك الإحسان والفضل بالاجتهاد فيما يرضي ربه جَلَّوَعَلَا، ويصبر على ما أصابه من البلاء، شاكرا لله عَزَّوَجَلَّ في السراء والضراء، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ:١٣]، وقال عن نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء:٣].

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥/٤٢٦-٤٢٧)، حلية الأولياء (٥/١٨١)، تاريخ دمشق (٦٠/٢٢٥-٢٢٦).

وأشد الناس بلاء الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ثم الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ[1]، وقد صبروا على ما أصابهم من البلاء، وأخلصوا لله عَزَّوَجَلَّ في العبادة والدعاء، ففرج الله عَزَّوَجَلَّ عنهم ما أصابهم، فكانوا على العهد شاكرين ومنيبين لله عَزَّوَجَلَّ في كل حال. والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ خيرة عباده الذين هداهم الله عَزَّوَجَلَّ، فكانوا قدوة لكل من اقتفى أثرهم، وسار على هديهم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام:٩٠]. وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن صبرهم وإخلاصهم في الدعاء، فقال عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنبياء: ٧٦-٧٧].

وقال عن أيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذي الكفل، وزكريا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٨٣-٩٠]. وسيأتيك مزيد بيان في (بيان مكانة الصبر).

---

(١) سيأتي ذكر ما جاء في ذلك من الحديث وتخريجه.

وقد جاء في الحديث: عن مصعب بن سعد، عن أبيه قال: «**لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **الناس، إلا أربعة نفر وامرأتين وقال: اقتلوهم، وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن خطل، ومقيس بن صبابة، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح، فأما عبد الله بن خطل فأدرك وهو متعلق بأستار الكعبة، فاستبق إليه سعيد بن حريث، وعمار بن ياسر، فسبق سعيد عمارًا، وكان أشب الرجلين فقتله، وأما مقيس بن صبابة فأدركه الناس في السوق فقتلوه، وأما عكرمة فركب البحر، فأصابتهم عاصف، فقال أصحاب السفينة: أخلصوا، فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئًا هاهنا. فقال عكرمة: والله لئن لم ينجني من البحر إلا الإخلاص، لا ينجيني في البر غيره، اللهم إن لك عليَّ عهدًا، إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمدًا** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **حتى أضع يدي في يده، فلأجدنه عفوًا كريمًا، فجاء فأسلم**» الحديث[(١)].

فالإخلاص نافع للعبد، في التحرر من الرياء ومن حظوظ النفس حتى يكون العمل خالصًا لله عَزَّوَجَلَّ، ومثمرًا للخير.

*ويدخل في هذا باب: (الإخلاص):

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٦٩١٣]، والبزار [١١٥١]، والنسائي [٤٠٦٧]، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [١٥٠٦]، وفي (شرح معاني الآثار) [٥٤٧٥]، وأبو يعلى [٧٥٧]، والشاشي [٧٣]، والبيهقي [١٦٨٧٩]، والضياء [١٠٥٥]. قال الهيثمي (٦/١٦٩): "قلت: رواه أبو داود وغيره باختصار، ورواه أبو يعلى، والبزار، ورجالهما ثقات".

أ. دعاء المظلوم والمضطر:

*ومن ثمرات الإخلاص: استجابة دعاء المظلوم والمضطر؛ لأنهما أخلصا في دعائهما، وفرَّغا قلبيهما عن كل ما سوى الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد جاء في الحديث: ما يدل على أن من كمال الإخلاص: أن يفرغ العبد القلب عن كل ما سوى الله عَزَّوَجَلَّ، وأن ينصرف بكليته إلى الله عَزَّوَجَلَّ. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما منكم رجل يُقَرِّبُ وَضُوءَهُ، فيتمضمض، ويستنشق فينتثر، إلا خرت خطايا وجهه، وفيه وخياشيمه، ثم إذا غسل وجهه كما أمره الله، إلا خرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم يغسل يديه إلى المرفقين، إلا خرت خطايا يديه من أنامله مع الماء، ثم يمسح رأسه، إلا خرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين، إلا خرت خطايا رجليه من أنامله مع الماء، فإن هو قام فصلى، فحمد الله وأثنى عليه وَمَجَّدَهُ بالذي هو له أهل، وفَرَّغَ قلبه لله، إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه»**(١).

والمضطر قد فرَّغ قلبه عن كل ما سوى الله عَزَّوَجَلَّ، وتوجَّه إليه مخلصًا في الدعاء، فكان دعائه أدعى إلى الإجابة، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في حقِّه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل:٦٢]. والمضطر هو الذي أحوجته شدة من الشدائد، وألجأته إلى اللجأ والضراعة إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) صحيح مسلم [٨٣٢].

و"(الضرورة): الحالة المحوجة إلى اللجإ. و(الاضطرار): افتعال منها. يقال: اضطرّه إلى كذا.

والفاعل والمفعول: مضطر. والمضطر الذي أحوجه مرض، أو فقر، أو نازلة من نوازل الدهر إلى اللجإ والتضرع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، واللام فيه للجنس لا للاستغراق، فلا يلزم منه إجابة كل مضطر"(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإذا جَمَع مع الدعاء: حضور القلب وجمعِيَّتَهُ بكُلِّيَّتِهِ على المطلوب، وصادف وقتًا من أوقات الإجابة الستة، وهي:

---

(١) الكشاف (٣/٣٧٦-٣٧٧)، تفسير البيضاوي (٤/١٦٥). وفي (مفاتيح الغيب): "فإن قيل: قد عم المضطرين بقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ وكم من مضطر يدعو فلا يجاب؟ جوابه: قد بينا في (أصول الفقه): أن المفرد المعرف لا يفيد العموم، وإنما يفيد الماهية فقط، والحكم المثبت للماهية يكفي في صدقه ثبوته في فرد واحد من أفراد الماهية. وأيضًا فإنه جَلَّوَعَلَا وعد بالاستجابة ولم يذكر أنه يستجيب في الحال، وتمام القول في شرائط الدعاء، والإجابة مذكور في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]" مفاتيح الغيب (٢٤/٥٦٥). ويدل على ذلك حديث: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم، ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها» أخرجه ابن أبي شيبة [٢٩١٧٠]، وأحمد [١١١٣٣]، وعبد بن حميد [٩٣٧]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٧١٠]، والبزار كما في (كشف الأستار) [٣١٤٣]، وأبو يعلى [١٠١٩]، والطبراني في (الأوسط) [٤٣٦٨]، والحاكم [١٨١٦]، وقال: "صحيح الإسناد". وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٧١٠]. قال الهيثمي (١٠/١٤٨-١٤٩): "رواه أحمد، وأبو يعلى بنحوه، والبزار، والطبراني في (الأوسط)، ورجال أحمد وأبي يعلى وأحد إسنادي البزار رجاله رجال الصحيح، غير علي بن علي الرفاعي، وهو ثقة".

الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة من ذلك اليوم، وآخر ساعة بعد العصر.

وصادف خشوعًا في القلب، وانكسارًا بين يدي الرب جَلَّوَعَلَا، وذلًّا له، وتضرعًا، ورِقَّة. واستقبل الداعي القبلة. وكان على طهارة.

ورفع يديه إلى الله عَزَّوَجَلَّ. وبدأ بحمد الله عَزَّوَجَلَّ، والثناء عليه.

ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ثم قدم بين يدي حاجته: التوبة والاستغفار.

ثم دخل على الله عَزَّوَجَلَّ، وألح عليه في المسألة، وتملقه، ودعاه، رغبة ورهبة.

وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده.

وقدم بين يدي دعائه صدقة؛ فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبدًا، ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنها مظنة الإجابة، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم"(١).

وقال: "وكثيرًا ما تجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم، فيكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله عَزَّوَجَلَّ، أو حسنة تقدمت منه جعل الله جَلَّوَعَلَا إجابة دعوته؛ شكرًا لحسنته، أو صادف وقت إجابة، ونحو ذلك، فأجيبت دعوته، فيظن الظان أن السرَّ في لفظ ذلك الدعاء، فيأخذه مجرَّدًا عن تلك الأمور التي قارنته من

---

(١) الجواب الكافي (ص:١٢).

ذلك الداعي، وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعًا في الوقت الذي ينبغي استعماله على الوجه الذي ينبغي، فانتفع به، فظن غيره أن استعمال هذا الدواء بمجرده كاف في حصول المطلوب، كان غالطًا، وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس"[(١)].

قال المقريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تذكرته): "يستجاب الدعاء في أوقات، منها: عند القيام إلى الصلاة، وعند لقاء العدو في الحرب، وإذا قال مثل ما يقول المؤذن ثم دعا، وبين الأذان والإقامة، وعند نزول المطر، ودعوة الوالد لولده، والمظلوم حتى ينتصر، ودعوة المسافر حتى يرجع، والمريض حتى يبرأ، وفي ساعة من الليل، وفي ساعة من يوم الجمعة، وفي الموقف بعرفة، ودعوة الحاج حتى يصدر، والغازي حتى يرجع، وعند رؤية الكعبة، ودعاء تقدمه الثناء على الله عَزَّوَجَلَّ، والصلاة على نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودعاء الصائم مطلقًا، ودعاؤه عند فطوره، ودعاء الإمام العادل، ودعاء عبد رفع يديه إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والدعاء عند خشوع القلب واقشعرار الجلد، ودعاء الغائب للغائب"[(٢)].

وإن الدعاء أعظم وأمضى سلاح يملكه المظلوم، ولو يعلم الظالم قوة وأثر هذا السلاح ما تجرأ على الظلم، وقد جاء في الحديث: عن معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: بعثني رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض**

(١) الجواب الكافي (١/١٥).

(٢) فيض القدير (٣٠١/٣).

عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» (١).

وعن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استعمل مولى له يدعى هُنَيًّا على الحِمَى، فقال: «**يا هُنَيُّ اضْمُمْ جناحك عن المسلمين، واتق دعوة المظلوم، فإن دعوة المظلوم مستجابة..**» الحديث (٢).

وفي رواية: «**اتقوا دعوة المظلوم؛ فإنها تحمل على الغمام، يقول الله جلَّ جلاله: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين**» (٣).

وفي رواية: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين**» (٤).

---

(١) صحيح البخاري [١٤٩٦، ٢٤٤٨، ٤٣٤٧]، صحيح مسلم [١٩].

(٢) صحيح البخاري [٣٠٥٩]. و(الحِمَى): موضع يعينه الحاكم ويخصصه لرعي مواشي الزكاة وغيرها مما يرجع ملكه إلى بيت مال المسلمين، ويمنع عامة الناس من الرعي فيه.

(٣) أخرجه الدولابي في (الكنى والأسماء) [١٨٢٩]، والخرائطي في (مساوئ الأخلاق) [٥٩٨]، والدينوري في (المجالسة) [٣١٧٣]، والطبراني [٣٧١٨]. قال الهيثمي (١٥٢/١٠): "فيه من لم أعرفه". لكن قال المنذري (١٣٠/٣): "لا بأس بإسناده في المتابعات". وأخرجه أيضًا: القضاعي [٧٣٣]. وللحديث أطراف أخرى.

(٤) أخرجه إسحاق بن راهويه [٣٠٠]، وأحمد [٨٠٤٣]، وابن ماجه [١٧٥٢]، والترمذي [٣٥٩٨]، وقال: "حديث حسن". وأخرجه أيضًا: ابن خزيمة [١٩٠١]، وابن حبان [٣٤٢٨]، والبيهقي=

ودلَّ الحديث على أن الله جَلَّ وَعَلَا يمهل الظالم ولا يهمله. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ٥٨﴾ [الكهف:٥٨].

وفي الحديث: عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله لَيُمْلِي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِته**»، قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود:١٠٢][١].

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله لَيُمْلِي**» أي: ليمهل، و(الإملاء): الإمهال والتأخير، وإطالة العمر، «**للظالم**»؛ زيادة في استدراجه؛ ليطول عمره، ويكثر ظلمه، فيزداد عقابه: ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٧٨﴾ [آل عمران:١٧٨]. ووقوع العفو عن بعض أفراد الظلمة يكون مع تعويض المظلوم فهو نصر أيضًا، وفيه: تحذير شديد من الظلم، وأن مراتعه وخيمة، ومصائبه عظيمة[٢]. "فمن الاستدراج: أن يملى للإنسان في ظلمه، فلا يعاقب سريعًا؛ حتى تتكدس عليه المظالم، فإذا أخذه الله عَزَّ وَجَلَّ لم يفلته، أخذه أخذ عزيز مقتدر"[٣].

=[٦٣٩٣]. والحديث فيه: أبو مدلة، قال الذهبي: لا يكاد يعرف، قال الدارقطني: متروك. انظر: ميزان الاعتدال (٥٧١/٤). ولكن الحديث حُسن بطرقه وشواهده.

(١) صحيح البخاري [٤٦٨٦]، مسلم [٢٥٨٣].

(٢) انظر: فيض القدير (١٤١/١)، (٢٦٤/٢).

(٣) شرح رياض الصالحين، لمحمد بن صالح العثيمين (٤٩٨/٢).

والمظلوم لَمَّا لحقته نار الظلم، واحترقت أحشاؤه، خرج منه الدعاءُ عن التضرع، وصار مُضطرًا، فيقبل الله عَزَّوَجَلَّ دعاءه.

ويرفع الله عَزَّوَجَلَّ دعوة المظلوم ويَفْتَحُ لها أبواب السَّمَاء، فيقول الله جَلَّوَعَلَا: «**وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين**»، يعني: لا أضيعُ حقَّ المظلوم، ولا أردُّ دعائه، ولو مضى زمانٌ طويل؛ لأني حكيمٌ، لا أعجِّل عقوبة العباد، فلعلهم يرجعون عن الظلم والذنوب، إلى ردِّ الحقوق، وإرضاءِ الخصومِ، وإلى التوبة.

وفي رواية: «**اتقوا دعوة المظلوم؛ فإنها تصعد إلى السماء كأنها شَرَار**» (١).

وقوله: «**كأنها شرار**»: كناية عن سرعة الوصول؛ لأنه مضطر في دعائه، وقد قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢]. وكلما قوي الظلم قوي تأثيره في النفس، فاشتدت ضراعة المظلوم، فقويت استجابته. والشرر: ما تطاير من النار في الهواء. شبه سرعة صعودها بسرعة طيران الشرر من النار (٢).

وفي رواية: «**دعوة المظلوم مستجابة، وإن كانت من فاجر ففجوره على نفسه**» (٣).

---

(١) أخرجه الحاكم [٨١]، وقال: "رواة هذا الحديث متفق على الاحتجاج بهم"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: الديلمي [٣٠٧].

(٢) فيض القدير (١/١٤٢).

(٣) أخرجه الطيالسي [٢٤٥٠]، وابن أبي شيبة [٢٩٣٧٤]، وأحمد [٨٧٩٥]، قال الهيثمي (١٠/١٥١): "إسناده حسن". وأخرجه أيضًا: الخرائطي في (مساوئ الأخلاق) [٥٨٨]، والطبراني في (الدعاء) [١٣١٨]، والشهاب القضاعي [٣١٥]. والحديث في سنده: أبو معشر، وهو ضعيف؛ لسوء حفظه، لكن حديثة يصلح للمتابعة، وهذا منه؛ ولذا حسنه الهيثمي، وابن حجر في (الفتح) (٣/٣٦٠).

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "«**دعوة المظلوم مستجابة**» أي: يستجيبها الله عَزَّوَجَلَّ، يعني: فاجتنبوا جميع أنواع الظلم؛ لئلا يدعو عليكم المظلوم فيجاب. «**وإن كان فاجرًا ففجوره على نفسه**»، ولا يقدح ذلك في استجابة دعائه؛ لأنه مضطر، ونشأ من اضطراره: صحة التجائه إلى ربه جَلَّوَعَلَا، وقطعه قلبه عما سواه. وللإخلاص عند الله عَزَّوَجَلَّ موقع، وقد ضمن إجابة المضطر بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢]. ويحتمل أن يريد بالفاجر: الكافر. ويحتمل أن يريد: الفاسق"[١].

وأثر الاستجابة قد لا يظهر في الحال؛ لكون المجيب جَلَّوَعَلَا حكيمًا [٢].

ولله در القائل:

أتهزأ بالدُّعاء وتزدريه ... وما يدريك ما صنع الدعاء
سهام الليل لا تُخطِي ولكن ... لها أمدٌ وللأمد انقضاء
فيمسكها إذا ما شاء ربي ... ويرسلها إذا نفذ القضاء

ولآخر:

لا تظلمنَّ إذا ما كنت مقتدرا ... فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

ولآخر:

أيحسب الظالم في ظلمه ... أهمله القادر أم أمهلا
ما أهملوا بل لهم موعد ... لن يجدوا من دونه موئلا

---

(١) فيض القدير (٣/٥٢٦).

(٢) انظر: حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٢/٤٣٩).

وقال آخر:

وإني لأدعو الله والأمر ضيق ... عليَّ فما ينفك أن يتفرجا

ورب فتى سدت عليه وجوه ... أصاب لها في دعوة الله مخرجا (١)

قال بعض الأدباء: ليس للجائرِ جَار، ولا تَعْمُرُ له دار. وقال بعض البلغاء: أقرب الأشياء: صَرْعَةُ الظَّلُوم، وأنْفَذُ السِّهَام: دعوةُ المظلوم (٢).

ب. دعوةُ الوالد على ولده، ودعوة الصائم، ودعوةُ المسافر، ودعوة الإمام العادل:

ويدخل في باب الإخلاص في الدعاء: دعوةُ الوالد على ولده، ودعوة الصائم، ودعوةُ المسافر، ودعوة المظلوم -كما تقدم-، ودعوة الإمام العادل، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده**» (٣).

---

(١) انظر: بهجة المجالس، لابن عبد البر (٣/٢٧٤).

(٢) انظر: أدب الدنيا والدين (ص:١٤٠).

(٣) أخرجه الطيالسي [٢٦٣٩]، وابن أبي شيبة [٢٩٨٣٠]، وأحمد [٧٥١٠]، وابن حميد [١٤٢١]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٣٢]، وابن ماجة [٣٨٦٢]، وأبو داود [١٥٣٦]، والترمذي [١٩٠٥]، وقال: "حديث حسن". كما أخرجه: ابن حبان [٢٦٩٩]، والشهاب القضاعي [٣١٦]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٧٠٥٩]. وليس في رواية أبي داود: "على ولده"، وكذا في إحدى=

وفي رواية: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين**» (١).

فهذه الدعوات مستجابات عند الله عَزَّ وَجَلَّ إذا توفرت شروطها؛ لأنها لا تكون إلا صادقة.

فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا شك فيهن**»، أي: في استجابتهن، وهو آكد من حديث: «**لا ترد**»، وإنما أكد به؛ لالتجاء هؤلاء الثلاثة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بصدق الطلب، ورقة القلب، وانكسار الخاطر (٢).

قال العلامة المظهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "اعلم أن سرعة قَبولِ الدعاء إنما تكونُ لصلاح الداعي، أو لتضرُّعه في الدعاء"(٣).

فالمظلوم مضطر -كما تقدم-.

=الروايات عن أحمد. وعند الطيالسي، وابن ماجة، والبيهقي في (الدعوات الكبير): "ودعوة الوالد لولده".

(١) تقدم.

(٢) انظر: مرقاة المفاتيح (٤/١٥٣٥).

(٣) المفاتيح في شرح المصابيح (٣/١٣١).

والوالد صحيح الشفقة والرحمة على ولده، كثير الايثار له على نفسه، فلا يصدر عنه الدعاء إلا وقد بلغ به الأمر مبلغًا عظيمًا في العقوق وجحود الفضل، أجيبت دعوته؛ لصدق توجهه، وعظيم إخلاصه، وتقاسُ على الوالد الوالدة.

قال العلامة المظهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دعوة الوالد على ولده**»، يعني: دعاء الشرِّ، وإنما يكون قبول هذا الدعاء إذا صدر عن الولد عقوقٌ، أي: مخالفة أمر الوالد فيما يجب على الولد طاعته به، فإذا خالفه الولد، يكون الوالدُ مظلومًا، فيستجابُ دعاؤه، كما ذكرنا في المظلوم، وتقاسُ على الوالد الوالدة.

وقيل: بل دعاءُ الوالدِ أسرعُ إجابةً من دعاء الوالدة؛ لأن الوالدةَ لها رحمةٌ وشفقةٌ بالولد، لا تريد قبول دعائها"(١).

وقد نهى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوالد أن يدعو على ولده إلا بخير، فقال: «**لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يُسْأَلُ فيها عطاءٌ، فيستجيب لكم**»(٢)، أي: لا تدعوا دعاءَ سُوءٍ على أنفسكم، ولا على أولادكم، ولا على أموالكم؛ مخافةَ أن توافق دعوتُكم ساعةَ إجابة، فيُستجاب دعاؤكم السوء.

---

(١) المصدر السابق (١٣٢/٣).

(٢) صحيح مسلم [٣٠٠٩]. وقوله: «فيستجيب» منصوب؛ لأنه جواب «لا توافقوا». وقال الطيبي: "قوله: «فيستجيب» نصب على أنه جواب النهي من قبيل: (لا تدن من الأسد فيأكلك)، أي: على مذهب الكسائي. ويحتمل أن يكون مرفوعًا، أي: فهو يستجيب" الكاشف عن حقائق السنن (١٧٠٧/٥).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: «**لا توافقوا**» نهي للداعي، وعلة للنهي، أي: لا تدعوا على أنفسكم، وعلى أولادكم؛ كي لا توافقوا ساعة الإجابة فتندموا"[1]، ولا تنفعكم الندامةُ؛ يعني: لا تدعوا بسوء، بل ادعوا بخير [2].

فعلى الوالدين أن يتجنبا الدعاء على أولادهم إلا بخير؛ فإن الملائكة يؤمنون على دعائهم، كما جاء في (قصة جريج وأمه): قال: «**ولو دعَتْ عليه أن يُفْتَنَ لَفُتِنَ**»[3].

والذي ينبغي هو الدعاء لهم بالهداية والصلاح والرشاد.

ومن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ أنه لا يستجيب دعاء الوالدين على أولادهما إذا كان في وقت الغضب والضجر، كما جاء في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ [يونس:١١]، أي: لو يعجل الله عَزَّوَجَلَّ للناس الشرَّ كما يحبون تعجيل الخير لهلكوا سريعًا.

قال السلف: هو دعاء الإنسان على نفسه وولده وأهله في حال الغضب، لو استجابه الله عَزَّوَجَلَّ لأهلكه، وأهلك من يدعو عليه، ولكنه لا يستجيبه؛ لعلمه أن الداعي لم يقصده. وهذا من حِلم الله عَزَّوَجَلَّ ولطفه ورحمته بعباده.

---

(١) الكاشف عن حقائق السنن (١٧٠٧/٥).

(٢) المفاتيح في شرح المصابيح (١٢٢/٣).

(٣) صحيح مسلم [٢٥٥٠].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يخبر جَلَّ وَعَلَا عن حلمه ولطفه بعباده: أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم، أو أموالهم، أو أولادهم في حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم: عدم القصد إلى إرادة ذلك؛ فلهذا لا يستجيب لهم -والحالة هذه-؛ لطفًا ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم، أو لأموالهم، وأولادهم بالخير والبركة والنماء" [(١)].

وفي تفسير ابن ابي نجيح: عن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو قول الإنسان لولده وماله إذا غضب عليهم: (اللهم لا تبارك فيه والعنه)، فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك كما يستجاب في الخير لأهلكهم [(٢)].

وعن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ﴾ [يونس:١١]، قال: هو دعاء الرجل على نفسه وماله بما يكره أن يستجاب له.

وذكر عن معاوية بن هشام، عن شريك عن سالم عن سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: ﴿۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ﴾ قال: هو الرجل يدعو على نفسه: (اللهم اخزه، اللهم افعل به كذا وكذا)، فلو عجل الله عَزَّوَجَلَّ لهم ذلك، كما يعجل الله لهم: (اللهم ارزقني) لقضي إليهم الأجل [(٣)].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٢٥١-٢٥٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٦/١٩٣٢)، تفسير الطبري (١٥/٣٤-٣٥)، التفسير البسيط (١١/١٣٣)، وانظر: إغاثة اللهفان (ص:٣٢)، وانظر: روضة المحبين (ص:١٥٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٦/١٩٣٢)، وانظر: تفسير الطبري (١٥/٣٥).

قال ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يريد: أن الناس عند الغضب وعند الضَّجر، قد يدعون على أنفسهم وأهلهم وأولادهم بالموت وبالخزي، وتعجيل البلاء، كما قد يدعونه بالرزق، والرحمة، وإعطاء السُّؤل. يقول: فلو أجابهم الله عَزَّوَجَلَّ إذا دعوه بالشر الذي يستعجلونه استعجالهم بالخير، ﴿لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ﴾، أي: لهلكوا.

وفي الكلام حذف؛ للاختصار، كأنه قال: ﴿۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ إجابتهم بالشر الذي يستعجلونه استعجالهم بالخير، لهلكوا"(١).

وقيل: نزلت في الذين قالوا: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقيل غير ذلك.

و«**دعوة الصائم حتى يفطر**»، و(الصائمُ) يقبل دعاؤه؛ لأنه فَرَغَ من عبادةٍ محبوبةٍ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وهي الصوم، كما قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حكايةً عن الله عَزَّوَجَلَّ: أنه قال: «**الصَّومُ لي**»، ومراده: كامل الصوم، الذي راقب الله عَزَّوَجَلَّ في صيامه، وصان جميع جوارحه عن المخالفات، فيجاب دعاؤه؛ لطهارة ظاهره وباطنه، وتحققه بالتقوى التي هي مقصد الصيام الذي يرتقي بالعبد، فيقبل عمله، ويثاب عليه، كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة:١٨٣]، وإن لم يتحقق العبد بالتقوى لم يثمر صيامه،

---

(١) تأويل مشكل القرآن (ص:٢٢٥-٢٢٦).

كما جاء في الحديث: «**رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر**»[1].

و«**دعوة المسافر**»، أي: سفرًا مندوبًا أو مباحًا، حتى يرجع إلى أهله.

*وكان ذلك جبرًا لمقاساته وعثاء السفر.

قال العلامة المظهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "*وأما المسافر فيحتمل أن يكون دعاؤه بخير لمن يطعمه طعامًا، ويخدمه، فيدعو له، فيُقبل دعاؤه؛ لأن الغالبَ من حال المسافر: أن يكون مُحتاجًا، ومُضطرًا إلى طعام، فإذا أطعمه أحدٌ، يكون دعاءُ المسافر له عن الصدق وخلوص النية، فتسرعُ إجابته.

*ويحتمل أن يكون دعاؤه بشرًّ لمن يؤذيه، ويمنع حقَّه من الطعام والماء عند الاضطرار، فيُقبل دعاؤه؛ لأنه مضطرٌ منكسرُ القلب"[2].

فتحصل من ذلك ثلاثة أقوال.

وأما «**الإمام العادل**» فهو كل من ولي شيئًا من أمور المسلمين، فعدل فيه. وكان دعاؤه مستجابًا؛ لأنَّ عدله أفضلُ العبادات؛ لأنه يستطيع أن يظلم العباد، ويبطش بهم، فلما عدل عن ذلك إلى العدل والرحمة بالخلق، كان مخلصًا لله عَزَّوَجَلَّ في تحريه العدل، فأثيب على ذلك بحسن الجزاء، وإجابة الدعاء.

---

(١) تقدم.

(٢) المصدر السابق (٣/١٣٢)، وانظر: دليل الفالحين (٦/٤٦٨).

ج. دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب:

*ويدخل في باب الإخلاص: دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب، كما جاء في الحديث: عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من دعا لأخيه بظهر الغيب، قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل**» [1].

وعن صفوان -وهو ابن عبد الله بن صفوان، وكانت تحته الدرداء-، قال: قدمت الشام، فأتيت أبا الدرداء في منزله، فلم أجده ووجدت أم الدرداء، فقالت: أتريد الحج العام، فقلت: نعم، قالت: فادع الله لنا بخير؛ فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: «**دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل**» [2]، أي: مثل ما دعوت به له.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "أما قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بظهر الغيب**» فمعناه: في غيبة المدعو له، وفي سره؛ لأنه أبلغ في الإخلاص.

قوله: «**بمثل**» هو بكسر الميم وإسكان الثاء هذه الرواية المشهورة. قال القاضي: ورويناه بفتحها أيضًا. يقال: هو مثله ومثيله بزيادة الياء، أي: عديله سواء. وفي هذا: فضل الدعاء لأخيه المسلم بظهر الغيب، ولو دعا لجماعة من المسلمين حصلت هذه

(١) صحيح مسلم [٢٧٣٢].
(٢) صحيح مسلم [٢٧٣٣].

الفضيلة، ولو دعا لجملة المسلمين فالظاهر حصولها أيضًا. وكان بعض السلف إذا أراد أن يدعو لنفسه يدعو لأخيه المسلم بتلك الدعوة؛ لأنها تستجاب ويحصل له مثلها"(١).

وعند البزار من حديث: عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب لا يرد**»، أي: لأنه إلى الإخلاص أقرب (٢).

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "دعاء السر أقرب إلى الإخلاص، وأبعد عن الرياء"(٣).

وقد تقدم الحديث مفصلًا عن (عبادة الخفاء)، وما لها من الفضل.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/٤٩)، وانظر: إكمال المعلم، للقاضي عياض (٨/٢٢٨-٢٢٩)، الكاشف عن حقائق السنن، للطيبي (٥/١٧٠٧).

(٢) أخرجه البزار [٣٥٧٧]، وقال: "وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن عمران بن حصين إلا من هذا الوجه، بهذا الإسناد، وخالد بن جميل بصري". وقد سكت عنه الهيثمي فلم يتعقبه. قال الحافظ العراقي: وهو في مسلم بلفظ دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابة. فيض القدير (٣/٥٢٥).

(٣) فيض القدير (٣/٥٢٧).

رابعًا: رتب الإخلاص:

وقد بين هذه الرتب الإمام عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

"وله رتب:

منها: أن يفعلها خوفًا من عذاب.

ومنها: أن يفعلها تعظيمًا لله عَزَّوَجَلَّ، ومهابة وانقيادًا وإجابة، ولا يخطر له عرض من الأعراض، بل يعبد مولاه جَلَّوَعَلَا كأنه يراه، وإذا رآه غابت عنه الأكوان كلها، وانقطعت الأعراض بأسرها، وأمر العابد أن يعبد الله عَزَّوَجَلَّ كأنه يراه، فإن لم يقدر على تقدير نظره إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فليقدر أن الله عَزَّوَجَلَّ ناظر إليه، ومطلع عليه، فإن ذلك يحمله على الاستحياء منه، والخوف، والمهابة، وهذا معلوم بالعبادات: أن النظر إلى العظماء يوجب مهابتهم، وإجلالهم، والأدب معهم إلى أقصى الغايات، فما الظن بالنظر إلى رب السماوات جَلَّوَعَلَا؟ وكذلك لو قدر إنسان في نفسه أن عظيمًا من العظماء ناظر إليه، ومطلع عليه، لم يتصور لأن يأتي برذيلة، وأنه يتزين له بملابسة كل فضيلة"[١].

قال الشيخ زكريا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: درجات الإخلاص ثلاث: (عليا، ووسطى، ودنيا)، فالعليا: أن يعمل العبد لله عَزَّوَجَلَّ وحده؛ امتثالًا لأمره، وقيامًا بحقِّ عبوديته، والوسطى: أن يعمل لثواب الآخرة، والدنيا: أن يعمل للإكرام في الدنيا، والسلامة من آفاتها اهـ.

وتعقبه الشيخ مصطفى العروسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الأولى، فقال: وأعلى منها: أن يعمل محبة لله عَزَّوَجَلَّ وإجلالًا.

---

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/١٤٦-١٤٧).

وتعقبه كذلك في الثانية، فقال: وأعلى منها: أن يعمل امتثالًا لأمره، وقيامًا بحق عبوديته"(١).

وقيل: أنواع الإخلاص تختلف باختلاف الأشخاص:

١ - **فإخلاص العباد**: سلامة أعمالهم من الرياء الجلي والخفي، وكل ما فيه حظ للنفس، فلا يعملون العمل إلا لله عَزَّوَجَلَّ؛ طلبًا للثواب، وهربًا من العقاب.

٢ - **وإخلاص المحبين**: هو العمل لله عَزَّوَجَلَّ؛ إجلالًا وتعظيمًا؛ لأنه جَلَّوَعَلَا أهل لذلك، لا لقصد شيء مما ذكر.

٣ - **وأما إخلاص المقرَّبين**: فهو شهودهم انفراد الحق بتحريكهم وتسكينهم، مع التبري من الحول والقوة، فلا يعملون إلا بالله عَزَّوَجَلَّ، ولا يرون لأنفسهم عملًا (٢).

قال يوسف بن الحسين: كنت قاعدًا بين يدي ذي النون رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وحوله ناس، وهو يتكلم عليهم، والناس يبكون، وشاب يضحك. فقال له ذو النون: ما لك أيها الشاب؟ الناس يبكون وأنت تضحك، فأنشأ يقول:

كلهم يعبدون من خوف نار ... ويرون النَّجاة حظًّا جزيلًا
ليس لي في الجنان والنار رأي ... أنا لا أبتغي بحبي بديلًا (٣)

---

(١) شرح الشيخ زكريا الأنصاري للرسالة القشيرية مع حاشية نتائج الأفكار القدسية، للشيخ مصطفى العروسي (٢٣٢/٣).

(٢) انظر: شرح الشيخ عبد المجيد الشرنوبي على الحكم (ص:٢٣)، طبعة دار ابن كثير.

(٣) صفة الصفوة، لابن الجوزي (٤٥٠/٢)، فيض القدير (٥٢/٥).

ولا يخفى أن المحبة هي رأس العبادات القلبية، -كما تقرَّر ذلك في غير موضع-، ولكن العبادات القلبية لا تتم إلا باستكمال أركانها الثلاثة: (المحبة، والخوف، والرجاء)، فلا تكفي المحبة دون الخوف والرجاء.

أما ما تقدم نقله عن حال المقربين فيحمل على أنهم جعلوا المحبة رأس تلك العبادات، لا أنهم تركوا الخوف والرجاء، وإنما غاية الأمر أنهم غلَّبوا المحبة، وجعلوها أساس الاتباع.

وما ينقل عن بعض الغلاة من قوله: أنا أعبد الله ليس طمعًا في جنته، ولاخوفًا من ناره، وإنما أعبده حبًّا فهو خلاف ما كان عليه الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهم أكمل الناس عبادة؛ فإنهم عبدوا الله عَزَّوَجَلَّ محبة، وخافوا من عذابه، ورجوا رحمته، يقول الله عَزَّوَجَلَّ في حقِّ الرُّسل والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصالحين والأخيار: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقد تقدم أن المحبة الخوف والرجاء من أعمال القلب، ومن شعب الإيمان اللازمة، فمن لا يخاف الله عَزَّوَجَلَّ لا يرجى منه خير.

ومحبة الله عَزَّوَجَلَّ هي أعظم منازل العبادة، وليست هي كل العبادة، وقد تقدم تفصيل ذلك، وتحرير هذه المسألة في بيان (درجات العبادة).

خامسًا: ثمرات الإخلاص:

١ - رضا الله عَزَّوَجَلَّ، وقبول العمل، والنجاة والفلاح يوم القيامة:

إن أعظم ثمرة من ثمرات الإخلاص هي: رضا الله عَزَّوَجَلَّ التي ينشدها كل طالب هداية، فلا يذهب عمله هباء منثورًا، بل يثاب عليه ويؤجر، وينجو من الأهوال والكربات يوم القيامة.

وفي الحديث: عن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: أرأيت رجلًا غزا يلتمس الأجر والذكر، ماله؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا شيء له**» فأعادها ثلاث مرات، يقول له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا شيء له**» ثم قال: «**إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا، وابتغي به وجهه**»"[(١)].

وعن الضحاك بن قيس قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **يقول: أنا خير شريك، فمن أشرك معي شريكًا فهو لشريكي. يا أيها الناس، أخلصوا أعمالكم لله؛ فإن الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له، ولا تقولوا: هذا لله وللرحم؛ فإنها للرحم وليس لله منها شيء، ولا تقولوا: هذا لله ولوجوهكم؛ فإنها لوجوهكم وليس لله فيها شيء**»[(٢)].

---

(١) أخرجه النسائي [٣١٤٠]، والطبراني في (الكبير) [٧٦٢٨]، و(الأوسط) [١١١٢]. قال الحافظ العراقي: "إسناده حسن" المغني عن حمل الأسفار (ص:١٧٥٤)، وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) (٢٨/٦): "إسناده جيد". ونحوه قول المنذري في (الترغيب والترهيب) (٢٤/١).

(٢) أخرجه البزار كما في (كشف الأستار عن زوائد البزار) [٣٥٦٧]، والدارقطني [١٣٣]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٤١٧]، والضياء في (المختارة) [٩٢]، قال الهيثمي (٢٢١/١٠): "رواه البزار=

ومما يدل على أن الإخلاص من المنجيات من العذاب في الآخرة: ما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن أول الناس يُقْضَى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيء، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجْهِهِ حتى أُلْقِيَ في النار، ورجل تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار**»[1].

=عن شيخه: إبراهيم بن مجشر، وثقه ابن حبان وغيره، وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح". وقد توبع من سعيد بن سليمان الواسطي.

(١) صحيح مسلم [١٩٠٥].

وما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى به وجهُ الله** عَزَّ وَجَلَّ **لا يَتَعَلَّمُهُ إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا، لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة**»، يعني: ريحها (١).

وحديث: جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تَعَلَّمُوا العلمَ؛ لِتُبَاهُوا به العلماء، ولا لِتُمَارُوا به السفهاء، ولا تَخَيَّرُوا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار**» (٢).

وجزاء الإخلاص يتكفل به الله عَزَّ وَجَلَّ، كما دلت على ذلك النصوص، وفي المقابل فإن جزاء المرائين في أعمالهم أن يقال لهم: «**اذْهَبُوا إلى الذين كنتم تُرَاءُونَ في**

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٦١٢٧]، وأحمد [٨٤٥٧]، وابن ماجه [٢٥٢]، وأبو داود [٣٦٦٤]، وأبو يعلى [٦٣٧٣]، وابن حبان [٧٨]، والحاكم [٢٨٨]، وقال: "صحيح سنده ثقات رواته على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٣٤]. قال الإمام النووي: "رواه أبو داود بإسناد صحيح. والأحاديث في الباب كثيرة مشهورة" رياض الصالحين (ص:٤٥٨). وقال العراقي (ص:٧٤): "أخرجه أبو داود، وابن ماجه، بإسناد جيد".

(٢) أخرجه ابن ماجه [٢٥٤]، قال البوصيري في (زوائده) (٣٧/١): "هذا إسناد رجاله ثقات على شرط مسلم". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٧٧]، والحاكم [٢٩٠]، وتمام [٨١٢]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٣٥]. قال العراقي (ص:٧٢): "أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد صحيح". وقوله: «لا تعلموا» أي: لا تتعلموا بالتاءين فحذفت إحداهما. «ولا تخيروا به المجالس» أي: لا تختاروا به خيار المجالس وصدورها. قوله: «فالنار» أي: فله النار أو فيستحق النار، والنار مرفوع على الأول منصوب. حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١١١/١).

الدُّنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً؟!» [1] -كما سيأتيك بيانه في (خطر الرياء) -.

ومما ينص على حسن جزاء المخلصين يوم القيامة: قوله جَلَّوَعَلَا حكايةً عن المخلصين في إطعامهم: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢﴾ [الإنسان:٨-١٢].

ومما يدل على أن الإخلاص من المنجيات: ما أخرجه ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن يزيد بن أبي مريم، قال: مرَّ عمر بمُعاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فقال: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ثلاث، وهنَّ المنجيات: الإخلاص، وهو الفطرة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠]، والصلاة: وهي الملة، والطاعة: وهي العصمة. فقال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: صدقت[2].

---

(١) أخرجه أحمد [٢٣٦٣٠، ٢٣٦٣٦]، والطبراني في (الكبير) [٤٣٠١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٤١٢]، قال العراقي في (المغني عن حمل الأسفار) (ص:١٢٠٣): "أخرجه أحمد والبيهقي في (الشعب) من حديث محمود بن لبيد وله رواية ورجاله ثقات، ورواه الطبراني من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج". وقال الحافظ المنذري (٣٤/١): "حديث محمود بن لبيد هذا رواه أحمد بإسناد جيد، وابن أبي الدنيا، والبيهقي في (الزهد) وغيره".

(٢) تفسير الطبري (٩٨/٢٠)، وانظر: المحرر الوجيز (٣٣٧/٤)، تفسير ابن كثير (٣١٦/٦)، الدر المنثور (٤٩٣/٦)، كنز العمال [٤٤٢٧٦]، درء تعارض العقل والنقل (٣٧٤/٨)، أحكام أهل الذمة، لابن القيم (٢/ ٩٦٥)، شفاء العليل (ص:٢٨٧).

٢ – النجاة من الشدائد والكروب في الحياة الدنيا، وإجابة الدعاء:

وقد تقدم بيان ذلك في (ثمرات الإخلاص في الدعاء).

ويدل على ذلك بالإضافة إلى ما تقدم: ما جاء في (الصحيح): عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غار، فدخلوه**[١]**، فانحدرت صخرة من الجبل، فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق**[٢] **قبلهما أهلًا، ولا مالًا، فنأى**[٣] **بي في طلب شيء يومًا، فلم أرح**[٤] **عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما، فوجدتهما نائمين وكرهت أن أغبق قبلهما أهلًا أو مالًا، فلبثت والقدح على يدي، أنتظر استيقاظهما حتى بَرِقَ الفجر**[٥]**، فاستيقظا، فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج**»، قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وقال الآخر: اللهم كانت لي بنت عم، كانت أحب الناس إلي، فأردتها عن**

---

(١) التجأوا إليه؛ ليبيتوا فيه.

(٢) أي: ما كنتُ أُقَدِّم عليهما أحدًا في شُرْب نَصِيبِهما من اللَّبَن الذي يَشْرَبانه. و(الغَبُوق): شُرْب آخِر النهار مُقَابِل: الصَّبُوح، واسم الشراب: الغبق.

(٣) أي: بَعُد.

(٤) أرجع.

(٥) وفي لفظ وهو عند الشيخين أيضًا: «والصِّبْية يتضاغوْن» أي: يصيحون ويستغيثون من الجوع.

نفسها، فامتنعت مني حتى ألمت بها سنة من السنين، فجاءتني، فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت حتى إذا قدرت عليها، قالت: اتَّقِ الله ولا تَفُضَّ الخاتمَ إلَّا بِحَقِّه[١]، فتحرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها، وهي أحب الناس إلي، وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها»، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وقال الثالث: اللهم إني استأجرت أجراء، فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أد إلي أجري، فقلت له: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق، فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي، فقلت: إني لا أستهزئ بك، فأخذه كله، فاستاقه، فلم يترك منه شيئا، اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، فخرجوا يمشون»**[٢].

وهذا الحديث فيه عبرة لكل مؤمن يريد النجاة مما ألم به من شدة أن يتوجه إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بخالص الدعاء، فهؤلاءِ قد سألوا الله عَزَّ وَجَلَّ بصالح أعمالِهم حينَ نزلتْ فيهم هذه الشِّدَّة العظيمة.

---

(١) الخاتم كناية عن بكارتها. وقولها: «بحقه» أي بالزواج المشروع لا بالزنى.

(٢) صحيح البخاري [٢٢١٥، ٢٢٧٢، ٢٣٣٣، ٥٩٧٤]، ومسلم [٢٧٤٣].

وطبيعة الأسئلة التي سألها هؤلاء الرِّجال الثلاثة المؤمنون بالله عَزَّوَجَلَّ، الواثقون به، حينَ قالوا: «**لا ينجِّينا منْ هذا الكربِ إلَّا أن نسألَ اللهَ بصالحِ أعمالنا**» تدل على أن كل واحد منهم قد بحث عن أخلص عمل قدمه؛ لعلمه بأن أفضل الأعمال التي تنفع في وقت الشدة، فصار كلُّ واحدٍ منهم يبحثُ عن عمل صالح عمله، وكان خالصًا لوجه الله عَزَّوَجَلَّ، فكان واحد كان منهم يقول: «**اللهمَّ إنْ كنتُ فعلتُ هذا ابتغاءَ وجهكَ**...»، أي: لا من أجلِ مدحِ النَّاسِ، ولا خوفًا من ذمِّهم.

ولم يقل أحد منهم: (اللهمَّ إنَّكَ تعلمُ أنِّي كنتُ أُصلِّي كذا وكذا)، و(وأصوم كذا وكذا..)، وهذا من عميقِ فهمهم لدين الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولذلك سألوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ بأعمالٍ نفعُها، ومنع ضررها مُتَعَدٍّ إلى الغير، ممَّا يدل على أنَّ أفضل الأعمال، وأعلاها مكانةً عندَ الله عَزَّوَجَلَّ: ما كان فيه نفعٌ لعبادِ الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن ثمرات صنائع المعروف في الدنيا: أنها تقي مصارع السوء، وترد الآفات والهلكات عن أصحابها، فعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر**»(١).

(١) أخرجه الطبراني في (الكبير) [٨٠١٤]، قال المنذري في (الترغيب والترهيب) (١٥/٢): "رواه الطبراني في (الكبير)، وإسناده حسن"، ونحوه قول الهيثمي في (مجمع الزوائد) (١١٥/٣)، والسخاوي في (المقاصد) (ص:٤١٩).

ففي صنائع المعروف خلاصٌ من مصارع السوء، فكم من مسلمٍ نجاه الله عَزَّوَجَلَّ من أعظم الشدائد التي لا يقدر على كشفها إلا الله عَزَّوَجَلَّ بسبب فعله للخير!

فإذا أردتَ من الله عَزَّوَجَلَّ أن يُعينكَ فأعِنْ عبادهُ، وإذا أردتَ من الله عَزَّوَجَلَّ أن يرحمكَ فارحَمْ خلقه، وإذا أردتَ من الله عَزَّوَجَلَّ أنْ يكشِفَ عنكَ الضُّرَّ، ويدفع عنك الشرَّ والبلاء فاصنع الخير، وأحسن إلى المحتاج.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»** (١).

وقد جاء بيان ذلك مفصلًا كتاب: (الإحسان وبيان ثمرات صنائع المعروف).

وفي الحديث: استحبابُ الدُّعاء حالَ الكرب، والتوسلُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ بصالح العمل.

وفيه: فضيلةُ برِّ الوالدين، وفضلُ خدمَتِهِما، وإيثارُهما على من سواهما.

وفيه: فضلُ العفاف، وقبح الزنا.

وفيه: فضلُ حسنِ العهد، وأداءِ الأمانة، والسماحةِ في المعاملة، وأن الله عَزَّوَجَلَّ يكرمُ أولياءَه الذين آمنوا وكانوا يتقون.

---

(١) أخرجه الحميدي [٦٠٢]، وابن أبي شيبة [٢٥٣٥٥]، وأحمد [٦٤٩٤]، والبخاري في (التاريخ الكبير) (١٩٤/٧)، وأبو داود [٤٩٤١]، والترمذي [١٩٢٤]، قال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: الطبراني [١٤٣١٧]، والحاكم [٧٢٧٤]، وصححه، ووافقه الذهبي، كما أخرجه: البيهقي [١٧٩٠٥]، والديلمي [٣٣٢٨].

وفيه: أن صنائع المعروف تقي مصارع السوء.

٣ - الحفظ والإعانة عند وقوع الابتلاء:

إن الله عَزَّوَجَلَّ يحفظ عبده المخلص عند وقوع الابتلاء، ويثبته وينجيه، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ١١ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ [الأنفال:١١-١٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [إبراهيم:٢٧].

وقال جَلَّوَعَلَا عن يوسف عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [يوسف:٢٤].

فعباد الله عَزَّوَجَلَّ المخلصين لا سبيل للشيطان لإغوائهم، كما قال جَلَّوَعَلَا حكاية عن الشيطان: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٣٨ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ٤٢﴾ [الحجر:٣٦-٤٢].

٤ – طهارة القلب من الصفات الذميمة، كالحقد والغل والخيانة:

كما جاء في الحديث: عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**ثلاث لا يُغِلُّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله** عَزَّوَجَلَّ، **ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة**» (١).

والمعنى: أن هذه الخلال الثلاث تستصلح بها القلوب، فمن تمسك بها طهر قلبه من الخيانة والدغل والشر –كما تقدم–.

٥ – مغفرة الذنوب، ومضاعفة الحسنات، ورفعة الدرجات:

إن إخلاص النية في فعل الخير، ودفع الضر والشرِّ عن الخلق قد يكون سببًا لمغفرة الذنوب، كما جاء في الحديث ما يدل على ذلك، فمن ذلك: ما صحَّ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بينما رجل يمشي بطريق وجدَ غُصْنَ شَوْكٍ على الطَّريق فَأَخَّرَهُ، فشكر الله له فغفر له**» (٢).

---

(١) تقدم.

(٢) صحيح البخاري [٦٥٢، ٢٤٧٢]، مسلم [١٩١٤].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ**[١] **بِرَكِيَّةٍ**[٢]، **كَادَ يَقْتُلُهُ العَطَش، إذ رَأَتْهُ بَغِيٌّ**[٣] **مِنْ بَغَايَا بني إسرائيل، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا**[٤] **فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لها به**»[٥].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها، فغفر لها، وإلا فليس كل بغي سقت كلبًا يغفر لها. وكذلك هذا الذي نحى غصن الشوك عن الطريق، فعله إذ ذاك بإيمان خالص، وإخلاص قائم بقلبه، فغفر له بذلك؛ فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص"[٦].

---

(١) قوله: «يطيف»: بضم أوله من أطاف يطيف، يعني: طاف يطوف طوفًا، وهو الدوران حول الشيء. يقال: (أطفت بالشيء): إذا أدمت المرور حوله.

(٢) «بِرَكِيَّة»: بفتح الراء، وكسر الكاف، وتشديد التحتانية: البئر مطوية أو غير مطوية. وغير المطوية يقال لها: جُبٌّ، وقَلِيب، ولا يقال لها: بِئْرٌ حتى تُطْوَى. وقيل: (الرَّكِيُّ): البِئْرُ قبل أن تُطْوَى فإذا طويت فهيك (الطَّوِيُّ). فتح الباري (٥١٦/٦)، انظر: عمدة القاري (٥٤/١٦)، منحة الباري (٥٥٥/٦)، وانظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (قلب) (٢٠٦/١)، العين (١٧١/٥)، تهذيب اللغة (١٤٤/٩).

(٣) قوله: «بغي»: بفتح الموحدة، وكسر المعجمة، هي: الزانية. وتجمع على: بغايا. عمدة القاري (٥٤/١٦)، فتح الباري (٥١٦/٦).

(٤) «موقها»: بضم الميم، وسكون الواو بعدها قاف، هو: الخف. وقيل ما يلبس فوق الخف. ويقال له: الجرموق أيضًا، وهو فارسي معرب. عمدة القاري (٥٤/١٦)، فتح الباري (٥١٦/٦)، الصحاح، للجوهري (١٤٥٤/٤).

(٥) صحيح البخاري [٣٤٦٧]، مسلم [٣٤٦٧].

(٦) منهاج السنة النبوية (٢٢١/٦).

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**قال رجل: لَأَتَصَدَّقَنَّ بصدقة، فخرج بصدقته، فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ على سارق فقال: اللهم لك الحمد، لَأَتَصَدَّقَنَّ بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يدي زانية، فأصبحوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ الليلة على زانية، فقال: اللهم لك الحمد، على زانية؟ لَأَتَصَدَّقَنَّ بصدقة، فخرج بصدقته، فوضعها في يدي غَنِيٍّ، فأصبحوا يتحدثون: تصدق على غني، فقال: اللهم لك الحمد، على سارق وعلى زانية وعلى غَنِيٍّ، فأتي فقيل له: أما صدقتك على سارق فلعله أن يَسْتَعِفَّ عن سرقته، وأما الزانية فلعلها أن تَسْتَعِفَّ عن زناها، وأما الغني فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله**» (١).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ: "وفيه: أن نية المتصدق إذا كانت صالحة قبلت صدقته ولو لم تقع الموقع"(٢).

وقال: أبو العباس القرطبي رَحِمَهُٱللَّهُ: "ويستفاد منه: صحة الصدقة وإن لم توافق محلًّا مرضيًا، إذا حسنت نية المتصدق. فأما لو علم المتصدق أن المتصدق عليه يستعين بتلك الصدقة على معصية الله عَزَّوَجَلَّ لحرم عليه ذلك؛ فإنه من باب التعاون على الإثم والعدوان"(٣).

---

(١) صحيح البخاري [١٤٢١]، مسلم [١٠٢٢].

(٢) فتح الباري (٣/٢٩١).

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣/٦٨).

وقال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ودل ذلك أن صدقة الرجل على السارق والزانية والغنى قد تقبلها الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنها إذا كانت سببًا إلى ما يرضى الله جَلَّوَعَلَا، فلا شك في فضلها وقبولها"(١).

وفيه: أن الصدقة كانت عندهم مختصة بأهل الحاجات من أهل الخير؛ ولهذا تعجبوا من الصدقة على هؤلاء.

وفيه: استحباب إعادة الصدقة إذا لم تقع الموقع، وهذا في صدقة التطوع، أما الواجبة، فلا تجزئ على غني وإن ظنه فقيرًا، خلافًا لأبي حنيفة ومحمد رَحِمَهُمَاٱللَّهُ حيث قالا: تسقط، ولا تجب عليه الإعادة (٢).

وقال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة:٢٧٠]: "بيانه من وجوه:

أحدها: أنه جَلَّوَعَلَا عالم بما في قلب المتصدق من نية الإخلاص والعبودية، أو من نية الرياء والسمعة.

وثانيها: أن علمه بكيفية نية المتصدق يوجب قبول تلك الطاعات، كما قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧﴾ [المائدة:٢٧]، وقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة:٧-٨].

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٣/٤٢٢).

(٢) انظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٣/٢٣-٢٤)، منحة الباري (٣/٥٠٩).

وثالثها: أنه جَلَّوَعَلَا يعلم القدر المستحق من الثواب والعقاب على تلك الدواعي والنيات، فلا يهمل شيئًا منها، ولا يشتبه عليه شيء منها"(١).

ومن أخلص في عمله ضاعف الله عَزَّوَجَلَّ له الحسنات والدرجات، فقد يكون العمل يسيرًا، ولكن أجره يعظم بالنية الصالحة، كما جاء في (الصحيحين): أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ولست تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله، إلا أجرت بها، حتى اللقمة تجعلها فِي فِي امرأتك**» (٢).

وعن ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: "رُبَّ عمل صغير تُكثِّره النية، ورُبّ عمل كثير تُصغِّره النية"(٣).

وعن بعض السلف قال: من سرَّه أن يكمل له عمله فليحسن نيته (٤).

٦ – قوة الأمة ونصرها على أعدائها، وحفظها من كيد الأعداء ومكرهم:

إن إخلاص العمل من أسباب: قوة الأمة، ونصرها على أعدائها، وحفظها من كيد الأعداء ومكرهم، كما جاء في الحديث: عن مصعب بن سعد، عن أبيه، أنه

---

(١) مفاتيح الغيب (٧/٦٠).

(٢) صحيح البخاري [٤٤٠٩]، مسلم [١٦٢٨].

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٨/٤٠٠)، جامع العلوم والحكم (١/٧١)، الطبقات الكبرى (١/٥١). وعزاه أبو طالب المكي في (قوت القلوب) (٢/٢٦٨)، وأبو حامد الغزالي في (الإحياء) (٤/٣٦٤) إلى بعض السلف.

(٤) انظر: قوت القلوب في معاملة المحبوب (٢/٢٧٥)، جامع العلوم والحكم (١/٧١).

ظن أن له فضلًا على من دونه من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إنَّما يَنْصُرُ الله هذه الأمَّةَ بضعيفها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم»** (١).

سادسًا: بيان خطر الرياء:

إن الرياء هو الشرك الأصغر الخفي الذي يتسلل إلى أعمال فيفسدها.

وقد نهى الله عَزَّوَجَلَّ عن الإشراك في عبادته فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "نزل فيمن يقصد بعبادته وجه الله عَزَّوَجَلَّ وحمد الناس (٢). فكن حذرًا مُتَّقِيًا من هذا الشرك، واستشعر الخجلة في قلبك إن وصفت

---

(١) أخرجه النسائي في (السنن) [٣١٧٨]، وفي (الكبرى) [٤٣٧٢]، وأبو نعيم في (الحلية) (٥/٢٦)، والشاشي [٧٠]، وتمام [٦٩٩]، والبيهقي في (الكبرى) [٦٣٨٩]. وهو عند البخاري وغيره [٢٨٩٦] بلفظ: «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم» دون ذكر الإخلاص.

(٢) روى ابن أبي شيبة في (مصنفه) [٣٤٨١١]: عن شهر بن حوشب، قال: جاء رجل إلى عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقال: رجل يصلي يبتغي وجه الله عَزَّوَجَلَّ ويحب أن يحمد، قال: «ليس بشيء، إن الله يقول: أنا خير شريك، فمن كان له معي شريك فهو له كله، لا حاجة لي فيه»، وانظر: تفسير الطبري (١٨/١٣٦)، الكشف والبيان (٦/٢٠٣)، تفسير ابن كثير (٥/٢٠٥)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٦/٤٤٨٥). وفي (البسيط): "قال سعيد بن جبير في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]: ولا يرائي، ونحو هذا قال مجاهد، وموسى بن عقبة. هذا الذي ذكرنا قول الجمهور، وروى الوالبي عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أن هذه الآية أنزلت في المشركين الذين عبدوا مع الله عَزَّوَجَلَّ غيره، وليست في المؤمنين. والصحيح الذي عليه الناس، وقد بين ذلك ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فيما=

نفسك بأنك لست من المشركين من غير براءة عن هذا الشرك؛ فإن اسم: (الشرك) يقع على القليل والكثير منه"(١).

وقال ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يحتمل أن يريد: الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وهو عبادة غيره، فيكون راجعًا إلى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ [الكهف:١١٠]، أو يريد الرياء؛ لأنه الشرك الأصغر، واللفظ يحتمل الوجهين، ولا يبعد أن يحمل على العموم في المعنيين -والله أعلم-"(٢).

ومن الناس من يقصد بعبادته وجهَ الله عَزَّوَجَلَّ، وحمدَ الناس، وقد جاء التحذير من ذلك أيضًا في الحديث الذي رواه أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**قال الله** تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: **أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه**»(٣).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فمن عمل شيئًا لي ولغيري لم أقبله، بل أتركه لذلك الغير. والمراد أن عمل المرائي باطل لا ثواب فيه، ويأثم به"(٤).

=روى عنه عطاء، وهو أنه قال: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ﴾، ولم يقل: ولا يشرك بربه؛ لأنه أراد العمل الذي يعمل الله عَزَّوَجَلَّ، ويحب أن يحمد عليه" التفسير البسيط (١٤/١٧٧-١٧٨)، وانظر: التفسير الوسيط (٣/١٧٢).

(١) إحياء علوم الدين (١/١٦٧).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (١/٤٧٦).

(٣) صحيح مسلم [٢٩٨٥].

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/١١٦).

وقد جاء في كثير من النصوص التحذير من الرياء وبيان عاقبته؛ وما ذاك إلا لأن المرائي قد استعمل العبادةَ فيما لَم تُشرَع لأجْله.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن الرياء حرام والمرائي عند الله عَزَّوَجَلَّ ممقوت، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار والآثار"(١).

فمن كان يريد بعمله الدنيا العاجلة ولها يعمل ويسعى، وإياها يبتغي، فإنه يعجل له في الدنيا ما يشاء من بسط الدنيا عليه، أو تقتيرها لمن أراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يفعل ذلك به، أو إهلاكه بما يشاء من عقوباته؛ لأنَّه لم يُخلص العمل لله عَزَّوَجَلَّ، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء:١٨-١٩].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود:١٥-١٦].

والرياء خطره عظيم، فهو محبط للعمل الذي لابسه، وهو من العوائق التي تعرقل سير العبد إلى الله جَلَّوَعَلَا. وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة:٢٦٤]. إن القلب الصلد المغطَّى بالرياء، مثله كمثل

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/٢٩٣).

صفوان عليه تراب، إنه حجر لا خصب فيه ولا ليونة، يغطيه تراب خفيف، يحجب صلادته عن العين، كما أن الرياء يحجب صلادة القلب الخالي من الإيمان..ثم جاء المطر الغزير فذهب بالتراب القليل! فانكشف الحجر بجدبه وقساوته، ولم ينبت زرعه، ولم يثمر ثمرة، كذلك القلب الذي أنفق ماله رئاء الناس، فلم يثمر خيرًا ولم يعقب مثوبة. فهذا مثل ضربه الله عَزَّوَجَلَّ لنفقة المنافق والمرائي والمؤمن الذي يَمُنُّ بصدقته وَيُؤْذِي، يعني: أن الناس يرون في الظاهر أنَّ لهؤلاء أعمالًا كما يُرَى التراب على هذا الصَّفْوَان، فإذا كان يوم القيامة اضمحل كُلُّهُ وَاضْمَحَلَّ؛ لأنَّه لم يكن لله جَلَّوَعَلَا، كأنّه لم يكن كما أذهب الْوَابِلُ ما كان على الصَّفْوَان من التراب.

﴿فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ﴾: أجرد لا شيء عليه.

﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾: على ثواب شيء.

﴿مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾ عملوا في الدنيا؛ لأنهم لم يعملوه لله عَزَّوَجَلَّ وطلب ما عنده، وإنَّما عملوه رياءَ الناس، وطلبَ حمدهم فصار ذلك معظم من أعمالهم"(١).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢٦٦﴾ [البقرة:٢٦٦].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإنما جعل جل ثناؤه البستانَ من النخيل والأعناب الذي قال جل ثناؤه لعباده المؤمنين: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ﴾: مثلًا لنفقة المنافق

(١) انظر: الكشف والبيان (٢/٢٦٢)، تفسير البغوي (١/٣٦١)، الخازن (١/٢٠٠).

التي ينفقها رياء الناس، لا ابتغاء مرضاة الله، فالناس -بما يظهر لهم من صدقته، وإعطائه لما يُعْطَى وعمله الظاهر يثنون عليه ويحمدونه بعمله ذلك أيام حياته. في حُسْنِهِ كحسن البستان، وهي الجنة التي ضربها الله عَزَّوَجَلَّ لعمله مثلًا، من نخيل وأعناب، له فيها من كل الثمرات؛ لأن عمله ذلك الذي يعمله في الظاهر في الدنيا، له فيه من كل خير من عاجل الدنيا، يدفع به عن نفسه ودمه وماله وذريته، ويكتسب به المحمَدة وحسن الثناء عند الناس، ويأخذ به سهمه من المغنم مع أشياء كثيرة يكثر إحصاؤها، فله في ذلك من كل خير في الدنيا، كما وصف جل ثناؤه الجنة التي وصف مثلًا لعمله، بأن فيها من كل الثمرات.

ثم قال جل ثناؤه: ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾، يعني: أن صاحب الجنة أصابه الكبر، ﴿وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾: صغارٌ أطفال. ﴿فَأَصَابَهَا﴾، يعني: فأصاب الجنة: ﴿إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾، يعني: بذلك أنَّ جنته تلك أحرقتها الريح التي فيها النار، في حال حاجته إليها، وضرورته إلى ثمرتها بكبره، وضعفه عن عمارتها، وفي حال صغر ولده وعجزه عن إحيائها والقيام عليها. فبقي لا شيء له، أحوج ما كان إلى جنته وثمارها، بالآفة التي أصابتها من الإعصار الذي فيه النار.

يقول: فكذلك المنفق ماله رياء الناس، أطفأ الله نوره، وأذهب بهاء عمله، وأحبط أجره حتى لقيه، وعاد إليه أحوج ما كان إلى عمله، حين لا مُسْتَعْتَب له، ولا إقالة

من ذنوبه ولا توبة، واضمحل عمله كما احترقت الجنة التي وصف جل ثناؤه صفتها عند كبر صاحبها وطفولة ذريته أحوجَ ما كان إليها فبطلت منافعها عنه"(١).

وقد قيل في المثل الذي ضربه الله عَزَّوَجَلَّ في الحسرة لسلب النعمة من المقصود به؟ ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه مثل للمرائي في النفقة ينقطع عنه نفعها أحوج ما يكون إليها.

والثاني: هو مثل للمفرِّط في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لملاذ الدنيا يحصل في الآخرة على الحسرة العظمى.

والثالث: هو مثل للذي يختم عمله بفساد (٢).

وقد قيل في تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ١٠﴾ [فاطر:١٠]: هم أهل الرياء لا يصعد عملهم. قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وشهر بن حوشب رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: هم المراؤون بأعمالهم، يعني: يمكرون بالناس، يوهمون أنهم في طاعة الله، وهم بُغَضَاء إلى الله عَزَّوَجَلَّ"(٣).

---

(١) تفسير الطبري (٥/٥٤٢-٥٤٣)، وانظر: الكشف والبيان (٢/٢٦٦)، تفسير الراغب الأصفهاني (١/٥٦١).

(٢) النكت والعيون (١/ ٣٤١).

(٣) تفسير ابن كثير (٦/٥٣٧). وانظر: انظر: تفسير الطبري (٢٠/٤٤٦)، تفسير البغوي (٣/٦٩٠)، زاد المسير (٣/٥٠٨)، الدر المنثور (٧/١٠)، الكشف والبيان (٨/١٠٢)، تفسير القرطبي (١٤/٣٣٢)، فتح القدير، للشوكاني (٤/٣٩٢)، روح المعاني (١١/٣٤٩).

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان أقسام العمل إذا كان لغير الله جَلَّ وَعَلَا:

"واعلم أن العمل لغير الله جَلَّ وَعَلَا أقسام:

١ - فتارة يكون رياءً محضًا بحيث لا يراد به سوى مراءاة المخلوقين [(١)]؛ لغرض دنيوي، كحال المنافقين في صلاتهم، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء:١٤٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون:٤-٧]. وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة الواجبة أو الحج، وغيرهما من الأعمال الظاهرة، أو التي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط وأن صاحبه يستحق المقت من الله عَزَّ وَجَلَّ والعقوبة.

٢ - وتارة يكون العمل لله عَزَّ وَجَلَّ ويشاركه الرياء فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه أيضًا وحبوطه. وفي (صحيح مسلم): عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يقول الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: **أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه**»[(٢)].

٣ - وأما إن كان أصل العمل لله عَزَّ وَجَلَّ ثم طرأت عليه نية الرياء فلا يضره، فإن كان خاطرًا ودفعه فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه، فهل يحبط به عمله أم

---

(١) قال الجوهري: "يقال: (راءى) فلان الناس يرائيهم (مراءاة)" الصحاح، مادة: (رأى) (٦/٢٣٤٩).

(٢) صحيح مسلم [٢٩٨٥]، وقد تقدم.

لا يضره ذلك ويجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير الطبري رَحِمَهُمَاٱللَّهُ، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازى بنيته الأولى وهو مروي عن الحسن البصري رَحِمَهُٱللَّهُ وغيره.

وذكر ابن جرير رَحِمَهُٱللَّهُ أن هذا الاختلاف إنما هو في عمل يرتبط آخره بأوله، كالصلاة والصيام والحج، فأما ما لا ارتباط فيه كالقراءة والذكر وإنفاق المال ونشر العلم، فإنه ينقطع بنية الرياء الطارئة عليه، ويحتاج إلى تجديد نية"(١).

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: "إن كان العمل موافقًا للشريعة في الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله فهو مردود على فاعله، وهذا حال المنافقين والمرائين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء:١٤٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون:٤-٧]، ولهذا قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠]"(٢).

قال الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُٱللَّهُ: "والمرائي في صلاته قد يكون منافقًا، وقد يكون غير منافق. فالرياء أعم من جهة، والنفاق أعم من جهة أخرى، أي: قد يرائي في عمل ما، ويكون مؤمنًا بالبعث والجزاء وبكل أركان الإيمان، ولا يرائي في عمل آخر، بل

---

(١) باختصار عن (جامع العلوم والحكم) (١/٧٩- ٨٣).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٥).

يكون مخلصًا فيه كل الإخلاص. والمنافق دائمًا ظاهره مخالف لباطنه في كل شيء، لا في الصلاة فقط. ولكن جاء النص: بأن المراءاة في الصلاة من أعمال المنافقين"(١).

والشرك الخفي المحتمل قد يتسلل إلى عبادات فيفسدها. وقد رُويَ أنَّ من الشرك ما هو أخفى من دبيب النمل.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولذلك عجز عن الوقوف على غوائله سماسرة العلماء فضلًا عن عامة العباد، وهو من أواخر غوائل النفس وبواطن مكايدها. وإنما يبتلى به العلماء، والعباد المشمرون عن ساق الجد؛ لسلوك سبيل الآخرة، فإنهم مهما نهروا أنفسهم وجاهدوها، وفطموها عن الشهوات، وصانوها عن الشبهات، وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح، فطلبت الاستراحة إلى الظاهر بالخير، وإظهار العمل والعلم فوجدت مخلصًا من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق، ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم، فنازعت إلى إظهار الطاعة، وتوصلت إلى إطلاع الخلق، ولم تقنع باطلاع الخالق، وفرحت بحمد الناس ولم تقنع بحمد الله، وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه للشهوات، وتوقيه للشبهات، وتحمله مشقات العبادات، أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء، وبالغوا في الإعزاز، ونظروا إليه بعين الاحترام، وتبركوا بلقائه، ورغبوا في بركته ودعائه وفاتحوه بالسلام والخدمة وقدموه في المجالس والمحافل وتصاغروا له فأصابت النفس في ذلك لذة هي من أعظم اللذات وشهوة هي أغلب الشهوات فاستحقرت فيه ترك المعاصي

(١) أضواء البيان (٩/١١٦).

والهفوات واستلانت خشونة المواظبة على العبادات لإدراكها في الباطن لذة اللذات وشهوة الشهوات فهو يظن أن حياته بالله عَزَّوَجَلَّ، وبعبادته المرضية، وإنما حياته؛ لهذه الشهوة الخفية التي يعمى عن دركها إلا العقول النافذة القوية، ويرى أنه يخلص في طاعة رب العالمين، وقد أثبت اسمه في جريدة المنافقين، وهو يظن أنه عند الله عَزَّوَجَلَّ من المقربين. وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون، ومهواة لا يرقى منها إلا المقربون"(١).

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والرياء ينقسم قسمين: فإن كان الرياء في عقد الإيمان فهو كفر ونفاق، وصاحبه في الدرك الأسفل من النار. وإن كان الرياء لمن سلم له عقد الإيمان من الشرك، ولحقه شيء من الرياء في بعض أعماله، فليس ذلك بمخرج من الإيمان إلا أنه مذموم فاعله؛ لأنه أشرك في بعض أعماله حَمْدَ المخلوقين مع حَمْدِ ربه، فَحُرِم ثواب عمله ذلك" (٢).

والرياء (شرك خفي) و(شرك أصغر) -كما تقدم-. وإنما سُمِّيَ: شركًا خفيًّا؛ لأن صاحبه يُظهرُ أن عمله لله عَزَّوَجَلَّ، وقد قصدَ به غيره، أو جعل له شريكًا فيه.

والنياتُ والمقاصدُ وأعمال القلوب لا يعلمها إلا الله عَزَّوَجَلَّ. والعبدُ مطالب ببذل الجهد في التخلص من الرياء، والبعد عن أسبابه، وإخلاص القصد لله عَزَّوَجَلَّ، وقد جاء في الحديث: عن أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: خرج علينا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ونحن نتذاكر المسيح الدجال، فقال: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح**

(١) إحياء علوم الدين (٣/٢٧٤-٢٧٥)، فيض القدير (١٧٣/٤).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١١٣/١).

الدجال؟»، قال: قلنا: بلى، فقال: «**الشرك الخفي، أن يقوم الرجل يصلي، فيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ؛ لما يَرَى من نظَرِ رَجُلٍ**»(١). فدلَّ على أن خطر الرياء أعظم من خطر المسيح الدجال. وفي رواية: خرج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**يا أيها الناس: إِيَّاكُمْ وَشِرْكَ السَّرَائِرِ**»، قالوا: يا رسول الله وما شِرْكُ السَّرَائِرِ؟ قال: «**أَنْ يقومَ أحدُكُم يُزَيِّنُ صَلَاتَهُ جَاهِدًا لِيَنْظُرَ النَّاسُ إليه، فذلك شِرْكُ السَّرَائِرِ**» (٢).

فإذا كان الناس ينظرون إلى المرائي فإنه يتقن صلاته ويحسنها، وإذا كان بعيدًا عن أعين الناس فإنه يتساهل ويتعجل.

وفي الحديث: «**إن أخوف ما أخاف عليكم: الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، يقول اللهُ عَزَّوَجَلَّ لهم يوم القيامة: إذا جُزِيَ النَّاسُ بأعمالهم: اذْهَبُوا إلى الذين كنتم تُرَاءُونَ في الدُّنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً؟!**» (٣).

---

(١) أخرجه أحمد [١١٢٥٢]، وابن ماجه [٤٢٠٤]. قال البوصيري في (زوائده) (٤/٢٣٧): "هذا إسناد حسن". وأخرجه أيضًا: الحاكم [٧٩٣٦]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٦٤١٣].

(٢) الحديث مروي عن جابر وعن محمود بن لبيد. حديث جابر: أخرجه البيهقي في (السنن الكبرى) [٣٥٨٥]، وفي (شعب الإيمان) [٣١٤١]. حديث محمود بن لبيد: أخرجه ابن أبي شيبة [٨٤٠٣]، وابن خزيمة [٩٣٧]، والديلمي [٨١٦٤]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٢٨٧٢].

(٣) أخرجه أحمد [٢٣٦٣٠، ٢٣٦٣٦]، والطبراني في (الكبير) [٤٣٠١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٤١٢]، قال العراقي في (المغني عن حمل الأسفار) (ص:١٢٠٣): "أخرجه أحمد والبيهقي في (الشعب) من حديث محمود بن لبيد وله رواية ورجاله ثقات، ورواه الطبراني من رواية محمود بن لبيد=

وفي رواية: عن شداد بن أوس، عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنَّا نَعُدُّ على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ الرِّياء: الشرك الأصغر (١).

وعن عبد الله بن يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«يا نَعَايَا العرب، يا نَعَايَا العرب، إن أخوف ما أخاف عليكم: الزنا، والشهوة الخفية»** (٢). وقد قيل لأبي داود السجستاني رَحِمَهُ اللَّهُ: وما الشهوة الخفية؟ قال: حب الرئاسة (٣).

وعن سلمة، قال: سمعت جندبًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ به، ومن يُرَائِي يُرَائِي الله به»**(٤).

وعند مسلم: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ رَاءَى رَاءَى الله به»**(٥).

=عن رافع بن خديج". وقال الحافظ المنذري (٣٤/١): "حديث محمود بن لبيد هذا رواه أحمد بإسناد جيد، وابن أبي الدنيا، والبيهقي في (الزهد) وغيره".

(١) أخرجه البزار [٣٤٨١]، والطبراني في (مسند الشاميين) [٢١٤٦]، والحاكم [٧٩٣٧]، وصححه، ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٦٤٢٤].

(٢) قال الهيثمي (٢٥٥/٦): "رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح غير عبد الله بن بديل بن ورقاء، وهو ثقة". وقال المنذري (١٨٦/٣): "رواه الطبراني بإسنادين أحدهما صحيح". قوله: «يا نعايا العرب»: كأنه يقول: قد ذهبت العرب ينعيهم.

(٣) الطيوريات (٤٠٥/٢)، مجموع الفتاوى (٢١٥/١٠).

(٤) صحيح البخاري [٦٤٩٩، ٧١٥٢].

(٥) صحيح مسلم [٢٩٨٦].

والمعنى: من عمل لغير الله عَزَّوَجَلَّ يراءي به الناس جازاه الله جَلَّوَعَلَا على ذلك بأن يفضحه ويظهر ما يبطنه ويستره[1].

وقوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وَمَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ**»: -بتشديد الميم فيهما- أي: من شَهَرَ نفسه بكرمٍ أو غيره؛ فخرًا، أو رياء، شَهَرَهُ الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة بين أهل الْعَرَصَات، وعلى رؤوس الأشهاد، بأنه مُرَاءٍ كَذَّابٌ، بأن أَعْلَمَ الله عَزَّوَجَلَّ الناسَ بريائه وسُمْعَتِه، وَقَرَعَ بابَ أسماع خلقه، فيفتضحُ بين الناس[2]. فكان من جزائه ما هو من جنس عمله، وعلى قصده ومراده، فقد أراد فخرًا وشهرة ورياء، فجوزي فضيحة وعقابًا.

وقال الإمام النووي رَحِمَهُٱللَّهُ: "قال العلماء معناه: من راءى بعمله وسمعه الناس؛ ليكرموه ويعظموه ويعتقدوا خيره سمع الله عَزَّوَجَلَّ به يوم القيامة الناس وفضحه.

وقيل: معناه من سمع بعيوب الناس وأذاعها أظهر الله عَزَّوَجَلَّ عيوبه.

وقيل: أسمعه المكروه.

وقيل: أراه الله عَزَّوَجَلَّ ثواب ذلك من غير أن يعطيه إياه؛ ليكون حسرة عليه.

وقيل: معناه: من أراد بعمله الناس أسمعه الله عَزَّوَجَلَّ الناس، وكان ذلك حظه منه"[3].

---

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين (٢/٤٧)، وانظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/٢٠٨)، فتح الباري، لابن حجر (١١/ ٣٣٦)، عمدة القاري (٢٣/٨٦).

(٢) انظر: المفاتيح في شرح المصابيح (٤/٧٤)، مرقاة المفاتيح (٥/٢١١٠).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/ ١١٦).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر**»(١).

ومن الأحاديث التي تنصُّ على الوعيد الشديد في حق المرائين: ما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن أول الناس يُقْضَى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيء، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجْهِهِ حتى أُلْقِيَ في النار، ورجل تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار**»(٢).

---

(١) أخرجه ابن ماجه [١٦٩٠]، قال البوصيري في (زوائده) (٦٩/٢): "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات".
وأخرجه أيضًا: النسائي في (الكبرى) [٣٢٣٦].

(٢) صحيح مسلم [١٩٠٥].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من تعلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى به وجهُ الله عَزَّ وَجَلَّ لا يتعَلَّمُهُ إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا، لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة»**، يعني: ريحها(1).

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«لا تعَلَّمُوا العلمَ؛ لِتُبَاهُوا به العلماء، ولا لِتُمَارُوا به السفهاء، ولا تَخَيَّرُوا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار»**(2).

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٦١٢٧]، وأحمد [٨٤٥٧]، وابن ماجه [٢٥٢]، وأبو داود [٣٦٦٤]، وأبو يعلى [٦٣٧٣]، وابن حبان [٧٨]، والحاكم [٢٨٨]، وقال: "صحيح سنده ثقات رواته على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٣٤]. قال الإمام النووي: "رواه أبو داود بإسناد صحيح. والأحاديث في الباب كثيرة مشهورة" رياض الصالحين (ص:٤٥٨). وقال العراقي (ص:٧٤): "أخرجه أبو داود وابن ماجه بإسناد جيد".

(2) أخرجه ابن ماجه [٢٥٤]، قال البوصيري في (زوائده) (٣٧/١): "هذا إسناد رجاله ثقات على شرط مسلم". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٧٧]، والحاكم [٢٩٠]، وتمام [٨١٢]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٣٥]. قال العراقي (ص:٧٢): "أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد صحيح". وقوله: «لا تعلموا» أي: لا تتعلموا بالتاءين فحذفت إحداهما. «ولا تخيروا به المجالس» أي: لا تختاروا به خيار المجالس وصدورها. قوله: «فالنار» أي: فله النار أو فيستحق النار، والنار مرفوع على الأول منصوب. حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١١١/١).

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما (١).

وقال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإخلاص: أن يخلص العبد دينه وعمله فلا يشرك به في دينه ولا يرائي بعمله (٢).

وقال بعضُ الحُكماء: "مثلُ من يعمل رياءً وسُمعة كمثَلِ من ملأ كيسَه حصًى، ثم دخل السوق؛ ليشتري به، فإذا فتحه بين يدي البائع افتضح، وضرب به وجهه، فلم يحصل له به منفعةٌ سوى قول الناس: ما أملأَ كيسه! ولا يُعطَى به شيئًا، فكذلك مَن عمِل للرياء والسُّمعة، لا منفعةَ له في عمله سوى مقالة الناس، ولا ثوابَ له في الآخرة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ٢٣﴾ [الفرقان:٢٣]، أي: الأعمال التي قصد بها غير الله عَزَّوَجَلَّ يبطل ثوابها صارت كالهباء المنثور، وهو الغبار الذي يرى في شعاع الشمس"(٣).

---

(١) انظر: الأذكار، للإمام النووي (ص:٧)، التبيان في آداب حملة القرآن، للإمام النووي (ص:٣٢)، المجالس الوعظية، للسفيري الشافعي (١/١٢٥)، الزواجر (ص:٦٩)، الرسالة القشيرية (١/٤١)، الآداب الشرعية، لابن مفلح (١/٢٦٦).

(٢) انظر: الكشف والبيان (٢/٦)، تفسير البغوي (١/١٧٤).

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/٦٩).

سابعًا: إجمال مضار الرياء:

الرياء محبط للعمل ومضيع للأجر والثواب، وسبب لمقت الله عَزَّوَجَلَّ، وهو من الكبائر المهلكة.

الرياء خطره عظيم على الفرد والمجتمع، وقد تقدم أنه أخطر على المسلمين من المسيح الدجال، وجاء في حديث آخر ما يدل على أنه أشد فتكًا من الذئبِ في الغنم، فعن ابن كعب بن مالك الأنصاري، عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال، والشرف لدينه**»[1]. فمقصود الحديث: أن الحرص على المال والشرف، والمراد به: الجاه والمنصب أكثر إفسادًا للدين من إفساد الذئبين للغنم؛ لأن ذلك الأشر والبطر يستفز صاحبه، ويأخذ به إلى ما يضره وذلك مذموم؛ لاستدعائه العلو في الأرض

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٣٧٦]، وأحمد [١٥٧٨٤]، والدارمي [٢٧٧٢]، والترمذي [٢٣٧٦]، وقال: "حسن صحيح"، وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٣٢٢٨]، والطبراني [١٨٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٧٨٣]. قوله: «بأفسد لها»، أي: بأكثر فسادًا للغنم. «والشرف»، أي: الجاه، معطوف على المال. واللام في قوله: «لدينه» لام البيان، كهي في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ﴾ [البقرة:٢٣٣]، كأنه قيل لمن؟ قال: لمن أراد. وكذا هنا، كأنه قيل: بأفسد لأي شيء؟ فقيل: لدينه. ولا يصح جعلها متعلقة بأفسد؛ لأنه لا يجوز تعلق حرفي جرٍّ بلفظ واحد، ومعنى واحد بعامل واحد إلا على سبل البدل" انظر: دليل الفالحين، لابن علان (٤/٤١٩-٤٢٠). وفيه مبالغة في الذم لمن جعل المال والجاه غاية.

والفساد المذمومين شرعًا[1]. يعني: أنه يحرص على المال وعلى الشرف فيفسد دينه بحرصه ذلك، وقصد الرياء والسمعة، وعدم إخلاصه في العمل والعبادة.

الرياء من أسباب العذاب في الآخرة كما تقدم، بل قد يكون من أسباب مضاعفة العذاب وشدته، كما تقدم في حديث: «**أول من تُسَعَّر بهم النار يوم القيامة**».

والرياء من أسباب الذل والصغار والهوان؛ ذلك أن المرائي لا يسلم أن يفضح في الدنيا، فيظهر الله عَزَّوَجَلَّ للناس ما يبطنه فيسقط من أعين الناس كما تقدم في حديث: «**من سمَّع سمَّعَ الله به، ومن يُرائي يُرائي اللهُ به**»، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة:٤٩].

وقد جاء في الحديث: ما يدل على أن الرياء يحرم المرائي الثواب الآخرة، وهو من أسباب الذل والصغار، وأن من يقابله من الإخلاص من أسباب النجاة والرفعة والتمكين: فعن أُبَيِّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَشِّرْ هذه الأُمَّةَ بالسَّناءِ والرِّفْعَة، والدِّين، والنَّصْر، والتَّمْكِينِ في الأرض، فمن عَمِلَ منهم عَمَلَ الآخرة لِلدُّنْيَا، لم يكن له في الآخرة نَصِيبٌ**»[2].

---

(١) فيض القدير (٥/٤٤٥)، وانظر: انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٢١٥).

(٢) أخرجه أحمد [٢١٢٢٠]، قال الهيثمي (١٠/٢٢٠): "رواه أحمد وابنه من طرق، ورجال أحمد رجال الصحيح". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٤٠٥]، والحاكم [٧٨٦٢]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: أبو نعيم في (الحلية) (٩/٤٢)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٤١٤]، والضياء [١١٥٤]. قوله: «بالسَّناء»، أي: بارتفاع المَنْزِلة والقَدْر.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّمَا يَنْصُرُ الله هذه الأُمَّةَ بضعيفها، بدعوتهم، وصلاتهم وإخلاصهم**»(١).

والرياء من أسباب زيادة انغماس المرائي في الضلال كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠﴾ [البقرة: ٩-١٠].

ثامنًا: الوقاية من الرياء والعلاج:

١ - الإخلاص في جميع الأعمال والأقوال والأحوال.

٢ - عدم ترك الطَّاعات خوفًا من الرياء:

لا ينبغي ترك العمل المشروع خوف الرياء. قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن من الناس من يترك العمل؛ خوفًا من أن يكون مرائيًا به، وذلك غلط، وموافقة للشيطان، وجر إلى البطالة وترك للخير، فما دمت تجد باعثًا دينيًا على العمل فلا تترك العمل، وجاهد خاطر الرياء، وألزم قلبك الحياء من الله عَزَّوَجَلَّ إذا دعتك نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين، وهو مطلع على قلبك، بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياء من ربك، وعقوبة لنفسك فافعل، فإن قال لك الشيطان: أنت

---

(١) تقدم.

مراء فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف في قلبك من كراهية الرياء وإبائه وخوفك منه وحيائك من الله عَزَّوَجَلَّ، وإن لم يبق باعث ديني، بل تجرد باعث الرياء فاترك العمل عند ذلك"(١).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا ينبغي أن يترك الذكر باللسان مع القلب؛ خوفًا من أن يظن به الرياء بل يذكر بهما جميعًا، ويقصد به وجه الله عَزَّوَجَلَّ، وذكر قول الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك. قال: فلو فتح الإنسان عليه باب ملاحظة الناس والاحتراز من تطرق ظنونهم الباطلة لانسد عليه أكثر أبواب الخير"(٢).

وقال الإمام عز الدين بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ليس ترك العمل خوف الرياء إخلاص، وإنما الإخلاص: إيقاع الطاعة خالصة لله عَزَّوَجَلَّ دون الناس.

وقد تترك العمل؛ مخافة الرياء، فيوهمك الشيطان أنك مراء بترك العمل؛ لينغص عليك العيش فيما تعمله، وفيما تتركه.

مثال ذلك: أن يكون في قراءة أو تعليم أو ذكر أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر، فيوهمك أنك مراء بذلك فتتركه، فيوهمك أنك مراء بالصمت، وأن يقال: إنما صمت خيفة من الرياء، فتغيب عن الناس خوفا من الرياء فيوهمك أنك مراء بالهروب منهم والاعتزال عنهم، وأنهم يقولون: إنما فرَّ بدينه؛ خوفًا من الرياء، فتستحلي النفس

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/٣٢٢)، موعظة المؤمنين (١/٢٤١).

(٢) الأذكار، للإمام النووي (ص:٩).

أن تقول الناس: إنما فرَّ بدينه؛ خوف الرياء، ولا خلاص لك من مثل ذلك إلا بالكراهة والإباء.

فإن أشكل عليك أمرك فإن وجدت نفسك مائلة إليه من غير كراهة ولا إباء فقد صدقك الشيطان فيما أخبرك به من أنك مراء، فإن لم تنفك عن خطرة الرياء ولم يجد من نفسك الكراهة والإباء، فإن كان ذلك العمل نفلًا فدعه، وإن كان فرضًا لزمك أن تجاهد نفسك على حسب إمكانك في استحضار نفسك الكراهة والإباء.

وإن دخلت في الفرض على الإخلاص فأوهمك أنك مراء فلا تصغ إليه ولا تلتفت عليه؛ لأنك تحققت الإخلاص، وشككت في الرياء، واليقين لا يزال بالشك" (١).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فأما ترك الطاعات؛ خوفًا من الرياء، فإن كان الباعث له على الطاعة غير الدين، فهذا ينبغي أن يترك؛ لأنه معصية لا طاعة فيه.

وإن كان الباعث على ذلك الدين، وكان ذلك لأجل الله تعالى خالصاً، فلا ينبغي أن يترك العمل، لأن الباعث الدين.

وكذلك إذا ترك العمل؛ خوفًا من أن يقال: إنه مراءٍ، فلا ينبغي ذلك؛ لأنه من مكائد الشيطان. قال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا أتاك الشيطان وأنت في الصلاة فقال: إنك مراءٍ، فزدها طولًا. وأما ما روي عن بعض السلف أنه ترك العبادة؛ خوفًا من الرياء، كما روي عن إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن إنسانًا دخل عليه وهو يقرأ في

(١) مقاصد الرعاية لحقوق الله عَزَّ وَجَلَّ (ص: ٧٤).

المصحف، فأطبق المصحف وترك القراءة، وقال: لا يراني هذا أني أقرأ كل ساعة، فيحمل هذا على أنهم أحسوا من نفوسهم بنوع تزين فقطعوا"(١).

قال ابن مفلح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهو كما قال، ومن هذا قول الأعمش رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كنت عند إبراهيم النخعي، وهو يقرأ في المصحف فاستأذن رجل فغطى المصحف، وقال: لا يظن أني أقرأ فيه كل ساعة، وإذا كان لا يترك العبادة خوف وقوعها على وجه الرياء فأولى أن لا يترك خوف عجب يطرأ بعدها"(٢).

٣ - استحضار مراقبة الله عَزَّ وَجَلَّ للعبد في كل ما يقول ويعمل، في السر والعلانية، في الجلاء والخفاء، كأنه بين يديه جَلَّ وَعَلَا، ومن استشعر عظمة الله عَزَّ وَجَلَّ ومراقبته للعبد هان في نظره كل أحد.

٤ – المحافظة على عبادة الخفاء:

وقد تقدم الحديث عن أهمية (عبادة الخفاء) مفصلًا.

٥ - مجاهدة النفس وتزكيتها وتفقد أحوالها ونفاذ البصيرة والخوف والحذر:

تقدَّم أن الرياء هو الشرك الخفي الذي يتسلل إلى بعض العبادات والأعمال فيفسدها، وهو أخفى من دبيب النمل.

فينبغي لطالب العلم والهداية أن يكون على حذر وبينة. قال الحارث المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فما خفِي لم يُعرف إلا بشدَّة التفقُّد، ونفاذ البصيرة بمعرفته له حين يعرِض،

---

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص:٢٢٥).

(٢) الآداب الشرعية، لابن مفلح (ص:٢٦٦-٢٦٧).

وإلا لم ينفع التفقُّد لما لا يُعرف، فبالخوف والحذر يَتفقَّد العبد الرِّياء، وبمعرفته يبصره حين يعرِض فلا غنى بك عن معرِفة الرياء"(١).

وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يزال الرجل بخير ما علم بالذي يفسد عليه عمله (٢).

ومن أراد أن يسلك طريق السعادة فعليه أن يخالف النفس والهوى والشيطان، وأن يتبع منهج الله عَزَّوَجَلَّ القويم، وشِرعته المباركة، التي أنزلها ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، فذلك السبيل الذي ينجو به الناس من الغواية، وسلطان الهوى، فلا سبيل إلا بالاتباع، ولا نجاة إلَّا بالانقياد. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "سمعت شيخنا -يعني: ابن تيمية- يقول: جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين؛ فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولًا حتى يخرج إليهم"(٣). "فمن قهر هواه عز وساد، ومن قهره هواه ذل وهان وهلك وباد"(٤).

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت:٦٩].

ومجاهدة النفس والهوى تقرِّب العبدَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فيكون في حفظ الله جَلَّوَعَلَا ورعايته. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مخالفة الهوى تقيم العبد في مقام من لو أقسم على الله عَزَّوَجَلَّ لأبره، فيقضي له من الحوائج أضعاف أضعاف ما فاته من هواه". وقال: "إذا

(١) الرعاية لحقوق الله، للحارث المحاسبي (ص:١٦٠).

(٢) الزهد والرقائق، لابن المبارك [١٥٠٠]، الزهد، لأحمد بن حنبل [١٥٩٠]، مصنف ابن أبي شيبة [٣٥١٨٩].

(٣) روضة المحبين (ص:٤٧٨).

(٤) غذاء الألباب، للسفاريني الحنبلي (٢/ ٤٥٨).

تأملت السبعة الذين يظلهم الله عَزَّوَجَلَّ في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوى"(١).

فلا ينبغي للمسلم أن يسترسل في اتباع رغبات النفس؛ فإن الاسترسال في متابعة النفس والهوى له مضار ظاهرة وباطنة وحسية ومعنوية وفردية واجتماعية.

وتزكية النفس تكون بتهذيبها وتأديبها ومخالفتها ومحاسبتها واتهامها، وتدريبها على الأخلاق الفاضلة، وأن يقود المكلف نفسه لا أن تقوده، فمن لم يتنصر على نفسه وشهواتها كيف سينتصر على عدوه؟ وكيف سيصل إلى هدف هو أسمى من مُتَعٍ ولذَّاتٍ آنيَّةٍ فانية؟!

وقد قيل: مخالفة النفس رأس العبادة، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها بمهلكاتها، كالكبر والعجب والحسد وطول الأمل. وكيف يصح لعاقل الرضا عن النفس والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف:٥٣]؟!(٢).

وقد بين الحارث المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المحاسبة تكون لمستقبَل الأعمال ولمستدبرها. فقال: المحاسبة في مستقبل الأعمال: "النظر بالتثبت قبل الزلل؛ ليبصر ما يضره مما ينفعه، فيترك ما يضره على علم، ويعمل بما ينفعه على علم. والمحاسبة الثانية في مستدبر الأعمال، وقد نطق بها الكتاب والسنة، وقالت بها علماء الأمة"(٣).

---

(١) روضة المحبين (١/٤٨٤-٤٨٥).

(٢) انظر: المنفرجتان (ص:٧٥-٧٦)، الرسالة القشيرية (١/٢٨٣)، بريقة محمودية، للخادمي (٧٢/٢).

(٣) انظر ذلك مفصلًا في (الرعاية لحقوق الله) (ص:٤٨-٥٥).

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا يقدر أحد أن قمع الرِّياء إلا بمجاهدة شديدة ومكابدة لقوَّة الشِّهوات، ويكون ذلك بأمرين:

أحدهما: قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه.

والثاني: دفع ما يخطر منه في الحال:

المقام الأول في قلع عروقه وأصوله:

وأصله: حب المنزلة والجاه، وإذا فصل رجع إلى ثلاثة أصول وهي: حب لذة المحمدة، والفرار من ألم الذم، والطمع فيما في أيدي الناس، فهذه الثلاثة هي التي تحرك المرائي إلى الرياء. وعلاجه: أن يعلم مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه، وما يحرم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عند الله تعالى، وما يتعرض له من العقاب والمقت الشديد والخزي الظاهر. فمهما تفكر العبد في هذا الخزي، وقابل ما يحصل له من العباد والتزين لهم في الدنيا بما يفوته في الآخرة، وبما يحبط عليه من ثواب الأعمال فإنه يسهل عليه قطع الرغبة عنه، كمن يعلم أن العسل لذيذ ولكن إذا بان له أن فيه سما أعرض عنه. ثم أي غرض له في مدحهم وإيثار ذم الله لأجل حمدهم، ولا يزيده حمدهم رزقًا، ولا أجلًا، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته، وهو يوم القيامة.

وأما الطمع فيما في أيديهم فبأن يعلم أن الله جَلَّ وَعَلَا هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء، وأن الخلق مضطرون فيه، ولا رازق إلا الله، ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة، وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنة والمهانة، فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد؟! وقد يصيب وقد يخطئ، وإذا أصاب فلا تفي لذته بألم منته ومذلته.

وأما ذمهم فلم يحذر منه، ولا يزيده ذمهم شيئًا ما لم يكتب الله عليه، ولا يعجل أجله، ولا يؤخر رزقه، ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة، ولا يبغضه إلى الله إن كان محمودًا عند الله عَزَّوَجَلَّ، فالعباد كلهم عجزة لا يملكون لأنفسهم ضرا، ولا نفعا، فإذا قرر في قلبه آفة هذه الأسباب وضررها فترت رغبته، وأقبل على الله قلبه، والعاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه، فهذا من الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء.

وأما الدواء العملي فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات، وإغلاق الأبواب دونها كما تغلق الأبواب دون الفواحش فلا تنازعه نفسه إلى طلب علم غير الله به.

المقام الثاني في دفع العارض منه أثناء العبادة:

وذلك لا بد أيضًا من تعلمه، فإن من جاهد نفسه بقلع مغارس الرياء، وقطع الطمع، واستحقار مدح المخلوقين وذمهم، فقد لا يتركه الشيطان في أثناء العبادة، بل يعارضه بخطرات الرياء، فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق دفع ذلك بأن قال: ما لك وللخلق علموا أو لم يعلموا والله عَزَّوَجَلَّ عالم بحالك؟ فأي فائدة في علم غيره؟ فإن هاجت الرغبة إلى لذة الحمد ذكر ما رسخ في قلبه من قبل من آفة الرياء وتعرضه للمقت الإلهي، وخسرانه الأخروي"[1].

٦ - معالجة دواعي الرياء وكسر أسبابه:

(١) إحياء علوم الدين (٣/٣١٠)

إن من أهم أسباب الوقاية من آفات الرياء: معالجة أسبابه وكسر أسبابه، ومما يعين على ذلك:

أ. تذكير النفس بما يحرم المرائي من التوفيق وصلاح القلب بسبب الرياء.

ب. الخوف من مقت الله عَزَّوَجَلَّ إذا اطلع على قلب العبد وهو معتقد الرياء.

ج. تذكير النفس بما يفوت أو ينقص من ثواب العباداتِ والأعمال بسبب الرياء، فإن المرائي يبذل الجهد والمال في العباداتِ والأعمال فيذهب ذلك سدى، ويضيع عليه الثواب كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣].

د. تذكير النفس بعقاب الله عَزَّوَجَلَّ وسخطه وعذابه الأليم في الآخرة بسبب الرياء.

هـ. تذكير النفس بأن المرائي لا يأمن أن يعجل الله عَزَّوَجَلَّ له بعض العقوبات، ولا يمهله فيفضحه في الدنيا، وينكشف حاله، فيمقته من كان يتودد إليه بريائه.

و. تذكير النفس بقبيح ما يحبب إلى العباد، وهو مما يوجب بغض الله جَلَّوَعَلَا وسخطه.

ز. تذكير النفس بأن رضا الناس غاية لا تدرك، ومطلوب لا يملك، فقد يرضي بعضهم ما يسخط الآخرين [1]. فمن تعلّق بالمخلوقين ورجاهم وطمع فيهم أن يجلبوا

---

(١) انظر ذلك مفصلًا في (الرعاية لحقوق الله)، للحارث المحاسبي (ص:١٧٣-١٧٨)، مقاصد الرعاية لحقوق الله (ص:٦١).

له منفعة أو يدفعوا عنه ضرًّا، فإنه قد يخذل من جهتهم، ولا يتحقق مقصوده، أما إذا توجه إلى الله عَزَّوَجَلَّ بصدق الافتقار إليه فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يكون معه.

ح. البعد عما يورث الرياء من الأخلاق المذمومة.

٧ - النظر في عواقب الرياء ونتائجه، وفي فوائد الإخلاص وعوائده.

٨ - اللجوء إلى الله عَزَّوَجَلَّ وإخلاص الدعاء، والاستعاذة به جَلَّوَعَلَا من مرض الرياء وآفاته:

وقد جاء في الحديث: عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ كان يقول في دعائه: «**اللهم إني أعوذ بك من شَرِّ ما عَمِلْتُ، وشر ما لم أَعْمَلْ**»(١).

٩ - تعلق العبد بالله عَزَّوَجَلَّ، وثقته به، ويقينه بأن النفع والضر بيده وحده:

فلا أحد يملك النفع والضرر إلا الله عَزَّوَجَلَّ وحده لا شريك له، حتى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ قال الله عَزَّوَجَلَّ له: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ

(١) صحيح مسلم [٢٧١٦]. وقد روي عن أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنهُ فقال: خطبنا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ ذات يوم، فقال: «أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل»، فقال له من شاء أن يقول: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟، قال: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم». أخرجه ابن أبي شيبة [٢٩٥٤٧]، وأحمد [١٩٦٠٦]، والطبراني في (الأوسط) [٣٤٧٩]. قال البوصيري: "رواه أحمد بن حنبل والطبراني. ورواته إلى أبي علي محتج بهم في الصحيح، وأبو علي وثقه ابن حبان ولم أر أحدًا ضعفه. ورواه أبو يعلى بنحوه من حديث حذيفة إلا أنه قال فيه: «يقول كل يوم ثلاث مرات». إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (٥٠٨/٦).

﴿١٨٨﴾ [الأعراف:١٨٨]، ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٠ قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢﴾ [الجن:٢٠-٢٢]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ﴾ [الرعد:١٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ﴾ [الفتح:١١].

وقد جاء في الحديث: عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: كنت خلف رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يومًا، فقال: «**يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجَاهَكَ، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**»(١).

وفي القرآن الكريم لما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ السحرة قال: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة:١٠٢].

فمن أسباب العافية والهداية والوقاية من آفات الرياء: رسوخ الإيمان بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقدره، وأنه الله جَلَّوَعَلَا هو الضار النافع، وهو الغني والناس كلهم

---

(١) أخرجه أحمد [٢٦٦٩]، والترمذي [٢٥١٦]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: أبو يعلى [٢٥٥٦]، والحاكم [٦٣٠٣]، وقال: "هذا حديث كبير عال من حديث عبد الملك بن عمير، عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا". وأخرجه أيضًا: الضياء [١٣].

مفتقرون إليه كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:١٥].

ومن أسباب العافية والهداية والوقاية من آفات الرياء: ذكرُ الله عَزَّوَجَلَّ على الدَّوام، والاستعانةُ به، واللجوءُ إليه في كشف الضُّر والسوء كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف:٢٣-٢٤].

١٠ – حسن الظنِّ بالله جَلَّ وَعَلَا، والثقة بما أعده لعباده الصالحين المتقين.

١١ – أن يحذر السالك خطوات الشيطان، وتزيينه للمعاصي والشهوات.

١٢ – التفقه في الدين، وملازمة العلماء والصالحين.

١٣ – تذكر الموت والآخرة:

فينبغي للعاقل أن يتذكر الموت والحساب في الآخرة كلما رأى من نفسه طموحًا إلى الدنيا، وانشغالًا بها، واغترارًا بها، وأن ما يؤمله فيها قد يحصل وقد لا يحصل، وإن حصل فإن مآله إلى زوال، وأن الآخرة خير وأبقى. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء:١٨-١٩]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ [القيامة:٢٠-٢١]، وقال: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإنسان:٢٧].

وقد جاء في الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنت خلف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومًا، فقال: «**يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ**

الله تجده تُجَاهَكَ، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف» (١).

"ولا بد للإنسان من شيئين: طاعته بفعل المأمور، وترك المحظور. وصبره على ما يصيبه من القضاء المقدور. فالأول هو: التقوى، والثاني هو: الصبر"(٢).

وفي القرآن الكريم لما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ السحرة قال: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢].

فمن أسباب العافية والهداية والوقاية من آفات الرياء: رسوخ الإيمان بقضاء الله وقدره، وأنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الضار النافع، وأنه جَلَّوَعَلَا هو الغني والناس كلهم مفتقِرون إليه كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

ومن أسباب العافية والهداية والوقاية من آفات الرياء: ذكرُ الله عَزَّوَجَلَّ على الدَّوام، والاستعانةُ به، واللجوءُ إليه في كشف الضُّر والسوء كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۝٢٤﴾ [الكهف:٢٣-٢٤].

---

(١) أخرجه أحمد [٢٦٦٩]، والترمذي [٢٥١٦]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: أبو يعلى [٢٥٥٦]، والحاكم [٦٣٠٣]، وقال: "هذا حديث كبير عال من حديث عبد الملك بن عمير، عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا". وأخرجه أيضًا: الضياء [١٣].

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٦٦٧).

المبحث السابع:

الإحسان
وصنائع المعروف
وأعمال البر

الإرشاد إلى أسباب النجاة

أولًا: الإحسان من المنجيات من سوء العاقبة:

إن من أعظم المنجيات من سوء العاقبة: الإحسان إلى النفس وإلى الخلق، والإحسان في العبادة.

وقد أوصى الله عَزَّوَجَلَّ عباده بالإحسان فقال جَلَّوَعَلَا: فقال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النحل:٩٠].

قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: هذه أجمع آية في القرآن لخير يمتثل، ولشر يجتنب [(١)].

وعن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله عَزَّوَجَلَّ به في هذه الآية، وليس من خلق كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه وقدح فيه، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها [(٢)].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في (مصنفه) [٦٠٠٢]، وابن جرير الطبري في (التفسير) (٢٨٠/١٧)، والطبراني في (الكبير) [٨٦٥٨]، والحاكم [٣٣٥٨]، وقال: "على شرط الشيخين" ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في [٢١٧٣]. وانظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (١٩٧/٣)، تفسير القرطبي (١٦٥/١٠)، فضائل القرآن، لأبي العباس المستغفري (٧٦٢/٢)، أحكام القرآن، لابن العربي (١٥٥/٣)، شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٢٥٨/٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٨٠/١٧-٢٨١)، بحر العلوم (٢٨٨/٢)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٧٩/٣)، تفسير ابن كثير (٥٩٦/٤)، الدر المنثور (١٦٠/٥)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٤٠٧٣/٦)، أحكام القرآن، لابن العربي (١٥٥/٣).

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد قالت العلماء: إن أجمع آية للبر، والفضل، ومكارم الأخلاق: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النحل:٩٠]"(١).

وقال القاضي البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شيء، وهدى ورحمة للعالمين"(٢).

وقال: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة:١٩٥]، وقال: ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ [القصص:٧٧]، أي: أطع الله عَزَّوَجَلَّ واعبده كما أنعم عليك. وأوَّل المخلوقات التي يجب أن تحسنَ إليها: نفسك، فأقبلْ عليها وأدبها، وسرْ بها في طريق الخير والهدى، وجنبْها المعاصي والردى، فعندما تحمل نفسك على تطبيق شرائع الإسلام، وعندما ترسخ في النفس قواعد الإيمان، عندها ترقى إلى درجة الإحسان. هذه المنزلة التي تصل إليها بإتقانك للعبادات، واستحضارك عظمةَ الله عَزَّوَجَلَّ، وخوفَك منه؛ لأنك على يقين أن الله عَزَّوَجَلَّ عليك رقيب. فإذا أنعم الله عَزَّوَجَلَّ عليك بذلك، فينبغي أن ينعكسَ على أخلاقك ومعاملاتك مع الآخرين، أن تقابلَ الإحسان بالإحسان، ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [الرحمن:٦٠]، بل أن تقابل الإساءة بالإحسان.

---

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٣٣٤/٢٤).

(٢) تفسير البيضاوي (٢٣٨/٣).

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ مقابلةَ الإساءة بالإحسان، وحُسْنَ الخُلق سببًا يكون به العدوُّ صديقًا، وتتمكَّنُ فيه صداقةُ الصديق، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصلت:٣٤]. إن كل إساءة تقابل بالإحسان سوف يكون له من الأثر الطيب ما يمحو أثرها، ويعالج ما أحدثته من صدع وجفاء. يعني: أنك إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إلى مصافاتك ومحبتك. ومقابلة السيئة بالحسنة مرتبة عظيمة لا يرتقي إليها من عباد الله – عز وجل – إلَّا من امتلك زمام نفسه.

ومن أخلاق النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه: «**لا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح**»(١).

وحسن الخلق ولين الجانب من المنجيات من العذاب في الآخرة، كما جاء في الحديث: عن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ألا أخبركم بمن يَحْرُمُ على النَّار، أو بمن تَحْرُمُ عليه النَّار، على كلِّ قريبٍ هَيِّنٍ سَهْلٍ**»(٢).

---

(١) صحيح البخاري [٤٨٣٨].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٤٠٩]، وأحمد [٣٩٣٨]، والترمذي [٢٤٨٨]، وقال: "حسن غريب". كما أخرجه أبو يعلى [٥٠٥٣]، وابن حبان [٤٦٩]، والطبراني في (الكبير) [١٠٥٦٢]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٠٧٣٨]، والبغوي في (شرح السنة) [٣٥٠٥].

والمعنى: تَحْرُمُ على كُلِّ سَهْلٍ طَلْقٍ حليمٍ لَيِّنِ الجانب، قريب من النَّاس بمجالستهم في محافل الطاعة [1]، وحسن ملاطفته لهم. سهل الخلق، أي: في قضاء حوائج الناس، وتسهيل أمورهم، سمح في تعامله.

ومن الخير العظيم لطالب التوفيق والعافية: أن يمتثل ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به عباده من الإحسان إلى النفس والخلق.

والإحسان له جوانب متعددة، فهو إحسان الإنسان إلى نفسه، وذلك بحملها على ما فيه الخير والصلاح والفلاح لها في الحال والمآل، كما تشمل الإحسان للوالدين، والأقربين، والزوجة، والأولاد، وكذلك الإحسان إلى الناس جميعًا، بتقديم العون والنصح، وحسن المعاملة، والمساهمة في أعمال الخير، كما لا يقف مفهوم الإحسان في الإسلام على إحسان المرء لنفسه، وللآخرين من أبناء جنسه، ولكنه يعم كذلك الإحسان إلى الحيوان والعناية بالنبات -كما سيأتي-. والإحسان كما يكون إلى النفس، وإلى الخلق، يكون كذلك في العبادة، وهاك بيان جهات الإحسان وصوره:

(١) انظر: مرقاة المفاتيح (٨/٣١٧٩).

ثانيًا: إجمال بيان مراتب الإحسان وذكر صوره:

١ - الإحسان في العبادة:

الإحسان في العبادة هو الإخلاص والإتقان، أي: أن تخلص لله عَزَّوَجَلَّ في العبادة مع تمام الإتقان، كأنك تراه وقت عبادتك، فإن لم تقدر على ذلك فلا أقلَّ من أن تتذكر أن اللهَ عَزَّوَجَلَّ يشاهدُك، ويرى منك كل صغير وكبير. وهذا معنى قول النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[1].

والإحسان في العبادة على مرتبتين:

وإن الإحسان في العبادة على مرتبتين -كما في الحديث-:

الأولى: أن تعبد الله عَزَّوَجَلَّ كأنك تنظر إليه من شدة اليقين والإيمان.

والمرتبة الثانية: وهي أقل منها، أن تعبد الله عَزَّوَجَلَّ وأنت تعلم أنه يراك ويطلع عليك، فلا تعصيه ولا تخالف أمره عَزَّوَجَلَّ. وهذه مرتبة الإحسان، وهي أعلى مراتب الدين، وقبلها مرتبة الإيمان، وقبلها مرتبة الإسلام.

والله عَزَّوَجَلَّ يحبُّ المحسنين، كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة:١٩٥].

---

(١) صحيح البخاري [٥٠، ٤٧٧٧]، مسلم [٨، ٩، ١٠].

٢ – الإحسان إلى النفس:

والإحسان إلى النفس يكون بحملها على الطريق الصحيح، فينبغي على من أراد النجاة والعافية في دنياه وأخراه: أن يصون نفسه عن المحرمات، وأن يصون جسده عما يُلحِق الضر به، كإهمالِ معالجة الأمراض، والتعرض لمسبباتها، من نحو: إهمال النظافة والطهارة.

٣ – الإحسان إلى الوالدين والأقربين والزوجة والأولاد والجار:

ومنها: إحسانك للوالدين والأقربين والزوجة والأولاد والجار..، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ﴾ [النساء:٣٦].

٤ – الإحسان إلى الناس جميعًا:

ومنها: إحسانك للناس جميعًا: بأن تقدم لهم العون وتعاملهم بالرحمة قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**»(١).

---

(١) أخرجه الحميدي [٦٠٢]، وابن أبي شيبة [٢٥٣٥٥]، وأحمد [٦٤٩٤]، والبخاري في (التاريخ الكبير) (١٩٤/٧)، وأبو داود [٤٩٤١]، والترمذي [١٩٢٤]، قال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: الطبراني [١٤٣١٧]، والحاكم [٧٢٧٤]، وصححه، ووافقه الذهبي، كما أخرجه: البيهقي [١٧٩٠٥]، والديلمي [٣٣٢٨].

ومن مظاهر الإحسان إلى أفراد هذه الأمة: المساهمة في بناء المستشفيات، والجمعيات الخيرية، ومعاهد العلم التي ينتفع بها الفقراء. ومساعدة الفقراء في أوقات الأزمات ونزول البلاء والأوبئة، مساعدة كل مريض لا يملك ثمن العلاج، والمساهمة في إعانة كل محتاج، وفقير منقطع عن أهله ووطنه، ويتيم فَقَدَ حنان وإعانة أبيه وأمه.

*ولقد تأثر السلف بمفهوم الإحسان فكان الخلفاء والأمراء يخرجون في الليالي المظلمات؛ ليحسنوا إلى من يحتاج إلى الإحسان كما ورد عن أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين حمل الطعام بنفسه ووضعه أمام بيت من الفقراء فيه امرأة مع صبية جياع، فأشبعهم بعد جوع.

ولنا في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ مواقف مع المرسلين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في رياض الإحسان.

فحين دخل إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عليه، وهم في حالة من الضر والمجاعة: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ٨٨﴾ ما قالوا ذلك إلا بعد أن غمرهم بإحسانه من قبل، إنه الإحسان لمن أساء إليه، ورماه في البئر صبيًا، ومع هذا لم يتناسى الإحسان في ساعة الإحسان، لكنه أحب أن يعلمهم أنهم في رحاب أخيهم فسألهم عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وما فعلوا به.. ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ٨٩﴾.. لقد أعطاهم درسًا في الإحسان: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾. إنه الإحسان يتجلى لنا بقدسيته حين عفا عنهم وهو قادر على معاقبتهم ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢﴾.

نِعْمَ النهجُ سلوك سياسة الإحسان، يحدثنا عن تاريخ الفتوح الإسلامية عما كان يجده المسلمون من المعونات التي كان يتقدم بها إليهم طوعًا كثير من أصحاب الملل الأخرى لقاء ما يصيبون من إحسان المسلمين إليهم، ولنشرهم العدل والمحبة والتسامح والأخلاق الفاضلة.

ونلاحظ أن هناك عبارات جرت على الألسنة مجرى الأمثال، وهي لو أخذت على علاتها لأورثت النفس زهدًا في الإحسان، وشكًا في نتائجه، يقولون: (اتق شر من أحسنت إليه).

وأكثر من ذلك قولهم: (خيرًا تعمل شرًّا تلقى).

والإحسان إنما تسوء نتائجه عندما تتخطى به مواضعه؛ إذ ليس كل إنسان يثمر عنده المعروف، وإن الكريم يقتله الإحسان ويسترقه، فهو أسير الإحسان، فالإنعام والبرُّ واللطفُ معانٍ تسترقُّ مشاعرَه، وتستولي على أحساسيه.

قال أبو الفتح علي بن محمد البستي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أحسن إِلَى النَّاس تستعبد قُلُوبهم فطالما استعبد الْإِنْسَان إِحْسَان (١)

والوغد اللئيم يبطره الإحسان ويطغيه، كما قال المتنبي:

إذا أنتَ أَكْرَمْتَ الكريمَ مَلَكْتَهُ وإن أنتَ أكرمتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا (٢)

---

(١) قصيدة عنوان الحكم، علي بن محمد البُستي [٧] (ص:٣٦).

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي (ص:٣٦١).

فإذا أنت أكرمت الكريم ارتهنت شكره، واستوجبت ملكه؛ لأنه يعترف بفضلك، ولا يدفع وجوب حقك. وإذا أنت أكرمت اللئيم زاد إكرامك له في تمرده، وأطغاه ما تحاوله مِن تألفه.

ووضعُ الندى في موضع السيف بالعلى
مضرٌ كوضع السيف في موضع الندى

ثم أكد ذلك، فقال: ووضع العفو في موضع العقوبة، والندى في موضع السيف، مخل بالسيادة، ومضر بالرئاسة؛ كما يخل بذلك وضع العقوبة في موضع العفو، ووضع الكرم في موضع السيف، وإنما الصواب في وضع الأشياء مواضعها، وحملها على حقيقة مقاصدها؛ لتحل الصنائع في محلها، وتوضع النعم عند أهلها، ويعدل بها، عمن لا يقوم بشكرها [(١)].

ثم قال:

وقـيَّـدتُ نـفـسي في ذراكَ محـبَّـةً ومن وَجَـدَ الإحسانَ قيدًا تقيَّدا [(٢)]

ثم قال: وقيدت نفسي في ذراك وأرضك، وقصرتها على إحسانك وفضلك، ومن وجد الإحسان قيدًا تقيد به، وألزم نفسه إياه، ولم يختر لها مقصودًا سواه [(٣)].

وللإحسان ثمرات عظيمة تتجلى في المحبة والتآلف، وتماسك بنيان المجتمع وحمايته من الخراب والتَّهلكة، ووقايته من الآفات.

---

(١) انظر: شرح شعر المتنبي، لأبي القاسم ابن الإفلِيلي (٢/٢٠١).

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي (ص:٣٦٢).

(٣) شرح شعر المتنبي (٢/٢٠٦).

ثالثًا: تفصيل ما جاء في بعض صور الإحسان العالية:

١ - الإيثار:

إنَّ من أعظم وأسمى معاني الإحسان: الإيثار، وهو يحقق مفهوم الجسد الواحد، من التآلف والتَّعاون والتَّعاضد، والإيثارُ محبَّة صادقة، وخُلُقٌ منبثق من العقيدة.

ومن الآيات الدالة الإيثار قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩]. فبين الحق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن هذا الإيثار ليس عن غنى عن المال، ولكنه عن حاجة وخصاصة، فالإيثار: **(هو تقديم حاجة الغير على حاجة النفس، سخاءً وتفضلًا)**.. وهذا لا يكون إلَّا من نفوس مهيأة للتضحية.

و(الإيثار): ضد الأثرة، وهي: حب النفس حبًّا يعميها عن كل شيء، فلا يرى المرء إلَّا ذاته، ولا يعمل إلَّا من خلال هذه الذات، وما يحقق لها من نفع ذاتي لا يشاركها فيه أحد.. و(الخصاصة): الحاجة، والفقر الذي يعجز الإنسان عن إدراك الضروري من مطالب الحياة.. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ الآية [البقرة:١٧٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢]، ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان:٨- ٩].

وآثار السلف في بذل المحبوبات في سبيل الله كثيرة، فمن ذلك: ما جاء في (الصحيحين): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبعث إلى نسائه فقلن: ما معنا إلَّا الماء، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من يضم أو يضيف هذا؟**»، فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: ما عندنا إلَّا قوت صبياني، فقال: هيئي طعامك، وأصبحي سراجك، ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاء، فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**ضحك الله الليلة، أو عجب، من فعالكما**[1]» فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر:٩][2].

وفي الحديث: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما نحن في سفر مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ جاء رجل على راحلة له، قال: فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالًا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من كان معه فضل ظهر، فليعد به على من لا ظهر له،**

---

(١) في (صحيح مسلم) [٢٠٥٤]: "صنيعكما".

(٢) صحيح البخاري [٣٧٩٨، ٤٨٨٩]، مسلم [٢٠٥٤]. قوله: (رجل) هو أبو طلحة زيد بن سهل الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. «أصبحي»: أوقدي. «يريانه»، أي: يتظاهران بذلك. قوله: «طاويين»، حال تثنية طاو، وهو الجائع الذي يطوي ليله بالجوع. «يؤثرون»: يختارون ويفضلون. ﴿خَصَاصَةٌ﴾: حاجة. ﴿يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾: يخالف هواها ويغلبها على ما أمرته بتوفيق الله عَزَّ وَجَلَّ وعونه من (الوقاية)، وهي الحفظ من الشح البخل والحرص.

ومن كان له فضل من زاد، فليعد به على من لا زاد له»، قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل [1].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان:٨- ٩].

فهذا التعبير يدل على الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ في العمل؛ ابتغاء مرضاته وحده، وعدم الرياء فيه.

فلا يوجد دينٌ يحثُّ أبناءَه على التَّحَابُب والمودة والإيثار كدين الإسلام.

والنماذج الدَّالة على الإيثار من النصوص ومن حياة السلف كثيرة.

ولو طبق الناس ما جاء في الآيات والأحاديث من معاني الإيثار لم يبق محتاجٌ.

٢ - الإحسان إلى الوالدين:

إنَّ الوالدين هما أحقُّ النَّاس بحسن الصحبة، وجميل البرِّ والإحسان؛ لعظيم فضلهما، وشدة عنايتهما، وحرصهما على صحة وراحة وسعادة الأولاد في جميع المراحل.

وإنَّ محبة الوالدين، والإحسان إليهما فريضةٌ مقدسة، وواجبٌ إنساني، وأدبٌ اجتماعي، تقتضيه الفطرة، وهي أسمى معاني البرِّ والوفاء، ومن مقابلة الإحسان بالإحسان، وإن كان إحسان الوالدين أعظم وأسمى، لا يبلغ ذراه الأولاد، فإن أحسنوا

---

(١) صحيح مسلم [١٧٢٨].

إلى الوالدين فهو الإحسان ومقابلة المعروف بما يدخل في وسع الأولاد من ردِّ جميلهما البالغ في الإحسان كلَّ مبلغ.

وقد اهتمَّ الإسلامُ بالوالدين اهتمامًا بالغًا، وجعل طاعتهما والبر بهما من أفضل القربات. ونهى عن عقوقهما، وشدَّد في ذلك غاية التشديد.

وقد جعلَ الشارع برَّ الوالدين من أعظم الأعمال وأحبها إليه، فقد سئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أي العمل أحبُّ إلى الله؟ قال: «**الصلاة على وقتها**»، قيل: ثم أي؟ قال: «**ثم بر الوالدين**»، قيل: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**» (١).

وقدم في الحديث: برَّ الوالدين على الجهاد؛ إشارةً إلى أن حقوق العباد اللَّازمة (التي هي من فروض الأعيان) تقدم على التطوع بالجهاد (٢)، يعني: من باب تقديم فرض العين على فرض الكفاية. ويدل عليه حديث: عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاستأذنه في الجهاد، فقال: «**أحيٌّ والداك؟**»، قال: نعم، قال: «**ففيهما فجاهد**» (٣).

قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ في (شرح السنة): "هذا في جهاد التطوع لا يخرج إلَّا بإذن الأبوين إذا كانا مسلمين. فإن كان الجهاد فرضًا متعينًا، فلا حاجة إلى إذنهما، وإن منعاه عصاهما وخرج.

---

(١) صحيح البخاري [٥٢٧، ٥٩٧٠]، مسلم [٨٥]: عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب (٤/٢١٦).

(٣) صحيح البخاري [٣٠٠٤، ٥٩٧٢]، مسلم [٢٥٤٩].

وإن كان الأبوان كافرين، فيخرج دون إذنهما، فرضًا كان الجهاد أو تطوعًا، وكذلك لا يخرج إلى شيء من التطوعات كالحج والعمرة والزيارة، ولا يصوم التطوع إذا كره الوالدان المسلمان أو أحدهما إلا بإذنهما، وما كان فرضًا فلا يحتاج فيه إلى إذنهما، وكذلك لا يخرج إلى جهاد التطوع إلا بإذن الغرماء إذا كان لهم عليه دين عاجل، كما لا يخرج إلى الحج إلا بإذنهم، فإن تعين عليه فرض الجهاد لم يُعَرِّجْ على الإذن"(١).

وبرُّ الوالدين واجب على كل مسلم ومسلمة. ويطلق البر على الإحسان بالقول اللين اللطيف الدال على الرفق والمحبة، وتجنب غليظ القول الموجب للنفرة، واقتران ذلك بالشفقة والعطف والتودد والإحسان بالمال وغيره من الأفعال الصالحات (٢).

ويكون بر الوالدين بالإحسان إليهما بالقول اللين الدال على الرفق بهما والمحبة لهما -كما تقدم-، وبمناداتهما بأحب الألفاظ إليهما، كيا أمي ويا أبي، وليقل لهما ما ينفعهما في أمر دينهما ودنياهما، ويعلمهما ما يحتاجان إليه من أمور دينهما، وليعاشرهما بالمعروف. أي: بكل ما عرف من الشرع جوازه، فيطيعهما في فعل جميع ما يأمرانه به، من واجب أو مندوب، وفي ترك ما لا ضرر عليه في تركه، ولا يحاذيهما

---

(١) انظر: شرح السنة، للبغوي (١٠/٣٧٨). "ولو منعه أبواه الكافران عن الخروج للجهاد الكفائي، مخافة عليه، ومشقة لهما بخروجه وتركهما، فعند الحنفية: لهما ذلك، ولا يخرج إلا بإذنهما برًا بهما وطاعة لهما، إلا إذا كان منعهما له لكراهة قتال أهل دينهما، فإنه لا يطيعهما ويخرج له" حاشية ابن عابدين (٣/٢٢٠).

(٢) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حجر الهيتمي (٢/١٠٦)، الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني (٢/٢٩٠).

في المشي، فضلًا عن التقدم عليهما، إلَّا لضرورة نحو ظلام، وإذا دخل عليهما لا يجلس إلَّا بإذنهما، وإذا قعد لا يقوم إلَّا بإذنهما، ولا يستقبح منهما نحو البول عند كبرهما أو مرضهما؛ لما في ذلك من أذيتهما.

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وبر الوالدين فرض لازم، وهو أمر يسير على من يسره الله له. وبرهما: خفض الجناح، ولين الكلام، وألا ينظر إليهما إلا بعين المحبة والإجلال، ولا يعلو عليهما في مقال، إلا أن يريد إسماعهما، ويبسط أيديهما في نعمته، ولا يستأثر عليهما في مطعمه ولا مشربه.

ولا يتقدم أحد أباه إذا مشى معه، ولا يتقدمه في القول في مجلسه، فيما يعلم أنه أولى به منه.

ويتوقى سخطهما بجهده، ويسعى في مسرتهما بمبلغ طاقته.

وإدخال الفرح عليهما من أفضل أعمال البر. وعليه أن يسرع إجابتهما إذا دعواه، أو أحدهما، فإن كان في الصلاة النافلة خففها وتجاوز فيها، وأسرع إجابتهما. ولا يقل لهما إلَّا قولًا كريمًا"(١).

والبرُّ بالوالدين فرضُ عينٍ -كما سبق بيانه-، ولا يختصُّ بكونهما مسلمين، بل حتى لو كانا فاسقين أو كافرين يجبُ برُّهما والإحسان إليهما -ولو كانا مُشْرِكَيْن- ما لم يأمرا بشرك أو ارتكاب معصية فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ﴾ [العنكبوت:٨]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِن

(١) الكافي في فقه أهل المدينة (٢/١١٣٧-١١٣٨).

جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ﴾ [لقمان:١٥].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة:٨].

وفي (الصحيح): عن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، قالت: قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد قريش، إذ عاهدوا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ومدتهم مع أبيها، فاستفتت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقلت: يا رسول الله إن أمي قدمت علي وهي راغبة[١] أفأصلها؟ قال: «**نعم صليها**»[٢].

هذا وفي الدعاء بالرحمة الدنيوية للوالدين غير المسلمين حال حياتهما خلاف. ذكره القرطبي رَحِمَهُٱللَّهُ.

أما الاستغفار لهما فممنوع؛ استنادًا إلى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝١١٣﴾ [التوبة:١١٣]؛ فإنها نزلت في استغفاره صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لعمه أبي طالب، واستغفار بعض الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ لأبويه المشركين. وانعقد الإجماع على عدم الاستغفار لهما بعد

(١) «وهي راغبة» جملة حالية: أي: راغبة عن الإسلام وكارهة له. وقيل معناه: طامعة فيما أعطيها من الإحسان وحريصة عليه.

(٢) صحيح البخاري [٣١٨٣، ٥٩٧٩].

وفاتهما وحرمته، وعلى عدم التصدق على روحهما. أما الاستغفار للأبوين الكافرين حال الحياة فمختلف فيه؛ إذ قد يسلمان (١)، وسيأتي تفصيل ذلك في الاستغفار.

وأما الإحسان إلى الوالدين المسلمين بعد وفاتهما فيكون بصدق الدعاء لهما، وأداء الصدقة عنهما (٢)، وحفظ وصيتهما، وإنفاذ عهودهما، والإحسان إلى من كان من أهل ودهما ومعارفهما، ونحو ذلك.

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٤٥/١٠)، الفواكه الدواني (٣٨٤/٢)، الشرح الصغير وحاشية الصاوي عليه (٧٤١/٤)، شرح إحياء علوم الدين (٣١٦/٦).

(٢) وفي الحديث: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن رجلًا قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن أمي افْتُلِتَتْ نفسها، وأظنها لو تكلمت تصدقت، فهل لها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: «نعم». صحيح البخاري [١٣٨٨]، مسلم [١٠٠٤]، وعن ابن عباس: أن رجلًا قال لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن أمه توفيت أينفعها إن تصدقت عنها؟ قال: «نعم»، قال: فإن لي مخرافًا وأشهدك أني قد تصدقت به عنها. صحيح البخاري [٢٧٧٠]. قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: (افتلتت نفسها): "ضبطناه: نفسها ونفسها بنصب السين ورفعها فالرفع على أنه مفعول ما لم يسم فاعله، والنصب على أنه مفعول ثان. قال القاضي: أكثر روايتنا فيه النصب. وقوله: (افتلتت) بالفاء هذا هو الصواب الذي رواه أهل الحديث وغيرهم. قالوا: ومعناه: ماتت فجأة. وكل شيء فعل بلا تمكث فقد افتلت ويقال افتلت الكلام واقترحه واقتضبه إذا ارتجله. (وأظنها لو تكلمت) أي: لو قدرت على الكلام". انظر: شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (٨٩/٧)، وانظر: إكمال المعلم، للقاضي عياض (٢٧٨/٣)، حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١٦٠/٢). و"(المخراف): بكسر الميم وسكون الخاء المعجمة، وفي آخره فاء، وهو اسم للحائط؛ فلذلك انتصب على أنه عطف بيان، ووقع في رواية عبد الرزاق: (مخرف) بدون ألف. قال القزاز: (المخراف): جماعة النخل، بفتح الميم وبكسرها: الزنبيل الذي يخترف فيه الثمار. وقال ابن الأثير: (المخرف) بالفتح يقع على النخل، وعلى الرطب. وقال الخطابي: (المخراف): الثمرة سميت مخرافًا؛ لما يجتني من ثمارها، كما يقال: امرأة مذكار. قال: وقد يستوي هذا في نعت الذكور والإناث،=

"ويقال: إنَّ الحقَّ أمر العباد بمراعاة حقِّ الوالدين، وهما من جنس العبد.. فمن عجز عن القيام بحقِّ جنسه أنَّى له أن يقوم بحقِّ ربه؟"[1].

ومن برهما: صلة أهل ودهما، ففي (الصحيح): «**إن أَبَرَّ الْبِرِّ: صلةُ الولد أهل ود أبيه**»[2].

فإن غاب أو مات يحفظ أهل وده ويحسن إليهم، فإنه من تمام الإحسان إليه.

وقد سلك القرآن الكريم مسلكًا عاطفيًّا للإقناع بضرورة الإحسان إلى الوالدين، فصوَّرَ ما تعانيه الأم في حملها وفي ولادتها وفي إرضاعها، وصوَّرَ للمؤمن مرَّة أخرى منظرها وقد شاب رأسها وانحنى ظهرها، وخص هذه الحالة -أعني: حالة الكبر والشيخوخة- بالذكر؛ لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى بره أكثر من ذي قبل؛ لتغير الحال عليهما بالضعف والكبر. فألزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل؛ لأنه قد يظنُّ أنَّهما صارا كلًّا عليه، فيحتاجان أن يلي منهما في الكبر ما كان يحتاج في صغره أن يليا منه؛ فلذلك خص هذه الحالة بالذكر. وأيضًا: فطول المكث للمرء يوجب الاستثقال عادة، ويحصل الملل، ويكثر الضجر فيظهر غضبه على أبويه.

=ويقال: (المخراف): الشجرة وهو الصواب، وتكلموا فيه كثيرًا. والحاصل أن (المخراف) هنا: اسم حائط سعد ابن عبادة كما ذكرنا" عمدة القاري، للإمام العيني (١٤/٥٢).

(١) انظر: لطائف الإشارات (٢/٣٤٤).

(٢) صحيح مسلم [٢٥٥٢].

وأكَّد القرآن الكريم على ضرورة الإحسان إلى الوالدين تأكيدًا لا تجد نظيرًا له في الديانات الأخرى، فقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بعبادته وتوحيده وجعل برَّ الوالدين مقرونًا بذلك، كما قرن شكره بشكرهما. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء:٢٣]، وقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان:١٤]. ومع ما ذكرتُ من ذلك المسلك العاطفي من حيث ضرورة الإحسان والطاعة، إلَّا أنه بين حدود تلك الطاعة، فليست تلك الطاعة مطلقة، فطاعة الوالدين لا تراعى في ركوب كبيرة، ولا في ترك فريضة، وتلزم طاعتهما في المباحات، وتستحسن في ترك الطاعات المندوبة (١). قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ﴾ [لقمان:١٥].

وقد اعتبر القرآن عقوق الوالدين، والخروج عن طاعتهما ومرضاتهما: معصية وتكبرًا وشقاء، حيث قال جَلَّوَعَلَا عن يحيى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم:١٤]، وقال عن عيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم:٣٢]. فعقوق الوالدين من أعظم الذنوب التي يعجل الله عَزَّوَجَلَّ عقوبتها في الدنيا قبل الآخرة، فهو نكران للجميل، وكفران بالنعمة، ومقابلةٌ للإحسان بالإساءة، قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«بابان معجلان عقوبتهما في الدنيا: البغي، والعقوق»** (٢).

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٤/٣٤٩)، تفسير القرطبي (١٤/٦٤)، الجواهر الحسان (٤/٣٢١).

(٢) أخرجه الحاكم [٧٣٥٠]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: البخاري في (الأدب المفرد) [٨٩٥] بلفظ: «وبابان يعجلان في الدنيا: البغي وقطيعة الرحم».

والحاصل أن محبة الوالدين وما تقتضيه من الوفاء لهما -ولا سيما في حال الشيخوخة والكبر- من أعظم أنواع البر والإحسان، وهي من أوجب الحقوق، وأقدس الواجبات.. ومما يؤسف ما يحصل من عقوق الأولاد، أو من تفضيلٍ للزوجة على الأم في العطاء والبرِّ والمحبة، فمن ذلك: تقديم كلام زوجته على كلام أمه، وكذلك من يشتري لزوجته -مثلًا- ما لا يشتري لأمه، وإن اشترى لأمه اختار الأردأ وما قيمته أقل مما اشتراه لأمه، وذلك من الجحود ونكران الإحسان.

وهاك إجمال مقتضيات الإحسان إلى الوالدين في حياتهما:

أ. طاعتهما في غير معصية.

ب. الإحسان إليهما في جميع الأحوال.

ج. التواضع لهما، ولين الكلام، والتزام الأدب معهما.

د. النفقة عليهما.

هـ. استئذانهما في الجهاد الكفائي، وفي السفر وغيره.

و. إرضاؤهما بالإحسان إلى من يحبان.

ز. إبرار قسمهما.

ح. عدم شتمهما أو التسبب في ذلك.

أما إجمال مقتضيات الإحسان إلى الوالدين بعد موتهما فهي على النحو التالي:

أ. الصلاة عليهما.

ب. الاستغفار لهما.

ج. إنفاذ عهدهما.

د. صلة أرحامهما وأهل ودهما.

هـ. الصدقة عنهما.

٣ - الإحسان إلى الأرحام:

يهدف الإسلام إلى بناء مجتمعٍ إسلاميٍّ متراحم متعاطف، تسودُه المحبَّةُ والإخاء، ويهيمن عليه حبُّ الخير والعطاء، وقد أوجبَ الشارعُ: برَّ الأرحام، وهو بمعنى: صلتهم والإحسان إليهم، وتفقد أحوالهم، والقيام على حاجاتهم ومواساتهم. والمحبة أعظم أنواع البر، وهي تقتضي ما تقدم من أوجه الإحسان، وما سيأتي بيانه.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ الآية [البقرة:١٧٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء:١]، أي: واتقوا إضاعة حق الأرحام، فصلوها بالبر والإحسان، ولا تقطعوها. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ﴾ [النساء:٣٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل:٩٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء:٢٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور:٢٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الروم:٣٨].

وفي الحديث: «**تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم؛ فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر**»(١).

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله خلق الخلق، حتى إذا فرغ من خلقه، قالت الرحم: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب، قال: فهو لك**»، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فاقرؤوا إن شئتم**: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢﴾ [محمد:٢٢]»(٢).

(١) الحديث مروي عن أبي هريرة، وعن العلاء بن خارجة. حديث أبي هريرة: أخرجه أحمد [٨٨٦٨]، والترمذي [١٩٧٩]، وقال: "غريب". وأخرجه أيضًا: الحاكم [٧٢٨٤]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي. حديث العلاء بن خارجة: أخرجه الطبراني [١٧٦]. قال الهيثمي (١٥٢/٨): "رجاله قد وثقوا". و«مَثْرَاة في المال»: بفتح الميم وسكون المثلثة. وفي (النهاية): مَثْرَاة: -مَفْعَلَةٌ- من الثَّراء، وهو الكثرة، أي: سبب لكثرة المال، وهو خبر ثان. «مَنْسَأَةٌ» -بفتح الهمزة- مَفْعَلَةٌ من النَّسَاء، وهو التأخير. «في الأثر»: -بفتحتين- أي: الأجل، والمعنى: أي: سبب لتأخير الأجل وموجب لزيادة العمر، وقيل: باعث دوام واستمرار في النسل، والمعنى: أن يمن الصلة يفضي إلى ذلك. وسمى الأجل أثرًا؛ لأنه يتبع العمر. قال أبو بكر ابن العربي في (العارضة): أما (المحبة) فالإحسان إليهم، وأما (النسأ في الأثر) فبتمادي الثناء عليه وطيب الذكر. انظر: عارضة الأحوذي، لابن العربي (١١١/٨)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٣٠٩٢/٧)، فيض القدير (٢٥٢/٣)، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (ثرا) (٢١٠/١).

(٢) صحيح البخاري [٥٩٨٧]، مسلم [٢٥٥٤].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من سره أن يبسط له في رزقه، أو ينسأ له في أثره، فليصل رحمه**»(١).

فهذه ثلاث فوائد لصلة الرحم:

١- المحبة بين الأهل.

٢- الزيادة في المال.

٣- التأخير في الأجل.

وعن أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا قال: أخبرني عن عمل يدخلني الجنة؟ فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم**»(٢). فصلة الرحم هنا جاءت مع الصلاة والزكاة؛ لبيان أهميتها.

وقطيعة الأرحام من موانع محبة الله عَزَّ وَجَلَّ للعبد، ومن أسباب العقاب في الآخرة، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة:٢٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد:٢٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد:٢٢-٢٣].

---

(١) صحيح البخاري [٢٠٦٧، ٥٩٨٥، ٥٩٨٦]، مسلم [٢٥٥٧]. و(بسط الرزق): توسيعه وكثرته، وقيل: البركة فيه. و«ينسأ»: يؤخر. و«أثره»: بقية عمره.

(٢) صحيح البخاري [٥٩٨٣]، مسلم [١٣].

وفي الحديث: عن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عن رجل من خثعم قال: أتيت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في نفر من أصحابه قال: قلت: أنت الذي تزعم أنك رسول الله؟ قال: «**نعم**»، قال: قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «**إيمان بالله**»، قال: قلت: يا رسول الله، ثم مه؟ قال: «**ثم صلة الرحم**»، قال: قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أبغض إلى الله؟ قال: «**الإشراك بالله**»، قال: قلت: يا رسول الله، ثم مه؟ قال: «**ثم قطيعة الرحم**».. الحديث [(١)]. فقد جاءت قطيعة الرحم هنا مع الأعمال التي يبغضها الله عَزَّوَجَلَّ، وبعد الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لبيان خطرها، وعظيم أثرها.

وفي الحديث: «**لا يدخل الجنة قاطع**» [(٢)]، أي: قاطع رحم. والمراد به هنا: من استحلَّ القطيعة، أو أيَّ قاطع. والمراد: لا يدخلها قبل أن يحاسب ويعاقب على قطيعته.

فهذه النصوص تدل على أن صلةَ الأرحام وبرَّها واجب، وقطيعتها محرمة في الجملة، إلا أنها درجات بعضها أرفع من بعض، وأدناها: ترك الهجر، والصلة بالكلام والسلام.

---

(١) أخرجه أبو يعلى في (مسنده) [٦٨٣٩]، قال الهيثمي (١٥١/٨): "رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح، غير نافع بن خالد الطاحي، وهو ثقة".

(٢) صحيح البخاري [٥٩٨٤]، مسلم [٢٥٥٦].

"واختلفوا في الرحم، فقيل: كلُّ ذي رحم محرم. وقيل: كلُّ وارث. وقيل: هو القريب، سواء كان محرمًا أو غيره، ووصل الرحم: تشريك ذوي القربى في الخيرات، وهو قد يكون بالمال، وبالخدمة، وبالزيارة ونحوها"(١).

قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولا خلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة، وقطيعتها معصية كبيرة. والأحاديث في الباب تشهد لهذا، ولكن الصلة درجات بعضها أرفع من بعض، وأدناها: ترك المهاجرة، وصلتها بالكلام -ولو بالسلام-.

ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة، فمنها: واجب، ومنها: مستحب. ولو وصل بعض الصلة ولم يصل غايتها لا يسمى: قاطعًا. ولو قصر عما يقدر عليه وينبغي له لا يسمى: واصلًا. قال: واختلفوا في حد الرحم التي تجب صلتها [كما تقدم]، فقيل: هو كل رحم محرم بحيث لو كان أحدهما ذكرًا والآخر أنثى حرمت مناكحتهما، فعلى هذا لا يدخل: أولاد الأعمام، ولا أولاد الأخوال. واحتج هذا القائل: بتحريم الجمع بين المرأة وعمتها، أو خالتها في النكاح ونحوه، وجواز ذلك في بنات الأعمام والأخوال. وقيل: هو عام في كل رحم من ذوي الأرحام في الميراث، يستوي المحرم وغيره، ويدل عليه قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثم أدناك أدناك**» (٢). هذا كلام القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ"(٣).

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للعيني (١١/ ١٨١).

(٢) صحيح مسلم [٢٥٤٨]. والحديث رواه: أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رجل: يا رسول الله من أحق الناس بحسن الصحبة؟ قال: «أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك، ثم أدناك أدناك».

(٣) إكمال المعلم، للقاضي عياض (٨/١٠)، شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٦/١١٣).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا القول الثاني هو الصواب، ومما يدل عليه: الحديث في أهل مصر: «**فإن لهم ذمة ورحمًا**» (١)، وحديث: «**أَبَرُّ البِرِّ أن يَصِلَ الرَّجلُ أهل وُدِّ أبيه**» (٢) مع أنه لا محرمية، والله أعلم"(٣).

والحاصل أن صلة الرحم تقوي المودَّة، وتزيد المحبَّة، وتوثق عُرى القرابة، وتزيل العداوة والشّحناء. والصلة مصلحة للأحوال، فمن لم يك نافعًا لأهله وأقاربه فلن ينتفع به غيرهم من باب أولى.

وطرقها ميسرة، وأبوابها متعدِّدة، فمن بشاشةٍ عند اللقاء، ولين في المعاملة، إلى طيب في القول، وطلاقة في الوجه، ومشاركة في الأفراح، ومواساة في الأتراح، وإحسان إلى المحتاج، وبذل للمعروف، ونصح وصفح، وعيادة للمريض. والمعنى الجامع لذلك كلِّه: إيصال ما أمكن من الخير، ودفع ما أمكن من الشر؛ فإن صلة الرحم أمارةٌ على كرم النفس، وسعة الأفق، وطيب المنبت، وحسن الوفاء. كما أن قطيعة الرحم سببٌ

---

(١) صحيح مسلم [٢٥٤٣]. والحديث رواه: أبو ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحمًا»، أو قال: «ذمة وصهرًا، فإذا رأيت رجلين يختصمان فيها في موضع لبنة، فاخرج منها». (القيراط): قال العلماء: القيراط جزء من أجزاء الدينار والدرهم وغيرهما، وكان أهل مصر يكثرون من استعماله والتكلم به. «ذمة»: الذمة هي: الحرمة والحق، وهي هنا بمعنى: الذمام. «ورحمًا»؛ لكون هاجر أم إسماعيل عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ منهم. «وصهرًا»؛ لكون مارية أم إبراهيم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ منهم.

(٢) صحيح مسلم [٢٥٥٢].

(٣) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٦/ ١١٣).

للذلة والصَّغار، والضَّعف والتفرُّق، ومجلبة للهمِّ والغمِّ، كما أنها سبب في سخط الله عَزَّوَجَلَّ.

ومحبَّة الأقارب والعشيرة والمتاع والنِّعم -وإن كان مغروزًا في النفوس- لكن لا ينبغي أن يقدَّم حبُّها على حبِّ الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشرعه والجهاد في سبيله.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

فمن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ في دين الفطرة أنه لم يذم حب الأهل والأقارب والأزواج، ولا حب المال والكسب والاتجار، ولم ينه عن ذلك؛ لأنها من المحبة الطبيعية، وإنما جعل من مقتضى الإيمان: إيثار حب الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حب ما ذكر، وكذلك الجهاد في سبيله إذا وجب.

وقد ذكر أهلُ العلم أنَّ هناك آدابًا لصلة الرَّحم ينبغي أن يحرص عليها المسلم؛ حتى تتحقق (مقاصدُ الصلة) من: الأُلفة، والتعاضد، والمحبة، والتعاون على البر والتقوى، منها:

الإخلاص والنية الصالحة والاحتساب، والبدء بالأقرب، وأن يقدم في صلته: أتقاهم لله عَزَّوَجَلَّ، وأن لا تكون الصلة على وجه المكافأة، وإنما ابتغاء وجه الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يقتصر في صلته على من يبادلونه الصلة، فقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليس**

الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها» (١)، أي: إن الذي يصل غيره مكافأةً له على ما قدم من صلة، ومقابلةً له بمثل ما فعل ليس بواصل حقيقة؛ لأن صلته نوع معاوضة ومبادلة.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا يلزم من نفي الوصل ثبوت القطع فهم ثلاث درجات؛ (مواصل ومكافئ وقاطع)؛ فالواصل: من يتفضل ولا يتفضل عليه، والمكافئ: الذي لا يزيد في الإعطاء على ما يأخذ، والقاطع: الذي يتفضل عليه ولا يتفضل. وكما تقع المكافأة بالصلة من الجانبين كذلك تقع بالمقاطعة من الجانبين، فمن بدأ حينئذ فهو الواصل، فإن جوزي سمي من جازاه: مكافئًا، والله أعلم"(٢). وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا قال: يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي، فقال: **«لئن كنت كما قلت، فكأنما تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»** (٣). ففي الحديث: الحث على صلة ذي الرحم الذي هذه صفته، ومقابلة

(١) صحيح البخاري [٥٩٩١].

(٢) فتح الباري (١٠/٤٢٤).

(٣) صحيح مسلم [٢٥٥٨]. «وتسفهم»: -بضم التاء وكسر السين المهملة وتشديد الفاء-. و«الملّ»: -بفتح الميم وتشديد اللام- هو الرماد الحار، أي: كأنما تطعمهم الرماد الحار، وهو تشبيه لما يلحقهم من الإثم بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم، ولا شيء على هذا المحسن إليهم، بل ينال أجر الصلة والتحمل للأذى، وبالمقابل ينالهم إثم عظيم بتقصيرهم في حقه، وإدخالهم الأذى عليه.

الإساءة بالإحسان، فعسى أن ينقلب حاله. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت:٣٤].

ومن أخلاق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه: «**لا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح**»[(١)]، فهو (يعفو)، أي: في الباطن (ويصفح)، أي: في الظاهر عن صاحب السيئة.

٤ – الإحسان إلى الحيوان:

لا يقف مفهوم الإحسان في الإسلام عند إحسان المرء لنفسه ولغيره من أبناء جنسه، ولكنه يشمل المخلوقات بما في ذلك: الإحسان إلى الحيوان، والعناية بالنبات.

وقد كانت المجتمعات في المجتمعات الجاهلية لا ترى أن للحيوان نصيبًا من الرفق، أو حظًّا من الرحمة، ولا تزال بعض المجتمعات المعاصرة تلهو بقتل الحيوان أو تعذيبه في أعيادها، وفي أفراحها، وفي رياضاتها.

أما التشريعات الإسلامية فتبين أن عالم الحيوان له خصائصه وطبائعه وشعوره، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨].

وقد دلَّ على أن لهذا العالم خصائصه وطبائعه: قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [النمل:١٨].

---

(١) صحيح البخاري [٤٨٣٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل:٢٠-٢٦].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [النحل:٦٨-٦٩].

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨]، أي: فهي مشابهة لكم في حيث استقلالها بخصائص وطبائع تخصها، وهي مشابهة لكم في الخلق، والموت، والبعث، والاحتياج إلى مدبر يدبر أمرها، وفي كونها دالة على الصانع، ومسبحة له، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤]، أي: يسبح بلسان القال أو الحال، حيث يدل على الصانع جَلَّ وَعَلَا، وعلى قدرته وحكمته وتنزيهه عمَّا لا يجوز عليه، فبالنظر إلى هذا المعنى، لا يجوز التعرض لها بالقتل والإفناء، إلا إذا كان لدفع مضرة، كقتل الفواسق الخمس -كما سيأتيك-، أو جلب منفعة، كذبح الحيوانات المأكولة كما جاء ذلك مبينًا في النصوص.

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أن نملة قرصت نبيًا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح؟**»[(١)].

ومن الأحاديث الدالة على أن عالم الحيوان له خصائصه وشعوره: ما جاء عن عبد الله بن جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أردفني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم خلفه، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حديثًا لا أُحَدِّثُ به أحدًا من الناس، قال: وكان أَحَبَّ ما استتر به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحاجته هَدَفًا أو حَائِشَ نَخْلٍ، فدخل حائطًا لرجل من الأنصار، فإذا جمل، فلما رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَنَّ إليه، وَذَرَفَتْ عيناه، فأتاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمسح ذِفْرَاهُ، فسكن، فقال: «**من رَبُّ هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟**» قال: فجاء فتىً من الأنصار فقال: هو لي يا رسول الله فقال: «**ألا تَتَّقِي الله في هذه البهيمة التي مَلَّكَكَ الله إياها؛ فإنه شكا لي أنك تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُه**»[(٢)].

---

(١) صحيح البخاري [٣٠١٩]، مسلم، واللفظ له [٢٢٤١].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٣١٧٥٦]، وأحمد [١٧٤٥]، وأبو داود [٢٥٤٩]، وأبو يعلى [٦٧٨٧]، والطبراني في (الكبير) [١٩٣]، وأبو عوانة [٤٩٧]، والحاكم [٢٤٨٥] وصححه، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي [١٥٨١٤]، والضياء [١٣٥]. قوله: «هدفا» كل ما كان له شخص مرتفع من بناء وغيره. «أو حائش نخل» هو النخل الملتف المجتمع كأنه لالتفافه يحوش بعضه بعضًا. وقال الخطابي: (الحائش): جماعة النخل الصغار. «حائطًا» أي: بستانًا. «وذرفت» أي: جرت. و«ذفراه» قال الخطابي: (الذفرى من البعير): مؤخر رأسه، وهو الموضع الذي يعرف من قفاه. وقال في (النهاية) ذفرى البعير: أصل أذنه، وهي مؤنثة، وهما ذفريان، وألفها للتأنيث. و«تدئبه» أي: تكده وتتعبه في العمل. انظر: معالم السنن (٢٤٨/٢)، كشف المشكل (١٢/٤)، النهاية في غريب الحديث والأثر (١٦١/٢).

وإن تعذيب الحيوان والقسوة عليه من أسباب ولوج النار، كما جاء في الحديث:

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض**»(١).

وفي رواية: عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلى صلاة الكسوف، فقام فأطال القيام، ثم ركع فأطال الركوع، ثم قام فأطال القيام، ثم ركع فأطال الركوع، ثم رفع، ثم سجد، فأطال السجود، ثم رفع، ثم سجد، فأطال السجود، ثم قام، فأطال القيام، ثم ركع فأطال الركوع، ثم رفع فأطال القيام ثم ركع، فأطال الركوع، ثم رفع، فسجد، فأطال السجود، ثم رفع، ثم سجد، فأطال السجود، ثم انصرف، فقال: «**قد دنت مِنِّي الجنة، حتى لو اجْتَرَأْتُ عليها، لجئتكم بِقِطَافٍ من قطافها، ودنت مِنِّي النار حتى قلتُ: أَيْ رَبِّ، وأنا معهم؟ فإذا امرأة -حَسِبْتُ أنه قال:- تَخْدِشُهَا هِرَّة، قلت: ما شأن هذه؟ قالوا: حَبَسَتْهَا حتى ماتت جوعًا، لا أطعمتها، ولا أرسلتها تأكل - قال نافع: حسبت أنه قال: من خَشِيش أو خَشَاش الأرض**»(٢).

---

(١) صحيح البخاري [٢٣٦٥، ٣٣١٨، ٣٤٨٢]، مسلم [٢٢٤٢].

(٢) صحيح البخاري [٧٤٥]. و«تخدشها»: تقشر جلدها. و«خشاش» -بفتح الخاء المعجمة-: حشرات وهوام الأرض. وقيل: صغار الطير. وحكى القاضي: فتح الخاء وكسرها وضمها والفتح هو المشهور. وقال الجوهري: هو الحية ونحوها مما في الأرض. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٦/٢٠٧)، إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم (٨/٤٧)، الصحاح، مادة: (خشش) (٣/١٠٠٤).

*ومن أنواع التعذيب المنهي عنها: صبر البهائم: كما صحَّ عن هشام بن زيد، قال: دخلت مع أنس، على الحكم بن أيوب، فرأى غلمانًا، أو فتيانًا، نصبوا دجاجة يرمونها، فقال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تُصْبَرَ البهائم [1] -بضم أوله-: أي تحبس لترمى حتى تموت، وأصل الصبر: الحبس.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: قال العلماء: صبر البهائم أن تحبس وهي حية؛ لتقتل بالرمي ونحوه، وهو معنى [قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]: «**لا تتخذوا شيئًا فيه الروح غرضًا**» [2]، أي: لا تتخذوا الحيوان الحي غرضًا ترمون إليه كالغرض من الجلود وغيرها. وهذا النهي للتحريم، ويدل على ذلك ما ورد من لعن من فعل ذلك، كما في حديث: ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا [3]، ولأن الأصل في تعذيب الحيوان، وإتلاف نفسه، وإضاعة المال: التحريم [4].

وتصير ميتة لا يحل أكلها ويخرج جلدها عن الانتفاع به.

(١) صحيح البخاري [٥٥١٣]، مسلم [١٩٥٦].

(٢) صحيح مسلم [٥٨] عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) والحديث في (الصحيحين): عن سعيد بن جبير، قال: كنت عند ابن عمر، فمروا بفتية، أو بنفر، نصبوا دجاجة يرمونها، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا عنها، فقال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: من فعل هذا؟ إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعن من فعل هذا. صحيح البخاري [٥٥١٥]، مسلم [١٩٥٨]. ونحوه عن المغيرة بن شعبة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مر على نفر من الأنصار يرمون حمامة فقال: «لا تتخذوا الروح غرضًا». أخرجه الطبراني في (الكبير) [٩٠٥]، و(الأوسط) [٢٠٨٢]. قال الهيثمي (٣١/٤): "رواه الطبراني في (الأوسط)، و(الكبير)، وإسناده حسن".

(٤) نيل الأوطار (٩٩/٨)، شرح النووي على صحيح مسلم (١٠٧/١٣-١٠٨)،

وعن أبي صالح الحنفي عن رجل من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -أُرَاهُ ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، قال سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«من مَثَّلَ بذي روح، ثم لم يتب مَثَّلَ الله به يوم القيامة»** (١).

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرَّ عليه حمار قد وُسِمَ في وجهه فقال: **«لعن الله الذي وَسَمَه»** (٢).

وفي رواية: عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرَّ عليه بحمار قد وُسِمَ في وجهه، فقال: **«أما بَلَغَكُمْ أني قد لعنت من وَسَمَ البهيمة في وجهها، أو ضربها في وجهها؟»**، فنهى عن ذلك (٣).

وعند الطبراني في (الكبير): عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لعن من يسم في الوجه (٤).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأما الضرب في الوجه فمنهي عنه في كل الحيوان المحترم من الآدمي والحمير والخيل والإبل والبغال والغنم وغيرها، لكنه في الآدمي أشد؛

---

(١) أخرجه أحمد [٥٦٦١]، وابن الجعد [٢٢٦٤]. قال الهيثمي (٣٢/٤): "رواه أحمد، ورجاله ثقات".

(٢) صحيح مسلم [٢١١٧].

(٣) أخرجه أبو داود بسند صحيح [٢٥٦٤].

(٤) أخرجه الطبراني في (الكبير) [١١٩٢٦]. قال الهيثمي (١١٠/٨): "رواه الطبراني، ورجاله ثقات".

لأنه مجمع المحاسن مع أنه لطيف؛ لأنه يظهر فيه أثر الضرب، وربما شانه [١]، وربما آذى بعض الحواس.

وأما الوسم في الوجه فمنهي عنه بالإجماع"[٢].

وقال في (المجموع): "الوسم على الوجه منهي عنه بالاتفاق، وهو من أفعال الجاهلية"[٣].

***ويدخل في هذا الباب: التحريش بين الحيوانات:**

والتحريش: الإغراء بين القوم، أو البهائم، كالكلاب، والثيران، والجمال، والكباش، والديوك، وغيرها، بتهييج بعضها على بعض. ووجه النهي: أنه إيلام للحيوانات، وإتعاب لها بدون فائدة، بل مجرد عبث [٤].

***ومن أقبح أنواع التعذيب: التحريق بالنار**: وهو غير جائز في شريعتنا، وقد علل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذا بأنه لا يُعَذِّبُ بالنَّار إلا ربُّ النَّار [٥].

---

(١) قال الجوهري: "الشين: خلاف الزين. يقال: شانه يشينه. والمشاين: المعايب والمقابح" الصحاح، مادة: (شين) (٥/٢١٤٧).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/٩٧).

(٣) المجموع شرح المهذب (٦/١٧٧).

(٤) انظر: الصحاح، مادة: (حرش) (٣/١٠٠٠)، نيل الأوطار (٨/٩٩).

(٥) الحديث مروي عن حمزة بن عمرو الأسلمي، وعن أبي هريرة. حديث: حمزة بن عمرو الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أخرجه عبد الرزاق [٩٤١٨]، وسعيد بن منصور [٢٦٤٣]، وأحمد [١٦٠٣٤]، وأبو داود [٢٦٧٣]، وأبو يعلى [١٥٣٦]، والطبراني [٢٩٩٦]. حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أخرجه أبو داود [٢٦٧٤]. قال الهيثمي (٦/٢٥١): "رواه الطبراني والبزار وفيه: سعيد البراد ولم أعرفه، وبقية رجاله=

"وتمضي الشريعة في تشريع الرحمة بالحيوان: فتُحَرِّم المكْث طويلًا على ظهره وهو واقف؛ فقد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اركبوها سالمة، ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي**» (١).

وتحرم إجاعته وتعريضه للضَّعف والهُزال؛ فقد مرَّ النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِبَعِيرٍ قد لصق ظهره ببطنه، فقال: «**اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة**» (٢).

وفي لفظ: «**اتقوا الله في هذه البهائم، ثم اركبوها صحاحًا، وكلوها** (٣) **سمانًا**» (٤).

=ثقات". قال البزار: "قد روي من وجوه، وسعيد البراد بصري، روى عنه حماد بن زيد وسعيد". كشف الأستار (٢/٢١١).

(١) أخرجه أحمد [١٥٦٢٩]، والدارمي [٢٧١٠]، والحارث [٨٨٦]، وابن خزيمة [٢٥٤٤]، وابن حبان [٥٦١٩]، والطبراني [٤٣٢]، والحاكم [٢٤٨٦] وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: البيهقي [١٠٣٣٦]. قال الهيثمي (١٠/١٤٠): "رواه أحمد، وإسناده حسن".

(٢) أخرجه أبو داود بإسناد صحيح [٢٥٤٨]، وابن خزيمة [٢٥٤٥].

(٣) في بعض النسخ: "واركبوها".

(٤) أخرجه أحمد [١٧٦٢٥]، قال الهيثمي (٣/٩٦): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح". وأخرجه أيضًا: ابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [٢٠٧٤]، وابن حبان [٥٤٥]، والطبراني في (الكبير) [٥٦٢٠]، وفي (الشاميين) [٥٨٤].

كما يحرم إرهاقه بالعمل فوق ما يَتَحَمَّل. وقد جاء في الحديث -كما تقدم- أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لصاحب الجمل: «**ألا تَتَّقِي الله في هذه البهيمة التي مَلَّكَكَ الله إياها؛ فإنه شكا لي أنك تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُه**»(١).

كما يحرم التَّلَهِّي به في الصيد، واتخاذه هدفًا لتعليم الإصابة، كما جاء في الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تتخذوا شيئًا فيه الروح غرضًا**»(٢).

وفي رواية: عن سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: مر ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بفتيان من قريش قد نصبوا طيرًا، وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، إن رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **لعن من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا**»"(٣).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا النهي للتحريم؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لعن الله من فعل هذا**»؛ ولأنه تعذيب للحيوان، وإتلاف لنفسه، وتضييع لِمَالِيَّتِه، وتفويت لذكاته إن كان مُذَكًّى، ولمنفعته إن لم يكن مُذَكًّى"(٤).

والحاصل أنَّ الرفق بالحيوان وعدم ظلمه، أو تعذيبه، أو تحميله فوق طاقته، أو تجويعه، أو ضربه إلى غير ذلك هو عين الإحسان الذي أوجبه الخالق عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) تقدم.

(٢) صحيح مسلم [٥٨].

(٣) صحيح مسلم [١٩٥٨]. بتصرف عن كتاب: (من روائع حضارتنا) د. مصطفى السباعي (ص:١٧٩).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/١٠٨)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٦/٢٦٥٠).

وكما أن تعذيب الحيوان والقسوة عليه من أسباب العذاب في الآخرة فإن الرحمة والرفق بالحيوان من أسباب دخول الجنة، كما في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بينما رجل يمشي بطريق، اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فيها، فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خُفَّه، ثم أمسكه بِفِيه، فسقى الكَلْبَ فَشَكَرَ اللهُ له** (١) **فغفر له**»، قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجرًا؟ فقال: «**نعم، في كل ذات كبد رطبة أجر**» (٢).

وقد أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإحسان هيئة الذبح وهيئة القتل، كما جاء في الحديث: عن شَدَّاد بن أوس، قال: ثِنْتَان حَفِظْتُهُمَا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا الْقِتْلَة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبْحَ، ولْيُحِدَّ أحدُكُمْ شَفْرَتَه، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَه**» (٣).

وفي لفظ: «**فإذا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ، وإذا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ**».

وهذا يدل على وجوب الإسراع في إزهاق النفوس التي يباح إزهاقها على أسهل الوجوه. قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: "والإحسان في قتل ما يجوز قتله من الناس والدواب:

---

(١) أي: أثنى عليه فجزاه على ذلك بأن قبل عمله وأدخله الجنة.

(٢) صحيح البخاري [١٧٣، ٢٣٦٣، ٢٤٦٦، ٦٠٠٩]، مسلم [٢٢٤٤].

(٣) صحيح مسلم [١٩٥٥].

إزهاق نفسه على أسرع الوجوه وأسهلها وأوحاها [1] من غير زيادة في التعذيب، فإنه إيلام لا حاجة إليه.

و(القتلة) و(الذبحة) -بالكسر- [2]، أي: الهيئة. والمعنى: أحسنوا هيئة الذبح، وهيئة القتل. وهذا يدل على وجوب الإسراع في إزهاق النفوس التي يباح إزهاقها على أسهل الوجوه. وقد حكى ابن حزم الإجماع على وجوب الإحسان في الذبيحة"[3].

ومن الإحسان: أن لا تستعمل الدَّوَاب إلا فيما جرت العادة باستعمالها فيه:

ويدل على ذلك: ما جاء في (الصحيح): عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: صلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ صلاة الصبح، ثم أقبل على الناس، فقال: «**بينا رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها، فقالت: إنا لم نخلق لهذا، إنما خلقنا للحرث**»، فقال الناس:

---

(١) الوحا: السرعة والعجلة، يمد ويقصر. يقال: (الوحا الوحا) أي: السرعة السرعة، أو البدار البدار. انظر: المحكم والمحيط الأعظم (٣٨/٤)، النهاية في غريب الحديث والأثر (١٦٣/٥)، مختار الصحاح (ص:٣٣٤)، لسان العرب (٣٨٢/١٥)، مادة: (وحي).

(٢) «فأحسنوا الذِّبْحَةَ» بوزن: فعلة، رواية عند: أحمد والترمذي والنسائي والبيهقي وغيرهم.

(٣) جامع العلوم والحكم (٣٨٢/١).

سبحان الله بقرة تَكَلَّم، فقال: «**فإني أومن بهذا، أنا وأبو بكر، وعمر**» -وما هما ثَمَّ-(١). الحديث(٢).

إن من العجائب والغرائب التي حدَّث عنها رسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما وقع لرجلٍ من قبلنا قد امتطى ظهر بقرةٍ، كما يمتطي النَّاس ظهور الخيل والحمير والبغال فتباطأت له، فضربها لتسرع في سيرها، فإذا بالبقرة تلتفت اليه، وتكلمه بكلام البشر قائله له، مستنكره ركوبه لها مخالفًا سنه الله عَزَّ وَجَلَّ في خلقه فيها: «**إنا لم نخلق لهذا، إنما خلقنا للحرث**»، وكأنها تقول له: أنت ظالم لي بركوبك لي؛ لأنك استعملتني فيما لم يخلقني الله عَزَّ وَجَلَّ له، ذلك أن الظلم: وضع الشيء في غير موضعه.

واسْتُدِلَّ به على أنَّ الدَّوابَّ لا تُسْتَعْمَلُ إلَّا فيما جرتِ العادةُ باستعمالها فيه. ويحتمِلُ أن يكونَ قولُها: «**إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ**»؛ للإشارة إلى معظم ما خُلِقَتْ له؛ لأنَّها كذلك تُذْبَحُ وتؤكل، وتستخدم لدر اللبن. وقال الله عَزَّ وَجَلَّ عن الخيل والبغال والحمير: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل:٨].

فقال الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ متعجبين، وإنه لموضع تعجب: سبحان الله، بقره تتكلم! ولكن تعجبهم لم يكن تكذيبًا للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحاشاهم أن يكذبوه، ولكنهم سمعوا

---

(١) (وما هما ثم) -بفتح المثلثة- أي: ليسا حاضرين. قال العلماء: إنما قال ذلك ثقة بهما؛ لعلمه بصدق إيمانهما، وقوة يقينهما، وكمال معرفتهما؛ لعظيم سلطان الله عَزَّ وَجَلَّ، وكمال قدرته. ففيه فضيلة ظاهرة لأبي بكر وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. شرح النووي على صحيح مسلم (١٥٦/١٥)، وانظر: فتح الباري (٥١٨/٦).

(٢) صحيح البخاري [٣٤٧١، ٣٦٦٣]، مسلم [٢٣٨٨].

منه ما هو مخالف للمألوف المشاهد، فقال لهم مؤكدًا الخبر: إنه يؤمن بذلك، ويؤمن به أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ولم يكونا موجودين في ذلك اليوم معه في المسجد عندما حدَّث بهذا الحديث، قال ذلك عنهما في غيبتهما؛ لعلمه بعظيم تصديقهما للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعظيم يقينهما وإيمانهما بقدره الله عَزَّوَجَلَّ، ففيه فضيلة ظاهرة لهما.

*وما استغربه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هو تكليم الحيوانات للبشر بكلام البشر، أما أن يكلم البشر الحيوان بلغته فذلك أمر آخر، فقد كان سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ يفقه لغة الطير والحيوان.

وقد كلَّمت بعض الحيوانات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما جاء في حديث: عبد الله بن جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.. الآنف الذكر. وقد تقدَّم أن عالم الحيوان له خصائصه وطبائعه.

ومما جاء في ذلك: ما صحَّ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**نَزَلَ نَبِيٌّ من الأنبياء تحتَ شجرة، فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ، فأَمَرَ بِجَهَازِهِ فَأُخْرِجَ من تحتها، ثم أمر ببيتها فأحرق بالنار، فأوحى الله إليه: فَهَلَّا نَمْلَةً وَاحِدَةً**»(١).

وفي رواية: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَّ نَمْلَةً قَرَصَتْ نَبِيًّا من الْأَنْبِيَاءِ، فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ، فَأَوْحَى اللهُ إليه: أَفِي أَنْ قَرَصَتْكَ نملةٌ أهلكتَ أمَّةً من الْأُمَمِ تُسَبِّحُ؟**»(٢).

---

(١) صحيح البخاري [٣٣١٩]، مسلم (١٤٩، ١٥٠) [٢٢٤١].

(٢) صحيح البخاري [٣٠١٩]، مسلم (١٤٨) [٢٢٤١].

والحديث يفيد أن النبي بشر يغضب، وقد يتصرف في بعض الأحيان تصرفًا يعاتب عليه، ومن ذلك: ما تصرفه هذا النبي، فإنه غضب من النملة، وعزم على معاقبة قرية النمل كلها، وأمر أتباعه بإخراج متاعه من تحت تلك الشجرة، ثم أشعل النار في قرية النمل. إن مقتضى العدل والإنصاف أن لا يؤخذ البريء بجريرة المسيء. لقد اعتدت على نبي الله نملة فإن كان لا بد من العقاب فلتعاقب تلك النملة دون غيرها. وفيه أن النمل أمة من الأمم تسبح الله عَزَّوَجَلَّ مثل بقية الحيوانات. فتأمل في سريان مبدأ العدالة في التشريعات الإسلامية حتى في أبسط الأشياء.

ومن شأن المؤمن أن يكون رحيمًا ومحسنًا. وقد تقدم أن مفهوم الإحسان في الإسلام لا يقف عند إحسان المرء لنفسه، ولغيره من أبناء جنسه، ولكنه يشمل عموم المخلوقات بما في ذلك: الإحسان إلى الحيوان، والعناية بالنبات.

ومن الإحسان والعدل: سن قوانين رادعة تلزم مالك الحيوان بالنفقة عليه ورعايته، وتعاقب من يعذِّب الحيوان، ويسيء ويعتدي.

ويقرر الفقهاء المسلمون من أحكام الرحمة بالحيوان ما لا يخطر بالبال، فهم يقررون أن النفقة على الحيوان واجبة على مالكه، فإن امتنع أجبر على بيعه أو الإنفاق عليه، أو تسييبه إلى مكان يجد فيه رزقه ومأمنه، أو ذبحه إذا كان مما يؤكل.

وهكذا كان طابَع حَضَارتنا: رفقًا بالحيوان، وعناية به من قبل الدولة والمؤسسات الاجتماعية.

أما عناية الدولة، فليس أدلُّ على ذلك من أن خلفاءها كانوا يُذيعون البلاغات العامة على الشَّعب، يُوصونهم فيها بالرِّفق بالحيوان، ومنع الأذى عنه، والإضرار به؛

فقد أذاع عمَر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ في إحدى رسائله إلى الولاة أن ينهوا الناس عن ركض الفرس في غير حقٍّ (١).

وكتب إلى صاحب السكك -وهي وظيفة تشبه مصلحة السير- ألاَّ يسمحوا لأحدٍ بإلجام دابَّته بلجام ثقيل، أو أن ينخسَها بمقرعة (٢) في أسفلها حديدة (٣).

وكان مِن وظيفة المحتسِب -وهي وظيفة تشبه في بعض صلاحياتها وظيفةَ الشرطي في عصرنا الحاضر-: أن يمنعَ الناس من تحميل الدوابِّ فوق ما تطيق، أو تعذيبها وضَرْبها أثناء السَّيْر، فمَن رآه يفعل ذلك أدَّبه وعاقَبه.

وأمَّا المؤسسات الاجتماعية، فقد كان للحيوان منها نصيبٌ كبيرٌ، وحسبنا أن نجدَ في ثبت الأوقاف القديمة أوقافًا خاصَّة لتطبيب الحيوانات المريضة، وأوقافًا لرَعْي الحيوانات المسِنَّة العاجِزة.

وهذا كلُّه يدلُّكَ على رُوح الشَّعب الذي بلغ منَ الرِّفق بالحيوان إلى هذا الحدِّ، وهو ما لا تجد له مثيلًا، ولعل أصدق مثالٍ عن رُوح الشَّعب في ظل حَضَارتنا، أن ترى صحابيًّا جليلًا كأبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان له بعيرٌ، فقال له عند الموت: يا أيها

---

(١) انظر: سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه، لعبد الله بن عبد الحكم (ص:٥٤).

(٢) أصل (النَّخس): الدَّفع والحَرَكة. يقال: نخس الدابة نخسا: طعن مؤخرها أو جنبها بالمنخاس؛ لتنشط. والقرع: مصدر قرعت الإنسان والدابة بالعصا أقرعه قرعا، وكل ما قرعت به فهو مقرعة.

(٣) وكتب عمر بن عبد العزيز إلى حَيَّان بمصر: إنه بلغني أن بمصر إبلًا نقالات يحمل على البعير منها ألف رطل، فإذا أتاك كتابي هذا فلا أعرفن أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل. سيرة عمر بن عبد العزيز (ص:١٤١).

البعير، لا تخاصمني إلى ربِّك؛ فإنِّي لم أكن أحملك فوق طاقتكَ(١)، وأن صحابيًّا كعدي بن حاتم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان يفتُّ الخبز للنمل، ويقول: إنهن جارات لنا، ولهنَّ علينا حقٌّ(٢)، وأن إمامًا كبيرًا كأبي إسحاق الشِّيرازي رَحِمَهُ اللهُ كان يمشي في طريق ومعه بعض أصحابه، فعرض له كلب، فزجره صاحبه، فنَهاه الشيخ، وقال له: "أما علمت أنَّ الطريق مشترك بيننا وبينه؟!(٣)"(٤).

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: "ينبغي على المسلم أن يرفق بالدابة إن كان راكبًا فلا يحملها ما لا تطيق، ولا يضربها في وجهها؛ فإنه منهي عنه، ولا ينام عليها؛ فإنه يثقل بالنوم وتتأذى به الدابة. كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا غفوة. وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي**» (٥).

ويستحب أن ينزل عن الدابة غدوة وعشية يروحها بذلك (٦).

ويتعين وجود متخصصين في الطب البيطري، ومستشفيات ووحدات تعنى بمعالجة ما يصيب الحيوان من أمراض، وتَعيُّنُ ذلك في المجتمع الإسلامي: كفائي،

---

(١) انظر: قوت القلوب في معاملة المحبوب (٢/١٩٥)، إحياء علوم الدين (١/٢٦٤).

(٢) شعب الإيمان [١٠٥٦٧]، تهذيب الأسماء واللغات (١/٣٢٨)، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك (٦/٧٨)، الجزء المتمم لطبقات ابن سعد (ص:٦٥٩)، أسد الغابة (٤/٧).

(٣) انظر: المجموع شرح المهذب، للإمام النووي (١/١٤)، طبقات الشافعيين، لابن كثير (ص:٤٢٧)، (ص:٤٦٢).

(٤) بتصرف عن كتاب: (من روائع حضارتنا) د. مصطفى السباعي (ص:١٧٧-١٨٥).

(٥) تقدم.

(٦) إحياء علوم الدين (٢/٢٥٥).

وينبغي على المسؤولين: العناية بالطلبة في هذا التخصص وتشجيعهم، وتوفير احتياجاتهم، وتوفير الأجهزة الطبية الملائمة، ومواكبة المستجد من العلوم الطبية، والعلاج الطبي المناسب، والمراقبة الصحية من خلال الوحدات الطبية حتى لا يتفشى المرض، ويعظم الضرر؛ فإن ذلك كله من تمام الإحسان والعدل، وأسباب الرقي.

وينبغي الاحتراز عن قتل الحيوانات، إلا الصائل منها والمؤذي، فقد جاء في الحديث: النهي عن قَتْل أربعٍ من الدَّوابِّ: النَّمْلَة، والنَّحْلَة، والهُدْهُد، والصُّرَد [١].

ويستثنى من الحيوانات التي لا يجوز قتلها: الفواسق الخمس؛ فإنهن يقتلن في الحلِّ والحرم. والفواسق الخمس -كما ورد في (الصحيح)-: «**الفأرة، والعقرب، والحُدَيَّا، والغراب، والكلب العقور**» [٢].

---

(١) ونص الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: نهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قتل أربع من الدواب: النملة، والنحلة، والهدهد، والصرد. أخرجه عبد الرزاق [٨٤١٥]، وأحمد [٣٠٦٦]، وابن حميد [٦٥٠]، وابن ماجه [٣٢٢٤]، وأبو داود [٥٢٦٧]، والبزار [٥٢٨٩]، وابن حبان [٥٦٤٦]، والطبراني [٥٧٢٨]، والبيهقي [١٠٠٧٠]، والضياء [١٣٢]. قال الحافظ وصاحب (الإلمام): "رجاله رجال الصحيح". وقال البيهقي في (السنن الكبرى): " وحديث عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أقوى ما ورد في هذا الباب " وقال في (بلوغ المرام): "صححه ابن حبان". التلخيص الحبير (٥٨٤/٢)، الإلمام بأحاديث الأحكام، لابن دقيق العيد (٤٤٤/٢)، فتح الغفار الجامع لأحكام سنة نبينا المختار (١٩١٥/٤). و«الصرد» -بضم ففتح-: طائر فوق العصفور؛ لأنه يحرم أكله، ولا منفعة في قتله.

(٢) صحيح البخاري [٣٣١٤]، مسلم (٦٨- ٦٩) [١١٩٨].

وعند مسلم: «**الحيَّة، والغراب الأبقع، والفأرة، والكلب العقور، والحُدَيَّا**»(١).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الحية، والغراب الأبقع، والفأرة، والكلب العقور والحُدَيَّا**». وفي رواية: «**الحدأة**». وفي رواية: «**العقرب**» بدل: (الحيَّة). وفي الرواية الأولى أربع بحذف: (الحية والعقرب)، فالمنصوص عليه: الست، واتفق جماهير العلماء على جواز قتلهن في الحلِّ، والحرم، والإحرام.."(٢).

وقال الإمام أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (العارضة): "أمر بالقتل، وعلل بالفسق، فيتعدى الحكم إلى كل ما وجدت فيه العلة، ونبه بالخمسة على خمسة أنواع من الفسق. فنبه بالغراب على ما يجانسه من سباع الطير، وكذا بالحدأة، ويزيد الغراب بحل سفرة المسافر، ونقب جرابه، وبالحية على كل ما يلسع، والعقرب كذلك – والحية تلسع وتفترس، والعقرب تلدغ، ولا تفترس – وبالفأرة على ما يجانسها من هوام المنزل المؤذية، وبالكلب العقور على كل مفترس، قال: ومعنى فسقهن: خروجهن عن حد الكف إلى الأذية"(٣).

---

(١) صحيح مسلم (٦٧) [١١٩٨].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١١٣/٨).

(٣) عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي (٦٣/٤-٦٤)، وانظر: شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك (٤٣١/٢).

وقد أمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علاوة على الفواسق الخمس بقتل الْوَزَغ، وسماه: فويسقًا [(١)].

وكذلك أمر بقتل الحيات إلا حياتِ البيوت، فلا تقتل حتى تؤذن ثلاثًا، فإن رؤيت بعد ذلك قتلت.. [(٢)]، واستثنى من ذلك نوعين من الحيات هما:

ومنها: الأبتر، وذو الطُّفْيَتَيْن؛ فإنهن يقتلن مطلقًا -ولو كن من سُكَّان البيوت- ؛ فإنهما يلتمسان البصر، ويستسقطان الحَبَلَ [(٣)].

قال الزُّهْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: ونُرَى ذلك من سُمَّيْهِمَا -والله أعلم- [(٤)].

---

(١) صحيح البخاري [١٨٣١، ٣٣٠٧، ٣٣٥٩]، مسلم [٢٢٣٧، ٢٢٣٨].

(٢) ثبت في الأمر بقتل الحيات مطلقًا عدة أحاديث؛ منها: ما جاء في (الصحيحين) وغيرهما: عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سمع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخطب على المنبر يقول: «اقْتُلُوا الحَيَّاتِ، واقْتُلُوا ذا الطُّفْيَتَيْنِ والأَبْتَرَ؛ فإنَّهما يطمسانِ البَصَر، ويستسقطان الحَبَلَ» صحيح البخاري [٣٢٩٧]، مسلم [٢٢٣٣]. أمر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقتل الحيات، وهذا عام في جميع الحيات، وفي أي مكان، إلا أن الحية إذا كانت داخل البيت فإنها لا تقتل حتى تنذر ثلاثًا، أي: ثلاث مرات، وفي بعض الأحاديث ثلاثة أيام وذلك لاحتمال أن تكون من الجن، فإن ظهرت بعد ذلك قتلت. وقد اختلف في المراد بتكرار الإنذار ثلاثًا. وعند مسلم [٢٢٣٦] من حديث: أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «إن لهذه البيوت عوامر، فإذا رأيتم شيئًا منها فحرجوا عليها ثلاثًا، فإن ذهب، وإلا فاقتلوه». واختلف في المراد بالثلاث؛ فقيل: ثلاث مرات. وقيل: ثلاثة أيام. انظر: إكمال المعْلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض (١٧٢/٧)، فتح الباري، لابن حجر (٣٤٩/٦)، طرح التثريب في شرح التقريب (١٣١/٨)، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٥٣٨/٥). ورجح ابن العربي في (أحكام القرآن) أنه يكون ثلاث مرات. انظر ذلك في (أحكام القرآن)، للقاضي أبي بكر بن العربي (٤/ ٣١٧-٣٢٠).

(٣) صحيح البخاري [٣٢٩٧، ٣٣٠٨]، مسلم [٢٢٣٢، ٢٢٣٣].

(٤) صحيح مسلم [٢٢٣٣].

ويستحب كذلك قتل كل ما فيه أذى من الحشرات كالبرغوث، والبق.. إلى غير ذلك.

*وقد جاء كذلك في (الإحسان إلى الحيوان، والعناية بالنبات): حديث: أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة**»(١).

وفي رواية: عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، وما أكل السَّبُعُ منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يَرْزَؤُهُ أحد إلا كان له صدقة**»(٢). ففيه: حثٌّ على عمارة الأرض، ولو كان المنتفع من الزرع البهائم لنال الزارع الأجر.

٥ – الإحسان إلى النبات والبيئة:

أ. التحذير من الإفساد البيئي وبيان خطورته:

لا يخفى أن الاهتمام بالبيئة مظهر حضاري، وخلق إنساني، ومطلب تحثُّ عليه الشَّريعة، وتُحَرِّم ما يقابله من إفساد البيئة؛ لعموم ضرره، وعظيم أثره.

---

(١) صحيح البخاري [٢٣٢٠]، مسلم [١٥٥٣].

(٢) صحيح مسلم [١٥٥٢]، وقد تقدم.

إن إفساد البيئة يتنافى مع الدين والأخلاق، وهو من الإيذاء والإضرار الذي نهى الشارع عنه، فلا ضرر ولا ضرار.

ويتفاوت الإيذاء والإضرار من حيث الأثر، ولا شك أن إفساد البيئة من مظاهر الإفساد العام الذي يتعدى ضرره إلى كثير من الناس والبهائم والزروع، فلذلك فهو من أعظم أنواع الإفساد الذي يعظم فيه الإثم.

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ الإنسان خليفة في الأرض، واستعمره فيها، وأعطاه من النِّعم ما يعينه على القيام بهذه المهمة، فهيأ له فيها كل المقومات اللازمة، فسخر له: الأرض والماء والهواء والفضاء والأنعام.

وحث على عمارة الأرض واستثمار ثرواتها، والاستفادة من خيراتها، وإصلاحها، وحمايتها من إفساد المفسدين؛ فإن الفساد يظهر في البر والبحر بفعل الإنسان، وتلويث البيئة يُعتبر من الفساد ويكون في البرّ والبحر. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

ومن أهم مقاصد بعثة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: الحث على عمارة الكون بالمحبة والرحمة والإصلاح والتعاون على البر والتقوى، والبعد عن العبث والإفساد.

ومن نعم الله عَزَّوَجَلَّ العظيمة أنه سخر للإنسان ما في الكون، وجعل ما فيه من المخلوقات مذللة له.

والمؤمن ينتفع مما سخر الله عَزَّوَجَلَّ له من غير اعتداء أو إفساد أو ظلم، وينفع الآخرين، ويتعاون معهم، ويشكر الله عَزَّوَجَلَّ على نعمه الوافرة.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ [إبراهيم:٣٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل:١٠-١٤].

ومن شأن المؤمن أن يكون رحيمًا ومحسنًا، ولا يقف مفهوم الإحسان في الإسلام عند إحسان المرء لنفسه ولغيره من أبناء جنسه، ولكنه يشمل عموم المخلوقات بما في ذلك الحيوان والنبات.

*وقد جاء في الحديث: **(التحذير من قطع السِّدر الذي يُظِلُّ النَّاس):**

والسدر هو الشجر الذي ينبت في الفلاة، ويستظل به الناس، فيتقون به حرَّ الشمس، ويقيلون تحته في أثناء الطريق، وقد كان الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وصحابته الكرام رضوان الله عليهم يستظلون بالشجر.

وقد حذَّرنا الشارع من قطع السدر أو إتلافه؛ لما في ذلك من الإضرار بالناس والبهائم، ولأنه من العبث والظلم، ولا يخفى ما للزرع والأشجار من فائدة تدوم ما بقيت حية.

ومن الأحاديث التي فيها: الحثُّ على عمارة الأرض وتنميتها -حتى ولو كانت في آخر أيامها- قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها**»[1].

وهو مبالغة في الحثِّ على غرس الأشجار، وحفر الأنهار؛ لتبقى هذه الدار عامرة إلى آخر أمدها المحدود المعدود المعلوم عند خالقها عَزَّ وَجَلَّ، فكما غرس لك غيرُك فانتفعت به، فاغرس لمن يجيء بعدَك؛ لينتفعَ -وإن لم يبق من الدنيا صُبَابَة-[2].

وفي وصية الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أوصيكم بتقوى الله عَزَّ وَجَلَّ، لا تعصوا، ولا تغلوا، ولا تجبنوا، ولا تغرقوا نخلًا، ولا تحرقوا زرعًا، ولا تحبسوا بهيمة، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تقتلوا شيخًا كبيرًا، ولا صبيًّا صغيرًا، وستجدون أقوامًا حبسوا أنفسهم للذي حبسوها فذروهم وما حبسوا أنفسهم له.."[3].. إلى غير ذلك.

---

(١) تقدم.

(٢) فيض القدير (٣/٣٠)، وقد تقدم.

(٣) مسند أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لأبي بكر أحمد بن علي المروزي، بتحقيق: شعيب الأرناؤوط (ص:٧١-٧٢)، و(ابن زنجويه) كما في (كنز العمال) [١٤١١]، وأخرجه ابن عساكر (٢/٥٠)، فوائد ابن أخي ميمي الدقاق [٥٤٩]، الكامل في التاريخ (٢/١٩٦).

ب. صور الإفساد البيئي:

إن الفساد البيئي له صور كثيرة لا تخفى على أولي البصائر، فمن هذه الصور:

الصورة الأولى: رمي الأوساخ والقاذورات وبقايا الطعام وسائر المخلَّفات في الشوارع.

الصورة الثانية: تلويث البيئة بالدخان الضار:

إن من مظاهر إفساد البيئة: أن يتجه دخان المصانع والمعامل إلى بيوت الناس، وما يترتب على ذلك من انتشار الأمراض والأوبئة، ولا يقتصر الضَّرر على ما يصيب الناس، بل كذلك ما يصيب الزروع والبهائم. ومن ذلك: الإسراف في إحراق وقود السيارات ووسائل النقل دون النظر إلى مدى تأثير ذلك على البيئة، وإلى ما يمكن استبداله منها بمصادر طاقة نظيفة.

الصورة الثالثة: قطع الأشجار النافعة وحرقها، وتلويث مياه البحار والأنهار، وردم الآبار وتلويثها.

الصورة الرابعة: إهمال سقي الزرع، والإضرار بالتربة من خلال إفسادها بنحو المواد الكيميائية.. إلى غير ذلك من الملوثات ومن صور الإضرار والإفساد.

الصورة الخامسة: قتل الحيوان وتعذيبه.

...إلى غير ذلك من صور الإفساد البيئي.

٦ – صنائع المعروف من المنجيات من مصارع السوء ومن العذاب في الآخرة:

إنَّ صنائع المعروف من الصدقة، وبرِّ الوالدين، وصلة الرحم، وإغاثة الملهوف، وغيرها من أعمال الخير والبرِّ والإحسان، مما يقي الإنسان من سوء العاقبة، ومصارع السوء، وهي من الأخلاق الجليلة التي حثَّ عليها القرآن العظيم، والتي أرشد إليها النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصفةٌ من صفات أهل الفضل والإحسان، ومقصدٌ عام وثابتٌ من مقاصد الشريعة الغراء؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ٧٧﴾ [الحج:٧٧]، فإغاثة المنكوبين، بسبب ما أصابهم؛ من الفيضانات والزلازل والنوائب، ورعاية اللاجئين بسبب الحروب والفتن، وكفالة اليتامى من أعظم أبواب الخير، التي وعد الله عَزَّوَجَلَّ فاعلها بالثواب الجزيل في الدنيا والآخرة؛ ذلك أن أحبَّ الناس إلى الله عَزَّوَجَلَّ أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله سرورٌ تدخله على قلب مسلمٍ، أو تكشف عنه كربةً، أو تقضي عنه دينًا أو تطرد عنه جوعًا [(١)]، ومن مشى مع أخيه في حاجةٍ حتى يقضيها فاز بالأجر

---

(١) روي عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن رجلًا جاء إلى النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، أي الناس أحب إلى الله، وأي الأعمال أحب إلى الله؟ فقال رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أحب الناس إلى الله عَزَّوَجَلَّ أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينًا، أو تطرد عنه جوعًا، ولأن أمشي مع أخ لي في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد شهرًا في مسجد المدينة، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غضبه ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه رخاء يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى تتهيأ له ثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام» أخرجه الطبراني في (الكبير) [١٣٦٤٦]، و(الأوسط) [٦٠٢٦]، و(الصغير) [٨٦١]، وقال: "لم يرو هذا الحديث عن عمرو بن دينار إلا سكين بن سراج، تفرد به عبد الرحمن بن قيس". قال الهيثمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٩١/٨): "رواه الطبراني في (الثلاثة)، وفيه: سكين بن سراج، وهو ضعيف". وروى ابن=

والثواب من العزيز الوهاب، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من نفس عن مسلمٍ كربةً من كرب الدنيا نفس الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسرٍ يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر على مسلمٍ ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**»(١).

فمن صنع معروفًا لأحد من الخلق، وكان عمله خالصًا لوجه الله عَزَّوَجَلَّ؛ رحمة بالخلق، وطمعًا في الأجر والثواب والقرب من الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الله عَزَّوَجَلَّ سيكون في عونه في وقت الشدة، ولن يخذله، كما جاء في الحديث: عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة**» (٢).

وإنَّ لصنائع المعروف آثارًا عظيمةً تعود بالنفع على فاعلها في الدنيا والآخرة، أما منافعها في الآخرة، فهي الفوز بالجنان، ورضى الرحمن؛ ذلك أن أهل المعروف في الدنيا هم أحق الناس بعفو الله عَزَّوَجَلَّ وصفحه؛ كما جاء في الحديث: عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَلَقَّتِ الملائكة رُوْحَ رجلٍ ممن كان قبلكم، فقالوا:**

=أبي الدنيا في (قضاء الحوائج) [٣٦] نحوه عن محمد بن يزيد، عن بكر بن خنيس، عن عبد الله بن دينا. وبكر بن خنيس صدوق له أغلاط أفرط فيه ابن حبان، كما قال الحافظ. انظر: تقريب التهذيب (١٢٦/١)، تهذيب التهذيب (٤٨١/١).

(١) صحيح مسلم [٢٦٩٩].

(٢) صحيح البخاري [٢٤٤٢، ٦٩٥١]، مسلم [٢٥٨٠].

أعملتَ من الخير شيئًا؟ قال: لا، قالوا: تَذَكَّرْ، قال: كنتُ أُدَاينُ الناس، فَآمُرُ فِتْيَانِي أَنْ يُنْظِرُوا الْمُعْسِرَ، ويَتَجَوَّزُوا عن الْمُوسِرِ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: **تَجَوَّزُوا عَنْهُ»** (١). وكذلك أهل المعروف هم أحق الناس برحمة الله عَزَّوَجَلَّ ورضوانه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف:٥٦].

ومن ثمرات صنائع المعروف في الدنيا: أنها تقي مصارع السوء، وترد الآفات والهلكات عن أصحابها، فعن أبي أمامة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر**» (٢).

ففي صنائع المعروف خلاصٌ من مصارع السوء، فكم من مسلمٍ نجاه الله عَزَّوَجَلَّ من أعظم الشدائد التي لا يقدر على كشفها إلا الله عَزَّوَجَلَّ بسبب فعله للخير!

وكم من مسلمٍ حفظ الله عَزَّوَجَلَّ عليه ماله بسبب إحسانه!

وكم من مسلمٍ كشف الله عَزَّوَجَلَّ عنه ضره، وعافاه من مرضه بسبب معروفٍ أداه للناس!

وكم من مسلمٍ حفظ الله عَزَّوَجَلَّ عليه أولاده وأهله من المهلكات؛ لدفعه ضرًا عن غيره.

---

(١) صحيح مسلم [١٥٦٠].

(٢) أخرجه الطبراني في (الكبير) [٨٠١٤]، قال المنذري في (الترغيب والترهيب) (١٥/٢): "رواه الطبراني في (الكبير)، وإسناده حسن"، ونحوه قول الهيثمي في (مجمع الزوائد) (١١٥/٣)، والسخاوي في (المقاصد) (ص:٤١٩).

وقد أدركت أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هذا المعنى، فقالت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما رجع إليها من غار حراءٍ بعد لقائه الأول مع جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: كلا والله ما يُخْزِيكَ الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعْدُومَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ على نوائب الحق (١).

فمن أعظم ما ينفع العبد في حياته وبعد مماته، ويدفع عنه من السوء: بذل المعروف للناس، ومحبة الخير لهم، والإحسان إليهم، والله عَزَّوَجَلَّ يحب أصحاب القلوب الرحيمة، قال نبي الرحمة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ**» (٢)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وإنما يرحم الله من عباده الرُّحَمَاءَ**» (٣).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾ [الأعراف:٥٦]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٢٠﴾ [التوبة:١٢٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٧﴾ [الحج:٣٧]، ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٤﴾ [الزمر:٣٤].

ويتحسر من لم يكن محسنًا يوم لا ينفع الندم، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن ذلك بقوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾ [الزمر:٥٦-٥٨].

---

(١) صحيح البخاري [٣، ٤٩٥٣]، مسلم [١٦٠].

(٢) تقدم.

(٣) صحيح البخاري [١٢٨٤، ٦٦٥٥، ٧٣٧٧، ٧٤٤٨]، مسلم [٩٢٣].

قال ابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "تكسب مودة الناس بأسباب متعارفة بينهم منها: القرابة، ومنها: الصداقة، ومنها: صنائع المعروف، ومآثر الإحسان"(١).

وقد حثَّ الإسلام على صنع المعروف، وفعله، وبذله، بالأقوال والأفعال، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ﴾ [البقرة:٢٦٣].

فقوله: ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾: أي: قولٌ جميل طيب من غير مَنٍّ، ولا إيذاء. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾، أي: ستر ما ظهر منه من سوء حالته وفقره، وما وقع منه من الإلحاف في المسألة وغيره مما يثقل على النفوس، فذلك ﴿خَيْرٌ﴾ له عند الله عَزَّوَجَلَّ. ﴿مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ﴾، أي: من صدقة يتصدق بها وهو يمنُّ على المتصدق عليه بها، ويؤذيه بسببها، فهو يستحق عليها العقاب من حيث يرجو الثواب.

وفي (المنار): "إن هذه الآية مقررة لقاعدة: **(درء المفاسد مقدم على جلب المصالح)** التي هي من أعظم قواعد الشريعة، ومبينة أن الخير لا يكون طريقًا ووسيلة إلى الشر، ومرشدة إلى وجوب العناية بجعل العمل الصالح خاليًا من الشوائب التي تفسده، وتذهب بفائدته، كلها أو بعضها، وإلى أنه ينبغي لمن عجز عن إحسان عمل من أعمال البرِّ، وجعله خالصًا نقيًا أن يجتهد في إحسان عمل آخر يؤدي إلى غايته، حتى لا يحرم من فائدته بالمرَّة، كمن شق عليه أن يتصدق لا يمن ولا يؤذي، فحث على الصدقة أو جبر الفقير بقول المعروف. ومن البديهي أن أعمال البر والخير لا

(١) آثار ابن باديس (ص:٣٤٢)، تفسير ابن باديس (ص:٣٤٠).

يغني بعضها عن بعض، فكيف يغني ترك الشرك واتقاء المفاسد عن عمل الخير، والقيام بالمصالح"(١).

ففعل المعروف من خصال الإسلام العظيمة، ولا يكون مثمرًا ونافعًا إلا فيما أخلص فيه العبد القصد لله عَزَّوَجَلَّ.

والمعروف كلمة جامعة تجمع بذل الخير والإحسان للناس بالقول أو بالفعل.

فمن معروف القول: طِيبُ الكلام، والتَّوَدُّدُ بجميل اللفظ. وهذا يَبْعَثُ عليه: حُسْنُ الْخُلُقِ، ورِقَّةُ الطَّبْعِ. وَمن معروف الفعل: إغاثة الملهوف، وإعانة المحتاج، ونصرة المظلوم بالمال والنفس، من خلال ما يبذل من الجهد والسعي في سبيل ذلك.

٧ - نماذج من بذل المعروف:

وقد جاء في الآيات القرآنية، والحديث النبوي ذكر نماذج كثيرة من بذل المعروف، فمنها: ما جمع أكثر من وجه من وجوه صناعة المعروف، ومنها: ما نبَّه على نوع من الأنواع؛ لبيان أهميته، فمن ذلك:

أ. العفو والصفح والمسامحة، ومقابلة الإساءة بالإحسان:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف:١٩٩].

(١) تفسير المنار (٣/٥٣-٥٤).

وفي (صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ): "العرف: المعروف [(١)]. وروى عن عبد الله بن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ قال: **«ما أَنْزَلَ اللَّهُ إلَّا في أخلاقِ النَّاسِ»** [(٢)].

وفي رواية: **«أَمَرَ الله** عَزَّ وَجَلَّ **نبيَّهُ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أن يأخذَ العفوَ من أخلاق الناس، أو كما قال»** [(٣)]. وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾: الخطاب للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويدخل في حكمه: أمته، إلا ما قام الدليل على اختصاصه به.

وقد أمر الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أن يأخذ العفو من أخلاق الناس، أي: أمره أن يتسامح مع الناس، ويتساهل في معاملتهم، ويتغاضى عن هفواتهم.

كما دلت الآية الكريمة على وجوب التناصح والتواصي بالحقّ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإعراض عن الجهلاء، والحمقى والسفهاء، وعدم مجاراتهم أو مجازاتهم، والصفح عنهم، والتغاضي عن زلاتهم، وهو معنى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾. ولا شك أن هذه الأمور الثلاثة -المذكورة في الآية الكريمة- هي دعائم الخُلُقِ الكامل، الذي تكتسب به محبة الناس، وتجمع به القلوب المتنافرة، وتتوثق به الروابط الاجتماعية [(٤)].

---

(١) صحيح البخاري (٦/٦٠).

(٢) صحيح البخاري [٤٦٤٣].

(٣) صحيح البخاري [٤٦٤٤].

(٤) انظر: منار القاري (٥/٥٦).

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في آية أخرى في وصف عباده الصالحين، أرباب البصائر، وأولي النهى والألباب: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۝٦٣﴾ [الفرقان:٦٣]. قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "جعل جزاء من تلطف في الكلام الغرفة، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ [الفرقان:٧٥]، بعد قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۝٦٣﴾ [الفرقان:٦٣]. وفيه تلويح إلى أن لين الكلام من صفات عباد الله عَزَّوَجَلَّ الصالحين، الذين خضعوا لبارئهم جَلَّوَعَلَا، وعاملوا الخلق بالرفق في الفعل والقول"(١).

وفي الحديث: «**إنَّ في الجَنَّةِ غُرْفَةً يُرَى ظَاهِرُهَا من بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا من ظَاهِرِهَا أَعَدَّهَا اللهُ لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ، وأَلَانَ الْكَلَامَ، وتَابَعَ الصِّيَامَ، وصَلَّى والنَّاسُ نِيَامٌ**» (٢).

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٢٠٩/٤).

(٢) الحديث مروي عن أبي مالك الأشعري، وعن علي بن أبي طالب، وعن عبد الله بن عمرو. حديث أبي مالك الأشعري: أخرجه معمر بن أبي عمرو راشد الأزدي في (جامعه) [٢٠٨٨٣]، وأحمد [٢٢٩٠٥]، قال الهيثمي (١٩٢/٣): "رجاله ثقات"، كما أخرجه: ابن خزيمة [٢١٣٦، ٢١٣٧]، والخرائطي في (مكارم الأخلاق) [١٥٥]، وابن حبان [٥٠٩]، والطبراني [٣٤٦٦]، قال الهيثمي (٢٥٤/٢): "رجاله ثقات". وأخرجه أيضًا: البيهقي في (السنن) [٨٤٧٩]، وفي (شعب الإيمان) [٣٦٠٩]. حديث عليٍّ: أخرجه ابن أبي شيبة [٢٥٧٤٣]، وأحمد [١٣٣٨]، وهناد في (الزهد) [١٢٣]، والترمذي [١٩٨٤]، وقال: "غريب"، كما أخرجه: البزار [٧٠٢]، أبو يعلى [٤٢٨]، وابن السني في (عمل يوم وليلة) [٣١٩]، وأخرجه أيضًا: وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٣٠٨٩]. حديث ابن عمرو: أخرجه أحمد [٦٦١٥]، والطبراني [١٠٣]، قال الهيثمي (٢٥٤/٢):=

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣﴾ [المائدة:١٣].

إنَّ دوامَ الودِّ والمحبة يقتضي تجاوز الهفوات وستر الزلات.. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ﴾ [يوسف: ٧٧]. وقليل من الصبر وضبط الأعصاب حين تقع الخصومة يدفع كثيرًا من الشر. بل يجلب الخير والنفع في كثير من الأحوال، قال الله عَزَّوَجَلَّ -مثلًا- عن النساء: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ [النساء:١٩].

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ مقابلةَ الإساءة بالإحسان، وحُسْنَ الخُلق سببًا يكون به العدوُّ صديقًا، وتتمكَّنُ فيه صداقةُ الصديق، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصلت:٣٤]. إن كل إساءة تقابل بالإحسان سوف يكون له من الأثر الطيب ما يمحو أثرها، ويعالج ما أحدثته من صدع وجفاء. يعني: أنك إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إلى مصافاتك ومحبتك. ومقابلة السيئة بالحسنة مرتبة عظيمة لا يرتقي إليها من عباد الله عَزَّوَجَلَّ إلَّا من امتلك زمام نفسه.

ولم يكن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح. وقد سئلت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: كيف كان خلق رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقالت: لم يكن فاحشًا

="إسناده حسن". كما أخرجه: الحاكم [٢٧٠] وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٢٨٢٥].

ولا متفحشًا (١)، ولا صَخَّابًا (٢) في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة (٣)، ولكن يعفو (٤) ويصفح (٥).

ب. الابتسامة وطلاقة الوجه:

جاء في الحديث: عن أبي ذَرٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**تَبَسُّمُك في وجه أخيك لك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة،**

---

(١) قال ابن العربي: "والفحش: الكلام بما يكره سماعه مما يتعلق بالدين. وفي (الصحيح) ولم يكن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فاحشًا؛ يعني: لطهارة أخلاقه وأفعاله، ولا متفحشًا، يعني: لم يكن يكتسب ذلك بقول ولا فعل" عارضة الأحوذي (١٤٤/٨).

(٢) أي: صياحًا.

(٣) بل بالحسنة.

(٤) أي: في الباطن.

(٥) أي: في الظاهر؛ عملًا بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣﴾ [المائدة:١٣]، فقد كان خلقه القرآن. والحديث أخرجه أحمد [٢٥٤١٧]، والترمذي [٢٠١٦]، وقال: "هذا حديث حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: الخرائطي في (مكارم الأخلاق) [٦٨]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٧٩٤٤].

وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة»(١) .

وفي (صحيح مسلم): عن أبي ذرٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: **«لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»** (٢).

قال أبو حاتم رَحِمَهُٱللَّهُ: "البشاشة إدام العلماء، وسجية الحكماء؛ لأن البِشر يطفئ نار المعاندة، ويحرق هيجان المباغضة، وفيه تحصين من الباغي، ومنجاة من الساعي"(٣).

وقال ابن بطال رَحِمَهُٱللَّهُ: "إن لقاء الناس بالتبسم وطلاقة الوجه من أخلاق النبوة، وهو مناف للتكبر وجالب للمودة"(٤).

و(طلاقة الوجه): فَرِحٌ ظَاهِرُ الْبِشْرِ. يقال: هو طَلْقَ الْوَجْهِ وطَلِيقُه، وقال أبو زيد: طلق الوجه: مُتَهَلِّلٌ بَسَّامٌ، أو ذُو بِشْرٍ حَسَن (٥).

---

(١) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) [٨٩١]، والترمذي [١٩٥٦]، واللفظ له، وقال: "حسن غريب". كما أخرجه: البزار [٤٠٧٠]، ومحمد بن نصر المرْوَزِي [٨١٣]، وابن حبان [٥٢٩].

(٢) صحيح مسلم [٢٦٢٦]. (بوجه طلق) ضد العبوس، وهو الذي فيه البشاشة والسرور.

(٣) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، محمد بن حبان أبو حاتم الدارمي البستي (ص:٧٥).

(٤) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٩٣/٥).

(٥) انظر: المصباح المنير، مادة: (طلق) (٣٧٦/٢)، تهذيب اللغة (١٩/٩)، فيض القدير (٢٨٨/٢)، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٨٦/٥).

ج. الكلمة الطيبة، والقول الحسن، والتواضع، والمداراة:

جاء في (صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ): في باب: (طيب الكلام): قال أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الكلمة الطيبة صدقة**» (١).

وعن عدي بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: ذكر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النار، فتعوَّذ منها، وأشاح بوجهه، ثم ذكر النار فتعوَّذ منها وأشاح بوجهه، -قال شعبة: أما مرتين فلا أشك- ثم قال: «**اتَّقُوا النَّارَ ولو بِشِقِّ تمرة، فإن لم تجد فبكلمة طيبة**» (٢).

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الكلام الطيب مندوب إليه، وهو من جليل أفعال البر؛ لأنَّ النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ جعله كالصدقة بالمال. ووجه تشبيهه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: الكلمة الطيبة بالصدقة بالمال هو أن الصدقة بالمال تحيا بها نفس المتصدق عليه ويفرح بها، والكلمة الطيبة يفرح بها المؤمن، ويحسن موقعها من قلبه، فاشتبها من هذه الجهة. ألا ترى أنها تذهب الشحناء، وتجلي السخيمة، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت:٣٤].

والدفع بالتي هي أحسن قد يكون بالقول كما يكون بالفعل" (٣).

وصناعة المعروف تكون بالقول والفعل، فمن صناعة المعروف: القول الحسن:

---

(١) صحيح البخاري (١١/٨).

(٢) صحيح البخاري [٦٠٢٣، ٦٥٤٠]، مسلم [١٠١٦].

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٢٢٥/٩).

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء:٥٣]، ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر:١٨].

إنَّ اللسان أداة البيان، وترجمان القلب والوجدان. والكلام السيء قاطع لأواصر الأخوة، باعث على البغضاء والنفرة، يبعد بين العقول فتحرم الاسترشاد والاستعداد والتعاون، وبين القلوب فتفقد عواطف المحبة وحنان الرحمة، وهما أشرف ما تتحلى به القلوب، وإذا بطلت الرحمة والمحبة بطلت الألفة والتعاون، وحلت القساوة والعداوة، وتبعهما التخاصم والتقاتل(١).

وإنَّ التواضع، والمداراة، ولين الكلام من الأسباب التي تؤلّف بين القلوب.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤]، فهذا وصف المؤمنين الذين يحبهم الله عَزَّوَجَلَّ ويحبونه، ومن أحبه الله عَزَّوَجَلَّ أحبه الناس؛ ولذلك جاء عقب قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر:٨٨].

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المدارة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس، ولين الكلمة، وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسباب الألفة، وسل السخيمة"(٢)؛ ولهذا قيل: من لانت كلمته وجبت محبته، وحسنت أحدوثته، وظمئت

---

(١) انظر: تفسير ابن باديس (ص:١١٢-١١٣).

(٢) شرح صحيح البخارى، لابن بطال (٩/٣٠٥)، وانظر: فتح الباري، للحافظ ابن حجر (١٠/٥٢٨). و(السَّخِيمة): الحِقْدُ والضَّغينة.

القلوب إلى لقائه، وتنافست في مودته. والمداراة تجمع الأهواء المتفرقة، وتؤلف الآراء المشتتة، وهي غير المداهنة المنهي عنها"(١).

فالكلام اللّين والطّيب من الأسباب التي تؤلّف بين القلوب، وهو من صنيعة المعروف بالقول الحسن. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء:٥٣]. وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ﴾ [آل عمران:١٥٩].

(١) فيض القدير (٣/٢٠٣). قال ابن بطال: "ظن بعضهم أن المداراة هي المداهنة فغلط؛ لأن المداراة مندوب إليها والمداهنة محرمة. والفرق أن (المداهنة) من الدهان، وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه. وفسرها العلماء بأنها: معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه، والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك" فتح الباري، لابن حجر (١٠/٥٢٨). وقال القرطبي في الفرق بينهما: "إنَّ المدَارَاة: بذل الدنيا؛ لصلاح الدنيا، أو الدين، أو هما معًا، وهي مباحة وربما استحبت. والمداهنة: ترك الدين؛ لصلاح الدنيا". فتح الباري، لابن حجر (١٠/٤٥٤). وقال الإمام الغزالي: "الفرق بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء؛ فإن أغضيت لسلامة دينك، ولما ترى من إصلاح أخيك بالإغضاء، فأنت مدار، وإن أغضيت لحظِّ نفسك، واجتلاب شهواتك، وسلامة جاهك فأنت مداهن" إحياء علوم الدين (٢/١٨٢). وقال ابن القيم: "المداراة صفة مدح والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما أن المداري يتلطف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف به؛ ليقره على باطله ويتركه على هواه فالمداراة لأهل الإيمان والمداهنة لأهل النفاق" الروح، لابن القيم (ص:٢٣١).

د. الرفق:

إنَّ الرفق بالخلق، والرحمة، والحلم والأناة، وسعة الصدر، من صنائع المعروف، ومن الأخلاق الفاضلة التي تنبثق من مشكاة العقيدة، ومن أسباب المحبة التي حثَّ عليها الشارع، جاء في الحديث: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: السام عليكم، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ففهمتها، فقلت: وعليكم السام واللعنة، قالت: فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مهلًا يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله**»، فقلت: يا رسول الله، أولم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قد قلت: وعليكم**» (١).

وفي رواية: «**مه يا عائشة، فإن الله لا يحب الفحش والتفحش**» (٢).

وفي رواية: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يا عائشة: إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه**» (٣).

وفي الحديث: «**ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء**» (٤).

---

(١) صحيح البخاري [٦٠٢٤، ٦٠٣٠، ٦٤٠١]، مسلم [٢١٦٤، ٢١٦٥].

(٢) صحيح مسلم [٢١٦٥].

(٣) صحيح مسلم [٢٥٩٣].

(٤) أخرجه الترمذي [٢٠٠٢]، وقال: "حسن صحيح" عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما أخرجه الخرائطي في (مساوئ الأخلاق) [٤٩]، وابن حبان [٥٦٩٣]، والبيهقي [٢٠٧٩٨]. وللحديث أطراف.

وفي رواية: «**إن الله يبغض الفاحش المتفحش**»(1).

قال القاضي رَحِمَهُ اللَّهُ: "أصل الفحش: الزيادة والخروج عن الحد. قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: الفاحش: البذيء. قال ابن عرفة رَحِمَهُ اللَّهُ: الفواحش عند العرب: القبائح. وقال الهروي رَحِمَهُ اللَّهُ: الفاحش: ذو الفحش، والمتفحش: الذي يتكلف الفحش ويتعمده؛ لفساد حاله. وقد يكون المتفحش الذي يأتي الفاحشة(2) أو يجاهر بها.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "(الفاحش): المجبول على الفحش، وهو: الجفاء في الأقوال والأفعال. و(المتفحش): هو المتعاطي لذلك، والمستعمل له"(3).

وقيل: "الفاحش: المتبلس بالفحش، والمتفحش المتظاهر به؛ لأنه الله جَلَّ وَعَلَا طيب جميل فيبغض من لم يكن كذلك. قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]"(4).

قال ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: "والفحش: الكلام بما يكره سماعه مما يتعلق بالدين. وفي (الصحيح): «**ولم يكن النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فاحشًا**»؛ يعني: لطهارة أخلاقه وأفعاله، «**ولا متفحشًا**»، يعني: لم يكن يكتسب ذلك بقول ولا فعل"(5).

---

(١) الحديث مروي عن أسامة بن زيد. قال الهيثمي (٨/٦٤): "رواه أحمد والطبراني في (الكبير) و(الأوسط) بأسانيد، وأحد أسانيد الطبراني رجاله ثقات". والحديث مروي كذلك عن أبي هريرة، وعائشة، وعن عبد الله بن عمرو، وله أطراف كثيرة.

(٢) إكمال المعلم، للقاضي عياض (٧/١٤٤)، شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/٧٨).

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس القرطبي (٦/١١٦).

(٤) فيض القدير (٢/٢٨٥).

(٥) عارضة الأحوذي (٨/١٤٤).

و(البذي) "الفاحش في منطقه -وإن كان الكلام صدقًا-"[1].

وقال المنذري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "البذيء -بالذال المعجمة ممدودًا- هو المتكلم بالفحش ورديء الكلام"[2].

وفي (النهاية): "البذاء -بالمد-: الفحش في القول. وفلان بذي اللسان. تقول منه: بذوت على القوم وأبذيت أبذو بذاء. وقد يقال بالهمز وليس بالكثير"[3].

وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إن الله ليعطي على الرفق ما لا يعطي على الخرق**[4]، **وإذا أحبَّ الله عبدًا أعطاه الرفق، ما من أهل بيت يحرمون الرفق إلا قد حرموا**»[5].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن أعرابيًّا بال في المسجد، فقاموا إليه، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تزرموه**»، ثم دعا بدلو من ماء فصب عليه[6].

---

(١) فيض القدير (٥/٣٦٠).

(٢) الترغيب والترهيب (٣/٢٧١).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، مادة: (بذا) (١/١١١)، وانظر: الصحاح، للجوهري (٦/٢٢٧٩)، المخصص، لابن سيده (٣/٣٨٦).

(٤) بضم أوله المعجم وسكون الراء ضد الرفق. و(الخرق) -بفتحتين- مصدر، و(الأخرق) وهو ضد الرفيق وبابه طرب، والاسم (الخرق) -بالضم-.

(٥) أخرجه الطبراني في (الكبير) [٢٢٧٤]، قال الهيثمي (٨/١٨): "رواه الطبراني، ورجاله ثقات". وضعفه العراقي في (تخريج الإحياء) (ص:١٠٨٣).

(٦) صحيح البخاري [٦٠٢٥]. «لا تزرموه»: لا تقطعوا عليه بوله.

فمن الصفات التي يحبها الله عَزَّوَجَلَّ: الرفق واللين، والحلم والأناة؛ لقول رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ للأشج -أشج عبد القيس-: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم، والأناة**» (١).

هـ. كل معروف صدقة:

روى الإمام البخاري رَحِمَهُاللَّهُ في (صحيحه): باب: (كل معروف صدقة): عن جابر بن عبد الله رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا عن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**كل معروف صدقة**» (٢).

قال: حدثنا سعيد بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، عن أبيه، عن جده، قال: قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**على كل مسلم صدقة**»، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «**فيعمل بيديه، فينفع نفسه، ويتصدق**» قالوا: فإن لم يستطع أو لم يفعل؟ قال: «**فيعين ذا الحاجة الملهوف**»، قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: «**فيأمر بالخير**»، أو قال: «**بالمعروف**»، قال: فإن لم يفعل؟ قال: «**فيمسك عن الشر؛ فإنه له صدقة**» (٣).

وفي (صحيح الإمام مسلم رَحِمَهُاللَّهُ): باب: (بيان أن اسم: الصدقة يقع على كل نوع من المعروف): عن رِبْعِيّ بْنِ حِرَاشٍ، عن حُذَيْفَة رَضِيَاللَّهُعَنْهُ قال: قال نَبِيُّكُم صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**كُلُّ معروفٍ صدقة**» (٤).

---

(١) صحيح مسلم [١٧].

(٢) صحيح البخاري [٦٠٢١].

(٣) صحيح البخاري [١٤٤٥، ٦٠٢٢]، مسلم [١٠٠٨].

(٤) صحيح مسلم [١٠٠٥].

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن ناسًا من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالوا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا رسول الله، ذهب أهل الدُّثُورِ [١] بالأجور، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، ويصومون كما نصوم، ويَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أموالهم، قال: «**أوليس قد جعل الله لكم ما تَصَّدَّقُونَ؟ إنَّ بِكُلِّ تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بُضْعِ أحدكم صدقة**»، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**» [٢].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقول: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إنسانٍ من بني آدَمَ على سِتِّينَ وثَلَاثِمِائَةِ مَفْصِلٍ، فمن كَبَّرَ الله، وحَمِدَ الله، وهَلَّلَ الله، وسَبَّحَ الله، واسْتَغْفَرَ الله، وَعَزَلَ حَجَرًا عن طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ شَوْكَةً، أَوْ عَظْمًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، وأَمَرَ بِمَعْرُوفٍ، أو نَهَى عن مُنْكَرٍ، عَدَدَ تِلْكَ السِّتِّينَ والثَّلَاثِمِائَةِ السُّلَامَى، فَإِنَّهُ يَمْشِي يَوْمَئِذٍ، وقد زَحْزَحَ نفسَهُ عن النَّار**»، قال أبو توبة: وربما قال: «**يُمْسِي**» [٣].

(١) «الدثور» جمع: دثر، وهو المال الكثير.

(٢) صحيح مسلم [١٠٠٦]، وستأتي رواية: أبي هريرة لنحو هذا الحديث في (صحيح البخاري ومسلم).

(٣) صحيح مسلم [١٠٠٧].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإيمان بضع وسبعون -أو بضع وستون- شعبة، فأفضلها: قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»(١).

وفي (الصحيحين): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كل سُلاَمَى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة**»(٢).

وفي (مسند الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ): أن رجلًا سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن المعروف؟ فقال: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تُعْطِيَ صِلَةَ الْحَبْلِ، ولو أن تُعْطِيَ شِسْعَ النَّعْل**(٣)**، ولو أن تُفْرِغَ من دَلْوِكَ في إناء الْمُسْتَسْقِي، ولو أن تُنَحِّيَ الشَّيء**

---

(١) صحيح مسلم [٣٥].

(٢) أخرجه البخاري [٢٩٨٩]، ومسلم [١٠٠٩]. و«سلامى» قال الإمام النووي: "هو بضم السين وتخفيف اللام، وأصله: عظام الأصابع وسائر الكف، ثم استعمل في جميع عظام البدن ومفاصله" شرح النووي على صحيح مسلم (٥/٢٣٣).

(٣) (شسع) -بكسر الشين المعجمة وسكون المهملة-: أحد سيور النعل، وهو الذي يدخل بين الأصبعين ويدخل طرفه في الثقب الذي في صدر النعل المشدود في الزمام، والزمام هو السير الذي يعقد فيه الشسع قال الجوهري: "(الشِّسْعُ): واحد (شُسُوعِ) النَّعْلِ الَّذي تُشَدُّ إِلَى زِمَامِهَا"، وجمعه: شُسوع. انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (شسع) (٣/١٢٣٧)، تهذيب اللغة (١/٢٥٧)، عمدة القاري=

من طريق النَّاس يُؤْذِيهِمْ، ولو أن تَلْقَى أَخَاكَ، وَوَجْهُكَ إليه مُنْطَلِقٌ، ولو أن تَلْقَى أَخَاكَ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِ، ولو أن تُؤْنِسَ الْوَحْشَانَ في الْأَرْضِ، وإن سَبَّكَ رَجُلٌ بشيءٍ يَعْلَمُهُ فِيكَ، وأنْتَ تَعْلَمُ فيه نَحْوَهُ، فلا تَسُبَّهُ فيكونَ أَجْرُهُ لك، وَوِزْرُهُ عليه، وما سَرَّ أُذُنَكَ أن تَسْمَعَهُ فَاعْمَلْ به، وما ساءَ أُذُنَكَ أن تَسْمَعَهُ فَاجْتَنِبْهُ»(١).

وفي (مسند الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ): مَرَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْمٍ جُلُوسٍ في الطريق، قال: **«إن كنتم لا بدَّ فاعلين، فاهدوا السبيل، وردوا السلام، وأغيثوا المظلوم أو أعينوا المظلوم»** (٢).

وعند أبي داود رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسند صحيح: **«وتغيثوا الملهوف، وتهدوا الضَّال»** (٣).

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ قال: **«إِيمَانٌ باللَّه، وجِهَادٌ في سَبِيلِه»**، قلتُ: فَأَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قال: **«أَعْلاهَا ثَمَنًا،**

=شرح صحيح البخاري (٢٦/٢٢)، الديباج على صحيح مسلم (١٤٠/٥)، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٧١٨/٥)، مرقاة المفاتيح (١٢٥٤/٣).

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٥٩٥٥]، وأبو عبد الله محمد بن المَرْوَزِي في (تعظيم قدر الصلاة): عن أبي تيمة الهجيمي، عن رجل، من قومه. وروى نحوه: الطيالسي [١٣٠٤]، وابن حبان [٥٢١]، عن جابر بن سليم الهجيمي.

(٢) أخرجه الطيالسي [٧٤٦]، وابن أبي شيبة [٢٦٥٤٩]، وأحمد بسند صحيح، في مواضع، وأخرجه أيضًا: الدارمي [٢٦٩٧]، والترمذي [٢٧٢٦]، وقال: "حسن". كما أخرجه كذلك: وابن حبان [٥٩٧]، وأبو يعلى [١٧١٧]، والروياني [٣٢٣]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٧٢١٦].

(٣) أخرجه أبو داود [٤٨١٧] عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وأخرجه أيضا: الضياء [٣٠٨] وقال: "إسناده حسن".

وَأَنْفَسُهَا عند أهلها»، قُلْتُ: فإن لم أَفْعَلْ؟ قال: «**تُعِينُ ضَايِعًا، أو تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ**»، قال: فإن لم أَفْعَلْ؟ قال: «**تَدَعُ النَّاسَ من الشَّرِّ؛ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بها على نَفْسِكَ**»(١).

وقوله: «**ضَائِعًا**»: روي –بالضاد المعجمة–، هكذا رواية هشام التي رواها البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ من جهته؛ أي: ذا ضَياع؛ من فقر، أو عيال، أو حال قصر عن القيام بها.

وروي –بالصاد المهملة والنون–. وقال الدارقطني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه الصواب؛ لمقابلته: الأخرق، وهو الذي لا يحسن العمل.

وقال معمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: صَحَّفَ هشام، إنما هو الصانع وقوله «**أو تصنعُ لأخرقَ**»: أي: جاهل بما يجب أن يعملَه، ولم يكن في يده صنعة يكتسب بها(٢).

قال ابن المنير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي الحديث: إشارة إلى أن إعانة الصانع أفضل من إعانة غير الصانع؛ لأن غير الصانع مظنة الإعانة، فكل أحد يعينه غالبًا، بخلاف الصانع؛ فإنه لشهرته بصنعته يغفل عن إعانته، فهي من جنس الصدقة على المستور"(٣).

---

(١) صحيح البخاري [٢٥١٨]، ومسلم [٨٤].

(٢) انظر: مصابيح الجامع (٤١٧/٥)، مرقاة المفاتيح (٢٢١٤/٦-٢٢١٥)، وانظر: ذلك مفصلًا في (شرح النووي على صحيح مسلم) (٧٥/٢)، فتح الباري، لابن حجر (١٤٩/٥).

(٣) فتح الباري، لابن حجر (١٥٠/٥)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٨٠/١٣).

و. التعاون على البرِّ والتقوى:

إنَّ البرَّ من أسباب الألفة؛ لأنَّه يوصل إلى القلوب ألطافًا، ويثنيها محبَّة وانعطافًا؛ ولذلك ندب الله عَزَّوَجَلَّ إلى التعاون عليه، وقرنه بالتَّقوى له، فقال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢]؛ لأنَّ له في التَّقوى: رضا الله عَزَّوَجَلَّ، وفي البرِّ: رضا النَّاس، ومن جمع بين رضا الله عَزَّوَجَلَّ ورضا النَّاس، فقد تمَّت سعادته، وعمَّت نعمته (١).

ز. الإهداء:

الهدية خلق من أخلاق الإسلام، وهي من صنائع المعروف التي تؤلف القلوب، وتنفي سخائم الصدور، تؤنس المهدَى إليه، وتؤكد الصحبة، وتجلب المودة، وتزرع المحبة.

وفي الحديث: «**تهادوا تحابوا**» (٢).

(١) أدب الدنيا والدين، للماوردي (١/١٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) [٥٩٤]، وأبو يعلى [٦١٤٨]، والدولابي في (الكنى) [٨٤٢]، وأبو الشيخ في (الأمثال) [٢٤٥]، وتمام في (الفوائد) [١٥٧٧]، والشهاب [٦٥٧]، والبيهقي في (الآداب) [٨١]، و(السنن الصغير) [٢٢٣٠]، و(الكبرى) [١١٩٤٦]، و(شعب الإيمان) [٨٥٦٨]. قال الحافظ العراقي: "أخرجه البخاري في كتاب: (الأدب المفرد)، والبيهقي من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسند جيد". المغني عن حمل الأسفار (ص:٤٧٨). وقال الحافظ ابن حجر في (التلخيص الحبير) (٣/١٦٣): "رواه البخاري في (الأدب المفرد)، والبيهقي. وأورده ابن طاهر في (مسند الشهاب) من طريق محمد بن بكير عن ضمام بن إسماعيل عن موسى بن وردان عن أبي هريرة، وإسناده حسن".

وعن ثابت رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: كان أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: يا بني تباذلوا بينكم، فإنه أود لما بينكم(١).

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أما الهدية فلا بأس بقبولها؛ فإن قبولها سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن ينبغي أن لا يكون فيها مِنَّة، فإن كان فيها منة فالأولى تركها. فإن علم أن بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض"(٢).

ح. الزيارة في الله عَزَّ وَجَلَّ:

إنَّ من صنائع المعروف ووسائل استمالة القلوب: الزيارة في الله عَزَّ وَجَلَّ. ففي الحديث: «**زر غبًّا تزدد حبًّا**»(٣).

وقد ذكر أهل العلم أنَّ هناك آدابًا للزيارة ينبغي أن يحرص عليها المسلم حتى تتحقق مقاصد الزيارة من الألفة والتعاضد والتعاون على البر والتقوى.

ومن هذه الآداب: إخلاص النية، ومحبة الخير، والنصح بالمعروف للمزور. ومنها: عدم الإكثار من الزيارة لدرجة الإفراط بحيث يسأم المزور من كثرة التردد عليه. ومنها:

---

(١) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) [٥٩٥] بإسناد صحيح.

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٢٠٧).

(٣) قال الحافظ في (الفتح) (١٠/٤٩٨): "قد ورد من طرق أكثرها غرائب لا يخلو واحد منها من مقال". ومن هذه الطرق حديث ابن عمرو: وقد أخرجه ابن أبي الدنيا في (كتاب الإخوان) [١٠٤]، والطبراني في (الكبير) [١٧٣]. قال الهيثمي في (مجمع الزوائد) (٨/١٧٥): "رواه الطبراني، وإسناده حسن". وأخرجه أيضًا: أبو الشيخ [١٨]، وتمام [٢٢٨]. و(غبًا): أي: يومًا بعد يوم.

عدم إطالة الزيارة. ومنها: تحري الأوقات المناسبة. ومنها: الالتزام بآداب الاستئذان. ومنها: أن يغض بصره عن محارم أهل البيت. ومنها: أن يشغل وقت الزيارة بالكلام النافع، وأن يحترز عن اللغو، وكثرة المزاح، ويتجنب الغيبة والنميمة، ورفع الصوت، وأن يحترز عن التجسس. ومنها: أن يضبط أولاده فلا يعيثون في بيوت الناس. ومنها: أن يشكر أهل البيت على استضافتهم له.. إلى غير ذلك، فهذه الآداب تحقق مقاصد الزيارة، وأهمها كما تقدم: المحبة، بمعنى أن يكون الباعث الأقوى على الزيارة: المحبة.

ط. إجابة الدعوة وأداء الحقوق:

إنَّ إجابة الدعوة في الإسلام من لوازم الأخوة، وهي من صنائع المعروف التي تزيد الود، وتصفِّي النفوس؛ ولذلك جعلها الإسلام من الحقوق والخصال الواجبة؛ لحديث: هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس**»(١).

فهذه الحقوق التي بيَّنها النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذا قام بها النَّاس حصل بذلك الألفة والمودَّة، وزال ما في القلوب والنُّفوس مِن الضَّغائن والأحقاد.

(١) صحيح البخاري [١٢٤٠]، مسلم [٢١٦٢].

وفي رواية: «**حق المسلم على المسلم ست**»، قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال: «**إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه**» (١).

وحديث: «**إذا دعي أحدكم إلى طعام، فليجب، فإن شاء طعم، وإن شاء ترك**» (٢). ففي الحديث: التأكيد على الإجابة واللقاء الذي يحقق المودة والمحبة والتفاهم، ما لم يكن في الإجابة منكر أو ما يجر إلى منكر.

وفي الحديث: «**من استعاذكم بالله فأعيذوه، ومن سألكم بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه**» (٣).

---

(١) أخرجه أحمد [٨٨٤٥، ٩٣٤١]، وهو في (صحيح مسلم) [٢١٦٢] مع اختلاف في بعض الألفاظ.
وتشميت العاطس أن يقول له: يرحمك الله. ويقال بالسين المهملة والمعجمة لغتان مشهورتان، والمعجمة أفصح. قال ثعلب: معناه بالمعجمة: أبعد الله عنك الشماتة، وبالمهملة هو من السمت، وهو القصد والهدى. وفي الحديث: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: عطس عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلان، فشمت أحدهما ولم يشمت الآخر، فقال الذي لم يشمته: عطس فلان فشمته، وعطست أنا فلم تشمتني، قال: «إن هذا حمد الله، وإنك لم تحمد الله» صحيح مسلم [٢٩٩١].

(٢) صحيح مسلم [١٤٣٠].

(٣) أخرجه الطيالسي [٢٠٠٧]، وأحمد [٥٣٦٥]، وابن حميد [٨٠٦]، وأبو داود [١٦٧٢]، والنسائي في (الكبرى) [٢٣٤٨]، وابن الأعرابي [٣٦٧]، وابن حبان [٣٣٧٥]، والطبراني في (الكبير) [٣٣٧٥]، و(الأوسط) [٤٠٣١]، والحاكم [١٥٠٢]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين". كما أخرجه الشهاب [٣٢٦٠]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٢٦٠]، عن ابن عمر. قال الإمام النووي في (الرياض) (ص:٤٨٠): "حديث صحيح، رواه أبو داود، والنسائي بأسانيد الصحيحين".

فكل ما ذكر في الحديث من الأسباب الجالبة للمحبة، ومن حقوق المسلمين بعضهم على بعض.

وفي الحديث: «**فكوا العاني، وأجيبوا الداعي، وعودوا المريض**» (١).

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لو دعيت إلى كراع لأجبت**» (٢).

ي. إفشاء السلام:

إنَّ إفشاء السلام من أقوى الأسباب التي تجلب المحبة والمودة.

وفي الحديث: «**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**» (٣).

وفي رواية: «**أفشوا السلام بينكم تحابوا**» (٤).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والسلام أول أسباب التآلف، ومفتاح استجلاب المودة. وفي إفشائه تمكن ألفة المسلمين بعضهم لبعض، وإظهار شعارهم المميز لهم من

---

(١) صحيح البخاري [٥١٧٤]. و«العاني»: الأسير، وكل من وقع في ذل واستكانة وخضوع.

(٢) صحيح البخاري [٥١٧٨]، مسلم [١٤٢٩]. و«الكراع» عند جماهير العلماء: كراع الشاة. وذكر أهل اللغة أن الكراع وزان: غراب من الغنم والبقر، بمنزلة الوظيف من الفرس والبعير، وهو مستدق الساق.

(٣) صحيح مسلم [٥٤].

(٤) أخرجه الحاكم [٧٣١٠]، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي.

غيرهم من أهل الملل، مع ما فيه من رياضة النفس، ولزوم التواضع، وإعظام حرمات المسلمين"(١).

والسلام من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ، والبداءة بذكره مما لا ريب في فضله ومزيته.

وقد أجمع العلماء على أن الابتداء بالسلام سنة مرغب فيها، ورده فريضة؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء:٨٦].

ويندب تحسين ردِّ السلام؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء:٨٦]، فإذا قيل لكم: (السلام عليكم) فقولوا: (وعليكم السلام ورحمة الله)، فالتحية التي هي أحسن منها هي: (وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته). ويقال: لكل شيء منتهى، ومنتهى السلام كلمة: (وبركاته).

أما ابتداء تحية غير المسلم بالسلام فمنعها أكثر أهل العلم؛ لحديث: أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في طريق، فاضطروه إلى أضيقه**»(٢).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُٱللَّهُ: "قال بعض أصحابنا: يكره ابتداؤهم بالسلام، ولا يحرم، وهذا ضعيف؛ لأن النهي للتحريم، فالصواب تحريم ابتدائهم. وحكى القاضي عياض رَحِمَهُٱللَّهُ عن جماعة أنه يجوز ابتداؤهم؛ للضرورة والحاجة. وهو قول علقمة والنخعي رَحِمَهُمَاٱللَّهُ. وقال الأوزاعي رَحِمَهُٱللَّهُ: إن سلَّمت فقد سلَّم الصالحون، وإن تركت

(١) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (٣٦/٢).
(٢) صحيح مسلم [٢١٦٧].

فقد ترك الصالحون. وأما المبتدع، فالمختار أن لا يبدأ بالسلام إلا لعذر وخوف من مفسدة"(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واختلفوا في وجوب الرد على أهل الكتاب، فالجمهور على وجوبه، وهو الصواب، وقالت طائفة: لا يجب الرد عليهم، كما لا يجب على أهل البدع وأولى، والصواب الأول، والفرق أنا مأمورون بهجر أهل البدع؛ تعزيرًا لهم، وتحذيرًا منهم، بخلاف أهل الذمة"(٢).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا كله إذا تحقق أنه قال: (السام عليكم)، أو شك فيما قال، فلو تحقق السامع أن الذمي قال له: (سلام عليكم) لا شك فيه، فهل له أن يقول: وعليك السلام، أو يقتصر على قوله: (وعليك؟)، فالذي تقتضيه الأدلة الشرعية وقواعد الشريعة أن يقال له: (وعليك السلام)؛ فإن هذا من باب: (العدل)، والله جَلَّ وَعَلَا يأمر بالعدل والإحسان.

وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾، فندب إلى الفضل، وأوجب العدل، ولا ينافي هذا شيئًا من أحاديث الباب بوجه ما؛ فإنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ إنما أمر بالاقتصار على قول الراد: (وعليكم)؛ بناء على السبب المذكور الذي كانوا يعتمدونه في تحيتهم، وأشار إليه في حديث: عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا فقال: «**ألا**

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٣٠٣٩/١٠)، وانظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم (٥٣/٧-٥٤)، شرح النووي على صحيح مسلم (١٤٤/١٤-١٤٥)، زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم (٣٨٨/٢).

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم (٣٨٩/٢).

تريني قلت: وعليكم، لما قالوا: السام عليكم؟» [1]. ثم قال: «**إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم**» [2]، والاعتبار وإن كان لعموم اللفظ فإنما يعتبر عمومه في نظير المذكور لا فيما يخالفه.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ [المجادلة:٨]، فإذا زال هذا السبب، وقال الكتابي: (سلام عليكم ورحمة الله) فالعدل في التحية يقتضي أن يرد عليه نظير سلامه -وبالله التوفيق-"[3].

والرد والإيناس حسن إذا كانت المصلحة تقتضي ذلك، كترغيبه في الإسلام، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل:١٢٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ الآية [العنكبوت:٤٦].

---

(١) تقدم حديث: عائشة رَضِوَاللَّهُعَنهَا.

(٢) جاء في الحديث: عن عبد الله بن عمر رَضِوَاللَّهُعَنهُمَا: أن رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ قال: «إذا سلم عليكم اليهود، فإنما يقول أحدهم: السام عليك، فقل: وعليك» صحيح البخاري [٦٢٥٧]، مسلم [٢١٦٤]. وعن أنس بن مالك رَضِوَاللَّهُعَنهُ قال: قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم» صحيح البخاري [٦٢٥٨]، مسلم [٢١٦٣]. وعن أنس بن مالك رَضِوَاللَّهُعَنهُ يقول: مرَّ يهودي برسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ فقال: السام عليك، فقال رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ: «وعليك»، فقال رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ: «أتدرون ما يقول؟ قال: السام عليك»، قالوا: يا رسول الله، ألا نقتله؟ قال: «لا، إذا سلم عليكم أهل الكتاب، فقولوا: وعليكم» صحيح البخاري [٦٩٢٦].

(٣) أحكام أهل الذمة (٤٢٥/١-٤٢٦).

ك. حسن الخلق:

إن من صنائع المعروف التي تؤلف بين القلوب، وتوثق الصلة بين الناس: حسن الخلق.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن الألفة ثمرة حسن الخلق، والتفرق ثمرة سوء الخلق، فحسن الخلق يوجب: التحاب والتآلف والتوافق، وسوء الخلق يثمر: التباغض والتحاسد والتدابر، ومهما كان المثمر محمودًا كانت الثمرة محمودة"(١).

وإنَّ قدوتنا في الأخلاقِ الفاضلة، والسِّيرة الطَّيبة رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. كيف لا؟ وقد مدحه الله عَزَّ وَجَلَّ في القرآن فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم:٤]، وقد وصفته السيدة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا بأن القرآنَ خُلُقُهُ(٢)، بمعنى أن امتثال القرآن أمرًا ونهيًا، وانقيادًا وعملًا، وظاهرًا وباطنًا، كان له سجية وطبعًا. ومعنى ذلك أنَّه قد ألزم نفسه ألا يفعل إلا ما أمره به القرآن، ولا يترك إلا ما نهاه عنه القرآن، فصار امتثال أمر ربه خُلُقًا له وسجية، صلوات الله وسلامه عليه(٣).

قال عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: لم يكن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاحشًا ولا متفحشًا، وكان يقول: «**إنَّ من خياركم أحسنكم أخلاقًا**»(٤).

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/١٥٧).

(٢) سئلت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عن خُلق رسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت للسائل: «ألست تقرأ القرآن؟»، قال: بلى، قالت: «فإن خلق نبي الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان القرآن» صحيح مسلم [٧٤٦].

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٨/١٨٩).

(٤) صحيح البخاري [٣٥٥٩].

وفي رواية: قال عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا، وقال: «**إنَّ من أحَبِّكُم إليَّ أحْسَنَكُم أخلاقًا**»(١).

وقد سئلت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كيف كان خلق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقالت: لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا ولا صَخَّابًا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح(٢).

وفي رواية: عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة: الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون**»، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: «**المتكبرون**»(٣).

---

(١) صحيح البخاري [٣٧٥٩]. وقد تقدم.

(٢) تقدم.

(٣) الحديث مروي عن جابر، وعن أبي ثعلبة الخشني، وعن أبي هريرة. حديث جابر: أخرجه الترمذي [٢٠١٨] وقال: "حسن غريب". كما أخرجه الخرائطي في (مكارم الأخلاق) [٢٤]، وأخرج بقيته في (مساوئ الأخلاق) [٦٣]، و[٥٨٣]، وابن عساكر (٣٩٧/٣٧). حديث أبي ثعلبة الخشني: أخرجه ابن أبي شيبة [٢٥٣٢٠]، وأحمد [١٧٧٣٢]، قال الهيثمي (٢١/٨): "رجاله رجال الصحيح". وأخرجه أيضًا: هناد في (الزهد) [١٢٥٥]، والحارث كما في (بغية الباحث) [٨٥٢]، والخرائطي في (مكارم الأخلاق) [٢٣]، وأخرج بقيته في (مساوئ الأخلاق) [٦٢]، وابن حبان [٤٨٢، ٥٥٥٧]، والطبراني [٥٨٨]، وأبو نعيم في (الحلية) (١٨٨/٥)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٤٦١٦]، والبيهقي [٢٠٥٨٨] وله أطراف أخرى.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "و(الثرثار): هو الكثير الكلام. و(المتشدق): من يتطاول على الناس في الكلام ويَبْذُو عليهم[(١)].

واعلم أنه لا يدخل في الذم: تحسين ألفاظ الخطب والمواعظ إذا لم يكن فيها إفراط وإغراب؛ لأن المقصود منها تهييج القلوب إلى طاعة الله عز وجل، ولحسن اللفظ في هذا أثر ظاهر"[(٢)].

وعن عبد الله بن سلام، قال: لما قدم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة انجفل الناس إليه[(٣)]، وقيل: قدم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استبنت وجه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال: «**يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا والناس نيام، تدخلون الجنة بسلام**»[(٤)]. فما ذكر في الحديث من صنائع المعروف، ومن الأخلاق السامية الجالبة للمحبة.

---

(١) (البَذَاء): الفحش في القول. يقال: "بذا على القوم يبذو بذاء بالفتح والمد: سفه وأفحش في منطقه – وإن كان كلامه صدقًا– فهو بذي على فعيل، وامرأة بذية كذلك، وأبذى بالألف وبذي وبذو من بابي: تعب وقرب لغات فيه. وبذأ يبذأ مهموز بفتحهما بذاء وبذاءة بالمد وفتح الأول كذلك، وبذأته العين: ازدرته واستخفت به" المصباح المنير، مادة: (بذو) (١/ ٤١).

(٢) الأذكار (ص:٣٧٢).

(٣) أي: ذهبوا مسرعين.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٥٨٤٧]، وأحمد [٢٣٧٨٤]، وعبد بن حميد [٤٩٦]، والدارمي [١٥٠١]، وابن ماجه [١٣٣٤]، والترمذي [٢٤٨٥]، وقال: "هذا حديث صحيح"، كما أخرجه الطبراني في=

وقد تقدم أن حسن الخلق ولين الجانب من المنجيات من العذاب في الآخرة، كما جاء في الحديث: عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا أخبركُم بمن يَحْرُمُ على النَّار، أو بمن تَحْرُمُ عليه النَّار، على كلِّ قريبٍ هَيِّنٍ سَهْلٍ**» (١).

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير مثال تطبيقي للأخلاق الفاضلة. وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تحت عنوان: (فائدة جليلة): "جمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين تقوى الله عَزَّ وَجَلَّ وحسن الخلق؛ لأن تقوى الله يصلح ما بين العبد وبين ربه عَزَّ وَجَلَّ، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه، فتقوى الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعو إلى محبته"(٢).

وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثير الدعاء لله عَزَّ وَجَلَّ، دائم الابتهال إلى الله عَزَّ وَجَلَّ أن يزينه بمكارم الأخلاق، فكان يقول في دعائه: «**اللهم كما أحسنت خَلْقِي فأحسن خُلُقِي**» (٣). فاستجاب الله عَزَّ وَجَلَّ دعائه، وأنزل عليه القرآن الكريم وأدبه به، فكان خُلُقُه القرآن.

=(الكبير) [٣٨٥]، والحاكم [٤٢٨٣]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي.
وأخرجه أيضًا: تمام [١٠٦٦]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٠٩٠]، والضياء [٤٠٤].

(١) تقدم.

(٢) الفوائد، لابن القيم (ص:٥٤).

(٣) أخرجه أحمد عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا [٢٤٣٩٢]. قال الهيثمي (١٠/١٧٣): "رجاله رجال الصحيح".
وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٨١٨٤].

ل. إصلاح ذات البين:

ومن صنائع المعروف: إصلاح ذات البين في النزاع والخصومات بين الأفراد، وبين الجماعات من القبائل والطوائف، وبين الإخوة، وبين الزوجين، وبين الأقارب والأرحام:

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بإصلاح ذات البين فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ [الأنفال:١]. قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾، أي: ما بينكم من الأحوال، حق تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق (١).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾ [الحجرات:٩-١٠].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ [النساء:٣٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ۝١٢٨ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝١٢٩﴾ [النساء:١٢٨-١٢٩].

(١) الكشاف (٢/١٩٥).

والاشتغال بالصلح بين المتخاصمين أفضل من الاشتغال بنوافل العبادات؛ لما في الإصلاح بين الناس من نفع يتعدى إلى غير واحد فيكون سببًا في وصل أرحام قطعت، وإلى تآلفِ قلوبٍ بين إخوان أو جماعات يؤول إلى وصل بعد هجر وخصام، وذلك يؤدي إلى متانة المجتمع وقوته بتآلف أفراده وتماسكهم.

وقد جاء في الحديث: عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟**»، قالوا: بلى، يا رسول الله قال: «**إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين الحالقة**» (١).

وفي رواية: «**وإن البغضة هي الحالقة**» (٢).

وفي (المرقاة): "قال الأشْرَف: المراد بهذه المذكورات النوافل دون الفرائض. قلت: -والله أعلم بالمراد- إذ قد يتصور أن يكون الإصلاح في فساد يَتَفَرَّعُ عليه سفك الدماء، ونهب الأموال، وهَتْكُ الْحُرُم أَفْضَلُ من فَرَائِض هذه العبادات الْقَاصِرَةِ مع إمكانِ قَضَائِهَا على فَرْضِ تركها، فهي من حقوق الله عَزَّوَجَلَّ التي هي أهون عنده جَلَّوَعَلَا من حقوق العباد، فإذا كان كذلك، فيصح أن يقال هذا الجنس من العمل

(١) أخرجه أحمد [٢٧٥٠٨]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٣٩١]، وأبو داود [٤٩١٩]، والترمذي [٢٥٠٩]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: البزار [٤١٠٩]، وقال: "إسناده صحيح". كما أخرجه: الخرائطي في (مكارم الأخلاق) [٣٨٥]، وابن حبان [٥٠٩٢]، والطبراني في (مكارم الأخلاق) [٧٥]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٠٥٧٨].

(٢) الأدب المفرد [٤١٢].

أفضل من هذا الجنس، لكون بعض أفراده أَفْضَلَ كَالْبَشَرِ خَيْرٌ من الْمَلَكِ، والرَّجُلُ خَيْرٌ من المرأة"(١).

وقوله: «**وإن البغضة هي الحالقة**»؛ لأن في تباغضهم افتراق كلمتهم وتشتت أمرهم، وفى ذلك ظهور عدوهم عليهم ودروس دينهم (٢).

وفي (المرقاة): قوله: «**هي الحالقة**»، أي: الماحية والمزيلة للمثوبات والخيرات، والمعنى: يمنعه شؤم هذا الفعل عن تحصيل الطاعات والعبادات.

وقيل: المهلكة من حَلَقَ بعضُهم بَعْضًا، أي: قَتْلٌ مأخوذٌ من حَلْقِ الشَّعْر.

وفي (النهاية) (٣) هي الخصلة التي من شأنها أن تحلق، أي: تهلك، وتستأصل الدين كما يستأصل الموس الشعر.

وقيل: هي قطيعة الرحم والتظالم (٤).

وقال الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ(٥): فيه حث وترغيب في إصلاح ذات البين واجتناب عن الإفساد فيها؛ لأن الإصلاح سبب للاعتصام بحبل الله عَزَّوَجَلَّ، وعدم التفرق بين المسلمين، وفساد ذات البين ثُلْمَةٌ في الدين، فمن تعاطى إصلاحها ورفع فسادها نال

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣١٥٣/٨).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٢٥٩/٩).

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (حَلَقَ) (٤٢٨/١).

(٤) قال الزمخشري: "«الحالقة»: قطيعة الرحم والتظالم؛ لأنها تجتاح الناس وتهلكهم كما يحلق الشعر يقال: وقعت فيهم حالقة لم تدع شيئًا إلا أهلكته". الفائق في غريب الحديث والأثر (٣١٣/١)، وانظر: فيض القدير (١٢٦/٣).

(٥) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (الكاشف عن حقائق السنن) (٣٢١٤/١٠).

درجة فوق ما يناله الصائم القائم المشتغل بِخُوَيْصَةِ نفسه، فعلى هذا ينبغي أن يحمل الصلاة والصيام على الإطلاق، والحالقة على ما يَحْتَاجُ إليه أَمْرُ الدِّينِ"(١).

والإصلاح بين الناس معدود من الصدقات، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كل سُلاَمَى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة**» (٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "«**يعدل بين الاثنين صدقة**»، أي: يصلح بينهما بالعدل"(٣).

وينبغي الاحتراز عما يفسد ذات البين، ومن ذلك: المجادلة الباطلة (٤).. إلى غير ذلك.

---

(١) مرقاة المفاتيح (٣١٥٤/٨).

(٢) أخرجه البخاري [٢٩٨٩]، ومسلم [١٠٠٩]. و«سلامى» قال الإمام النووي: "هو بضم السين وتخفيف اللام، وأصله: عظام الأصابع وسائر الكف، ثم استعمل في جميع عظام البدن ومفاصله" شرح النووي على صحيح مسلم (٢٣٣/٥).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٩٥/٧).

(٤) انظر: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (٣١٦/٩).

م. الشفاعة الحسنة:

إنَّ من صنائع المعروف، ومن أعظم ما ينفع الناس وقت شدتهم، ويرفع عنهم الظلم والشر، ويحق الحق، ويجلب لهم الخير والنفع: الشفاعة الحسنة:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾ [النساء:٨٥].

قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾، أي: يتوسط في أمر فيترتب عليه خير من دفع ضر، أو جلب نفع؛ ابتغاء لوجه الله عَزَّوَجَلَّ. ﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ﴾ وهو ثواب الشفاعة، والتسبب إلى الخير الواقع بها. ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾ وهي ما كانت بخلاف الحسنة، بأن كانت في أمر غير مشروع. ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾ أي: نصيب من وزرها الذي ترتب على سعيه، مساو لها في المقدار من غير أن ينقص منه شيء.

وقد تكون الشفاعة الحسنة أو الوجاهة في الخير سببًا في رفع ظلم، ودفع الشر، أو إيصال الخير.

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الشفاعة الحسنة: هي التي روعي بها حق مسلم، ودفع بها عنه شر، أو جلب إليه خير. وابتغى بها وجه اللَّه عَزَّوَجَلَّ، ولم تؤخذ عليها رشوة، وكانت في أمر جائز لا في حدّ من حدود اللَّه ولا في حق من الحقوق.

والسيئة: ما كان بخلاف ذلك"(١).

(١) الكشاف (٥٤٣/١).

قال الإمام السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فيه: مدح الشفاعة، وذم السعاية، وهي: الشفاعة السيئة وذكر الناس عند السلطان بالسوء وهي معدودة من الكبائر"(١).

وقال الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الشفاعة: الوساطة في إيصال خير أو دفع شر، سواء كانت بطلب من المنتفع أم لا. ووصفها بالحسنة وصف كاشف؛ لأن الشفاعة لا تطلق إلا على الوساطة في الخير، وأما إطلاق الشفاعة على السعي في جلب شر فهو مشاكلة، وقرينتها وصفها بسيئة"(٢).

وقد جاء في الحديث: عن أبي موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أتاه طالب حاجة، أقبل على جلسائه فقال: «**اشفعوا فَلْتُؤْجَرُوا، وليقضِ الله على لسان نَبِيّهِ ما أَحَبَّ**» (٣).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فيه استحباب الشفاعة لأصحاب الحوائج المباحة، سواء كانت الشفاعة إلى سلطان ووال ونحوهما، أم إلى واحد من الناس، وسواء كانت الشفاعة إلى سلطان في كفِّ ظلم، أو إسقاط تعزير، أو في تخليص عطاء لمحتاج، أو نحو ذلك. وأما الشفاعة في الحدود فحرام، وكذا الشفاعة في تتميم باطل، أو إبطال حق، ونحو ذلك فهي حرام"(٤).

---

(١) الإكليل في استنباط التنزيل (ص:٩٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٤٣/٥-١٤٤).

(٣) صحيح البخاري [١٤٣٢، ٦٠٢٦، ٦٠٢٧، ٧٤٧٦]، مسلم [٢٦٢٧].

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧٧/١٦-١٧٨).

قال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذه الشفاعة المذكورة في الحديث هي في الحوائج والرغبات للسلطان، وذوي الأمر والجاه، كما شهد به صدر الحديث ومساقه، ولا يخفى ما فيها من الأجر والثواب؛ لأنها من باب: (صنائع المعروف، وكشف الكرب ومعونة الضعيف)؛ إذ ليس كل أحد يقدر على الوصول إلى السلطان وذوي الأمر"[١].

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الشفاعة لأصحاب الحوائج والرغبات عند السلطان وغيره مشروعة محمودة، مأجور عليها صاحبها، بشهادة هذا الحديث، وشهادة كتاب الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾ [النساء:٨٥] على أحد التأويلين.

وفيه: أن معونة المسلم فى كل حال بفعل أو قول فيها أجر، وفيه: عموم الشفاعة للمذنبين، وهى جائزة فيما لا حدَّ فيه عند السلطان وغيره، وله قبول الشفاعة فيه والعفو عنه إذا رأى ذلك، كما له العفو عنه ابتداء، وهذا فيمن كانت منه الذلة والفلتة، وفي أهل الستر والعفاف، ومن طمع بوقوعه عند السلطان والعفو عنه من العقوبة أن يكون له توبة، وأما المصِرُّون على فسادهم، المستهزئون فى باطلهم، فلا تجوز الشفاعة لأمثالهم، ولا ترك السلطان عقوبتهم؛ ليزدجروا عن ذلك، وليرتدع غيرهم بما يفعل بهم، وقد جاء الوعيد في الشفاعة في الحدود"[٢].

قوله: (وقد جاء الوعيد في الشفاعة في الحدود)، يعني: ما جاء في حديث: عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**من حالت شفاعته**

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/٦٣٣).

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٨/١٠٧).

دون حد من حدود الله، فقد ضاد الله، ومن خاصم في باطل وهو يعلمه، لم يزل في سخط الله حتى ينزع عنه، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال»[١]. و«**ردغة الخبال**»، وهي صديد أهل النار.

في الحديث: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن قريشًا أَهَمَّهُمْ شأنُ المرأة المخْزُومِيَّة التي سرقت، فقالوا: ومن يُكَلِّمُ فيها رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، حِبُّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكلمه أسامة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ من حدود الله، ثم قام فَاخْتَطَبَ، ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وَايْمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»**[٢].

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "ذهب جماعة العلماء إلى أن الحدَّ إذا بلغ الإمام أنه يجب عليه إقامته؛ لأنه قد تعلق بذلك حق لله عَزَّوَجَلَّ، ولا تجوز الشفاعة فيه؛ لإنكاره ذلك على أسامة، وذلك من أبلغ النهي"[٣]، ولحديث: صفوان بن أمية أن رجلًا سرق بُرْدَةً

---

(١) أخرجه أحمد [٥٣٨٥]، وأبو داود [٣٥٩٧]، والطبراني [١٣٤٣٥]، والحاكم [٢٢٢٢] وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (السنن) [١١٤٤١]، وفي (شعب الإيمان) [٦٣٠٩].

(٢) صحيح البخاري [٣٤٧٥، ٤٣٠٤، ٦٧٨٧، ٦٧٨٨]، مسلم [١٦٨٨].

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٨/ ٤٠٨).

فرفعه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأمر بقطعه فقال: يا رسول الله، قد تجاوَزْتُ عنه. قال: «**فلولا كان هذا قبل أن تأتيني به يا أبا وهب**»، فقطعه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١).

وفي رواية: عن صفوان بن أمية، قال: كنت نائمًا في المسجد عَلَيَّ خَمِيصَةٌ لِي ثَمَنُهَا ثَلَاثُون درهمًا، فجاء رجل فَاخْتَلَسَهَا مِنِّي، فَأُخِذَ الرَّجُلُ، فَأُتِيَ به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَرَ به لِيُقْطَع، قال: فَأَتَيْتُه، فقلت: أَتَقْطَعُه من أجل ثلاثين درهمًا، أنا أَبِيعُه وَأُنْسِئُه ثمنها؟ قال: «**فَهَلَّا كان هذا قبل أن تأتيني به**»(٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ذكر مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ في الباب الأحاديث في النهي عن الشفاعة في الحدود، وأن ذلك هو سبب هلاك بني إسرائيل، وقد أجمع العلماء على تحريم الشفاعة في الحد بعد بلوغه إلى الإمام لهذه الأحاديث. وعلى أنه يحرم التَّشْفِيع

---

(١) أخرجه أحمد [١٥٣٠٥]، والنسائي في (السنن) [٤٨٧٩]، وفي (الكبرى) [٧٣٢٤]، والطبراني [٧٣٣٧]، والضياء [٧]. وهو صحيح بالمتابعة.

(٢) أخرجه أبو داود [٤٣٩٤]، والنسائي في (السنن) [٤٨٨٣]، وفي (الكبرى) [٧٣٢٨]، وابن الجارود [٨٢٨]، والدارقطني [٣٤٦٥]، والحاكم [٨١٤٩]، والبيهقي [١٧٢١٨]. قال ابن الملقن: "هذا الحديث صحيح، رواه مالك في (الموطأ)، والشافعي عنه، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والبيهقي في (سننهم)، والحاكم في (مستدركه) بألفاظ متغايرة.." البدر المنير (٦٥٢/٨). وقال الحافظ في (التلخيص الحبير) (١١٩/٤-١٢٠): "أخرجه مالك، والشافعي، وأصحاب السنن، والحاكم من طرق: منها: عن طاوس، عن صفوان، ورجحها ابن عبد البر، وقال: إن سماع طاوس من صفوان ممكن؛ لأنه أدرك زمن عثمان، وقال البيهقي: روي عن طاوس، عن ابن عباس، وليس بصحيح، ورواه مالك، عن الزهري، عن عبد الله بن صفوان، عن أبيه: أنه طاف بالبيت وصلى، ثم لف رداء له من برد، فوضعه تحت رأسه، فنام، فأتاه لص فاستله من تحت رأسه، فأخذه. فذكر الحديث أخرجه ابن ماجه، وله شاهد في (الدارقطني) من حديث: عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، وسنده ضعيف".

فيه، فأما قبل بلوغه إلى الإمام فقد أجاز الشفاعة فيه أكثر العلماء إذا لم يكن المشفوع فيه صاحب شَرٍّ وَأَذًى للناس، فإن كان لم يُشْفَعْ فيه. وأما المعاصي التي لا حَدَّ فيها وواجبها التعزير فتجوز الشفاعة والتشفيع فيها سواء بلغت الإمام أم لا؛ لأنها أهون، ثم الشفاعة فيها مستحبة إذا لم يكن المشفوع فيه صاحب أذى ونحوه"(١).

قال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي هذا الحديث: دليل على امتناع الشفاعة في الحدِّ بعد بلوغه السلطان، وفيه تعظيم أمر المحاباة للأشراف في حقوق الله جَلَّ وَعَلَا"(٢).

ن. الزهد في الدنيا، والتَّعفُّف عن سؤال النَّاس:

إن الزهد في الدنيا والتَّعفُّف عن سؤال النَّاس من الأسباب تجلب المحبة، وتوثق الصِّلة مع الله عَزَّ وَجَلَّ، ومع الناس، كما جاء في الحديث: «**ازهد في الدنيا يحبَّك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس**» (٣)؛ لأن قلوبهم مجبولة على حبِّها مطبوعة

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١١/١٨٦)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٦/٢٣٦٧).

(٢) إحكام الإحكام (٢/٢٤٨).

(٣) الحديث مروي عن سهل بن سعد وقد أخرجه ابن ماجه [٤١٠٢]، والطبراني [٥٩٧٢]، والحاكم [٧٨٧٣]، وقال: "صحيح الإسناد". قال الذهبي: "خالد بن عمرو القرشي وضاع". ولكنه لم يتفرد به. وأخرجه أيضًا: القضاعي [٦٤٣]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٠٠٤٣]. وأورده ابن أبي حاتم في (العلل) [١٨١٥]، وابن الجوزي في (العلل المتناهية) [١٣٥٢]. قال المنذري: "رواه ابن ماجه، وقد حسن بعض مشايخنا إسناده، وفيه بعد؛ لأنه من رواية خالد بن عمرو القرشي الأموي السعيدي، وخالد هذا قد ترك، واتهم ولم أر من وثقه؛ لكن على هذا الحديث لامعة من أنوار النبوة، ولا يمنع كونه رواه الضعفاء أن يكون النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاله اهـ". الترغيب والترهيب (٤/٧٤-٧٥). قال=

عليها، ومن نازع إنسانًا في محبوبه كرهه وقلاه، ومن لم يعارضه فيه أحبه واصطفاه؛ ولهذا قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يزال الرجل كريمًا على الناس حتى يطمع في دنياهم فيستخفون به ويكرهون حديثه. وقيل لبعض أهل البصرة: من سيدكم؟ قال: الحسن، قال: بم سادكم؟ قال: احتجنا لعلمه، واستغنى عن دنيانا (١).

وكتب أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى بعض إخوانه: أما بعد، فإني أوصيك بتقوى الله، والزهد في الدنيا، والرغبة فيما عند الله، فإنك إذا فعلت ذلك أحبك الله؛ لرغبتك فيما عنده، وأحبك الناس؛ لتركك لهم دنياهم والسلام (٢).

س. المحبة في الله عَزَّ وَجَلَّ**، وإرادة الخير:**

جاء في فضل الحُبِّ في الله عَزَّ وَجَلَّ: ما رواه أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله يقول يوم القيامة: أين الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي، اليومَ أُظِلُّهُمْ في ظِلِّي يوم لا ظِلَّ إلَّا ظِلِّي**» (٣).

=الإمام النووي: "حديث حسن، رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة" رياض الصالحين (ص:١٧٥)، الأذكار (ص:٤٠٧)، وانظر: فيض القدير (٤٨١/١)، مصباح الزجاجة (٢١٠/٤).

(١) فيض القدير (٤٨١/١).

(٢) شعب الإيمان [١٠١٧٩].

(٣) صحيح مسلم [٢٥٦٦].

إنَّ الأخوة في الله عَزَّوَجَلَّ ركيزة من ركائز هذا الدين، ورابطة وثيقة تسمو على سائر العلاقات التي تربط بين الناس؛ لأنها مبنية على العقيدة، وهي أوثق الروابط وأقواها.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠].

وفي الحديث: «**لا يؤمن أحدكم، حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(١)، وفي رواية: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير**»(٢). فهذا الحديث أصل عظيم في محبة المسلمين، والنصح لهم وإيثارهم؛ فإنَّ من كمال إيمان العبد: أن يحب لأخيه المسلم من الخير ما يحب لنفسه، وأن يكره لأخيه المسلم من الشر ما يكره لنفسه، وأن يرشد إخوانه إلى ما ينفعهم، ويحذرهم عما يضرهم.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المؤمن يسره ما يسر أخاه المؤمن، ويريد لأخيه المؤمن ما يريده لنفسه من الخير، وهذا كله إنما يأتي من كمال سلامة الصدر من الغل والغش والحسد"(٣).

---

(١) صحيح البخاري [١٣]، مسلم [٧١].

(٢) أخرجه وأحمد [١٣٦٢٩]، النسائي في (السنن) [٥٠١٧]، وأبو يعلى [٢٨٨٧]، والشهاب [٨٨٨].
وفي رواية: «لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يحب للناس ما يحب لنفسه من الخير» أخرجه أبو يعلى [٣٠٨١]، وابن حبان [٢٣٥]، والضياء [٢٥٢٥].

(٣) جامع العلوم والحكم (١/٣٠٦).

وفي الحديث: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**» (١).

وفي الحديث: «**ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى عضوًا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى**» (٢).

وفي الحديث: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة**» (٣).

فقوله: «**ولا يسلمه**» أي: لا يتركه مع من يؤذيه، ولا فيما يؤذيه، بل ينصره ويدفع عنه (٤).

وفي رواية: «**لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا** (٥)**، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره التقوى هاهنا**»، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، «**بحسب امرئ**

---

(١) صحيح البخاري [٤٨١، ٢٤٤٦، ٦٠٢٦]، مسلم [٢٥٨٥].

(٢) صحيح البخاري [٦٠١١]، واللفظ له، ومسلم [٦٦، ٦٧].

(٣) صحيح البخاري [٢٤٤٢، ٦٩٥١] عن عبد الله بن عمر، وأخرجه مسلم [٢٥٨٠] عن الزهري، عن سالم، عن أبيه.

(٤) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٥/ ٩٧).

(٥) قال الإمام أبو العباس القرطبي في (شرحه لصحيح مسلم): "أي: كونوا كإخوان النسب في الشفقة والمحبة والرحمة والمواساة والمعاونة والنصيحة" المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٥٣٢/٦)، وانظر: طرح التثريب، للعراقي (٩٧/٨)، فتح الباري، لابن حجر (٤٨٣/١٠).

من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه» [1].

وفي رواية: «**المسلم أخو المسلم، لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله، كل المسلم على المسلم حرام، عرضه وماله ودمه**» [2].

فالمسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يعيبه، ولا يخذله، ولا يتطاول عليه في البنيان، فيستر عليه الريح إلَّا بإذنه، ولا يؤذيه بِقُتَارِ قدره [3] إلَّا أن يَغْرِفَ له، ولا يشتري لبنيه الفاكهة فيخرجون بها إلى صبيان جاره، ولا يطعمونهم منها.. إلى غير ذلك.

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا حقيقة الحب في الله عَزَّوَجَلَّ: "حقيقة الحب في الله جَلَّ وَعَلَا أن لا يزيد بالبر، ولا ينقص بالجفاء"[4].

والمودة والرحمة رباط وثيق أساسه الإيمان والعقيدة، وقد امتنَّ الله عَزَّوَجَلَّ على عباده فألَّف بينهم، وجعل بينهم مودة ورحمة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم:٩٦]، ففيه إشارة إلى ما أوقع بينهم من الألفة المذكورة في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ﴾ [الأنفال:٦٣].

---

(١) صحيح مسلم [٢٥٦٤].

(٢) أخرجه الترمذي [١٩٢٧]، وقال: "حسن غريب"، وأخرجه أيضًا: البزار [٨٨٩١].

(٣) القتار: الدخان المنبعث من المطبوخ ونحوه.

(٤) انظر: فتح الباري (٦٢/١)، فيض القدير (١٦٧/١).

والإخوة في الدين رابطة متينة توجب على المرء السعي في خير أخيه من خلال النصح والإرشاد والتعاون على البر والتقوى والعمل الصالح، وتحذيره من الظلم والبغي والشر، ومنعه من ذلك إن سلك طريقه، أو سعى إليه. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات:٩-١٠].

والأخوَّة الحقيقيَّة هي التي تقوم على الإيمان والمحبة في الله عَزَّوَجَلَّ ولله، وليس من أجل منفعةٍ دنيويَّة، أو مصلحةٍ شخصيَّة، أو عصبيَّة قبليَّة، أو غير ذلك من الماديَّات، فما كان لله عَزَّوَجَلَّ دام واتَّصل، وما كان لغيره انقطع وانفصل.

وقد قيل: إنَّ الكلمة منفردة وحيدة لا تعدو أن تكون رسمًا، قد تُفهمك معنى، ولكن فيضَ معانيها، وجمال قدرها لا يدرك إلَّا باتساقها مع غيرها من الكلمات، وكذلك هو حال المؤمن مع إخوانه وأحبابه..

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "القرابة الدينية أعظم من القرابة الطينية، والقرب بين القلوب والأرواح أعظم من القرب بين الأبدان"[١].

(١) منهاج السنة النبوية (٧/٧٨).

ع. **مقابلة الإحسان بالإحسان:**

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن:٦٠].

فالإحسان الأول: العمل، والإحسان الثاني: الثواب والجزاء الجميل الكريم على فعل الخير.

وجزاء الإحسان في كلِّ شيء بحسبه.

وفي الحديث: «**من استعاذكم بالله فأعيذوه، ومن سألكم بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه**» (١).

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ومن صنع إليكم معروفًا**» "أي: أحسن إليكم إحسانًا قوليًا أو فعليًا. «**فكافئوه**» من المكافأة، أي: أحسنوا إليه مثل ما أحسن إليكم، لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن:٦٠]. وقوله: ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ [القصص:٧٧].

قوله: «**فإن لم تجدوا ما تكافئونه**»، أي: بالمال. «**فادعوا له**» أي: للمحسن، يعني: فكافئوه بالدعاء له. «**حتى تروا**» -بضم التاء- أي: تظنوا، -وبفتحها- أي: تعلموا أو تحسبوا. «**أنكم قد كافأتموه**» أي: كرروا الدعاء حتى تظنوا قد أدَّيتُم حقَّه (٢).

---

(١) تقدم.

(٢) انظر: مرقاة المفاتيح (١٣٥٥/٤)، المفاتيح في شرح المصابيح (٥٥٣/٢).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المعنى: أن من أحسن إليكم أيَّ إحسان فكافئوه بمثله، فإن لم تقدروا على ذلك، فبالغوا في الدعاء له جهدكم حتى تحصل المثلية، ووجه المبالغة: أنه رأى من نفسه تقصيرًا في المجازاة، فأحالها إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ونعم المجازي هو. وقد جاء في حديث آخر: عن أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من صنع إليه معروف، فقال: جزاك الله خيراً، فقد أبلغ في الثناء»**"(١). وقال في موضع آخر: "وذلك أنه اعترف بالتقصير، وأنه ممن عجز عن جزائه وثنائه، ففوض جزاءه إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ ليجزيه الجزاء الأوفى"(٢).

قال بعضهم: إذا قصرت يداك بالمكافأة فليطل لسانك بالشكر والدعاء.

وعن عبد الله بن أبي ربيعة، عن أبيه، عن جده، قال: استقرض مني النبي صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربعين ألفًا، فجاءه مال فدفعه إليَّ، وقال: **«بارك الله لك في أهلك ومالك، إنما جزاء السَّلف: الحمدُ والأداء»**(٣).

وقوله: **«إنما جزاء السلف»**: أي: القرض. **«الحمد»**: أي: الشكر والثناء. **«والأداء»**: أي: أداء حقه بحسن الوفاء.

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٥٦٦/٥). والحديث أخرجه: الترمذي [٢٠٣٥] وقال: "حسن جيد غريب". كما أخرجه: البزار [٢٦٠١]، والنسائي في (الكبرى) [٩٩٣٧]، وابن حبان [٣٤١٣]، والطبراني في (الصغير) [١١٨٣]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٨٧١٣]، والضياء [١٣٢٢].

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٢٢٣١/٧).

(٣) أخرجه أحمد [١٦٤١٠]، وابن ماجه [٢٤٢٤]، والنسائي [٤٦٨٣]، وأبو نعيم في (الحلية) (١١١/٧)، والبيهقي [٦٢٣٦]. قال الحافظ العراقي: "أخرجه النسائي من حديث: عبد الله بن أبي ربيعة قال: استقرض مني النبي صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربعين ألفًا، فجاءه مال فدفعه إلي.. قال: فذكره. وإسناده حسن".

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فيستحب للمدين عند قضاء الدين أن يحمد المقضي له بأن يقول: (بارك الله لك في أهلك ومالك) انتهى"[(١)]. وما اقتضاه وضع «**إنما**» من ثبوت الحكم المذكور، ونفيه عما عداه من أن الزيادة على الدين زيادة غير جائزة غير مراد، وإنما هو على سبيل الوجوب؛ لأن شكر المنعم وأداء حقه واجبان، والزيادة فضل -ذكره الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ- [(٢)].

وقد قالوا: لا مانع من ردِّ المبلغ مع زيادة، لكن بدون شرط، ولا تواطؤ على الزيادة؛ لحديث: أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن رجلًا أتى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتقاضاه بعيرًا، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أعطوه**»، فقالوا: ما نجد إلا سِنًّا أفضل من سِنِّه، فقال الرجل: أوفيتني أوفاك الله، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أعطوه؛ فإن من خيار الناس: أحسنهم قضاء**» [(٣)].

وعند مسلم: عن أبي رافع أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استسلف من رجل بَكْرًا، فقدمت عليه إبل من إبل الصدقة، فأمر أبا رافع أن يقضي الرجل بكره، فرجع إليه أبو رافع، فقال: لم أجد فيها إلا خيارًا رباعيًّا، فقال: «**أعطه إياه، إن خيار الناس أحسنهم قضاء**» [(٤)].

---

(١) إحياء علوم الدين (١/٣٢٨).

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٧/٢١٨٢)، وانظر: فيض القدير (٢/٥٧٣).

(٣) صحيح البخاري [٢٣٩٢].

(٤) صحيح مسلم [١٦٠٠].

وعبارة الفقهاء: (كل شرط جرَّ نفعًا للمقرض فهو ربًا) فقالوا: (كل شرط)، ولم يقولوا: (كل زيادة).

قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وكل قرض شرط فيه أن يزيده، فهو حرام، بغير خلاف. قال ابن المنذر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أجمعوا على أن المسلف إذا شرط على المستسلف زيادة أو هدية، فأسلف على ذلك، أن أخذ الزيادة على ذلك ربًا"(١).

قالوا: وأما إذا كانت الزيادة المفروضة على أصل الدين بدل خدمات ومصاريف للقرض، فلا مانع شرعًا من فرضها، شريطة أن تكون حقيقية، وعلى قدر التكلفة الفعلية.

والمسألة مبسوطة في كتب الفقه.

رابعًا: الحرصُ على أعمال البرِّ:

تعريف البر:

١ - البر لغة:

تدور مادة: (البر) في اللغة: على الصدق، والطاعة، والصلة، والإصلاح، والخير، والاتساع في الإحسان إلى الخلق.

يقال: بر يبر: إذا صلح. وبر في يمينه: إذا صدق، والبر: الصادق.

---

(١) المغني، لابن قدامة (٤/ ٢٤٠)، الإجماع، لابن المنذر (ص:١٠٩).

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "البِرُّ: خلاف العُقوقِ، والمبَرَّةُ مثْله. تقول: بَرِرْتُ والدي بالكسر، أَبَرُّهُ بِرًّا، فأنا بَرٌّ به وبارٌّ. وجمع البَرَّ: أَبْرارٌ، وجمع البار: البررة. وفلان يبر خالقه ويَتَبَرَّرُه، أي: يطيعه، والأمُّ بَرَّةٌ بولدها. وبَرَّ فلانٌ في يمينه، أي: صَدَقَ. وبَرَّ حَجُّهُ، وبُرَّ حجه، وبر الله عَزَّوَجَلَّ حجه، براء -بالكسر- في هذا كلِّه"[1]، أي: قَبِله.

وقال الليثُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: البَرُّ: خلاف البَحْر. والبَرِّية: الصَّحْراء. والبَرّ: نَقِيض الكِنّ.

قال: والعرب تستعمله في النَّكرة. تَقُول: جلستُ بَرًّا، وخَرَجْتُ بَرًّا[2].

قال أبو منصور الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا من كلام المولَّدين، وما سمعْتُه من فُصحاء العرب البادية.

ويقال: أَفْصَح العرب أَبَرُّهم.

معناه: أبعدهم في البَرِّ والبَدْو دارًا.

وقال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤١﴾ [الروم:٤١].

قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: معناه: ظهر الجَدْبُ في البَرّ، والقَحْطُ في البَحْر، أي: في مُدُن البَحْر، أي: في المدُن التي على الأنْهَار[3].

وقال شَمِر: البَرِّية: الأرض المنْسوبة إلى البَرّ، وهي بُرِّيَّة، إذا كانت إلى البَرّ أقرب منها إلى الماء.

---

(١) الصحاح، مادة: (برر) (٥٨٨/٢)، وانظر: مقاييس اللغة (١٧٩/١).

(٢) العين، مادة: (بر) (١٣٤/١٥).

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق الزجاج (١٨٨/٤).

وقال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾ [الأنعام:٥٩]. قال: البَرّ: القِفَار. والبَحْر: كل قَرْية فيها ماء.

وقال شِمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تَفْسِير قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**عليكم بالصدق؛ فإنَّ الصدق يهدي إلى البر**»(١). اختلف العلماء في تفسير البر، فقال بعضهم: البر: الصلاح. وقال بعضهم: البر: الخير. قال: ولا أعلم تفسيرًا أجمع منه؛ لأنه يحيط بجميع ما قالوا. الحج المبرور: الذي لا يخالطه شيء من المآثم. والبيع المبرور: الذي لا شبهة فيه، ولا كذب، ولا خيانة..

ويقال: بَرَّ فُلانٌ ذا قرابته، يَبَرّ بِرًّا.

وقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران:٩٢]. قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال بعضهم: إن كل ما يتقرب به إلى الله عَزَّوَجَلَّ من عمل خير فهو إنفاق(٢).

قال أبو منصور الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: البِرُّ: خير الدنيا والآخرة، فخير الدنيا: ما ييسره الله عَزَّوَجَلَّ للعبد من الهدى والنعمة والخيرات، وخير الآخرة: الفوز بالنعيم الدائم في الجنة. والبر من صفات الله عَزَّوَجَلَّ العطوف الرحيم اللطيف الكريم"(٣).

---

(١) أخرجه البخاري [٦٠٩٤]، ومسلم [٢٦٠٧].

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق الزجاج (٤٤٣/١).

(٣) تهذيب اللغة، مادة: (بر) (١٣٤/١٥).

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "البَرُّ خلاف البحر، وتصور منه: التوسع، فاشتق منه البِرُّ، أي: التوسـع في فعـل الخير.."[١].. وسيأتيك تمام قوله.

وقال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "في أسماء الله عَزَّوَجَلَّ: (البر) هو العطوف على عباده ببره ولطفه. والبر والبار بمعنى، وإنما جاء في أسماء الله عَزَّوَجَلَّ: (البر) دون (البار). و(البر) – بالكسر-: الإحسان.

ومنه الحديث في (بر الوالدين)، وهو في حقهما، وحق الأقربين من الأهل، ضد العقوق، وهو الإساءة إليهم، والتضييع لحقهم. يقال: بر يبر فهو بار، وجمعه: بررة، وجمع البر: أبرار، وهو كثيرًا ما يخص بالأولياء والزهاد والعباد"[٢].

٢ – تعريف البر في الاصطلاح، وبيان أنواعه، ومكانته:

بناء على ما تقدم من معنى: (البر) في اللغة يقال: إن (البر) في الاصطلاح: هو اسم جامع لكل ما يحبه الله عَزَّوَجَلَّ ويرضاه، من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة.

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الْبِرَّ: اسم للخير، ولكل فعل مرضيٍّ"[٣].

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (بر) (ص:١١٤-١١٥)، وانظر: تفسير الراغب الأصفهاني (٣٧٦/١).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (برر) (١١٦/١).

(٣) الكشاف (٢١٧/١).

والفعل المرضي الذي هو في تزكية النفس، كالبر في تغذية البدن [(١)].

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "البر -بالكسر-: الزيادة في الإحسان والاتساع فيه، وسميت البرية برية؛ لاتساعها"[(٢)].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ الآية [النساء:٣٦]، وقال: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال جَلَّوَعَلَا عن يحيى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤﴾ [مريم:١٤]، وقال جَلَّوَعَلَا عن عيسى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢﴾ [مريم:٣٢]. فبر الوالدين: التوسع في الاحسان إليهما، وضده العقوق.

فالبر في الاصطلاح: اسم جامع لكل خير، كما أن الإثم اسم جامع لكل شر.

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "البر اسم جامع للطاعات، وأعمال الخير المقربة إلى الله عَزَّوَجَلَّ"[(٣)].

فيشمل البر: الإيمان، والتقوى، والطاعة، والصدق، والوفاء، والإحسان.. إلى ذلك مما يعم خير الدنيا والآخرة.

والبر من أسباب طول العمر، والبركة في العمر، كما في الحديث لا يزيد في العمر إلا البر.

---

(١) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي (١/٣)، التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي (ص:٧٤).

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٢١٠٧/٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٢١٣/٥).

وفي الحديث: «**من سره أن يبسط له في رزقه، أو ينسأ له في أثره، فليصل رحمه**» (١).

فهذه ثلاث فوائد لصلة الرحم:

الأولى: المحبة بين الأهل.

والثانية: الزيادة في المال.

والثالثة: التأخير في الأجل.

فبر الوالدين، وصلة الرحم من أسباب طول العمر، والبركة في العمر.

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(البَرُّ) خلاف البحر، وتصور منه: التوسع، فاشتق منه البِرُّ، أي: التوسع في فعل الخير، وينسب ذلك إلى الله عَزَّوَجَلَّ تارة نحو: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾ [الطور:٢٨]، وإلى العبد تارة، فيقال: بَرَّ العبد ربه جَلَّوَعَلَا، أي: توسَّع في طاعته، فمن الله عَزَّوَجَلَّ الثواب، ومن العبد الطاعة. وذلك ضربان:

الأول: ضرب في الاعتقاد.

والثاني: وضرب في الأعمال، وقد اشتمل عليه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ الآية [البقرة:١٧٧].

فإن الآية متضمنة للاعتقاد، والأعمال -الفرائض والنوافل-.

(١) صحيح البخاري [٢٠٦٧، ٥٩٨٥، ٥٩٨٦]، مسلم [٢٥٥٧]. و(بسط الرزق): توسيعه وكثرته. وقيل: البركة فيه. و«ينسأ»: يؤخر. و«أثره»: بقية عمره.

وبِرُّ الوالدين: التوسع في الإحسان إليهما، وضده العقوق، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ [الممتحنة:٨]. ويستعمل البِرُّ في الصدق؛ لكونه بعض الخير المتوسع فيه، يقال: بَرَّ في قوله، وبرَّ في يمينه. ويقال: بَرَّ أباه فهو بَارٌّ وبَرٌّ مثل: صائف وصيف، وطائف وطيف، وعلى ذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِى﴾ [مريم:٣٢].

وجمع البارِّ: أَبْرَار وبَرَرَة، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣﴾ [الانفطار:١٣]، وقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨﴾ [المطففين:١٨]، وقال في صفة الملائكة: ﴿كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾ [عبس:١٦]، فَبَرَرَةٌ خصَّ بها الملائكة في القرآن من حيث إنه أبلغ من أبرار؛ فإنه جمع: برٍّ، وأبرار جمع: بار، وبَرٌّ أبلغ من بَارٍّ، كما أنَّ عدلًا أبلغ من عادل"(١).

وقد تقدم في تلخيص (شعب الإيمان)، وما تتفرع عنه ذكر جملة من أعمال البرّ.

كما تقدم في (الإحسان وصنائع المعروف) ذكر كثير من أعمال البرِّ.

وباب: (البر والصلة) من أعظم الأبواب التي ينبغي أن يُعنى بها، وقد اهتم العلماء بهذا الباب، وذكروا ما فيه من النصوص، وبينوا ذلك للناس؛ ليكونوا على بينة وبصيرة، فقد صنف ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابًا سماه: (كتاب البر والصلة)، وكذلك في (صحيح البخاري)، و(صحيح مسلم)، و(جامع الترمذي)، وكذا عند: ابن حبان

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (بر) (ص:١١٤-١١٥)، وانظر: تفسير الراغب الأصفهاني (٣٧٦/١).

رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والحاكم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المستدرك)، والبغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (شرح السنة)، والمنذري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الترغيب والترهيب).

ومن أعمال البرِّ والإحسان التي تورث المحبة والتآلف: إعانة الصَّانع، والصنعة لأخرق، وإعطاء شِسْع النعل، والستر على المسلم، والذبُّ عن عرضه، وإدخال السرور عليه، والتفسح له في المجلس، والدلالة على الخير، والتعاون على البرِّ والتقوى، والكلام الطيب، والغرس والزرع، والشفاعة الحسنة، والمصافحة، والمحبة في الله عَزَّوَجَلَّ، والبغض لأجله، والمجالسة، والتزاور، والنصح، والرحمة، ومقابلة الإساءة بالإحسان، والزهد والتعفف عن سؤال الناس، وإفشاء السلام، وحسن النية، وحسن الظن، وحسن الخلق، والإنصاف، والصدق، والعفو، والتسامح، والرفق واللين، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس، والبعد عن الحسد والكبر والأخلاق الذميمة، والزهد في الدنيا، والتَّعفُّف عن سؤال النَّاس، وكلها في الآيات والأحاديث الصحيحة.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة:١٧٧].

والخطاب لأهل الكتاب فإنهم أكثروا الخوض في أمر القبلة حين حولت، وادعى كل طائفة أن البرَّ هو التوجه إلى قبلته، فرد الله عَزَّوَجَلَّ عليهم وقال: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ ما

أنتم عليه؛ فإنه منسوخ. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ﴾ ما بينه الله عَزَّوَجَلَّ واتبعه المؤمنون، وهو تحقيقٌ للحق بعد بيان بطلان الباطلِ، وتفصيلٌ لخِصال البِر مما لا يختلف باختلاف الشرائع، أي: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ﴾ المعهود الذي ينبغي أن يُهتمَّ به، ويُجَدَّ في تحصيله: بِرُّ ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ وحده، إيمانًا بريئًا من شائبة الإشراكِ، لا كإيمان اليهود والنصارى والمشركين.....الخ.

وقيل: عام لهم وللمسلمين، أي: ليس البر مقصورًا بأمر القبلة.

وقد اشتملت هذه الآية الكريمة، على جمل عظيمة، وقواعد عميمة، وعقيدة مستقيمة. -كما ذكر الحافظ ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ-[1].

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُٱللَّهُ: "فتضمنت الآية: أن أنواع البر ستة أنواع، من استكملها فقد استكمل البر:

أولها: الإيمان بأصول الإيمان الخمسة.

وثانيها: إيتاء المال المحبوب لذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، والسائلين، وفي الرقاب.

وثالثها: إقام الصلاة.

ورابعها: إيتاء الزكاة.

وخامسها: الوفاء بالعهد.

وسادسها: الصبر على البأساء والضراء وحين البأس.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/٤٨٥).

وكلها يحتاج الحاج إليها؛ فإنه لا يصح حجه بدون الإيمان، ولا يكمل حجه ويكون مبرورًا بدون إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ فإن أركان الإسلام بعضها مرتبطة ببعض، فلا يكمل الإيمان والإسلام حتى يؤتي بها كلها، ولا يكمل بر الحج بدون الوفاء بالعهود في المعاقدات والمشاركات المحتاج إليها في سفر الحج، وإيتاء المال المحبوب لمن يحب الله عَزَّوَجَلَّ إيتاءه، ويحتاج مع ذلك إلى الصبر على ما يصيبه من المشاق في السفر، فهذه خصال البر"(١).

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فذكر جملة أفعال الخير -فرائضها، ونوافلها-، ومكارم الأخلاق كلها.

فالبر في ثلاث:

أ. بر في معاملة الله عَزَّوَجَلَّ وعبادته.

ب. وبر في معاملة الأقارب ومراعاة حقوقهم.

ج. وبر في معاملة الأجانب وإنصافهم.

واشتقاقه من (البر)، وهو الفضاء والسعة؛ ولهذا وصف المؤمن بسعة الصدر، والكافر بضده، نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ الآية [الأنعام:١٢٥] ..."(٢).

---

(١) لطائف المعارف (ص:٢٣٣).

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني (١/١٧٤-١٧٥).

وقال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ الآية "فيها من شعب الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ واليوم الآخر، والملائكة والكتب والأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وصلة الأرحام والأيتام والمساكين وابن السبيل والسائلين -ولو أغنياء-، والعتق، وفك الأسرى، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهود، والصبر على الفقر والضر، والجهاد"(١).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة:١٨٩]، أي: بِرَّ من اتقى المحارمَ والشهواتِ، فأخبر أن البر جامع للتقوى.

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ هو تحري التقوى، وذلك يكون بالعلم والعمل المختصين بالدين"(٢).

وقال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واعلم أنه جَلَّ وَعَلَا لما أمر بالإيمان والشرائع بناء على ما خصهم به من النعم، ورغبهم في ذلك بناء على مأخذ آخر، وهو أن التغافل عن أعمال البر مع حث الناس عليها مستقبح في العقول؛ إذ المقصود من أمر الناس بذلك إما النصيحة أو الشفقة، وليس من العقل أن يشفق الإنسان على غيره، أو أن ينصح غيره ويهمل نفسه، فحذرهم الله عَزَّوَجَلَّ من ذلك، بأن قرعهم بهذا الكلام.."(٣).

فلا ينبغي لمؤمن أن يامر الناس بالبر وينسى نفسه، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة:٤٤]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا

(١) الإكليل في استنباط التنزيل (ص:٢٧).
(٢) تفسير الراغب الأصفهاني (١/٤٠٣).
(٣) مفاتيح الغيب (٣/٤٨٧).

عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف:٢-٣]، وقال مخبرًا عن قيل شعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ [هود:٨٨].

وفي (المنار): "إن البر هو تقوى الله عَزَّوَجَلَّ بالتخلي عن المعاصي والرذائل، وعمل الخير والتحلي بالفضائل، واتباع الحق واجتناب الباطل"(١).

*وقد جعل المولى جَلَّوَعَلَا البر في مقابلة الإثم في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة:٢].

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فجعل البر ضد الإثم، فدل على أنه اسم عام لجميع ما يؤجر عليه الإنسان"(٢).

وفي (المنار): "فمجموع ما ورد في البر مصداق لما فسره به الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أنه التوسع في فعل الخير إذا أريد به ما يشمل الأفعال النفسية والأخلاق الحسنة باعتبار ما ينشأ عنها من الأعمال. وقد قال: إنه مشتق من (البر) -بالفتح- الذي هو مقابل البحر بتصور سعته، وإلا قلنا: إن البر اسم لمجموع ما يتقرب به إلى الله عَزَّوَجَلَّ، من الإيمان والأخلاق والآداب والأعمال، وكل واحد منها يعد خصلة أو شعبة من البر.

أما الأمر بالتعاون على البر والتقوى، فهو من أركان الهداية الاجتماعية في القرآن؛ لأنه يوجب على الناس إيجابًا دينيًا أن يعين بعضهم بعضًا على كل عمل من أعمال البر التي تنفع الناس -أفرادًا وأقوامًا- في دينهم ودنياهم، وكل عمل من أعمال

---

(١) تفسير المنار (٢/١٦٧).

(٢) انظر: مفاتيح الغيب (٥/٢١٣)، تفسير البيضاوي (١/١٢١).

التقوى التي يدفعون بها المفاسد والمضار عن أنفسهم، فجمع بذلك بين التحلية والتخلية، ولكنه قدم التحلية بالبر، وأكد هذا الأمر بالنهي عن ضده، وهو التعاون على الإثم بالمعاصي، وكل ما يعوق عن البر والخير، وعلى العدوان الذي يغري الناس بعضهم ببعض، ويجعلهم أعداء متباغضين يتربص بعضهم الدوائر ببعض"(١).

وفي (الأشباه والنظائر)، للدامغاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "البر على ثلاثة أوجه: (الصلة، الطاعة، التقوى):

فالأول منها: البر بمعنى: الصلة، في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةً لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ﴾ [البقرة:٢٢٤]، أي: لئلا تصلوا القرابة، وفي قوله: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ﴾ [الممتحنة:٨]، يعني: تصلوهم.

والوجه الثاني: البر: بمعنى الطاعة: فذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة:٢] أراد بالبر: الطاعة، وترك المعصية، وقال في سورة مريم: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ [مريم:١٤]، ومثلها في قصة عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ [مريم:٣٢]، أي: مطيعًا لوالدتي، وقال: ﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ۝١٦﴾ [عبس:١٦]، يعني: مطيعين لله عَزَّوَجَلَّ، وكقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨﴾ [المطففين:١٨]، يعني: المطيعين.

(١) المنار (١٠٨/٦).

والوجه الثالث: البر: التقوى كلها. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢]، يعني: حتى تبلغوا في الصدقة ما تحبون، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ [البقرة:١٧٧]، أي: التقوى، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ [البقرة:٤٤]..."(١).

ونقل عن بعض أحد الأدباء:

بُنيَّ إنَّ البرَّ شيءٌ هَيِّن ... وجهٌ طليقٌ ولسانٌ ليّنُ(٢)

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والبر يطلق بمعنيين:

أحدهما: بمعنى: الإحسان إلى الناس، كما يقال: البر والصلة، وضده: العقوق. وفي (صحيح مسلم) أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سئل عن البر، فقال: «**البر: حسن الخلق**» (٣).

وإذا قرن البر بالتقوى، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢]، فقد يكون المراد بالبر: معاملة الخلق بالإحسان، وبالتقوى: معاملة الحق بفعل طاعته، واجتناب محرماته، وقد يكون أريد بالبر فعل الواجبات، وبالتقوى: اجتناب المحرمات، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢] قد يراد بالإثم: المعاصي،

---

(١) الأشباه والنظائر لألفاظ الكتاب العزيز، لأبي عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني (ص:١٢٩-١٣٠).

(٢) وروي عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «البر شيء هين: وجه طليق، وكلام لين» أخرجه الخرائطي في (مكارم الأخلاق) [١٤٨]، والدينوري في (المجالسة) [١٤٩٥]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٧٧٠٢]، وابن عساكر في (تاريخ دمشق) (١٧٦/٣١).

(٣) تقدم.

وبالعدوان: ظلم الخلق، وقد يراد بالإثم: ما هو محرم في نفسه كالزنا، والسرقة، وشرب الخمر، وبالعدوان: تجاوز ما أذن فيه إلى ما نهي عنه مما جنسه مأذون فيه، كقتل ما أبيح قتله لقصاص ومن لا يباح، وأخذ زيادة على الواجب من الناس في الزكاة ونحوها، ومجاوزة الجلد في الذي أمر به في الحدود، ونحو ذلك.

المعنى الثاني: فعل الطاعات كلها (الظاهرة والباطنة)، وضده: الإثم، وقد فسر الله عَزَّوَجَلَّ البر بذلك في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة:١٧٧].

فتضمنت الآية: أن أنواع البر ستة أنواع، من استكملها فقد استكمل البر"(١).

وقال: "وهذا يدل على أن الخصال المذكورة فيها هي خصال الإيمان المطلق، فإذا أطلق الإيمان دخل فيه كل ما ذكر في هذه الآية.

وإذا قرن الإيمان بالعمل فقد يكون من باب عطف الخاص على العام، وقد يكون المراد بالإيمان -حينئذ-: التصديق بالقلب، وبالعمل: عمل الجوارح، كما ذكر في هذه الآية: الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين، ثم عطف عليه أعمال الجوارح"(٢).

---

(١) انظر: لطائف المعارف (ص:٢٣٠-٢٣٣)، جامع العلوم والحكم (٢/٩٧-١٠٨).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب (١/٢٩-٣٠).

والبر مرتبة عالية لا تنال إلا بالصدق، والإخلاص في الأعمال. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران:٩٢].

ومن أعلى مراتب البر: الشهادة في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ؛ لما فيها من بذل النفس في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، في نصرة دينه، ولما فيها من المقاصد السامية، من إحقاق الحق، ونشر العدل، ورفع الظلم والجور. وفي الحديث: عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا، وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا، فيقتل عشر مرات؛ لما يرى من الكرامة**»(١).

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا الحديث أجل ما جاء في فضل الشهادة، والحض عليها، والترغيب فيها، وإنما يتمنى أن يقتل عشر مرات -والله أعلم-؛ لعلمه بأن ذلك مما يرضي الله عَزَّوَجَلَّ، ويقرب منه؛ لأن من بذل نفسه ودمه في إعزاز دين الله عَزَّوَجَلَّ ونصرة دينه ونبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم تبق غاية وراء ذلك، وليس في أعمال البر ما تبذل فيه النفس غير الجهاد؛ فلذلك عظم الثواب عليه -والله أعلم-"(٢).

ومن أعظم أنواع البر: بر الوالدين والأرحام -كما تقدم-.

وفي الحديث: عن عمرو بن عبسة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: أتيت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أول ما بعث، وهو بمكة، وهو حينئذ مستخف، فقلت: ما أنت؟ قال: «**أنا نبي**»،

---

(١) صحيح البخاري [٢٧٩٥، ٢٨١٧]، مسلم [١٨٧٧].

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٥/٣٠).

قلت: وما النبي؟ قال: «**رسول الله**» قلت: بما أرسلك؟ قال: «**بأن يعبد الله، وتكسر الأوثان، وتوصل الأرحام بالبر والصلة**»(١).

وقد فسر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البر في كل من حديث: النَّواسِ بنِ سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحديث: وابِصَةَ بن مَعْبَد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحديث: أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أ. **حديث: النَّواسِ بنِ سمعان** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال: سألت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عن البر والإثم فقال: «**الْبِرُّ: حُسْنُ الْخُلُقِ، والإِثْمُ ما حَاكَ في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس**»(٢).

"قال العلماء: البر يكون بمعنى: الصلة، وبمعنى: اللطف والمبرة، وحسن الصحبة والعشرة، وبمعنى: الطاعة، وهذه الأمور هي مجامع حسن الخلق. ومعنى: «**حاك في صدرك**»، أي: تحرك فيه وتردد، ولم ينشرح له الصدر، وحصل في القلب منه الشك وخوف كونه ذنبًا"(٣).

وقوله: «**الْبِرُّ: حُسْنُ الْخُلُقِ**» قال بعض المحققين: تلخيص الكلام في هذا المقام أن يقال: البر اسم جامع لأنواع الطاعات والأعمال الخير المقربة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ(٤).

---

(١) أخرجه أحمد [١٧٠١٦]، والطبراني في (الشاميين) [٨٦٣]، والآجُرِّيُّ في (الشريعة) [٩٧٧]، والحاكم، واللفظ له، وقال: "صحيح على شرط الشيخين" ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح مسلم [٢٥٥٣].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١١١/١٦)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (١٨/٨).

(٤) انظر: مفاتيح الغيب (٢١٣/٥)، مرقاة المفاتيح (٣١٧٣/٨).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فسر البر في الحديث بمعان شتى: ففسره في موضع بما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، وفسره في موضع بالإيمان(١)، وفي موضع بما يقربك إلى الله عَزَّوَجَلَّ(٢)، وهنا بحسن الخلق. وفسر حسن الخلق باحتمال الأذى، وقلة الغضب، وبسط الوجه، وطيب الكلام، وكلها متقاربة في المعنى.

قال: ومراعاة المطابقة تقتضي أن يفسر حسن الخلق بما يقابل ما حاك في الصدر، وهو قوله: «**ما اطمأنت إليه النفس والقلب**»، كما في حديث: وابصة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فوضع موضعه: حسن الخلق؛ ليؤذن أن حسن لخلق هو ما اطمأنت إليه النفوس الشريفة الطاهرة من أوضار الذنوب، ومساوئ الأخلاق، المتحلية بمكارم الأخلاق، من الصدق في المقال، واللطف في الأحوال والأفعال، وحسن معاملته مع الرحمن، ومعاشرته مع الإخوان، وصلة الرحم، والسخاء، والشجاعة"(٣).

ب. **حديث: وابصة بن معبد** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قال: جئت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا لا أريد أن أدع من البر والإثم شيئًا إلا سألته عنه، فأتيته وهو في عصابة من المسلمين حوله، فجعلت أتخطاهم لأدنو منه، فانتهرني بعضهم فقال: إليك يا وابصة عن رسول

---

(١) أخذًا من قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٧٧].

(٢) وهو كذلك أخذًا من قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ﴾ الآية [البقرة:١٧٧].

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٠/٣٢٣٢-٣٢٣٣).

الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلت: إني أحب أن أدنو منه، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دعوا وابصة، ادن مني يا وابصة**»، فأدناني حيث كنت بين يديه، فقال: أتسألني أم أخبرك؟ فقلت: لا، بل تخبرني، فقال: «**جئت تسأل عن البر والإثم**»، قلت: نعم، فجمع أنامله، فجعل ينكث بهن في صدري، وقال: «**الْبِرُّ ما اطْمَأَنَّتْ إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك**»(١).

وفي (المفاتيح): قوله: «**ما حاك في صدرك**» أي أثر في قلبك؛ لكونه قبيحًا، أوهمك أنه ذنب (٢). ويؤيده الحديث الآنف الذكر: «**إن الإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس**».

«**وإن أفتاك الناس**» أي: "وإن قالوا لك إنه حق، فلا تأخذ بقولهم فإنه قد يوقع في الغلط وأكل الشبهة، كأن ترى من له مال حلال وحرام، فلا تأخذ منه شيئًا، وإن أفتاك المفتي؛ مخافة أن تأكل الحرام؛ لأن الفتوى غير التقوى، وهو شرطية قطعت عن الجزاء؛ تتميمًا للكلام السابق، وتقريرًا له، على سبيل المبالغة" (٣).

---

(١) قال المنذري (٣٥١/٢): "رواه أحمد بإسناد حسن". وقال الهيثمي (٢٩٤/١٠): "رواه الطبراني، وأحمد باختصار عنه، ورجال أحد إسنادي الطبراني ثقات". وقال الإمام النووي: "حديث حسن، رويناه في مسندي أحمد والدارمي وغيرهما" الأذكار (ص:٤٠٨)، الأربعون النووية (ص:٨٨)، رياض الصالحين (ص:٢٠٨).

(٢) انظر: المفاتيح في شرح المصابيح (٢٥١/٥)، مرقاة المفاتيح (١٩٠١/٥).

(٣) مرقاة المفاتيح (١٩٠١/٥).

ج. **حديث: أبي ثعلبة الخشني** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، أخبرني بما يحل لي وما يحرم علي. قال: فصعد النبي عَزَّوَجَلَّ وصوب في البصر، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«البر: ما سكنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب وإن أفتاك المفتون»**(١).

وهذا محمول على الأمر المشتبه، وإلا فما ثبت الأمر به في الشرع بلا معارض فهو بر، وما ثبت النهي عنه كذلك فهو إثم، والمراد أن قلب المؤمن ينظر بنور الله عَزَّوَجَلَّ إذا كان قوي الإيمان، وهذا يقتضي أنه ينبغي الرجوع إلى الأصول المعلومة الثابتة من الدين فيما اشتبه حكمه.

قال الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "والمعنى: أن الشيء إذا أشكل عليك والتبس ولم تتبين أنه من أي القبيلين هو؟ فليتأمل فيه إن كان من أهل الاجتهاد، وليسأل المجتهدين إن كان من المقلدين، فإن وجد ما تسكن إليه نفسه، ويطمئن به قلبه، وينشرح به صدره، فليأخذ به، وليختر لنفسه، وإلا فليدعه، وليأخذ بما لا شبهة فيه ولا ريبة، هذا طريقة الورع والاحتياط، وحاصله راجع إلى حديث: الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(٢)، ولعله إنما

---

(١) قال المنذري (٢/٣٥١): "رواه أحمد بإسناد جيد"، وقال الهيثمي (١/١٧٦): "رواه أحمد والطبراني، وفي الصحيح طرف من أوله، ورجاله ثقات".

(٢) يعني حديث: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» رواه جمع من الصحابة منهم: الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
أخرجه عنه: الطيالسي [١٢٧٤]، وعبد الرزاق في (مصنفه) [٤٩٨٤]، وأحمد [١٧٢٣]، والدارمي [٢٥٧٤]، والترمذي [٢٥١٨]، وقال: "حديث صحيح". كما أخرجه البزار [١٣٣٦]، والنسائي [٥٧١١]، وأبو يعلى [٦٧٦٢]، وابن خزيمة [٢٣٤٨]، وابن حبان [٧٢٢]، والطبراني في (الكبير)=

عطف اطمئنان القلب علي اطمئنان النفس؛ للتقرير والتأكيد؛ فإن النفس إذا ترددت في أمر وتحيرت فيه وزال عنها القرار، استتبع ذلك العلاقة التي بينها وبين القلب، الذي هو المتعلق الأول لها، فتنقل العلاقة إليه من تلك الهيئة أثرًا فيحدث فيه خفقان واضطراب، ثم ربما يسري هذا الأثر إلى سائر القوى، فيحسن بها الحلال والحرام، فإذا زال ذلك عن النفس، وحدث لها قرار وطمإنينة، انعكس الأثر، وتبدلت الحال علي مالها من الفروع والأعضاء.

وقيل: المعني بهذا الأمر: أرباب البصائر من أهل النظر، والفكر المستقيم، وأصحاب الفراسات من ذوي النفوس المرتاضة والقلوب السليمة؛ فإن نفوسهم بالطبع تصبو إلى الخير وتنبو عن الشر؛ فإن الشيء ينجذب إلى ما يلائمه وينفر عما يخالفه، ويكون ملهمة للصواب في أكثر الأحوال"(١).

قال التوربشتي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهذا القول وإن كان غير مستبعد؛ فإن القول بحمل على العموم فيمن تجمعهم كلمة: (التقوى)، وتحيط بهم دائرة الدين أحق وأهدى، ولا ضرورة بنا إلى صرف قوله إلى الخصوص، ونحن نجد لحمله على العموم مساغًا"(٢).

وقيل في قوله: «**وإن أفتاك الناس**» أي: غير أهل الاجتهاد من أولي الجهل والفساد، وقالوا لك: إنه حق، فلا تأخذ بقولهم؛ لأنه قد يوقع في الغلط، وأكل

=[٢٧٠٨]، والحاكم [٢١٦٩]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي. كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٨/٢٦٤)، والبيهقي في (الكبرى) [١٠٨١٩].

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٧/٢١٠٨)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٥/١٩٠٠-١٩٠١).

(٢) الميسر في شرح مصابيح السنة، للتوربشتي (٢/٦٦٠).

الشبهة، أو مطلق الناس، فيشمل ما أفتى فيه المفتي بالحلِّ في ظاهر الحكم الشرعي، والورع تركه، وذلك كمعاملة من أكثر ماله حرام، فلا يأخذ منه شيئًا ولا يعامله، وإن أباح المفتي معاملته(١).

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإنما أحاله النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذا الإدراك القلبي؛ لما علم من جودة فهمه، وحسن قريحته، وتنوير قلبه، وأنه يدرك ذلك من نفسه. قال: وهذا الجواب لا يصلح لغليظ الطبع، قليل الفهم، فإذا سأل عن ذلك من قل فهمه فصلت له الأوامر والنواهي الشرعية. وقد قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «**أمرنا رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أن ننزل الناس منازلهم**»(٢)"(٣).

وفي (صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ)، باب: (تفسير المشبهات) قال حسان بن أبي سنان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما رأيت شيئًا أهون من الورع، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك(٤). وقوله: (أهون) أي: أسهل، وأكثر راحة وطمأنينة للنفس.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذكره لجملة من الأحاديث الواردة في البر، ومنها ما تقدم ذكره: "وقد صح: عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «**الإثم حواز القلوب**». واحتج به الإمام أحمد، ورواه عن جرير، عن منصور، عن محمد بن عبد

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٣٤/٥).

(٢) انظر: مقدمة صحيح مسلم (٦/١).

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٥٢٣/٦).

(٤) صحيح البخاري (٥٣/١).

الرحمن، عن أبيه قال: قال عبد الله: «**إياكم وحزاز القلوب، وما حز في قلبك من شيء فدعه**»(١).

وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الخير في طمأنينة، والشر في ريبة.

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: ويتضمن هذا الكتاب الإحسان إلى الخلق عمومًا، ويقدم فيه: بر الوالدين على غيرهما.

---

(١) قال الهيثمي: وفي رواية: «حواز الصدور». وفي رواية: «ما كان من نظرة فللشيطان فيها مطمع، والإثم حواز القلوب» رواه الطبراني كله بأسانيد رجالها ثقات. قلت: وقد ذكر ابن الأثير في (النهاية) فيها ثلاث لغات: حواز، وحواز، وحزاز. مجمع الزوائد (١٧٦/١). وقال العراقي: حديث: «الإثم حزاز القلوب» أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) من حديث: ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه العدني في (مسنده) موقوفًا عليه" المغني عن حمل الأسفار (ص:٢٧). قال الحافظ المنذري (٢٥/٣): "رواه البيهقي وغيره، ورواته لا أعلم فيهم مجروحًا، لكن قيل: صوابه الوقوف. «حواز القلوب» بفتح الحاء المهملة وتشديد الواو، وهو ما يحوزها ويغلب عليها حتى ترتكب ما لا يحسن. وقيل: بتخفيف الواو وتشديد الزاي، جمع: (حازة)، وهي الأمور التي تحز في القلوب وتحك وتؤثر، وتتخالج في القلوب أن تكون معاصي، وهذا أشهر اهـ". قال مجد الدين ابن الأثير: "حديث: ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الإثم حواز القلوب» هي الأمور التي تحز فيها، أي: تؤثر كما يؤثر الحز في الشيء، وهو ما يخطر فيها من أن تكون معاصي؛ لفقد الطمأنينة إليها، وهي بتشديد الزاي: جمع حاز. يقال إذا أصاب مرفق البعير طرف كركرته فقطعه وأدماه: قيل به حاز. ورواه شمر: «الإثم حواز القلوب» بتشديد الواو: أي: يحوزها ويتملكها ويغلب عليها، ويروى: «الإثم حزاز القلوب» بزايين الأولى مشددة، وهي فعال من الحز. وفيه: «وفلان آخذ بحزته» أي: بعنقه. قال الجوهري: هو على التشبيه بالحزة، وهو القطعة من اللحم قطعت طولًا. وقيل: أراد بحجزته وهي لغة فيها...انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (حزز) (٣٧٧/١-٣٧٧)، الصحاح، للجوهري، مادة: (حذا) (٢٣١١/٦).

وفي حديث: بهز بن حكيم عن أبيه، عن جده، أنه قال: قلت: يا رسول الله، من أَبَرُّ؟ قال: «**أُمَّكَ**»، قال: قلت: ثم من؟ قال: «**أُمَّكَ**»، قال: قلت: ثم من؟ قال: «**أُمَّكَ**»، قال: قلت: ثم من؟ قال: «**ثم أباك، ثم الأقرب فالأقرب**»(١).

ومن هذا المعنى: قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الحجُّ المبرور ليس له جزاءٌ إلَّا الجنَّة**» (٢).

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، قيل: وما بره؟ قال: إطعام الطعام وطيب الكلام**»(٣)، "أي: إطعام الطعام

---

(١) حديث بهز بن حكيم: أخرجه أحمد [٢٠٠٢٨]، وأبو داود [٥١٣٩]، والترمذي [١٨٩٧]، وقال: "وفي الباب: عن أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وعائشة، وأبي الدرداء. وبهز بن حكيم هو ابن معاوية بن حيدة القشيري. وهذا حديث حسن، وقد تكلم شعبة في بهز بن حكيم، وهو ثقة عند أهل الحديث، وروى عنه معمر، وسفيان الثوري، وحماد بن سلمة، وغير واحد من الأئمة" كما أخرجه: الطبراني في (الكبير) [٩٥٧]، و(الأوسط) [٤٤٨٢]، والحاكم [٧٢٤٢]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: تمام [١٧٣٦]، والبيهقي [٧٧٦٣]، وابن عساكر في (معجمه) [١٥٨٩].

(٢) صحيح البخاري [١٧٧٣]، مسلم [١٣٤٩].

(٣) أخرجه الطيالسي [١٨٢٤]، وأحمد [١٤٤٨٢]، وعبد بن حميد [١٠٩١]، والعقيلي (١٤١/١) ترجمة [١٧٣] بشر بن المنذر، وقال: "في حديثه وهم". والخرائطي في (مكارم الأخلاق) [١٦٨]، والطبراني في (الأوسط) [٦٦١٨، ٨٤٠٥]، والحاكم [١٧٧٨]، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه؛ لأنهما لم يحتجا بأيوب بن سويد، لكنه حديث له شواهد كثيرة". وأبو نعيم في (الحلية) (١٥٦/٣)، والبيهقي في (الكبرى) [١٠٣٩٠]، وفي (شعب الإيمان) [٣٨٢٤] قال المنذري (١٠٦/٢): "رواه أحمد، والطبراني في (الأوسط) بإسناد حسن، وابن خزيمة، في (صحيحه)،=

للمسافرين، ومخاطبتهم باللين، والتلطف، وترك الشح والتعسف؛ فإن ذلك من مكارم.."[1].

وعن عائشة -أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-، أنها قالت: يا رسول الله، نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد؟ قال: «**لا، لكن أفضل الجهاد: حج مبرور**»[2].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سئل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أي الأعمال أفضل؟ قال: «**إيمان بالله**»، قال: ثم ماذا؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**» قال: ثم ماذا؟ قال: «**حج مبرور**»، وفي رواية محمد بن جعفر قال: «**إيمان بالله ورسوله**»[3].

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله: «**حج مبرور**»: قال شمر: هو الذي لا يخالطه شيء من المأثم، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٧]، ومنه: برّت يمينه: إذا سلم من الحنث، وبرَّ بيْعهُ: إذا سلم من الخداع والخلابة. وقال الحربي رَحِمَهُ اللَّهُ: بُرَّ حَجُّك -بضم الباء-[4] وبَرَّ اللهُ حجَّك -بفتحها-[5]: إذا رجع مبرورًا مأجورًا.

=والبيهقي، والحاكم مختصرًا، وقال صحيح الإسناد، وفي رواية لأحمد والبيهقي: «إطعام الطعام، وإفشاء السلام»". وانظر: إتحاف الخيرة المهرة (٣/١٤١)، وقال الهيثمي (٣/٢٠٧): "رواه أحمد، وفيه: محمد بن ثابت، وهو ضعيف، ورواه الطبراني في (الأوسط) وإسناده حسن".

(١) فيض القدير (٣/١٩٩).

(٢) صحيح البخاري [١٥٢٠، ١٨٦١، ٢٧٨٤].

(٣) صحيح البخاري [٢٦، ١٥١٩]، مسلم [٨٣].

(٤) بضم الباء مبنيًا للمفعول.

(٥) بفتح الباء مبنيًا للفاعل.

وقيل: المبرور: المتقبل، وفى الحديث: سئل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما بَرّ الحج؟ قال: «**إطعام الطعام، وطيب الكلام**» فعل هذا يكون من (البر) الذي هو فعل الجميل فيه، والبذل منه، ومنه: بر الوالدين والمؤمنين، ويكون -أيضًا- في هذا كله بمعنى: الطاعة، ويكون بمعنى: الصدق، وضده: الفجور، ومنه: برَّت يمينه، فيكون (الحجُّ المبرور): الصادق، الخالص لله عَزَّوَجَلَّ على هذا"(١).

قيل: ومن علامة القبول: أنه إذا رجع يكون حاله خيرًا من الحال الذي قبله.

وقيل: الذي لا رياء فيه.

وقيل هو الذي لا يعقبه بمعصية(٢).

خامسًا: آثار صنائع المعروف وأعمال البر:

أ. استدامة النعم.

ب. الوقاية من سوء العاقبة ومصارع السوء في النفس والأهل والولد والمال.

ج. تفريج الكروب في الدنيا والآخرة.

د. كسبُ محبَّةِ النَّاس وثقتِهم وثنائهم على فعل الخير، ودعاؤهم لصاحب المعروف، وحسن تعاملهم، وتبادل المنافع فيما بينهم.

هـ. تماسك المجتمع وتآلفه.

---

(١) إكمال المعلم، للقاضي عياض (٣٤٧/١)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٧٥/٢).

(٢) انظر: الكواكب الدراري (١٢٦/١).

و. شيوع ثقافة الأخلاق الفاضلة المنبثة من العقيدة.

المبحث الثامن:

التوبة والاستغفار

الإرشاد إلى أسباب النجاة

أولًا: تعريف التوبة:

١ - التوبة لغة:

التَّوبُ: مصدر تاب يتوب توبًا، يقال: تُبْتُ إلى الله تَوْبةً ومَتابًا، وأنا أَتوبُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ ليَتُوبَ عليَّ قابلُ التَّوْب، أي: قابل التَّوْبةِ، وقد تطرَح الهاءَ.

والله عَزَّوَجَلَّ التَّوابُ، يتوبُ على عَبده، والعبد تائبٌ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وقال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غافر:٣]، أراد: التَّوْبة. قال أبو منصور الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أصل (تَابَ): عاد إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ورجع، وأناب، وتَابَ الله عَزَّوَجَلَّ عليه، أي: عاد عليه بالمغفرة، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النور:٣١]، أي: عودوا إلى طاعته وأنيبوا، وَالله عَزَّوَجَلَّ التوّاب، يتوب على عبده بفضله إذا تاب إليه من ذنبه، و(استتبْتُ فلانًا)، أي: عَرَضْتُ عليه التوبةَ ممَّا اقْتَرَف، أي: الرُّجُوع والنَّدم على ما فَرَط منه.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [المزمل:٢٠]، أي: رَجَعَ بكم إلى التَّخْفِيف، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة:١٨٧]، أي: أَبَاحَ لكم ما كان حُظِر عليكم فتوبوا إلى بارئكم، أي: ارْجعُوا إلى خالقكم. والتواب من صِفات الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يَتُوب على عباده، والتواب من النَّاس هو الذي يَتُوب إلى ربه جَلَّوَعَلَا"[١].

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التوبة: الرجوع من الذنب.

---

(١) العين، مادة: (توب) (١٣٨/٨)، تهذيب اللغة (٢٣٦/١٤-٢٣٧).

وفي الحديث: «**النَدمُ توبَةٌ**»[1]، وكذلك التَوْبُ مثله. وقال الأخفش: (التَّوْبُ): جمع توبة، مثل: عَوْمة وعَوْم[2].

وتاب إلى الله توبةً ومتابًا. وقد تاب الله عَزَّوَجَلَّ عليه: وفقه لها. وفى كتاب سيبويه: التوبة على تفعلة: التوبة[3]. و(استتابه): سأله أن يتوب. و(التابوت) أصله: تابوة، مثل: ترقوة، وهو فعلوة، فلما سكنت الواو انقلبت هاء التأنيث تاء. قال القاسم بن معن: لم تختلف لغة قريش والأنصار في شيء من القرآن إلا في (التابوت)، فلغة قريش بالتاء، ولغة الأنصار بالهاء"[4].

---

(١) الحديث مروي عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٠٤٤]، والطيالسي [٣٨٠]، والحميدي [١٠٥]، وابن الجعد [١٧٣٨]، وابن أبي شيبة [١٧٩]، وأحمد [٣٥٦٨]، والبخاري في (التاريخ الكبير) (٣/٣٧٣)، وابن ماجه [٤٢٥٢]، قال البوصيري (٤/٢٤٨): "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات"، وأخرجه أيضًا: البزار [٣٥٦٨]، وأبو يعلى [٤٩٦٩]، والشاشي [٢٦٩]، وابن حبان [٦١٢]، والطبراني في (الأوسط) [٦٧٩٩]، والحاكم [٧٦١٢]، وصححه، ووافقه الذهبي. كما أخرجه البيهقي [٢٠٥٥٨]. والحديث مروي كذلك عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد رواه ابن حبان والحاكم وغيرهما. قال الحافظ في (الفتح) (١٣/٤٧١): "صححه الحاكم، وأخرجه ابن حبان من حديث: أنس وصححه".

(٢) انظر: معاني القرآن، للأخفش (٢/٤٩٨). قال في (مختار الصحاح) (ص:٤٧): "لم يذكر الجوهري في (عوم) معنى: العومة، ولا وجدته في غير (الصحاح) من أصول اللغة التي عندي، ولكن له نظير أشهر من هذا، وهو دَوْمَةٌ ودَوْمٌ، وهو شَجَرُ الْمُقْل".

(٣) انظر: الكتاب، لسيبويه (٤/٢٧١)، (٤/٣٥٢).

(٤) الصحاح، مادة: (توب) (١/٩١).

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(التوب): ترك الذنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوه الاعتذار، فإن الاعتذار على ثلاثة أوجه: إما أن يقول المعتذر: لم أفعل، أو يقول: فعلت لأجل كذا، أو فعلت وأسأت وقد أقلعت، ولا رابع لذلك، وهذا الأخير هو التوبة"(١).

"قال القفال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أصل التوبة: الرجوع كالأبوة. يقال: توب كما يقال: أوب. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر:٣]، فقولهم: تاب يتوب توبًا وتوبة ومتابًا، فهو تائب وتواب، كقولهم: آب يؤوب أوبًا وأوبة، فهو آئب وأواب"(٢).

وسيأتيك أن التوبة لفظة يشترك فيها الرب جَلَّوَعَلَا والعبد.

٢ - تعريف التوبة في الاصطلاح:

ذكر أهل العلم والتحقيق تعريفاتٍ كثيرة للتوبة يكمل بعضها بعضًا، وما ذكروه في التعريف منه: ما يدخل في الحد، ومنه: ما هو من الشروط، ومنه: ما هو من المكملات؛ ولذلك فإن من أهل العلم -كما سيأتيك- قد اهتم بتحرير التعريف؛ ليكون جامعًا مانعًا.

وهاك أهم ما ذكروه في هذا الباب

---

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: (توب) (ص:١٦٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٣/٤٦٨).

ومن تعريفات التوبة: ما ذكره القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (رسالته)، حيث قال: "التوبة: **(الرجوع عما كان مذمومًا في الشرع إلى ما هو محمود فيه)**"[1].

قال: "وأقوى أركان التوبة: حلُّ عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بجميع حقِّ الأمر على وجه الاستقصاء"[2].

وقد سئل الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن التوبة فقال: **(هو أن تنسى ذنبك)**. قال أبو نصر السَّراج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أشار الجنيد إلى توبة المحققين؛ فإنهم لا يذكرون ذنوبهم بما غلب على قلوبهم، من عظمة الله عَزَّوَجَلَّ، ودوام ذكره.

قال الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: دخلت يومًا على سري السقطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فرأيت عليه همًّا، فقلت: أيها الشيخ: أرى عليك همًّا، فقال: الساعة دقَّ عليَّ داق الباب، فقلت: ادخل. فدخل عليَّ شابٌّ في حدود الإرادة، فسألني عن معنى التوبة، فأخبرته، وسألني عن شرط التوبة، فأنبأته. فقال: هذا معنى التوبة، وهذا شرطها، فما حقيقتها؟ فقلت: حقيقة التوبة عندكم: ألَّا تنسى ما من أجله كانت التوبة، فقال: ليس هو كذلك عندنا، فقلت له: فما حقيقة التوبة عندكم؟ فقال: حقيقة التوبة ألَّا تذكر ما من أجله كانت التوبة. وأنا أفكر في كلامه، قال الجنيد: فقلت: ما أحسن ما قال! قال: فقال لي: يا جنيد، وما معنى هذا الكلام؟ فقال: يا أستاذ، إذا كنت معك في حال الجفاء، ونقلتني من حال الجفاء إلى حال الصفاء، فذكري للجفاء في حال الصفاء غفلة.

---

(١) الرسالة القشيرية (١/٢٠٧).

(٢) لطائف الإشارات (٢/٤٧).

وقال الجنيد رَحِمَهُ اللَّهُ في معنى قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**استغفروا الله وتوبوا إليه؛ فإني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة**»، أو كما قال؛ قالوا: كان حال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الله عَزَّ وَجَلَّ: زيادة في كلِّ نَفَس وطرفة عين، فكان إذا رقى به إلى زيادة حال أشرف من زيادته على حالته في النَّفَس الماضي، استغفر الله من ذلك وتاب إليه"[1].

وقال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: "**(التوبة: عقد في ترك متوب منه، يتقدمها علم بفساد المتوب منه، وصلاح ما يرجع إليه، ويقترن بها ندم على فارط المتوب منه، لا ينفك منه، وهو من شروطها)**"[2].

وقال الشريف الجرجاني رَحِمَهُ اللَّهُ: "**(التوبة: الرجوع إلى الله** عَزَّ وَجَلَّ **بحلِّ عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بكل حقوق الرب** جَلَّ وَعَلَا)"[3].

وقال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "التوبة في الشرع: **(ترك الذنب؛ لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كملت شرائط التوبة، وتاب إلى الله** عَزَّ وَجَلَّ)، فذكر: (إلى الله) يقتضي الإنابة، و(تاب الله عَزَّ وَجَلَّ عليه)، أي: قبل توبته،

---

(١) انظر: الأعمال الكاملة للجنيد البغدادي، طبعة دار الشروق (ص:٩٤-٩٦)، وانظر: الرسالة القشيرية (٢١١/١)، التعريفات (ص:٧٠).

(٢) المحرر الوجيز (١٨٠/٣).

(٣) التعريفات (ص:٧٠).

والتائب يقال لباذل التوبة. ولقابل التوبة: التواب، ويقال ذلك لله عَزَّوَجَلَّ؛ لكثرة قبوله التوبة من العباد"(١).

وزاد الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ -كما سيأتي-: إن كان الذنب متعلقًا ببني آدم، فلها شرط آخر، وهو ردُّ المظلمة إلى صاحبها، أو تحصيل البراءة منه.

قال الأستاذ أبو علي الدقاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التوبة على ثلاثة أقسام أولها: التوبة، وأوسطها: الإنابة، وآخرها: الأوبة. قال القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فجعل التوبة بداية، والأوبة نهاية، والإنابة واسطتهما، فكل من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة، ومن تاب طمعًا في الثواب فهو صاحب إنابة، ومن تاب مراعاة للأمر لا لرغبة في الثواب، أو رهبة من العقاب فهو صاحب أوبة، ويقال أيضًا: التوبة صفة المؤمنين، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور:٣١]، والإنابة صفة الأولياء والمقربين، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣﴾ [ق:٣٣]، والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠﴾ [ص:٣٠].

وقال سهل بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التوبة: ترك التسويف.

وسئل ذو النون المصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن التوبة، فقال: توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة.

وقال: الاستغفار من غير إقلاع توبة الكاذبين.

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (توب) (ص:١٦٩).

وقال: حقيقة التوبة: أن تضيق عليك الأرض بما رحبت، حتى لا يكون لك قرار، ثم تضيق عليك نفسك، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه بقوله: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة:١١٨].

وقال ابن عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التوبة توبتان: توبة الإنابة، وتوبة الاستجابة، فتوبة الإنابة: أن يتوب العبد خوفًا من عقوبته، وتوبة الاستجابة أن يتوب حياءً من كرمه.

وقيل لأبي حفص رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لم يبغض التائب الدنيا؟ قال لأنها دار باشر فيها الذنوب فقيل له أيضا هي دار أكرمه الله فيها بالتوبة فقال: إنه من الذنب على يقين، ومن قبول توبته على خطر.

إلى غير ذلك مما نقل عن السلف الصالح رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ(١).

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن التوبة معنى ينتظم من ثلاثة أمور: (علم، وحال، وفعل)، والأول موجب للثاني، والثاني موجب للثالث إيجابًا اقتضاه سنة الله عَزَّوَجَلَّ في الملك والملكوت.

أما العلم فهو معرفة عظم ضرر الذنوب، وكونها حجابًا بين العبد وبين كل محبوب. فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب؛ فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم، فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه: ندمًا، فإذا

(١) انظر: الرسالة القشيرية (١/٢٠٧-٢١٥).

غلب هذا الألم على القلب، واستولى انبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى: إرادة وقصدًا إلى فعل له تعلق بالحال وبالماضي وبالاستقبال.

أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذي كان ملابسًا.

وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر.

وأما بالماضي فبتلاقي ما فات بالخير والقضاء إن كان قابلًا للخير.

فالعلم، والندم، والقصد المتعلق بالترك، يطلق اسم: (التوبة) على مجموعها. وكثيرًا ما يطلق اسم: (التوبة) على معنى: الندم وحده، ويجعل العلم كالمقدمة، والترك كالثمرة، وبهذا الاعتبار قال ﷺ «**الندم توبة**» [1]؛ إذ لا يخلو الندم من علم أوجبه وأثمره، وعن عزم يتبعه ويتلوه.

وبهذا الاعتبار قيل في حدِّ التوبة إنه: (**ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ**)؛ فإن هذا يعرض لمجرد الألم؛ ولذلك قيل: (**هو نار في القلب تلتهب، وصدع في الكبد لا ينشعب**).

وباعتبار معنى: (الترك) قيل في حدِّ التوبة: (**إنه خلع لباس الجفاء، ونشر بساط الوفاء**).

---

(١) تقدم.

قال: والأقاويل في حدود التوبة لا تنحصر. وإذا فهمت هذه المعاني الثلاثة، وتلازمها، وترتيبها، عرفت أن جميع ما قيل في حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها، وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجردة"(١).

وحيث إن بعض ما ذكر في بيان حقيقة التوبة، يعد من المكملات، أو من البواعث، أو من الشروط، كما أن الحكم قد يختلف باختلاف الاعتبار والنظر، فيكون لكل اعتبار وجهة.

وقد اهتم أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتحرر الحد من بين تلك الأقوال الكثيرة حيث قال في (المفهم)، حيث قال: "قد اختلفت عبارات العلماء والمشايخ فيها، فقائل يقول: إنها الندم، وآخر يقول: إنها العزم على ألا يعود، والآخر يقول: إنها الإقلاع عن الذنب، ورابع يجمع بين تلك الأمور الثلاثة، فيقول: إنها الندم على ذنب وقع، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على ألا يعود إليه، وهذا أكملها، غير أنه مع ما فيه من التركيب المحذور في الحدود غير مانع، ولا جامع.

بيان الأول: أنه قد يندم، ويقلع، ويعزم، ولا يكون تائبًا شرعًا؛ إذ قد يفعل ذلك شحًّا على ماله، أو لئلا يعيره الناس من ذلك. ولا تصح التوبة الشرعية إلا بالنية والإخلاص؛ فإنها من أعظم العبادات الواجبات، ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم:٨].

---

(١) انظر ذلك في (إحياء علوم الدين) (٤/٣-٤).

وأما الثاني: فبيانه أنه يخرج منه من زنى -مثلًا-، ثم قطع ذكره؛ فإنه لا يتأتى منه غير الندم على ما مضى من الزنى، وأما العزم والإقلاع فغير متصورين منه، ومع ذلك فالتوبة من الزنى صحيحة في حقِّه إجماعًا، وبهذا اغتر من قال: إن الندم يكفي في حدِّ التوبة، وليس بصحيح؛ لأنه لو ندم ولم يقلع، وعزم على العود، لم يكن تائبًا اتفاقًا، ولما فهم بعض المحققين هذا حد التوبة بحد آخر، فقال: هي: (**ترك اختيار ذنب سبق منك مثله، حقيقةً أو تقديرًا؛ لأجل الله** عَزَّوَجَلَّ)، وهذا أسد العبارات وأجمعها.

وبيان ذلك: أن التائب لا بد أن يكون تاركًا للذنب، غير أن ذلك الذنب الماضي قد وقع، وفرغ منه، فلا يصح تركه؛ إذ هو غير متمكن من عينه لا تركًا ولا فعلًا، وإنما هو متمكن من مثله حقيقة، وهو زنى آخر -مثلًا-، فلو جبَّ لم تصح منه حقيقة الزنى، بل: الذي يصح منه أن يقدر أنه لو كان متمكنًا من الزنى لتركه. فلو قدرنا من لم يقع منه ذنب لم يصح منه إلا اتقاء ما يمكن أن يقع، لا ترك مثل ما وقع، فيكون متقيًا لا تائبًا، فتدبر هذا.

وقوله: (**لأجل الله** عَزَّوَجَلَّ) تحرز من ترك ذلك لغير الله جَلَّوَعَلَا؛ إذ ذلك لا يكون تائبًا اتفاقًا، فلا يكون فعله ذلك توبة، وهذا واضح، وإذا تقرر هذا فاعلم أن الباعث على التوبة: تنبيه إلهي ينبه به من أراد سعادته لقبح الذنوب وضررها؛ فإنها سموم مهلكة تفوت على الإنسان سعادة الدنيا والآخرة، وتحجبه عن معرفة الله عَزَّوَجَلَّ في الدنيا، وعن تقريبه وكرامته في الدار الآخرة. ومن انكشف له هذا، وتفقد نفسه وجد نفسه مشحونة بهذا السم، ومملوءة بهذه الآفات، فلا شك في أن من حصل له علم ذلك، انبعث منه

خوف هجوم الهلاك، فتتعين عليه المبادرة لطلب أمر يدفع به عن نفسه ضرر ما يتوقعه ويخافه. فحينئذ ينبعث منه الندم على ما فرط، وترك مثل ما سبق؛ مخافة عقوبة الله عَزَّوَجَلَّ، فيصدق عليه أنه تائب، فإن لم يكن كذلك كان مصرا على المعصية، وملازمًا لأسباب الهلكة.

ثم اعلم بعد هذا: أن الذنوب إما كفر، وإما غيره، فتوبة الكافر عند موته مقطوع بعدم قبولها، وما عداها فمقبولة إن شاء الله، بوعده الصدق، وقوله الحق.

وأعني بالقبول: الخلاص من ضرر الذنوب حتى يرجع كمن لم يعمل ذنبًا، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«التائب من الذنب كمن لا ذنب له»** (١).

ثم إن الذنب الذي يتاب منه إما حق لله عَزَّوَجَلَّ، وإما حق لغيره، فحق الله عَزَّوَجَلَّ يكفي في التوبة منه: الترك الذي ذكرناه، غير أن منها: ما لم يكتف الشرع منه بمجرد الترك، بل: أضاف إلى ذلك في بعضها قضاء، كالصلاة والصوم، ومنها: ما أضاف إليها كفارة، كالحنث في الأيمان والظهار، وغير ذلك، فلا يرتفع ضرر ذلك الذنب إلا بتركه، وفعل ما أمره الله عَزَّوَجَلَّ به من القضاء والكفارة. وأما حقوق الآدميين، فلا بد من إيصالها إلى مستحقيها، فإن لم توصل إلى أربابها لم يتخلص من ضرر ذلك الذنب إلا بتركه، وفعل ما أمره الله عَزَّوَجَلَّ به، ومن اجتهد في الخروج عن الحقوق، فلم يقدر على الخروج منها، فعفو الله جَلَّوَعَلَا مأمول، وفضله مبذول، وكم ضمن من التبعات،

---

(١) أخرجه ابن ماجة [٤٢٥٠]، وأبو نعيم في (الحلية) (٤/٢١٠)، والشهاب القضاعي [١٠٨]، والطبراني في (الكبير) [١٠٢٨١]، والبيهقي في (الكبرى) [٢٠٥٦١]. قال الشيخ شمس الدين السخاوي في (المقاصد): "رجال إسناده ثقات. وقد حسنه شيخنا؛ لشواهده" انظر: المقاصد الحسنة (ص:٢٤٩).

وكم بذل من السيئات بالحسنات، وتفصيل ما أجملناه موجود في كتب مشايخ الإسلام رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ"(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وكثير من الناس إنما يفسر التوبة بالعزم على أن لا يعاود الذنب، وبالإقلاع عنه في الحال، وبالندم عليه في الماضي، وإن كان في حق آدمي فلا بد من أمر رابع، وهو التحلل منه.

وهذا الذي ذكروه بعض مسمى التوبة، بل شرطها، وإلا فالتوبة في كلام الله عَزَّوَجَلَّ، ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما تتضمن ذلك، تتضمن العزم على فعل المأمور والتزامه، فلا يكون بمجرد الإقلاع والعزم والندم تائبًا، حتى يوجد منه العزم الجازم على فعل المأمور، والإتيان به، هذا حقيقة التوبة، وهي اسم لمجموع الأمرين، لكنها إذا قرنت بفعل المأمور كانت عبارة عما ذكروه، فإذا أفردت تضمنت الأمرين، وهي كلفظة: (التقوى) التي تقتضي عند إفرادها: فعل ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به، وترك ما نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه، وتقتضي عند اقترانها بفعل المأمور: الانتهاء عن المحظور.

فإن حقيقة التوبة: **(الرجوع إلى الله** عَزَّوَجَلَّ **بالتزام فعل ما يحب، وترك ما يكره، فهي رجوع من مكروه إلى محبوب)**، فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر؛ ولهذا علق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحظور بها، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٣١﴾ [النور:٣١]، فكل تائب مفلح، ولا يكون مفلحًا إلا من فعل ما أمر به، وترك ما

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/٦٩-٧١).

نهي عنه، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ١١﴾ [الحجرات:١١]. وتارك المأمور ظالم، كما أن فاعل المحظور ظالم، وزوال اسم الظلم عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين، فالناس قسمان: تائب وظالم ليس إلا، فالتائبون هم: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١١٢]، فحفظ حدود الله عَزَّوَجَلَّ جزء التوبة، والتوبة هي مجموع هذه الأمور، وإنما سمي تائبًا؛ لرجوعه إلى أمر الله عَزَّوَجَلَّ من نهيه، وإلى طاعته من معصيته.

فإذا التوبة هي حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل في مسمى: (التوبة)، وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة:٢٢٢]، وإنما يحب الله عَزَّوَجَلَّ من فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه.

فإذًا التوبة هي: الرجوع مما يكرهه الله عَزَّوَجَلَّ ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا. ويدخل في مسماها: (الإسلام، والإيمان، والإحسان)، وتتناول: جميع المقامات، ولهذا كانت غاية كل مؤمن، وبداية الأمر وخاتمته، وهي الغاية التي وجد لأجلها الخلق، والأمر والتوحيد جزء منها، بل هو جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها.

وأكثر الناس لا يعرفون قدر التوبة، ولا حقيقتها، فضلًا عن القيام بها علمًا وعملًا وحالًا، ولم يجعل الله جَلَّ وَعَلَا محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه.

ولولا أن (التوبة) اسم جامع لشرائع الإسلام، وحقائق الإيمان لم يكن الرب جَلَّ وَعَلَا يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم، فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل التوبة وآثارها"(١).

وهذا التحرير والبيان من العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومن قبله الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلاهما جد نفيس، مما لا يستغنى عنه في هذا المقام.

ويقال -بالإضافة إلى ما تقدم-: إن الباعث على التوبة: إدامة الفكر في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وما ذكره من تفاصيل الجنة، ووعد به المطيعين، ومن عذاب النار الذي أوعد به العاصين، فمن أدام ذلك قوي خوفه ورجاؤه، فدعا الله عَزَّوَجَلَّ؛ رغبًا ورهبًا، والرغبة والرهبة ثمرة: الرجاء والخوف.

وقيل الباعث على ذلك: تنبيه إلهي ينبه الله عَزَّوَجَلَّ من أراد سعادته بقبح الذنب وضرره؛ إذ هو سم مهلك.

ولا مخالفة في الحقيقة؛ فإن الإنسان لا يتفكر في الوعد والوعيد إلا بالتنبيه الإلهي، فإذا نظر بتوفيق الله عَزَّوَجَلَّ إلى نفسه فوجدها مشحونة بذنوب اكتسبها، وسيئات اقترفها، وانبعث منه: الندم على ما فرط، وترك مثل ما سبق؛ مخافة عقوبته جَلَّ وَعَلَا صدق عليه أنه تائب، فإن لم يكن كذلك فهو مصر على المعصية ملازم لأسباب الهلكة (٢).

---

(١) مدارج السالكين (١/٣١٢-٣١٤).

(٢) انظر: الفتوحات الربانية (٧/٢٧٣-٢٧٤).

ثانيًا: التوبة لفظة يشترك فيها الرب جَلَّ وَعَلَا والعبد:

و"التوبة لفظة يشترك فيها الرب جَلَّ وَعَلَا والعبد، فإذا وصف بها العبد فالمعنى: رجع إلى ربه؛ لأن كل عاص فهو في معنى: الهارب من ربه، فإذا تاب فقد رجع عن هربه إلى ربه، فيقال: تاب إلى ربه، والرب في هذه الحالة كالمعرض عن عبده. وإذا وصف بها الرب جَلَّ وَعَلَا فالمعنى أنه رجع على عبده برحمته وفضله؛ ولهذا السبب وقع الاختلاف في الصلة، فقيل في العبد: تاب إلى ربه. وفي الرب على عبده. وقد يفارق الرجل خدمة رئيس فيقطع الرئيس معروفه عنه، ثم يراجع خدمته، فيقال: فلان عاد إلى الأمير، والأمير عاد عليه بإحسانه ومعروفه.

وإذا عرفت هذا فنقول: قبول التوبة يكون بوجهين:

أحدهما: أن يثيب عليها الثواب العظيم، كما أن قبول الطاعة يراد به ذلك.

والثاني: أنه جَلَّ وَعَلَا يغفر ذنوبه بسبب التوبة.

والمراد من وصف الله عَزَّ وَجَلَّ بالتواب: المبالغة في قبول التوبة، وذلك من وجهين:

الأول: أن واحدًا من ملوك الدنيا متى جنى عليه إنسان ثم اعتذر إليه فإنه يقبل الاعتذار، ثم إذا عاد إلى الجناية وإلى الاعتذار مرة أخرى فإنه لا يقبله لأن طبعه يمنعه من قبول العذر، أما الله عَزَّ وَجَلَّ فإنه بخلاف ذلك، فإنه إنما يقبل التوبة لا لأمر يرجع إلى رقة طبع، أو جلب نفع، أو دفع ضرر، بل إنما يقبلها لمحض الإحسان والتفضل.

فلو عصى المكلف كل ساعة ثم تاب وبقي على هذه الحالة العمر الطويل لكان الله عَزَّ وَجَلَّ يغفر له ما قد سلف، ويقبل توبته، فصار جَلَّ وَعَلَا مستحقًّا للمبالغة في قبول التوبة، فوصف بأنه جَلَّ وَعَلَا توّاب.

الثاني: أن الذين يتوبون إلى الله عَزَّوَجَلَّ فإنه يكثر عددهم، فإذا قبل توبة الجميع استحقَّ المبالغة في ذلك، ولما كان قبول التوبة مع إزالة العقاب يقتضي حصول الثواب، وكان الثواب من جهته نعمة ورحمة وصف نفسه مع كونه توَّابًا بأنه رحيم"(١).

وفي (صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ): "باب قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾ [النصر:٣]: تَوَّابٌ على العباد، والتَّوَّابُ من النَّاس: التَّائِبُ من الذَّنْب"(٢).

وقال الحليمي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير (التواب) في الأسماء الحسنى: "إنه العائد على عبده بفضل رحمته، كلما رجع لطاعته، وندم على معصيته، فلا يحبط عنه ما قدمه من خير، ولا يحرمه ما وعد به الطائع من الإحسان.

وقال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: (التواب): الذي يعود إلى القبول، كلما عاد العبد إلى الذنب وتاب"(٣).

ووصف العبد بأنه (تواب)، يعني: أنه كثير الرجوع إلى الطاعة، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة:٢٢٢]"(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (٣/٤٦٨)، وانظر: غرائب القرآن (١/٢٦٣-٢٦٤).

(٢) صحيح البخاري (٦/١٧٩).

(٣) فتح الباري، لابن حجر (١١/١٠٤).

(٤) المنهاج في شعب الإيمان، لأبي عبد الله الحَلِيمي (٣/١٢٠).

ثالثًا: التوبة النصوح:

قال الشريف الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(التوبة النصوح): هي توثيق بالعزم على ألا يعود لمثله.

وقيل: (التوبة النصوح): ألا يبقي على عمله أثرًا من المعصية سرًّا وجهرًا.

وقيل: هي التي تورث صاحبها الفلاح عاجلًا وآجلًا"(١).

"قال صاحب العين: التوبة النصوحة: الصادقة. وقيل: إنما سمى الله عَزَّوَجَلَّ التوبة نصوحًا؛ لأن العبد ينصح فيها نفسه، ويقيها النار؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ [التحريم:٦]، وأصل قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿تَوۡبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم:٨]: توبة منصوحًا فيها، إلا أن أخبر عنها باسم الفاعل للنصح على ما ذكره سيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الخليل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ٢١﴾ [الحاقة:٢١]، أي: ذات رضا، وذكر أمثلة لهذا كثيرة عن العرب، كقولهم: ليل نائم، وهم ناصب، أي: ينام فيه وينصب(٢)، فكذلك: ﴿تَوۡبَةً نَّصُوحًا﴾، أي: ينصح فيها"(٣).

قال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿تَوۡبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم:٨]، أي: بالغة في النصح، فهو من أمثلة المبالغة، كضروب، وصفت التوبة به على الإسناد المجازي، وهو وصف التائبين، وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم فيأتوا بها على طريقها.

---

(١) التعريفات (ص:٧٠).

(٢) انظر هذه المسألة في كتاب: (تذكرة وبيان من علوم القرآن)، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان (ص:٦٤٠-٦٤٧).

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/٧٩).

قيل: التوبة النصوح: أن يندم العبد على الذنب الذي أصاب، فيعتذر إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن إلى الضرع. ورُوِيَ عن عمر، وابن مسعود، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، والحسن، ومجاهد، وغيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ"(١).

وقيل: ﴿نَّصُوحًا﴾ من نصاحة الثوب، أي: خياطته، أي: توبة ترفو خروقك في دينك، وترم خللك. وقيل: خالصته من قولهم: (عسل ناصح): إذا خلص من الشمع. وجوز أن يراد توبة تنصح الناس، أي: تدعوهم إلى مثلها؛ لظهور أثرها في صاحبها، واستعمال الجد والعزيمة في العمل بمقتضياتها. وفي المراد بها أقوال كثيرة أوصلها بعضهم إلى نيف وعشرين قولا: منها ما سمعت"(٢).

وقال القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(التوبة النصوح): هي التي لا يعقبها نقض.

ويقال: هي التي لا تراها من نفسك، ولا ترى نجاتك بها، وإنما تراها بربّك.

ويقال: هي أن تجد المرارة في قلبك عند ذكر الزِّلَّة، كما كنت تجد الراحة لنفسك عند فعلها"(٣).

---

(١) انظر: الدر المنثور (٨/٢٢٧)، انظر: التفسير المسند، للإمام أبي بكر بن موسى بن مردويه (٢/١٩٨)، وانظر: الكشف والبيان (٤/٢٠٩)، (٩/٣٥٠)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لأبي الحسن الواحدي (٤/٣٢٢)، تفسير القرطبي (١٨/١٩٧)، البحر المحيط في التفسير (١٠/٢١٣).

(٢) روح المعاني (١٤/٣٥٢)، بتصرف.

(٣) لطائف الإشارات (٣/٦٠٨).

وعن أبي بكر الورّاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه سئل عن (التوبة النصوح)، فقال: أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه، كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه (١).

وعن النعمان بن بشير: أن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سئل عن التوبة النصوح، قال: «**أن يتوب الرجل من العمل السيء، ثم لا يعود إليه أبدًا**» (٢).

وسئل الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن التوبة النصوح، فقال: ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وترك بالجوارح، وإضمار أن لا يعود (٣).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(النصوح) على وزن: (فعول) المعدول به عن (فاعل)؛ قصدًا للمبالغة، كالشكور والصبور، وأصل مادة: (نصح) لخلاص الشيء من الغش

---

(١) انظر: الكشف والبيان (١٠٨/٥)، الكشاف (٣٢٠/٢)، المحرر الوجيز (٣٣٤/٥)، تفسير القرطبي (٢٨٧/٨)، غرائب القرآن (٥٤٢/٣)، تفسير أبي السعود (١١٠/٤).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٤٤٩١]، وهناد في (الزهد) [٩٠١]، وأبو داود في (الزهد) [٥٩]، وابن جرير في (التفسير) (٤٩٣/٢٣)، وابن أبي حاتم في (التفسير) [١٨٩٢٥]، والحاكم [٣٨٣٠]، وقال: "صحيح الإسناد" ووافقه الذهبي، كما أخرجه: البيهقي في (الكبرى) [٢٠٥٦٠]، وفي (شعب الإيمان) [٦٦٣٤]. قال السيوطي: "أخرجه عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وهناد، وابن منيع، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في (شعب الإيمان): عن النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ" الدر المنثور (٢٢٧/٨)، وانظر: (كنز العمال) [١٠٤٢٣]. وقد أخرجه ابن جرير (٤٩٣/٢٣): عن أبي الأحوص، وعن سفيان كلاهما عن سماك بن حرب... وانظر: تفسير ابن كثير (١٦٨/٨).

(٣) غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب، لمحمد بن عُزير السجستاني (ص:٤٧٠)، قوت القلوب (٣٠٣/١)، زاد المسير (٣١١/٤)، التبصرة، لابن الجوزي (ص:٣٦٩).

والشوائب الغريبة، وهو ملاق في الاشتقاق الأكبر لنصح إذا خلص، فالنصح في التوبة والعبادة والمشورة: تخليصها من كل غش، ونقص، وفساد، وإيقاعها على أكمل الوجوه، والنصح ضد الغش.

قال: والنصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب، واستغراقها، بها بحيث لا تدع ذنبًا إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها، بحيث لا يبقى عنده تردد، ولا تلوم، ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرًا بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته، ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عَزَّوَجَلَّ.

فالأول يتعلق بما يتوب منه، والثالث يتعلق بمن يتوب إليه، والأوسط يتعلق بذات التائب ونفسه، فنصح التوبة الصدق فيها، والإخلاص، وتعميم الذنوب بها، ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه، وتمحو جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة"(١).

---

(١) مدارج السالكين (١/٣١٦-٣١٧)، وانظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (١/٩٤).

رابعًا: مكانة التوبة وفضلها والترغيب فيها:

التوبةُ هي أهمُّ قواعد الإسلام، وهي أول مقامات سالكي طريق الآخرة، وهي باب الأمل في النَّجاة لمن أسرف في المعاصي، فمهما كثرت الذنوب وعظمت فإن الله عَزَّوَجَلَّ قد فتح باب التوبة للعبد الذي يقبل على الله تائبًا قبل أن يحضره الموت؛ فلا ييأس العبد من عفو الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإن التوبة الصالحة النصوح تجبُّ ما قبلها، فهي طيٌّ لسجل الماضي بما فيه، وفتح لصفحة جديدة، وبدء لحياة تختلف بالكلية عن التي قبلها، يسارع العبد فيها إلى الأعمال الصالحة، ويرد الحقوق إلى أصحابها، ويطلب العفو والسماح، ممن أساء إليه، أو لحقه منه ضرر أو ظلم أو إيذاء، ويحسن التعامل مع الخلق، ويتخلق بأحسن الأخلاق، ويعمل جاهدًا على تدارك ما فاته من التقصير.

فباب التوبة مفتوح ما لم يحضر العبد الموت، أو تطلع الشمس من مغربها، فمهما وقع المؤمن في شيء مما يقع فيه العتب من جهة الشرع، فهو مخاطب بالمبادرة إلى التوبة الشرعية، فإذا أوقعها بشروطها المعتبرة شرعًا وجد الباب مفتوحًا، لا يرد عنه، ولا يغلق دونه، بكرم من المولى جَلَّوَعَلَا.

والتوبة فرض من الله عَزَّوَجَلَّ على كلِّ من علم من نفسه ذنبًا صغيرًا أو كبيرًا.

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ عباده بالتوبة فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هود:٣]، وقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور:٣١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم:٨].

ووعد عباده التائبين بقبول التوبة، والتجاوز عن السيئات في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ

عَلَيْهِمْۗ﴾ [النساء:١٧]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾ [التوبة:١٠٤]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ٢٥﴾ [الشورى:٢٥]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١١٠﴾ [النساء:١١٠]، أي: من يتب توبة صادقة، ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ يجد الله عَزَّوَجَلَّ ساترًا عليه ذنبه، بصفحه له عن عقوبة جرمه، ﴿رَّحِيمًا ١١٠﴾ به.

ووعدهم كذلك بالمغفرة وحسن الجزاء في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ٦٨ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٧٠ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ٧١﴾ [الفرقان:٦٨-٧١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ٨٢﴾ [طه:٨٢]، وقال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر:٣]، وقال: ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ٢٥﴾ [الإسراء:٢٥]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ٦٤﴾ [النساء:٦٤].

وذكر الله عَزَّوَجَلَّ أنه يحبُّ العبد الذي يتوب، ويطهر نفسه من أدران الظاهر والباطن في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة:٢٢٢].

وبشر التائبين بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة:١١٢].

فالتائبون هم الراجعون مما كرهه الله عَزَّوَجَلَّ وسخطه إلى ما يحبُّه ويرضاه.

والتوبة على الفور خيرٌ للعبد في حاله ومآله، فلا يأمنُ من أخَّرَ التوبة أن ينزل به عذاب الله عَزَّوَجَلَّ، ويحل به عقابه، فيندم حين لا ينفعه الندم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾ [التوبة:٣].

وتوعد الله عَزَّوَجَلَّ من لم يتب بسوء العاقبة فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء:١٨]، وقال: ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة:٧٤]، وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات:١١]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج:١٠].

وأمر الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس بالتوبة، كما جاء في الحديث: عن أبي بُرْدَةَ، قال: سمعت الْأَغَرَّ، وكان من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يحدث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا

قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب، في اليوم إليه مائة مرة**» (١).

والحديث دليلٌ على أنَّ كلَّ عبدٍ مهما كانت مرتبته ودرجته في الإيمان، فإنَّه يحتاج إلى الرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وإلى تكميل نفسه بالتوبة، فيتوب مما علم ومما لم يعلم، فالنبي ﷺ مع علو مرتبته، وكمال عُبوديته لله عَزَّوَجَلَّ، ومع أن الله عَزَّوَجَلَّ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فإنه كان يتوب في اليوم مائة مرة، وفي ذلك تعليم لأمته بأن يحاسب كل إنسان نفسه، ويجدد توبة عن كل ذنبٍ، أو تقصيرٍ، أو غفلة، ويعقد مع الله عَزَّوَجَلَّ عهدًا جديدًا على أن يسيرَ على صراطه المستقيم، وأن لا ينحرفَ عنه، ثم يتجهَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ بشتى القُرُباتِ والطاعاتِ التي تتسنى له، إذن فلسوفَ يكرمُه الله عَزَّوَجَلَّ، ويرزقه من خيري الدنيا والآخرة.

وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**» (٢).

وعن الْأَغَرِّ الْمُزَنِيِّ، وكانت له صحبة، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّهُ لَيُغَانُ على قلْبِي، وإِنِّي لأستَغْفِرُ اللهَ، في اليوم مائة مَرَّة**» (٣).

قال أبو عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يعني: أنه يتغشى القلب ما يلبسه. وكذلك كل شيء تغشى شيئًا حتى يلبسه فقد غين عليه، ويقال: غينت السماء غينًا، وهو إطباق الغيم

---

(١) صحيح مسلم [٢٧٠٢].

(٢) صحيح البخاري [٦٣٠٧].

(٣) صحيح مسلم [٢٧٠٢].

السماء. و(الغين) -بالغين المعجمة-، و(الغيم) بمعنى واحد، والمراد هنا: ما يتغشى القلب (١).

قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قيل: المراد: الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان دأبه، فيستغفر منه؛ إذ كان أبدًا فيمن يدمن ذلك، فرأى الغفلة عنه ذنبًا، واستغفر منه.

وقيل: ذلك الغين: همه بسبب أمته، وما اطلع عليه من أحوالها بعده، فيستغفر لهم.

وقيل: إن ذلك لما يشغله عن عظيم مقامه، من النظر في أمور أمته ومصالحهم، ومجاهة عدوه، ومداراتهم؛ للاستئلاف، فيرى شغله لذلك -وإن كان من أعظم الطاعات، وأفضل الأعمال - نزولًا عن عليِّ درجته، ورفيع مقامه، من حضوره بهمه كله مع الله عَزَّوَجَلَّ، ومشاهدته عنده، وفراغه عن غيره إليه، وخلوصه له عمن سواه، فيستغفر لذلك.

وقيل: قد يكون هذا الغين: السكينة التى تغشى قلبه؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ [التوبة: ٤٠]، واستغفاره: إظهار للعبودية والافتقار، وملازمة الخضوع؛ شكرًا لما أولاه به.

قال المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: خوف الملائكة والأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ خوف إعظام، وإن كانوا آمنين من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ، فخوفهم تعبد لله عَزَّوَجَلَّ؛ إجلالًا وإعظامًا.

---

(١) انظر: غريب الحديث، لأبي عُبيد القاسم بن سلام، مادة: (غين) (١/١٣٦-١٣٧)، تهذيب اللغة (٨/١٧٤)، المعْلم بفوائد مسلم (٣/٣٣٠)، إكمال المعلم (٨/١٩٧).

وعلى من يجيز الصغائر على الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فيجعل استغفاره لما عساه يتوقعه أن يجرى على لسانه أو جوارحه فيها، وإن كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فاستغفاره لذلك شكر لله عَزَّ وَجَلَّ، وإعظام لجلاله.

وقيل: هو شيء يعتري القلوب الصافية، مما يحدث في النفس من اللمم وحديثها، أو الغفلة فيشوشها -والله أعلم-"(١).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ويحتمل معنيين:

أحدهما: أن معرفة الله عَزَّ وَجَلَّ عند العارف كل لحظة تزيد لما يستفيده من العلم به جَلَّ وَعَلَا، فهو في صعود دائم، فكأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان كلما ارتقى عن مقام بما يستفيده من العلم بالله عَزَّ وَجَلَّ حين قال له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝١١٤﴾ [طه:١١٤] يرى ذلك الذي كان فيه نقصًا وغطاء، فيستغفر من الحالة الأولى، ومن هذا المعنى قيل: حسنات الأبرار ذنوب المقربين. هذا واقع وقع لي.

ثم رأيت ابن عقيل رَحِمَهُ اللَّهُ قد ذكر مثل ذلك فقال: كان يترقى من حال إلى حال، فتصير الحالة الأولى بالإضافة إلى الثانية من التقصير كالذنب، فيقع الاستغفار لما يبدو له من عظمة الرب جَلَّ وَعَلَا، وتتلاشى الحال الأولى بما يتجدد من الحال الثانية.

والمعنى الثاني: أن التغطية على قلبه كانت لتقوية الطبع على ما يلاقي، فيصير بمثابة النوم الذي تستريح فيه الأعضاء من تعب اليقظة، وذلك أن الطاعة على الحقائق، ومواصلة الوحي تضعف قلبه، وتوهن بدنه، وقد أشار عَزَّ وَجَلَّ إلى هذا في قوله:

---

(١) انظر: إكمال المعلم (٨/١٩٧-١٩٨)، شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/٢٣).

﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝﴾ [المزمل:٥]، وقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١].."(١).

وقال أبو العباس القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وليس معناه: أنه يذنب في اليوم مائة مرة، بل ذكره لما هو بالنسبة إلى علو منصبه ذنب؛ لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين. وذكره له صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في اليوم مائة مرة يدل على فرط استعظامه لأمر ربه عَزَّوَجَلَّ، فشتان ما بين من لا ينسى الحقير من أمر ربه جَلَّوَعَلَا حتى يذكره في اليوم مائة مرة، وبين من ينسى العظيم من ذنوبه، فلا يمر على باله؛ احتقارًا لذنوبه، وجهلًا بعظمة ربه عَزَّوَجَلَّ.

وقد ذم الله عَزَّوَجَلَّ من وعظ فأعرض عن الموعظة، ونسي ما قدمت يداه. وإذا كانت التوبة واجبة على الفور، فمن أخرها زمانًا عصى بتأخيرها، فيتكرر عصيانه بتكرر الأزمنة، فيحتاج إلى توبة من تأخير التوبة، وكذلك تأخير كل ما يجب تقديمه من الطاعات"(٢).

وقال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله: «**فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة**»: "هذا يدل على التوبة، وأن الإنسان مهما ذكر ذنبه جدد التوبة؛ لأنَّه من حصول الذنب على يقين، ومن الخروج عن عقوبته على شك، فحق التائب أن يجعل ذنبه نصب عينيه، وينوح دائمًا عليه، حتى يتحقق أنه قد غفر له ذنبه، ولا يتحقق أمثالنا ذلك إلا بلقاء الله عَزَّوَجَلَّ، فواجب عليه ملازمة الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ، والرجوع

(١) انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين (٢٣١/٤-٢٣٢).

(٢) الذخيرة في فروع المالكية (٣٥٧/١٣).

إلى الله جَلَّ وَعَلَا بالندم على ما فعل، وبالعزم على ألا يعود إليه، والإقلاع عنه. ثم لو قدرنا أنه تحقق أنه غفر له ذلك الذنب تعينت عليه وظيفة الشكر، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا؟**» (١).

وإنَّما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه يكرر توبته كل يوم مع كونه مغفورًا له؛ ليُلحق به غيرُه نفسَه بطريق الأولى؛ لأنَّ غيره يقول: إذا كانت حال من تحقق مغفرة ذنوبه هكذا، كانت حال من هو من ذلك في شك أحرى وأولى، وكذلك القول في الاستغفار والتوبة يقتضي شيئًا يتاب منه؛ إلا أن ذلك منقسم بحسب حال من صدر منه ذلك الشيء، فتوبة العوام من السيئات، وتوبة الخواص من الغفلات، وتوبة خواص الخواص من الالتفات إلى الحسنات، هكذا قاله بعض أرباب القلوب، وهو كلام حسن في نفسه، بالغ في فنه"(٢).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "ويحتمل أن يكون لاشتغاله بالأمور المباحة من أكل، أو شرب، أو جماع، أو نوم، أو راحة، أو لمخاطبة الناس والنظر في مصالحهم، ومحاربة عدوهم تارة، ومداراته أخرى، وتأليف المؤلفة، وغير ذلك مما يحجبه عن الاشتغال بذكر الله عَزَّوَجَلَّ، والتضرع إليه ومشاهدته ومراقبته، فيرى ذلك ذنبًا بالنسبة إلى المقام العلي، وهو الحضور في حظيرة القدس ومنها أن استغفاره تشريع لأمته أو من ذنوب الأمة فهو كالشفاعة لهم"(٣).

---

(١) صحيح البخاري [١١٣٠، ٤٨٣٦، ٦٤٧١]، مسلم [٢٨١٩].

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢٨/٧).

(٣) فتح الباري (١٠٢/١١).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان تُعَدُّ لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المجلس الواحد مائة مرة من قبل أن يقوم: «**رب اغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الغفور**» (١).

ومن أسباب العافية والسلامة لمن ابتلي بشيء من المعاصي: أن يستتر، ويستغفر الله عَزَّوَجَلَّ، ويتوب إليه توبة نصوحًا، وأن يعمل جاهدًا على اجتناب المعاصي كلها، وإذا ألم بشيء منها فليجتهد في إخفائه وستره، وليتضرع إلى الله عَزَّوَجَلَّ في سجوده أن يتوب عليه من ذنبه.

ولأهمية التوبة فإن الله عَزَّوَجَلَّ يفرح بتوبة العبد، كما جاء في الحديث: عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بتوبة عبده المؤمن، من رَجُلٍ في أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلِكَةٍ، معه رَاحِلَتُهُ، عليها طعامُهُ وشرابُهُ، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضعَ رَأْسَهُ على سَاعِدِه ليمُوتَ، فاستيقظ**

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٩٤٤٣]، بلفظ: «.. إنك أنت التواب الغفور»، وكذا عند أحمد [٤٧٢٦]، وعبد بن حميد [٧٨٦]، والترمذي [٣٤٣٤]، وقال: "حسن صحيح غريب" كما أخرجه: البزار [٥٩٠٦]، والنسائي في (الكبرى) [١٠٢١٩]، وفي (عمل ليوم والليلة) [٤٥٨]. وقد جاء أيضًا بلفظ: «إنك أنت التواب الرحيم»، وهو كذلك عند البخاري في (الأدب المفرد) [٦١٨]، وابن ماجة [٣٨١٤]، وأبو داود [١٥١٦]، وابن حبان [٩٢٧]، وابن السني في (عمل ليوم والليلة) [٤٤٨]، وأبو نعيم في (الحلية) (١٢/٢)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٣٢]، والبغوي في (شرح السنة) [١٢٨٩]، وابن عساكر في (معجمه) [٢٤٠]. وذكر محمد بن نصر المرْوَزِي اللفظين في (مختصر قيام الليل) (ص:٩٨) فقال: «إنك أنت التواب الغفور أو التواب الرحيم».

وعنده راحلته وعليها زاده وطعامه وشرابه، فاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده» (١).

وفي رواية: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم، سقط على بعيره، وقد أَضَلَّهُ في أرض فلاة»** (٢).

زاد مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ في رواية: **«فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها، قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»** (٣).

---

(١) صحيح البخاري [٦٣٠٨]، مسلم [٢٧٤٤]، واللفظ له. "أما دَوِّيَّةٍ فاتفق العلماء على أنها بفتح الدال، وتشديد الواو والياء جميعًا. وذكر مسلم في الرواية التي بعد هذه رواية أبي بكر بن أبي شيبة: «أرض دَاوِيَّةٍ» بزيادة ألف، وهي بتشديد الياء أيضًا، وكلاهما صحيح. قال أهل اللغة: الدوية الأرض القفر، والفلاة الخالية. قال الخليل: هي المفازة. قالوا: ويقال: دوية وداوية، فأما الدوية فمنسوب إلى (الدو) بتشديد الواو، وهي البرية التي لا نبات بها، وأما (الداوية) فهي على إبدال إحدى الواوين ألفًا، كما قيل في النسب إلى طي: (طائي). وأما (المهلكة) فهي بفتح الميم وبفتح اللام وكسرها، وهي: موضع خوف الهلاك. ويقال لها: (مفازة). قيل: إنه من قولهم فَوَزَ الرجل: إذا هلك. وقيل: على سبيل التفاؤل بفوزه ونجاته منها، كما يقال للديغ: سليم" شرح النووي على صحيح مسلم (٦١/١٧)، وانظر: إكمال المعلم (٢٤٢/٨)، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧٢/٧-٧٣).

(٢) صحيح البخاري [٦٣٠٩]، مسلم (٨) [٢٧٤٧].

(٣) مسلم (٧) [٢٧٤٧].

وفي رواية: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «**قال الله عَزَّوَجَلَّ: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني، والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة، ومن تقرب إلي شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إليه ذراعًا، ومن تقرب إليَّ ذراعًا، تقرَّبت إليه باعًا، وإذا أقبل إلي يمشي، أقبلت إليه أهرول**» (١). وروي في (الصحيحين): «**وأنا معه حين يذكرني**» بالنون، وفي هذه الرواية: «**حيث**» بالثاء، وكلاهما صحيح.

قال الخطابي رَحِمَهُٱللَّهُ: قوله: «**لله أفرح**» "معناه: أَرْضَى بالتوبة، وأَقْبَلُ لها، والفرحُ الذي يتعارفه الناس في نعوت بني آدم غير جائز على الله عَزَّوَجَلَّ، إنما معناه: الرضا، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾ [المؤمنون:٥٣]، أي: راضون"(٢).

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُٱللَّهُ: "والفرح وراء القبول، فهو دليل على القبول وزيادة"(٣).

وقال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: "وهذه فرحة إحسان وبر ولطف، لا فرحة محتاج إلى توبة عبده، منتفع بها، وكذلك موالاته لعبده؛ إحسانًا إليه، ومحبة له وبرًّا به، لا يتكثَّر به من قِلَّة، ولا يتعزَّز به من ذلَّة، ولا ينتصر به من غلبة، ولا يعده لنائبة، ولا يستعين به في أمر. ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ

---

(١) صحيح البخاري [٧٤٠٥]، صحيح مسلم [٢٦٧٥] واللفظ له.

(٢) أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري)، للخطابي (٢٢٣٨/٣)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (١٠٦/١١).

(٣) إحياء علوم الدين (١٣/٤).

وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ [الإسراء:١١١]، فنفى أن يكون له ولي من الذل، والله ولي الذين آمنوا، وهم أولياؤه"(١).

قال: "وفي الحديث من قواعد العلم: أن اللفظ الذي يجري على لسان العبد خطأ من فرح شديد، أو غيظ شديد، ونحوه، لا يؤاخذ به؛ ولهذا لم يكن هذا كافرًا بقوله: «**أنت عبدي وأنا ربك**». ومعلوم أن تأثير الغضب في عدم القصد يصل إلى هذه الحال، أو أعظم منها، فلا ينبغي مؤاخذة الغضبان بما صدر منه في حال شدة غضبه من نحو هذا الكلام"(٢).

فتأمل سائرًا وحده بأرض مفازة معطشة، لا ماء بها ولا زاد، ضلت راحلته فيها، فاشتد جوعه وظمأه، فأيس من الحياة، فاضطجع في أصل شجرة ينتظر الموت، ثم استيقظ فإذا الراحلة قائمة على رأسه، وعليها طعامه وشرابه، كما جاء ذلك مصرَّحًا به في بعض طرق هذا الحديث، فهل في الفرح قط أعظم من هذا؟ ولهذا الفرح بتوبة العبد سر أكثر الخلق محجوبون عنه، لا تبلغه عقولهم، وبه يعرف سر تقدير ما يثاب منه على العبد؛ لأنه يترتب عليه ما هو أحب إلى الرب جَلَّ وَعَلَا من عدمه، فلو لم يكن في تقدير الذنب من الحكم إلا هذه وحدها لكانت كافية، فكيف وفيه من الحكم ما لا يحصيه إلا الله عَزَّوَجَلَّ مما ليس هذا موضعه؟!"(٣).

---

(١) مدارج السالكين (١/٢١٢-٢١٣).

(٢) المصدر السابق (١/٢٢٦).

(٣) الصواعق المرسلة (٤/١٤٦١-١٤٦٢).

وفي الحديث: عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الله** عَزَّ وَجَلَّ **يبسط يده بالليل؛ ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها**» (١)، أي: إن الله عَزَّ وَجَلَّ يقبل التوبة من العاصي في أي وقت كانت منه، ليلًا ونهارًا، ما لم يحضره الموت، أو تطلع الشمس من مغربها.

وفيه: تنبيه على سعة رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ، وكثرة تجاوزه عن الذنوب، ولا يزال كذلك جَلَّ وَعَلَا.

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء، ثم تبتم، لتاب الله عليكم**» (٢).

وعند أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**والذي نفسي بيده –أو والذي نفس محمد بيده– لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتم الله لغفر لكم، والذي نفس محمد بيده –أو والذي نفسي بيده– لو لم تخطئوا لجاء الله بقوم يخطئون، ثم يستغفرون الله، فيغفر لهم**» (٣).

---

(١) صحيح مسلم [٢٧٥٩].

(٢) أخرجه ابن ماجه [٤٢٤٨]، قال في (الزوائد) (٤/٢٤٦): "هذا إسناد حسن". وقال العراقي: "أخرجه ابن ماجه من حديث: أبي هريرة، وإسناده حسن" المغني عن حمل الأسفار (ص:١٣٤٧).

(٣) أخرجه أحمد [١٣٤٩٣]، وأبو يعلى [٤٢٢٦]، والطبراني في (الدعاء) [١٨٠٥]، والديلمي [٧٠٩٥]، والضياء [١٥٤٤]. قال الهيثمي (١٠/٢١٥): "رواه أحمد، وأبو يعلى، ورجاله ثقات".

وعن أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال حين حضرته الوفاة: كنت كتمت عنكم شيئًا سمعته من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقًا يذنبون يغفر لهم**» (١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله فيغفر لهم**» (٢).

وهذا لأن الذنب يوجب الذل، والخشية، والخوف، وصدق اللجأ، وبذلك يبين ذل العبودية، وانفراد عز الربوبية. وفيه: تقوية لرجاء المذنب في العفو (٣). فلا يفهم من الحديث: التساهُل في الوُقوع في الذنب، ثم الاستغفار بعد ذلك، وإنما جاء الحديث لبيان حال الإنسان وأنه قد ينزع إلى الذنب أو الشر، فإذا وقع في الخطأ والذنب فقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ له مخرجًا بالتوبة والاستغفار.

قال الشيخ عبد العزيز الدريني رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأول التوبة يقظة من الله عَزَّوَجَلَّ تقع في القلب، فيتذكر العبد تفريطه وإساءته، وكثرة جناياته، مع دوام نعم الله عَزَّوَجَلَّ عليه، فيعلم أن الذنوب سموم قاتلة يخاف منها حصول المكروه، وفوات المحبوب في الدنيا والآخرة، فإذا حصل هذا العلم أثمر حالًا، وهو الندم على تضييع حقِّ الله عَزَّوَجَلَّ، ثم

---

(١) صحيح مسلم [٢٧٤٨].

(٢) صحيح مسلم [٢٧٤٩].

(٣) كشف المشكل (٢/٩٢)، (٣/٥٩٠).

يثمر الندم عملًا، وهو المبادرة إلى الخيرات، وقضاء الواجبات، ورد الظلامات، والعزم على إصلاح ما هو آت، فهذه الأمور الثلاث إذا انتظمت فهي التوبة"(١).

وقد ذكروا أن وقوع العبد في بعض المعاصي، معترفًا بذنبه، نادمًا على فعله، عازمًا على عدم العود إليها، ومجددًا على ذلك التوبة، فيه فوائد ترجع إلى العبد إذا أحسن العودة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ومن هذه الفوائد:

- اعترافه بالذنب والضعف، وتذلله لله عَزَّوَجَلَّ.
- ومنها: تنكيس رأسه عن الكبر والعجب.

فمن أراد السلامة والعافية فينبغي أن لا يغترَّ بطاعته؛ فإن الذي يبكي ندمًا على معصيته خير من المغرور بطاعته، كما قال ابن عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول، وقضى عليك بالذنب وكان سببًا للوصول، رب معصية أورثت ذلًّا وافتقارًا خير من طاعة أورثت عزًّا واستكبارًا اهـ. قال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا كله ليس تنويهًا لارتكاب الخطايا، بل المراد أنه إذا أذنب فندم بذله وانكساره نفعه ذلك"(٢).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله فيغفر لهم**» (٣).

---

(١) طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب (ص:٧٧-٧٨).

(٢) انظر: فيض القدير (٢/٢٦٤)، وانظر: الفتاوى الحديثية (ص:٢١١).

(٣) صحيح مسلم [٢٧٤٩].

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لم يورد هذا الحديث مورد تسلية للمنهمكين في الذنوب، وقلة احتفال منهم بمواقعة الذنوب، على ما يتوهم الغرة؛ فإن الأنبياء صلوات الله عليهم إنما بعثوا؛ ليردعوا الناس عن غشيان الذنوب، بل ورد مورد البيان لعفو الله عَزَّوَجَلَّ عن المذنبين، وحسن التجاوز عنهم؛ ليعظموا الرغبة في التوبة والاستغفار.

والمعنى المراد من الحديث هو أن الله عَزَّوَجَلَّ كما أحب أن يحسن إلي المحسن، أحب أن يتجاوز عن المسيء، وقد دل علي ذلك غير واحد من أسمائه: (الغفار، الحليم، التواب، العفو)، ولم يكن ليجعل العباد شأنًا واحدًا كالملائكة مجبولين علي التنزه من الذنوب، بل يخلق فيهم من يكون بطبعه ميَّالًا إلي الهوى، متفتنًا بما يقتضيه، ثم يكلفه التوقي عنه، ويحذره من مداناته، ويعرفه التوبة بعد الابتلاء؛ فإن وفى فأجره علي الله عَزَّوَجَلَّ، وإن أخطأ الطريق فالتوبة بين يديه، فأراد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ به أنكم لو كنتم مجبولين علي ما جبلت عليه الملائكة، لجاء الله بقوم يتأتى منهم الذنب، فيتجلي عليهم بتلك الصفات علي مقتضى الحكمة؛ فإن الغفار يستدعي مغفورًا، كما أن الرزاق يستدعي مرزوقًا.

تصدير الحديث بالقسم رد لمن ينكر صدور الذنب عن العباد، ويعده نقصًا فيهم مطلقًا، وأن الله عَزَّوَجَلَّ لم يرد من العباد صدوره، كالمعتزلة ومن سلك مسلكهم، فنظروا إلى ظاهره، وأنه مفسدة صرفة، ولم يقفوا علي سره أنه مستجلب للتوبة والاستغفار الذي هو موقع محبة الله جَلَّوَعَلَا، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢٢]، و«**إن الله يبسط يده بالليل؛ ليتوب مسيء النهار**»، و«**الله أشد فرحا بتوبة عبده**» الحديث.

ولعل السر في إظهار صفة الكرم، والحلم، والغفران، ولو لم يوجد لانثلم طرف من صفات الألوهية، والإنسان إنما هو خليفة الله عَزَّوَجَلَّ في أرضه، يتجلى له بصفات الجلال والإكرام، والقهر واللطف والإنعام، والملائكة لما نظروا إلي الجلال والقهر، قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:٣٠]، والله عَزَّوَجَلَّ حين نظر إلى صفة الإكرام واللطف: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠﴾ [البقرة:٣٠]، وإلى هذا الموضوع يلمح قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لذهب الله بكم**»، ولم يكتف بقوله: «**لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون**» -والله أعلم-"(١).

وفي الحديث: «**لو لم تكونوا تذنبون لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك: العجب**» (٢).

قال الشيخ الديريني رَحِمَهُٱللَّهُ: "وإنما كان العجب أشد؛ لأن العاصي معترف بنقصه، فيرجى له العفو به، والمعجب مغرور بعمله؛ فتوبته بعيدة -انتهى-، قال

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٨٤٠/٦-١٨٤١).

(٢) أخرجه البزار [٦٩٣٦]، والخرائطي في (مساوئ الأخلاق) [٥٦٨]، والشهاب القضاعي [١٤٤٧]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٨٦٨] عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. قال العراقي: "أخرجه البزار، وابن حبان في (الضعفاء)، والبيهقي في (الشعب) من حديث: أنس. وفيه: سلام بن أبي الصهباء، قال البخاري: منكر الحديث. وقال أحمد: حسن. ورواه أبو منصور الديلمي في (مسند الفردوس) من حديث: أبي سعيد بسند ضعيف جدًّا" المغني عن حمل الأسفار (ص:١٢٨٦). قال المناوي: "طرقه كله ضعيفة؛ ولهذا قال في (الميزان) (١٨٠/٢) عند إيراده: ما أحسنه من حديث لو صح. وكان ينبغي للمصنف تقويتها بتعددها الذي رقاه إلى رتبة الحسن؛ ولهذا قال في (المنار): هو حسن بها، بل قال المنذري (٣٥٨/٣): رواه البزار بإسناد جيد" فيض القدير (٣٣١/٥).

العلامة السخاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ويشير إليه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ١٠٤﴾ [الكهف:١٠٤]"(١).

وقال الشيخ الديريني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا: "وينبغي لمن أذنب ذنبًا: أن يبادر إلى التوبة، ويعمل في قطع الأسباب الباعثة على الذنب، ويهجر من كان يصحبه على تلك الحالة، ويتدارك ما أفسده؛ ليمحوه بصالح الأعمال"(٢).

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]، وقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان:٧٠].

التوبة الصادقة تقطع آثار الذنب، إذا صدق التائب أنسى الله عَزَّوَجَلَّ الملائكة ذنوبه، وأنسى بقاع الأرض عيوبه، ومحا من أمِّ الكتاب زلاته، ولا يحاسب يوم القيامة عليها(٣).

وعن عيسى بن يونس قال: كنا عند محمد بن كعب القرظي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الله، ما تقول في التوبة؟ قال: ما أحسنها! قال: أفرأيت إن أعطيت الله عَزَّوَجَلَّ عهدًا أن لا أعصيه أبدًا، قال فقال له محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فمن حينئذ أعظم جرمًا منك، تتألى على الله عَزَّوَجَلَّ أن لا ينفذ فيك أمره(٤).

---

(١) المقاصد الحسنة (ص:٥٥٤)، وانظر: فيض القدير (٥/ ٣٣١).

(٢) طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب (ص:٧٨).

(٣) المصدر السابق (ص:١١٥).

(٤) تاريخ دمشق، لابن عساكر (١٤٦/٥٥)، الطبقات الكبرى، للشعراني (٣٣/١)، صفة الصفوة، لابن الجوزي (٣٧٥/١).

وإن الشعور بالكمال والرضا عن النفس من الآفات التي تصيب النفس بالعجب والغرور؛ لأنَّ الرِّضا عن النفس يعني: الانقياد والإذعان لما تحبه وترضاه، وذلك يوجب تغطية عيوبها ومساوئها وقبائحها، ولا بدَّ أن تورد صاحبها عندئذ المهالك، وأول هذه المهالك: إعجاب العبد بنفسه الأمارة بالسوء، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف:٥٣]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ [النجم:٣٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٤٩﴾ [النساء:٤٩]؛ لأنه الله عَزَّوَجَلَّ عالم بخفيات النفوس وكمائنها، وما انطوت عليه من قبيح أو حسن، فيزكي من يستحق التزكية، ويفضح المدَّعين، ولا يظلم أحدًا.

كما أن الشعور بالكمال والرضا عن النفس من أسباب الكبر والعجب وغرور العلم، وهو مما يصرف عن الحق، كما قال الحق جَلَّوَعَلَا: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [غافر:٨٣].

ونقل الثعالبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن صاحب (الكلم الفارقية) (١) قوله: "أعرف الناس بنفسه أشدهم إيقاعًا للتهمة بها في كل ما يبدو ويظهر له منها، وأجهلهم بمعرفتها وخفايا

---

(١) الكلم الفارقية في الحكم الحقيقية، محمد بن عبد الملك الفارقي، ولد سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وتوفي في رجب سنة أربع وستين وخمسمائة. انظر: إيضاح المكنون (٣٧٩/٤)، العبر في خبر من غبر (٤٤/٣)، سير أعلام النبلاء (٢١٥/١٥)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للذهبي (٢٠٨/٣٩)، تاريخ بغداد، للخطيب (٣٩/١٥)، تاريخ إربل (٢٩٩/٢)، الوافي بالوفيات (٣٤/٤)، طبقات الشافعية الكبرى (١٣٦/٦).

آفاتها وكوامن مكرها من زكاها، وأحسن ظنه بها؛ لأنها مقبلة على عاجل حظوظها، معرضة عن الاستعداد لآخرتها"(١).

قال بعض أهل العلم: اصحب من ينهضك حاله إلى الكمال، ويدلك على الله عَزَّوَجَلَّ مقاله، واحذر من صحبة من يرضى عن نفسه، ويتبع هواه؛ لأن الصاحب ساحب، والمرء على دين خليله.

قال ابن عطاء الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أصل كل معصية وغفلة وشهوة: الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة: عدم الرضا منك عنها. ولأَن تصحب جاهلًا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه، فأي علم لعالمٍ يرضى عن نفسه؟ وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟ اهـ"(٢)؛ لأن الجاهل الذي لا يرضى عن حاله لا يبقى جاهلًا، بل يبحث وينقب ويجتهد إلى أن يتحرر من الجهل. والعالم الذي يرضى عن نفسه لا يبقى عالما.

وقال: "الرضا عن النفس أصل جميع الصفات المذمومة، وعدم الرضا عنها أصل الصفات المحمودة، وقد اتفق على هذا جميع العارفين، وأرباب القلوب؛ وذلك لأن الرضا عن النفس يوجب تغطية عيوبها ومساويها، ويصيِّرُ قبيحها حسنًا، كما قيل:

وعَينُ الرضا عن كُلِّ عيبٍ كليلةٌ***(٣)

---

(١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للثعالبي (٥/٣٢٩).

(٢) انظر: تفسير الثعالبي (٥/٣٢٩)، شرح ابن عباد على الحكم (ص:١٧٣)، البحر المديد (١/٥١٢).

(٣) البيت ينسب لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر. انظر: ديوان عبد الله بن معاوية (ص:٩٠)، الحيوان (٣/٢٣٦)، عيون الأخبار (٣/١٦)، العقد الفريد (٢/١٩٤)، الأمثال المولدة (ص:٤٠٤)،=

وعدم الرضا عن النفس على عكس هذا؛ لأنَّ العبد إذ ذاك يتهم نفسه، ويتطلب عيوبها، ولا يغتر بما يظهر من الطاعة والانقياد، كما قيل في الشطر الأخير:

***كما أنَّ عينَ السّخط تبدي المساويا [١]

فمن رضي عن نفسه استحسن حالها، وسكن إليها، ومن استحسن حال نفسه، وسكن إليها استولت عليه الغفلة، وبالغفلة ينصرف قلبه عن التفقد والمراعاة لخواطره، فتثور حينئذ دواعي الشهوة على العبد، وليس عنده من المراقبة والتذكير ما يدفعها ويقهرها، فتصير الشهوة غالبة له بسبب ذلك. ومن غلبته شهوته وقع في المعاصي لا محالة. وأصل ذلك رضاه عن نفسه، ومن لم يرض عن نفسه لم يستحسن حالها، ولم يسكن إليها"[٢].

قال الشاعر:

إذا ما أطعتَ النَّفسَ في كل لذة ... نُسِبْتَ إلى غير الحِجا والتَّكرُّمِ
إذا ما أجبتَ النَّفْسَ في كل دعوة ... دَعَتْكَ إلى الأمر القبيح المحرَّمِ [٣]

=الحماسة المغربية (٢/١٢٤٠-١٢٤١)، الحماسة البصرية (٢/٥٥)، الأغاني (١٢/٢١٤-٢٣٣). ونسب في (التمثيل والمحاضرة) (ص:٣١٠) إلى المتنبي.

(١) والشطر الأول منه: (وعين الرضا عن كل عيب كليلة***)" -كما تقدم-.

(٢) شرح ابن عباد على الحكم (ص:١٧٣-١٧٤).

(٣) قال ابن الجوزي: "أخبرنا عبد الله بن محمد، قال: أنبأنا أحمد بن علي بن ثابت، قال: أنشدني أبو عبد الله محمد بن أحمد الشيرازي الواعظ: إذا ما أطعت النفس..الخ" ذم الهوى (ص:٥٢)، وانظر: البداية والنهاية (١٥/٧٠٤)، تاريخ بغداد (١/٣٧٧)، تاريخ دمشق (٥١/١٤٠). وانظر في بيان آفة الرضا=

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقا يذنبون يغفر لهم**»: "هذا من فضل الله عَزَّ وَجَلَّ العظيم، وكرمه الجسيم. وكتمه [1]؛ مخافة الاتكال، وغلبة الرجاء، والأماني، وتعطيل العمل. ثم خاف الحرج بكتمانه جملة قبل موته، فأنبأ به؛ ليزول عنه الحرج، مع ما فيه لنفسه من الرجاء عند حضور موته.

وهكذا يجب لمذكر الناس وواعظهم، ألا يكثر عليهم من أحاديث الرجاء؛ لئلا ينهمكوا فى المعاصي، والتعطيل للأعمال، والاتكال، ويكون وعظه يغلب عليه: التخويف والتحذير، ولكن على حد لا يؤيس ولا يقنط، والإمام في ذلك كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ ووعظه. واستحبوا لمن حضر حضور ميت وتلقينه، أو من اشتد عليه المرض: أن يكون الغالب على ذكر من يكون حينئذ عنده آيات الوعد والغفران، وأحاديث الرجاء؛ لتطيب نفس الميت بلقاء ربه جَلَّ وَعَلَا، وبلقائه على ما مات عليه من حسن ظنه برحمته" [2].

والإنسان لا يخلو عن خطأ أو تقصير، فهذه طبيعة الإنسان التي خلقه الله عَزَّ وَجَلَّ عليها، والموفَّقون من عباد الله عَزَّ وَجَلَّ هم الذين يعترفون بالتقصير، ويجددون التوبة في كل وقت.

=عن النفس: عقبات في طريق الهداية، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، العقبة الثانية والثلاثون: (الرضا عن النفس)، وإجمال أسباب الوقاية من آفة: (الرضا عن النفس) (٢/١٧-٢٦).

(١) يعني: قول أبي أيوب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الآنف الذكر: كنت كتمت عنكم شيئًا سمعته من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٢) إكمال المعلم (٨/٢٤٧-٢٤٨).

ومن الدعاء الذي حرص النبي ﷺ على تعليمه لأصحابه رضي الله عنهم وأمته؛ لما فيه من الخير العظيم: ما جاء في (الصحيحين): عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أنه قال لرسول الله ﷺ: علمني دعاء أدعو به في صلاتي، قال: «**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**»(١).

قال ابن بطال رحمه الله: "وفيه: دليل أن الواجب على العبد أن يكون على حذر من ربه جل وعلا في كل أحواله، وإن كان من أهل الاجتهاد في عبادته، في أقصى غاياته؛ إذ كان الصديق رضي الله عنه مع موضعه من الدين لم يسلم مما يحتاج إلى استغفار ربه جل وعلا منه"(٢).

وقال الإمام ابن دقيق العيد رحمه الله: "وقوله: «**إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا**» دليل على أن الإنسان لا يعرى من ذنب وتقصير، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**استقيموا، ولن تحصوا**»(٣).

---

(١) صحيح البخاري [٨٣٤، ٦٣٢٦، ٧٣٨٧]، مسلم [٢٧٠٥].

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/٩٣).

(٣) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٠٤٠]، والطيالسي [١٠٨٩]، وأحمد [٢٢٣٧٨]، والدارمي [٦٨١]، وابن ماجه [٢٧٧]، وابن حبان [٨]، والطبراني [١٤٤٤]، والحاكم [٤٤٧]، والبيهقي [٣٨٤] عن ثوبان، وله طرق أخرى. قال الإمام الزيلعي: "روي من حديث: ثوبان، ومن حديث: جابر، ومن حديث: عبد الله بن عمرو بن العاص، ومن حديث: سلمة بن الأكوع، ومن حديث: أبي أمامة" تخريج أحاديث الكشاف (٢/٢٣٢)، وفي (الزوائد) (١/٤١): "رجاله ثقات أثبات، إلا أنه منقطع بين سالم وثوبان؛ فإنه لم يسمع منه بلا خلاف، لكن له طرق أخرى متصلة". وقوله ﷺ:=

وفي الحديث: «**كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين: التوابون**»(١).

وربما أخذوا ذلك من حيث الأمر بهذا القول مطلقا من غير تقييد وتخصيص بحالة، فلو كان ثمة حالة لا يكون فيها ظلم ولا تقصير، لما كان هذا الإخبار مطابقًا للواقع فلا يؤمر به.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ولا يغفر الذنوب إلا أنت**» إقرار بوحدانية الباري جَلَّ وَعَلَا، واستجلاب لمغفرته بهذا الإقرار، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: «**عَلِمَ أنَّ له رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيأْخُذُ بِالذَّنْبِ**»(٢)، وقد وقع في هذا الحديث امتثال لما أثنى الله عَزَّ وَجَلَّ عليه في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:١٣٥]، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ولا يغفر الذنوب إلا أنت**» كقوله جَلَّ وَعَلَا:

=«استقيموا ولن تحصوا»، أي: وجوه الاستقامة، فغاية الأمر: أن تقدروا على مقاربة الاستقامة. انظر: نهج الأبرار في اجتناب ما توعد عليه بالنار، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان (١/٦٧٤).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٤٢١٦]، وأحمد [٣٠٤٩]، وعبد بن حميد [١١٩٧]، والدارمي [٢٧٢٧]، وابن ماجه [٤٢٥١]، والترمذي [٢٤٩٩]، وقال: "غريب"، كما أخرجه: البزار [٧٢٣٦]، وأبو يعلى [٢٩٢٢]، والروياني [١٣٦٦]، والحاكم [٧٦١٧]، وقال: "صحيح الإسناد" قال الذهبي: "علي بن مسعدة لين" وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٦٧٢٥]. والحديث: قيل: سنده قوي، وقال: ابن الغرس وابن القطان: صحيح. وقيل: ضعيف. انظر: كشف الخفاء (٢/١٤١)، قال ابن القطان في (الوهم والإيهام) (٤/٤١٤): "هو عندي صحيح؛ قال: وعلي بن مسعدة صالح الحديث، قاله: ابن معين، وغرابته هي أن علي ابن مسعدة، ينفرد به عن قتادة -انتهى-". وقد تعقبه الذهبي بقوله: "بل ضعيف، وعلي بن مسعدة فيه نظر" الرد على ابن القطان في كتابه بيان الوهم والإيهام (ص:٥٨-٥٩).

(٢) صحيح البخاري [٧٥٠٧]، مسلم [٢٧٥٨].

﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:١٣٥].."[١]. وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفيه أن الإنسان لا يَعْرَى عن تَقْصِيرٍ ولو كان صِدِّيقًا"[٢]. وقال السندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "بل فيه أن الإنسان كثير التقصير وان كان صِدِّيقًا، لأن النعم عليه غير متناهية، وقوته لا تطيق بأداء أقل قليل من شكرها، بل شكره من جملة النعم أيضًا، فيحتاج إلى شكر هو أيضًا كذلك، فما بقي له إلا العجز والاعتراف بالتقصير الكثير.."[٣].

وقوله: «**ظلمًا كثيرًا**» يروى بالمثلثة وبالموحدة[٤]، فيخير الداعي بين اللفظين، ولا يجمع بينهما؛ لأنه لم يرو إلا أحدهما. وقيل: يأتي مرة بالمثلثة، ومرة بالموحدة، فإذا أتى بالدعاء مرتين فقد نطق بما نطق به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيقين.

وعن علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنه كان إذا قام إلى الصلاة، قال: «**وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا، وما أنا من المشركين، إن صلاتي، ونسكي، ومحياي، ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت أنت ربي، وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعا، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني**

---

(١) إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام (٣١٣/١).

(٢) فتح الباري (٣٢٠/٢).

(٣) حاشية السندي على سنن النسائي (٥٣/٣).

(٤) أي: كبيرًا.

سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك» الحديث[١].

ومن دعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«اللهم لك الحمد أنت قَيِّمُ السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لك ملك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض، ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت -أو: لا إله غيرك-»** قال سفيان: وزاد عبد الكريم أبو أمية: **«ولا حول ولا قوة إلا بالله»**[٢].

وعن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، عن أبيه، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: **«اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي،**

---

(١) صحيح مسلم [٧٧١].

(٢) صحيح البخاري [١١٢٠، ٦٣١٧، ٧٣٨٥، ٧٤٤٢، ٧٤٩٩].

اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير» (١).

وإن الله عَزَّوَجَلَّ لذو صفح وعفو وستر عمن تاب وأناب وعمل صالحًا فهو يقبل التوبة، ويُقِيل العَثْرة، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه:٨٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان:٧١]، أي: ومن يترك المعاصي، ويندم عليها، ويدخل في العمل الصالح، فإنه بذلك تائب إلى الله عَزَّوَجَلَّ. ﴿مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ مرضيًا عنده، مكفرًا للخطايا، محصِّلًا للثواب. أو فإنه تائب ﴿مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ إلى الله عَزَّوَجَلَّ الذي يعرف حق التائبين ويفعل بهم ما يستوجبون، والذي يحب التوابين ويحب المتطهرين (٢).

وعن صفوان بنِ مُحْرِزٍ المازِنِيّ، قال: بينما أنا أَمْشِي، مع ابْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا آخِذٌ بِيَدِهِ، إذ عَرَضَ رَجُلٌ، فقال: كَيْفَ سَمِعْتَ رسولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقولُ في النَّجْوَى؟ فقال: سمعتُ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**إنَّ اللَّهَ يُدْنِي المُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عليه كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فيقولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كذا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كذا؟ فيقولُ: نعم أَيْ رَبِّ، حَتَّى إذا قَرَّرَهُ بِذُنُوبه، ورأى في نفسه أنَّهُ هَلَكَ، قال: سَتَرْتُهَا عليكَ في الدُّنْيَا، وأنا أَغْفِرُهَا لك اليومَ، فَيُعْطَى كتابَ حسناته، وأَمَّا الكَافِرُ والمنافقون، فيقول الأشهاد:**

(١) صحيح البخاري [٦٣٩٨]، مسلم [٢٧١٩]، واللفظ له.

(٢) انظر: الكشاف (٣/٢٩٥).

﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هود:١٨]» (١). فانظر إلى عظيم فضل الله عَزَّوَجَلَّ، ورحمته، وتجاوزه عن عباده، فمهما كثرت ذنوب العاصي وتكررت فإن المؤمن لا يقنط من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر:٥٣]، ولكن لا بد من الإنابة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وحسن القصد، والعمل الصالح؛ ولذلك قال عقب تلك الآية جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٥٥ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ٥٦ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٥٧ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨﴾ [الزمر:٥٤-٥٨]. ولكن ليس من شرط التقوى النجاة: عدم الوقوع في المعاصي؛ فإن كل ابن آدم خطاء، وأصحاب البصائر كلما أصاب أحدهم ذنب أحدث توبة صادقة، فندم واستغفر، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في وصف المتقين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف:٢٠١].

فلا يخلو إنسان من فعل الذنوب والخطايا؛ لما جبل عليه من الضعف، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ بلطفه ومنه وكرمه قد فتح باب التوبة لعباده، وبين أن خير الخطائين: التوابون،

---

(١) صحيح البخاري [٢٤٤١]، مسلم [٢٧٦٨].

المكثرون للتوبة على قدر كثرة الخطأ، فلا يؤتى العبد من فعل المعصية وإن عظمت، وإنما يؤتى من ترك التوبة وتأخيرها، فإن الله عَزَّوَجَلَّ غفور يحب التوابين.

وعبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه**» فقال به هكذا، قال أبو شهاب: بيده فوق أنفه[1]. قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "فينبغي لمن أراد أن يكون من جملة المؤمنين: أن يخشى ذنوبه، ويعظم خوفه منها، ولا يأمن عقاب الله عليها فيستصغرها، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يعذب على القليل وله الحجة البالغة في ذلك"[2].

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: "إنما كانت هذه صفة المؤمن لشدة خوفه من العقوبة، لأنه على يقين من الذنب، وليس على يقين من المغفرة، والفاجر قليل المعرفة بالله، فلذلك قل خوفه فاستهان بالمعاصي"[3]. قال في (المفهم): "فهذا هو الذي حدثه ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن نفسه، لا أنه رفعه للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو صحيح المعنى، يشهد له ما في الوجود من خوف المؤمن، وتهاون الفاجر والمنافق"[4].

نهاية الجزء الأول، وأول الجزء الثاني في بيان شروط التوبة.

---

(١) صحيح البخاري [٦٣٠٨].

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٨١/١٠).

(٣) كشف المشكل من حديث الصحيحين (٢٨٧/١).

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧٣/٧).

نهاية الجزء الأول

من كتاب:

الإرشاد إلى أسباب النجاة

والوسائل الناجعة لحياة طيبة نافعة

فهرس موضوعات الجزء الأول

مُقَدِّمَة ٥
المبحث الأول: الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ ١٣
أولًا: الإيمان بنير بصيرة المؤمن، ويحقق الطمأنينة ١٥
ثانيًا: تعريف الإيمان وبيان أركانه وشعبه ١٧
ثالثًا: الإيمان ينجي العبد من الأهوال والآفات والعذاب في الآخرة ٢٢
رابعًا: توحيد الله عَزَّوَجَلَّ ٢٥
خامسًا: صيانة الإيمان ٣٠
سادسًا: طاعة الله عَزَّوَجَلَّ سببٌ للفوز والنَّجاة والحياة الطيبة ٣٤
سابعًا: محبة الإيمان وكراهية الكفر والفسوق والعصيان ٤٣
ثامنًا: وسائل تقوية الإيمان ٤٧
المبحث الثاني: حقيقة دار الفناء والاستعداد لدار البقاء ٦٥
المبحث الثالث: لباس التقوى ٨٩
أولًا: تعريف التقوى ٩١
ثانيًا: بيان مراتب التقوى ٩٢

ثالثًا: بيان مكانة التقوى.. ٩٤
رابعًا: ثمرات التقوى.. ١١٢
خامسًا: صيانة النفس والجسد..................................... ١٢١
المبحث الرابع: الاستقامة والثبات وملازمة الصراط.......... ١٢٧
المبحث الخامس: العبادات....................................... ١٤٣
توطئة.. ١٤٥
أولًا: تعريف العبادة.. ١٤٥
١ - تعريف العبادة في اللغة.. ١٤٥
٢ - تعريف العبادة في الاصطلاح.................................... ١٤٧
ثانيًا: درجات العبادة... ١٥٣
ثالثًا: مقام العبودية... ١٦٩
رابعًا: أنواع العبادة... ١٧٤
١ - عبادة التسخير وعبادة الاختيار................................ ١٧٤
٢ - الدعاء بمعنى: العبادة.. ١٧٥
٣ - العبادة والتوحيد.. ١٨٢
٤ - العبادة بمعنى: الطاعة، والخضوع لله عَزَّوَجَلَّ، والتزام أمره............. ١٨٤
خامسًا: العبادة علم وعمل.. ١٨٩
سادسًا: أقسام العبادات... ١٩٢

١ – العبادات القلبية.................................... ١٩٢
٢ — العبادات القولية.................................... ١٩٣
٣ — العبادات الذاتية الشخصية.............................. ١٩٣
٤ – العبادات المالية.................................... ١٩٤
٥ — عبادات بدنية ومالية معًا.............................. ١٩٤
سابعًا: العبادات: شخصية ومتعدية.......................... ١٩٥
ثامنًا: مقصد العبادة.................................... ١٩٥
تاسعًا: بيان أركان الإسلام................................ ٢٠٤
الركن الأول: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله............ ٢٠٨
١ – بيان أعظم أركان الإسلام............................... ٢٠٨
٢ – حديث البطاقة.................................... ٢٢٠
٣ – شروط شهادة: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.................. ٢٢٥
٤ – الطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا الله عَزَّوَجَلَّ......................... ٢٣٦
الركن الثاني: الصلاة.................................... ٢٣٨
١ – بيان مكانة الصلاة.................................. ٢٣٨
٢ – الوقاية من آفات ترك الصلاة والعلاج........................ ٢٤٧
الركن الثالث: الزكاة.................................... ٢٥٧
١ – بيان مكانة الزكاة وما جاء في فضلها وعقوبة تاركها.............. ٢٥٧
٢ – الوقاية من آفات ترك الزكاة والعلاج......................... ٢٦٩

الركن الرابع: صوم رمضان........................ ٢٨٣
١ – تعريف الصوم.. ٢٨٣
٢ – مكانة صيام رمضان وما جاء في فضله.................. ٢٨٥
إنَّ من بين أركان الإسلام العظيمة: ركن الصيام.......................... ٢٨٥
أ. نزول القرآن الكريم.................................. ٢٨٩
ب. غفران الذُّنوب، وتكفير السيئات....................... ٢٨٩
ج. استجابة الدعاء...................................... ٢٩٠
د. فيه ليلة القدر...................................... ٢٩٠
هـ. تُصَفَّدُ فيه الشياطين................................. ٢٩٠
و. العمرة فيه يعدل ثوابها ثواب حجة مع النبي................. ٢٩١
ز. الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة.................. ٢٩١
ح. الصيام وقاية من الذنوب والمعاصي، وسبب في التوبة، ووقاية من عذاب النار، ووقاية من عذاب البرزخ................................ ٢٩١
٣ – عقوبة من أفطر في رمضان من غير عذر.................. ٣٠٢
٤ – الوقاية والعلاج من آفات الإفطار من غير عذر............. ٣٠٧
الركن الخامس: حج البيت من استطاع إليه سبيلًا............... ٣١٠
١ – مكانة الحج وما جاء في فضله.......................... ٣١٠
٢ – الوقاية من آفات التسويف في أداء ركن الحج............... ٣٢١
عاشرًا: مكانة العبادات القلبية............................ ٣٢٩

حادي عشر: تنوع العبادات القلبية.............................. ٣٤٢
ثاني عشر: أركان العبادات القلبية.............................. ٣٤٤
ثالث عشر: المحافظة على عبادة الخفاء والعزلة في وقت تشرع فيه........ ٣٥٦
المبحث السادس: إخلاص العمل والقصد والنية............. ٣٩٣
أولًا: تعريف الإخلاص.. ٣٩٥
١ - الإخلاص لغة.. ٣٩٥
٢ - تعريف الإخلاص في الاصطلاح............................... ٣٩٨
ثانيًا: علامات الإخلاص.. ٤٠٦
ثالثًا: فضيلته الإخلاص وحقيقته.................................. ٤١١
١ – الإخلاص أساس قبول الأعمال............................... ٤١١
٢ - الإخلاص في الدعاء.. ٤٣٤
أ. دعاء المظلوم والمضطر.. ٤٤٢
ب. دعوةُ الوالد على ولده، ودعوة الصائم، ودعوةُ المسافر، ودعوة الإمام العادل.. ٤٥٠
ج. دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب.................................. ٤٥٧
رابعًا: رتب الإخلاص... ٤٥٩
خامسًا: ثمرات الإخلاص.. ٤٦٢
١ - رضا الله عَزَّوَجَلَّ، وقبول العمل، والنجاة والفلاح يوم القيامة........... ٤٦٢
٢ - النجاة من الشدائد والكروب في الحياة الدنيا، وإجابة الدعاء....... ٤٦٦

٣ – الحفظ والإعانة عند وقوع الابتلاء........................... ٤٧٠
٤ – طهارة القلب من الصفات الذميمة، كالحقد والغل والخيانة........ ٤٧١
٥ – مغفرة الذنوب، ومضاعفة الحسنات، ورفعة الدرجات............ ٤٧١
٦ – قوة الأمة ونصرها على أعدائها، وحفظها من كيد الأعداء ومكرهم.. ٤٧٥
سادسًا: بيان خطر الرياء.................................. ٤٧٦
سابعًا: إجمال مضار الرياء.................................. ٤٩٢
ثامنًا: أسباب الوقاية من الرياء والعلاج........................ ٤٩٤
المبحث السابع: الإحسان وصنائع المعروف وأعمال البر....... ٥٠٧
أولًا: الإحسان من المنجيات من سوء العاقبة..................... ٥٠٩
ثانيًا: إجمال بيان مراتب الإحسان وذكر صوره.................. ٥١٣
١ – الإحسان في العبادة...................................... ٥١٣
٢ – الإحسان إلى النفس...................................... ٥١٤
٣ – الإحسان إلى الوالدين والأقربين والزوجة والأولاد والجار.......... ٥١٤
٤ – الإحسان إلى الناس جميعًا.................................. ٥١٤
ثالثًا: تفصيل ما جاء في بعض صور الإحسان العالية................ ٥١٨
١ – الإيثار.. ٥١٨
٢ – الإحسان إلى الوالدين...................................... ٥٢٠
إجمال مقتضيات الإحسان إلى الوالدين في حياتهما..................... ٥٢٨

إجمال مقتضيات الإحسان إلى الوالدين بعد موتهما.................. ٥٢٩
٣ - الإحسان إلى الأرحام.................................. ٥٣٠
٤ - الإحسان إلى الحيوان.................................. ٥٣٨
٥ — الإحسان إلى النبات والبيئة................................ ٥٥٧
أ. التحذير من الإفساد البيئي وبيان خطورته.................. ٥٥٧
ب. صور الإفساد البيئي.................................... ٥٦١
٦ - صنائع المعروف من المنجيات من مصارع السوء ومن العذاب في الآخرة.. ٥٦٢
٧ - نماذج من بذل المعروف.................................. ٥٦٧
أ. العفو والصفح والمسامحة، ومقابلة الإساءة بالإحسان................ ٥٦٧
ب. الابتسامة وطلاقة الوجه.................................. ٥٧١
ج. الكلمة الطيبة والقول الحسن والتواضع، والمداراة.................... ٥٧٣
د. الرفق.. ٥٧٦
هـ. كل معروف صدقة.. ٥٧٩
و. التعاون على البرِّ والتقوى.................................. ٥٨٤
ز. الإهداء.. ٥٨٤
ح. الزيارة في الله عَزَّوَجَلَّ.. ٥٨٥
ط. إجابة الدعوة وأداء الحقوق.................................. ٥٨٦
ي. إفشاء السلام.. ٥٨٨

ك. حسن الخلق.. ٥٩٢
ل. إصلاح ذات البين.. ٥٩٦
م. الشفاعة الحسنة.. ٦٠٠
ن. الزهد في الدنيا، والتَّعفُّف عن سؤال النَّاس.......................... ٦٠٥
س. المحبة في الله عَزَّوَجَلَّ، وإرادة الخير.................................. ٦٠٦
ع. مقابلة الإحسان بالإحسان...................................... ٦١١
رابعًا: الحرصُ على أعمال البرِّ.................................... ٦١٤
تعريف البر.. ٦١٤
١ – البر لغة.. ٦١٤
٢ – تعريف البر في الاصطلاح، وبيان أنواعه، ومكانته.................. ٦١٧
أ. حديث: النَّواسِ بنِ سمعان في البر.................................. ٦٣٠
ب. حديث: وابصة بن معبد في البر.................................. ٦٣١
ج. حديث: أبي ثعلبة الخشني في البر................................. ٦٣٣
خامسًا: آثار صنائع المعروف وأعمال البر............................ ٦٣٩
المبحث الثامن: التوبة والاستغفار................................. ٦٤١
أولًا: تعريف التوبة... ٦٤٣
١ – التوبة لغة.. ٦٤٣
٢ – تعريف التوبة في الاصطلاح..................................... ٦٤٥
ثانيًا: التوبة لفظة يشترك فيها الرب جَلَّوَعَلَا والعبد..................... ٦٥٧

ثالثًا: التوبة النصوح..٦٥٩
رابعًا: مكانة التوبة وفضلها والترغيب فيها..............................٦٦٣

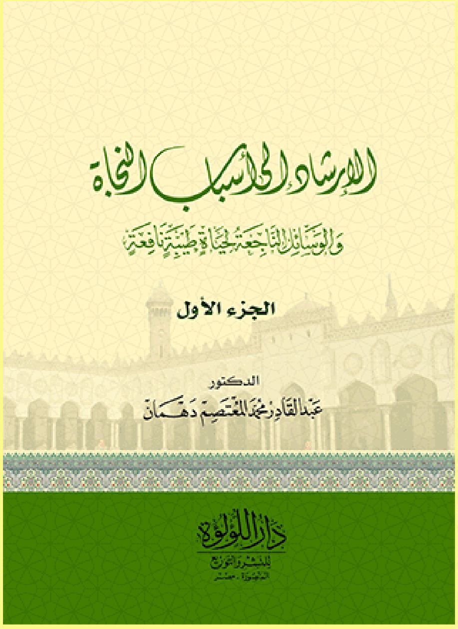

لا بدّ لطالب النّجاة والسّعادة من سلوكِ سبيلِ الأبرار، من الصّالحين الأطهار، في اجتنابِ أعمال أهل النّار، والاحترازِ عن نهج المفسدين الفجار، واتخاذِ أسباب الوقاية من المزالق والمضلّات، ومن الخوض في فتن عاتيات. ولزوم نهج المصلحين من أرباب البصائر والصلاح، في الاستقامة والثبات على صراط الله تعالى المستقيم، وشرعه الحكيم، من الفعل والتّرك، والتحلي والتخلي، والفقه والعمل، حتى يحيا في الدُّنيا حياةً طيبةً نافعةً، ويجازى في الآخرة بأحسن ما كان يعمل، فيكون من الفائزين بخيري الدنيا والآخرة. وقد حذّرنا الشّارع من أعمال أهل النّار، وأرشد العباد إلى أعمال تصلح أحوالهم، وتنجيهم من الأهوال والآفات، وسوء العاقبة، وتقيهم في الآخرة من عذاب النار. وقد كنت قد أفردت بالبحث: ما تُوعد عليه بالنار مع بيان أسباب الوقاية والنجاة، كما أفردت ذكر العقبات التي تَصُدُّ عن الهداية، مع بيان سبل الوقاية والعلاج منها، وجاء هذا الكتاب متممًا لأسباب النجاة العامة، ومذكّرًا بالأعمال الجليلة التي خصت بمزيد من الفضل، والتي هي من أسباب النجاة، وحسن العاقبة، ورفعة الدرجات في الآخرة. وقد كنتُ قد كتبتُ شيئًا من بعض موضوعاته قديمًا، فرأيت أن أتمه؛ لما رأيت من كونه مكملًا لتلك الأعمال السابقة، والله تعالى أسأل أن يكون نافعًا، ومثمرًا، وأن يكون أثرًا باقيًا.

وبناء على ما ذكرت فإن هذا المصنف يكون متقدّمًا ومتأخّرًا على اعتبار اللاحق مما أضيف، والسابق مما تقدم..

د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان

دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع
@DarElollaa
Dar_Elollaa@hotmail.com
الأزهر: شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر.
01050144505 - 0225117747
المنصورة: عزبة عقل - بجوار جامعة الأزهر.
01007868983 -0502357979